آية الله العظمى مكارم الشيرازي

نفحات الولاية

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

بمساعدة مجموعة من الفضلاء

إعداد: عبد الرحيم الحمداني

الجزء الثاني

www.haydarya.com

آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

نفحات الولاية

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

الجزء الثاني

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ١٠٠٥٣
التاريخ ٢٠٠٥/١٠/١

بمساعدة مجموعة من الفضلاء
إعداد: عبد الرحيم الحمراني

مكارم شيرازى، ناصر، ١٣٠٥ –
نفحات الولاية: شرح عصرى جامع لنهج البلاغة / ناصر مكارم الشّيرازى؛ بمساعدة مجموعة من الفضلاء؛ إعداد عبدالرحيم الحمراني. ـ قم: مدرسة الامام على بن ابى طالب عليه السلام، ١٤٢٦ ق. = ١٣٨٤.
ج.
ISBN 964-8139-58-X (دوره)
ISBN 964-8139-08-3 (ج. ٢)

كتابنامه
فهرستنويسى بر اساس اطّلاعات فيپا.
عنوان اصلى: پيام امام اميرالمؤمنين: شرح تازه و جامعى بر نهج‌البلاغه
١. على بن ابى طالب عليه السلام، امام اوّل، ٢٣ سال قبل از هجرت ـ ٤٠ ق. نهج البلاغه ـ ـ نقد و تفسير ٢. على بن ابى طالب عليه السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ٤٠ ق. ـ ـ كلمات قصار. الف. على بن ابى طالب عليه السلام، امام اول، ٢٣ قبل از هجرت ـ ٤٠ ق. نهج البلاغه. شرح. ب. حمرانى، عبدالرحيم، ج. عنوان. د. نهج البلاغه. شرح
BP ٣٨ / ٠٢ / م ٧
٢٩٧/٩٥١٥

هوية الكتاب

إسم الكتاب: .... نفحات الولاية (شرحٌ عصريٌّ جامعٌ لنهج البلاغة) / الجزء الثاني
المؤلف: .... سماحة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي بمساعدة مجموعة من الفضلاء
اعداد: .... عبدالرحيم الحمراني
المطبعة: .... سليمانزاده
الطبعة: .... الاولى
الكميّة: .... ١٠٠٠ نسخة
عدد الصّفحات: .... ٤٤٠ صفحة
حجم الغلاف: .... كبير
الناشر: .... مدرسة الامام على ابن أبي طالب عليه السلام
عنوان الناشر: ...... قم، شارع الشّهداء، فرع ٢٢، تلفكس: ٧٧٣٢٤٧٨-٢٥١-٩٨-٠٠
ردمك: ٣-٨-٠-٨١٣٩-٩٦٤
عنواننا في الإنترنت: www.Amiralmomeninpub.com
السّعر: ٣٠٠٠ تومان

النجف الاشرف

بسم الله الرحمن الرحيم

بمساعدة مجموعة من الفضلاء

١ ـ محمد جعفر الامامي

٢ ـ محمد رضا الاشتياني

٣ ـ محمد إحساني فر

٤ ـ محمد جواد أرسطا

٥ ـ إبراهيم البهادري

٦ ـ سعيد داودي

٧ ـ أحمد القدسي

الخطبة[1] ٢١

ومن خطبة له ﷺ

«وهى كلمة جامعة للعظمة والحكمة»

«فإنَّ الغايَةَ أمامَكُم، وإنَّ وَراءَكُم السّاعَةَ تَحْدُوكُم. تَخَفَّفوا تَلحَقُوا، فَإنَّما يُنتَظر بِأَوّلِكُم آخِرُكُم».

قال السيد الشريف الرضي: أقول: إنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله ﷺ بكل كلام لمال به راجحاً، وبرّز عليه سابقاً فأمّا قوله ﷺ: «**تخففوا تلحقوا**» فما سمع كلام أقلّ منه مسموعاً ولا أكثر منه محصولاً وما أبعد غورها من كلمة! وأنقع نطفتها من حكمة! وقد نبهنا في كتاب «الخصائص» على عظم قدرها وشرف جوهرها.

شرح الخطبة

تخففوا تلحقوا!

ورد هذا الكلام ضمن سياق الخطبة ١٦٧، حيث تضمنت تلك الخطبة مثل هذه العبارات مع بعض الفوارق الطفيفة.

---

١. نقل كتاب مصادر نهج البلاغة هذه الخطبة التي أوردها السيد الرضي ﷺ في الخصائص / ٨٧ وأضاف في ذيل الخطبة ١٦٧ ـ التي تعد هذه الخطبة جزءاً منها ـ قائلاً: (رواها «الطبري» في تأريخه ضمن حوادث سنة ٣٥ هـ(مصادر نهج البلاغة ١ / ٣٧١ و٢ / ٤٠٣).
ويتبين من الرجوع إلى تأريخ الطبري أنّ الأمّة بايعت علياً ﷺ يوم الجمعة لخمس بقين من شهر ذي الحجة وأنّها أول خطبة أوردها علي ﷺ ضمن خطبته ١٦٧. تأريخ الطبري ٣ / ٤٥٧.

والذي يفهم من كلام المرحوم السيد الشريف الرضي أنّ الإمام عليه السلام قد ألق هذه الخطبة أوائل ما آلت إليه الخلافة، بينما يفهم من كتاب «مطالب السؤل»[١] أنّ هذه الخطبة هى إمتداد للخطبة السابقة وتعرّض لذات المطالب.

وهناك احتمال آخر في أنَّ الخطب الثلاث قد صدرت معاً عن أمير المؤمنين عليه السلام في موضع واحد، ثم صنّفتْ ثلاثة أقسام.

على كل حال فإنَّ هذا القسم من الخطبة ـ والذي لا يتجاوز بضعة عبارات ـ وعلى حد تعبير السيد الرضي لو وزن بعد كلام الله وبعد كلام رسول الله صلى الله عليه وآله لمال به راجحاً! والحق ان الأمر كذلك حقاً ماهذه الفصاحة والبلاغة في كلمات قصار تتعرَّض لمثل هذه الحقائق السامية!

فالإمام ينبِّه أبناء الأُمّة بادئ الأمر إلىٰ مفهوم المعاد ومحكمة العدل الإلهي ليلفت إنتباههم من خلال ذلك إلىٰ عظم المسؤوليات والوظائف التي ينبغي لهم أن ينهضوا بها في خلافته، ويحذرهم من كافة ألوان النفاق والتشتت والفرقة والنكوص عن إداء الواجبات. وأخيراً يذكرهم بالعاقبة التي تنتظرهم بعد العرض على الله يوم القيامة، فأمّا الجنّة وأمّا النار **«فإن الغاية أمامكم، وإن وراءكم الساعة تحدوكم»**.

والتعبير بـ «الغاية» (عاقبة الأمر) بشأن القيامة والجنّة والنار لأنّ الحياة في الدنيا إنّما هى مقدمة للحياة الأبدية في العالم الآخر.

فقوله عليه السلام: **«فان الغاية أمامكم»** يعني عدم وجود الشك والريب في أن مآل الأُمور هناك وليس لأحد الفرار عن ذلك المآب.

وأمّا التعبير بـ «الساعة» فقد صرَّح بعض شارحي نهج البلاغة بأنّه إشارة إلى القيامة الصغرى؛ أي الموت. فقوله عليه السلام: **«وراءكم»** يفيد أنَّ عوامل الموت إنَّما تكمن وراء الإنسان، فهى تسوق الإنسان من الطفولة إلى الشباب ومن الشباب إلى الكهولة والشيخوخة وأخيراً من الشيخوخة إلى انقطاع الحياة. في حين صرَّح البعض الآخر بأنّ المراد بـ **«الساعة»** هو ساعات

١. منهاج البراعة ٣ / ٣٠١.

الليل والنهار وكأنّها الأمر الصارم الذي كمن خلف الإنسان ويسوقه إلى حتفه. وليس هناك من فوارق تذكر بين هذين التفسيرين حيث مؤداهما واحد. وبالاستناد إلى أن كلمة «**تحدوكم**» المشتقة من مادة «**حدو**» بمعنى «السوق والدفع نحو الشيء».

فإنّ الذي يتبادر إلى الذهن هو أن تقلب الليل والنهار والشهر والسنة رغم تقريبها الإنسان من وصول أجله وانقطاع حياته، غير أنّها تشكل عوامل غفلته بفعل اختلاطها بزخارف الدنيا وزبرجها. فالواقع هو أنّ هذه العبارة التي تصدرت الكلام رغم قصرها قد أشارت إلى القيامة الكبرى إلى جانب إشارتها إلى القيامة الصغرى؛ الأمر الذي يعدّ المستمع للاصغاء إلى المرحلة اللاحقة.

فأورد عليه السلام هذه الجملة المقتضبة العميقة المعنى: «**تخففوا تلحقوا**» عادة إذا ما انطلقت قافلة من الناس إلى مكان وواجهت هذه القافلة بعض المنعطفات التي لا يمكن اجتيازها بسهولة فإنّ أولئك الأفراد المثقلين بالأحمال غالباً ما يتخلفون عن القافلة التي لا يسعها الوقوف من أجل فرد أو بضعة أفراد فلا يكون أمامها سوى تجاوز ذلك الفرد ومواصلة السير والحركة. أمّا ذلك الفرد الذي تخلف عن القافلة فإنّه سيكون لقمة سائغة لقطاع الطرق واللصوص وذئاب الصحراء، بينما يشقّ المخفون طريقهم بسرعة تجعلهم يصلون إلى هدفهم أسرع من الجميع. وهذا هو حال بني آدم في هذه الدنيا، فهم مسافرون وقد شدّوا الرحال إلى الحياة الأبدية التي تعقّب الموت. فمن ثقل حمله من متاع الدنيا وحطامها كان لقمة سائغة للشيطان، أمّا أهل الورع والزهد والتقوى فإنّهم سيحثون الخطى سريعاً لينالوا سعادة الآخرة والفوز بالخلود.

وقد أكّد الإمام عليه السلام هذا المعنى - في الخطبة ٢٠٤ - حين نادى أصحابه: «**تجهّزوا - رحمكم الله - فقد نودي فيكم بالرحيل وأقلّوا العُرجة على الدنيا... فإنّ أمامكم عقبة كؤودا ومنازل مخوفة مهولة**».

وقد شبه بعض شرّاح النهج الإنسان بالمسافر الذي يجوب البحر وهو يواجه أمواجه العاتية حيث سيكون الغرق مصيره الحتمي إذا لم يخفف مؤونة سفينته.

وقد شبهوا قلب الإنسان بهذه السفينة، التي ستواجه الغرق لا محالة إذا ما أُثقل ذلك القلب بحبّ الدنيا والانغماس في الشهوات.[1]

---

١. معارج نهج البلاغه، بيهقى / ١٠٩.

وأخيراً يختتم الإمام علي عليه السلام خطبته بقوله: «**فانما ينتظر بأولكم آخركم**». وتدل هذه العبارة بوضوح على أنّ عالم البشرية بحكم القافلة الواحدة التي تشتمل على المقدمة ـ التي سبقت بالحركة ـ والوسط والمؤخرة؛ وهي تواصل مسيرتها لتلتحق مؤخّرتها بمقدمتها، وبعبارة أُخرى فإنّ قانون الموت لا يعرف الحصر والاستثناء وهو المحطة التي سيتوقف عندها الجميع. وبناءً على ما تقدّم فإنَّ عاقبة الأولين نذير مبين للآخرين.

عاقبة المثقلين!

إنَّ أهم عامل يقف وراء خسران طائفة من الناس والذي تضمنته كلمات الإمام عليه السلام في خطبته إنّما يكمن في إثقال كاهلها بالتكالب على متاع الدنيا الزائد عن حاجتها في حياتها الدنيوية المتواضعة.

ولك أن تفرض أنَّ فرداً ينطلق للسفر ليوم واحد وقد حمل مقداراً من الخبز والماء والفاكهة لما يكفيه لذلك اليوم، بينما حمل الآخر عدة حقائب وقد ملأها بمختلف الأطعمة والأشربة والفاكهة وانطلق إلى سفره. فمن البداهة أن ينطلق الأول بكل هدوء وخفة وخطى واثقة وحثيثة دون أن يشعر بالكلل والتعب، في حين سينقطع نفس الثاني ولا يسعه مواصلة السير والحركة. وهذا هو المصير الذي ينتظر أولئك الأفراد الذين جعلوا همهم في الدنيا ومتاعها الزائل وجعلوا يفكّرون ليل نهار في كيفية حفظ هذه الأموال، حتى أنستهم ذكر الله، ولم يكتفوا بذلك ففقدوا حتى السكينة والطمأنينة في حياتهم الدنيا.

هذا وقد تطرق بعض شرّاح نهج البلاغة إلى قصة الصحابي الجليل سلمان الفارسي رضي الله عنه كشاهد حي ونموذج لقول الإمام علي عليه السلام «**تخففوا تلحقوا**» وذلك حين نصب والياً على منطقة المدائن فركب دابته وانطلق بمفرده إليها.

فاتصل بالمدائن خبر قدومه، فاستقبله أصناف الناس على طبقاتهم، فلما رأوه قالوا: أيها الشيخ أين خلّفت أميرنا؟ قال: ومن أميركم؟ قالوا: الأمير سلمان الفارسي صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال: لا أعرف الأمير، وأنا سلمان.

فترجلوا له وقادوا اليه المراكب والجنائب. فقال: إنّ حماري هذا خير لي وأوفق. فلما دخل البلد أرادوا أن ينزلوه دارالامارة قال: ولست بأمير. فنزل على حانوت في السوق وقال إدعوا إليّ صاحب الحانوت فاستأجر منه. وكان معه وطاء يجلس عليه ومطهرة يتطهّر بها للصلاة وعكازة يعتمد عليها في المشي. فأتفق أنّ سيلا وقع في البلد فارتفع صياح النّاس بالويل والعويل يقولون: وا أهلاه وا ولداه و وا مالاه، فقام سلمان ووضع وطائه في عاتقه وأخذ مطهرته وعكازته بيده وإرتفع على صعيد وقال: هكذا ينجو المخفّفون يوم القيامة.[1]

والطريف في الأمر ما ذكره السيد الرضي من أنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه وبعد كلام رسول الله ﷺ بكل كلام لمال به راجحاً. ولاسيما قوله: **تخففوا تلحقوا.**

فما أبعد غورها وأعظمها من حكمة وموعظة رغم قصرها؛ الأمر الذي دفع بالسيد الرضي إلى الإسهاب في الخوض في تفاصيلها في كتابة «الخصائص».

---

١. منهاج البراعة ٣/ ٤ ـ ٣.

الخطبة ٢٢

ومن خطبة له عليه السلام[1]

حينَ بَلَغهُ خَبَرُ الناكثين ببيعَتِه.
وفيها يذمُّ عملَهم ويلزمهم دمَ عثمانَ ويتهدّدهم بالحرب.

القسم الأول

«ألا وإنّ الشّيطانَ قَدْ ذَمّر حِزبَهُ وَاستجلَبَ جَلبَهُ لِيَعُودَ الجَورُ إلى أوطانِهِ ويَرجعَ الباطِلُ إلى نِصابِهِ، وَاللهِ! ما أنكرُوا عَليَّ مُنكَراً، ولا جَعَلُوا بَينِي وَبَينَهم نَصِفاً».

١. لقد أورد هذه الخطبة وشرحها كل من المرحوم «الشيخ المفيد» في «الإرشاد» في الفصل ٢٢ من كلمات الإمام علي عليه السلام، والكليني في «الكافي» ٥ / ٥٣ كتاب الجهاد إلى جانب بعض الخطب الأخرى، والمرحوم العلامة المجلسي في بحار الأنوار ٣٢ / ١٩٣. كما ذكرها ابن أثير في عدة مواضع من كتابه النهاية بتناسب مفردات الخطبة. ويضيف مؤلف مصادر نهج البلاغة قائلاً: لقد أقتبست هذه الخطبة من سائر خطبه عليه السلام، فهو يعتقد بأنّها مرتبطة بالخطبة ٢٦، كما يرى بأنّ هذه الخطبة ذات إرتباط بالخطبة ١٧٢ ـ مصادر نهج البلاغة ١ / ٣٧٣.

أضواء على الخطبة

وردت هذه الخطبة ـ كما يفهم من عنوانها ـ بشأن طلحة والزبير بعد نقضهما البيعة وما تلاها من أحداث مريرة تمثلت إحداها بمعركة الجمل، كما تشير إلى قضية المطالبة بدم عثمان التي تمسك بها أصحاب الجمل والتي استغلت فيما بعد من قبل أهل الشام.

وأخيراً تتضمن مذمتهم وتقريعهم من جانب الإمام عليه السلام والرد الحاسم على تهديداتهم وتخرصاتهم. وتبدو مضامين هذه الخطبة أكثر شبهاً بخطبه ١٠، ٢٦ و١٧٢؛ الأمر الذي جعل من المحتمل أن تكون كل خطبة من هذه الخطب جزءاً من خطبة واحدة وقد قام السيد الرضي رحمه الله بتجزأتها على ضوء ما يناسب المقام.

الطريف في الأمر أنّ بعض الروايات صرّحت بأنّ عمرو بن العاص قال يوماً لعائشة: «لوددت أنّك قتلت يوم الجمل!». فردت عائشة متعجبة: «ولم؟ لا أباً لك!». فأجابها بن العاص: «كنت تموتين بأجلك وتدخلين الجنّة ونجعلك أكبر التشنيع على عليّ»[١].

يرى بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه من الخطب المتعلقة بمعركة صفّين، وقد عنت عباراتها معاوية[٢]، إلّا أنّ الذي يستفاد من عنوان الخطبة الذي اعتمده السيد الرضي رحمه الله وكلام ابن أبي الحديد[٣] وسائر الشرّاح أنّ هذه الخطبة إنّما تتناول ناكثي البيعة من أصحاب الجمل، وإن كانت مضامينها تتناسب وحال الطائفتين؛ الجمل وصفين.

الشرح والتفسير

وقعة الجمل

أشرنا سابقاً إلى أنّ الخطبة وردت بخصوص أولئك الذين أججوا نيران فتنة الجمل؛ أي طلحة والزبير ورهطهما. فقد كان كل من طلحة والزبير يطمع في الحكومة ولما صرفها الإمام عليه السلام عنهما ولم يكن مستعداً لتقليدهما أيّة مسؤولية في حكومته، ثارت ثائرتهما وقادهما

---

١. بحار الأنوار ٣٢ / ٢٦٧ ح ٢٠٦ نقلاً عن الاحتجاج للطبرسي.
٢. شرح القطب الراوندي ١ / ١٨٨.
٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٣٠٥.

هوى أنفسهما لنقض البيعة، وأخذا يجيشان الجيوش بما فيها عائشة ـ زوج النبيﷺ ـ ويهيا لقتال عليؑ بذريعة الطلب بدم عثمان[1]، وقد إختارا البصرة ـ التي كانت ممهدة آنذاك لمثل هذه الفتنة ـ مركزاً لمؤامراتهم الدنيئة على الإمامؑ.

فالإمامؑ يتطرق في بداية الخطبة إلى هذه المؤامرة فقال: «**ألا وإنّ الشيطان قد ذمر[2] حزبه واستجلب جلبه[3] ليعود الجور إلى أوطانه ويرجع الباطل إلى نصابه**».

فهو يشيرؑ إلى الانحرافات والاضطرابات التي أعقبت قتل عثمان ومبايعة الأُمّة لعليؑ بالخلافة. والمراد بحزب الشيطان ـ في الخطبة ـ أولئك الذين تسلّطوا على بيت مال المسلمين أبان حكومة عثمان وتولوا بعض المناصب الخطيرة، كما كانوا يتطلعون للسيطرة على الخلافة، فالإمامؑ يحذر الأُمّة من هؤلاء الشياطين الذين يتربصون بها الدوائر وإنّهم يحيكون المؤامرات من أجل الاستحواذ ثانية على بيت المال وممارسة الظلم والجور بحق المسلمين والحيلولة دون قيام الإمامؑ بوظيفته في إصلاح المجتمع الإسلامي وإجتثاث جذور الفساد والانحراف التي برزت واستفحلت في خلافة عثمان.

وأخيراً يصرح الإمامؑ بعدم وجود أي دليل أو منطق يسوغ لهؤلاء الوقوف بوجه الإمام وقتاله «**والله ما أنكروا عليَّ منكراً ولا جعلوا بيني وبينهم نصفاً**».

فهو يشيرؑ إلى طلحة والزبير والطائفة التي نكثت البيعة، كما يتطرقؑ إلى حجتهم الواهية المتمثلة بقتل عثمان، ثم يوردؑ أقسى العبارات بحقّها.

---

١. لم تكن قضية المطالبة بدم عثمان شعار أهل الشام وذريعتهم لإشعال فتيل صفين، بل استغلت كذلك من قبل طلحة والزبير وعائشة لتنتهي بنشوب معركة الجمل. وقد ذكر ابن أثير ـ المورّخ المعروف ـ في «الكامل» أنّ عائشة حين قدمت إلى المدينة من مكّة سمعت أثناء الطريق بقتل عثمان واجتماع الأمّة على عليؑ، فاغتمت وقالت: ليت السماء أطبقت على الأرض ولم يقع هذا، ثم أمرت باعادتها إلى مكّة. فقالت «إنّ عثمان قُتل والله مظلوماً» فقام إليها من قال لها: إنّك أول من تحدثت ضد عثمان واسميته نعثلاً (قيل أن نعثلاً رجل يهودي كث اللحية، وقال صاحب «لسان العرب» أن نعثلاً تعني العجوز الأحمق) وأنت قلت: إقتلوا نعثلاً فقد كفر (الكامل ٣/٢٠٦).

٢. ذمّر من مادة «ذمر» بمعنى «التشجيع والحث» وقيل بمعنى التحريك المقرون بالذم والعتاب، ومن هنا كان الذمر على وزن «الذهن» يعني الرجل الشجاع والمتحرك.

٣. جلب تعني في الأصل السوق والإنتقال ويقال الجلب بالنسبة للأفراد الذين يجمعون بسهولة. استجلب هنا بمعنى الإجتماع.

نعم لقد تنكرت كافة المصادر الإسلامية والكتب التأريخية لنسب قتل عثمان إلى الإمام علي عليه السلام، بينما تصرّح بأنَّ الإمام سعى أكثر من غيره لإخماد نار الفتنة، فهو القائل عليه السلام **«والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً»** فلم يتّبع الناكثون في هذه الأحكام المتسرّعة، العدل والانصاف بقدر ما تشبّثوا بالكذب والتهمة والظنة. ولا يبدو من الغرابة اللجوء إلى مثل هذه الأساليب بالنسبة لأولئك الذين يسعون إلى ضمان مصالحهم وتحقيق أهدافهم. وما أكثر ما نشاهده في عصرنا الراهن من الساسة الظلمة الذين لا يتحفظون عن أبشع الأساليب الدنيئة من أجل ضمان مصالحهم اللامشروعة.

حزب الله وحزب الشيطان

لقد تضمّنت خطبة الإمام عليه السلام إشارة لطيفة إلى ما أورده القرآن الكريم في آخر سورة المجادلة، حيث صنفت الآية القرآنية المباركة الناس إلى حزبين هما: «حزب الله» و«حزب الشيطان»، كما أشارت إلى الميزة الرئيسية التي يتّصف بها حزب الله وهى صفة الحب في الله والبغض في الله **﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولـئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولـئِكَ حِزْبُ اللّٰهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[1].

وفي مقابل ذلك هناك حزب يهم بحفظ مصالحه ويعتمد أسلوب النفاق والخداع ولا يتورع عن موالاة أعداء الله وإظهار المودة لهم إلى جانب بث بذور الظلم والفساد بين صفوف العباد، فيصفهم القرآن قائلا: **﴿إِسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللّٰهِ أُولـئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ﴾**[2].

والحزبان المذكوران لا يختصان بزمان نزول القرآن وعصر صدر الإسلام، بل تتعدد صورهما وأشكالهما في كافة العصور والدهور. ولو ألقينا نظرة عابرة على عالمنا المعاصر

١. سورة المجادلة / ٢٢.
٢. سورة المجادلة / ١٩.

لشاهدنا بوضوح هذين التيارين وقد كمن أحدهما مقابل الآخر، فعادة ما يستند حزب الشيطان إلى منطق القوة الغاشم والغطرسة والأموال والثروة والتآمر وممارسة الظلم والجور وبث بذور النفاق والفرقة وإشاعة الفساد والانحراف، بينما يستند حزب الله إلى القيم والمثل والمبادئ الحقة ولا يتوانى في التصدّي لزعماء الحزب المذكور. يتربص حزب الشيطان عادة لاستغلال الفرص المناسبة ومنها الثورات والانقلابات التي تطيح بحكومة وتأتي بأُخرى. وأفضل شاهد على ذلك ما شهدته حكومة الإمام علي عليه السلام أوائل تشكيلها. فقد اتّفقت كلمة ما تبقى من فلول الجاهلية الذين برزوا للوجود في خلافة عثمان على مواجهة ربيب الإسلام وتلميذ النبي صلى الله عليه وآله الإمام علي عليه السلام، فأشعلوا نيران الفتن التي كان من المقدر للإمام إخمادها والتغلب عليها، فعاثوا في الأرض فساداً بما لم يدع للإمام من سبيل سوى الوقوف بوجههم ومقاتلتهم.

فالإمام عليه السلام يحذر الأمّة ومنذ اليوم الأول لحكومته من مكايد حزب الشيطان وعدم الانخداع بأساليبه والأعيبه القذرة.

وأخيراً يفهم من عباراته عليه السلام أنّ للظلم والجور وطن وأنّه يستند إلى أُسس ودعائم! نعم وطن الجور والظلم هو الموضع الذي يتجحفل فيه عسكر الشيطان، كما أنّ المبادئ التي ينتهجها حزب الشيطان هي الأسس والدعائم التي يرتكز عليها الظلم والجور.

٭٭٭

القسم الثاني

«وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقّاً هُمْ تَرَكُوهُ وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ! فَلَئِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ فَإِنَّ لَهُمْ لَنَصِيبَهُمْ مِنْهُ وَلَئِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا التَّبِعَةُ إِلاَّ عِنْدَهُمْ وَإِنَّ أَعْظَمَ حُجَّتِهِمْ لَعَلَى أَنْفُسِهِمْ يَرْتَضِعُونَ أُمّاً قَدْ فَطَمَتْ وَيُحْيُونَ بِدْعَةً قَدْ أُمِيتَتْ.

يَا خَيْبَةَ الدَّاعِي! مَنْ دَعَا! وَإِلامَ أُجِيبَ! وَإِنِّي لَرَاضٍ بِحُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَعِلْمِهِ فِيهِمْ».

الشرح والتفسير

المعذّرون المفتضحون!

يشرح الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الخطبة ما أورده في بدايتها، ثم يعرض الأدلة القاطعة التي تدين ناكثي البيعة ومؤججي نار الحرب ويفضحهم أمام المسلمين. فقد أشار عليه السلام إلى الذريعة الأصلية التي تمسك بها طلحة والزبير وأعوانهما؛ أي المطالبة بدم عثمان، فقال عليه السلام: **«وإنّهم ليطلبون حقاً هم تركوه ودماً هم سفكوه»** ـ روى المؤرخ المعروف الطبري في تاريخه عن أحد أصحاب عثمان أنّ علياً عليه السلام كان في ماله بخيبر لما حصر عثمان، فقدم المدينة والناس مجتمعون على طلحة، وكان لطلحة في حصار عثمان أثر، فلما قدم علي عليه السلام أتاه عثمان، وقال له: أمّا بعد؛ فانّ لي حق الإسلام وحق الأخا والقرابة والصهر، ولو لم يكن من ذلك شيء وكنّا في جاهلية، لكان عاراً على بني عبد مناف أن يبتز بنو تيم أمرهم ـ يعني طلحة ـ فقال له علي عليه السلام: أنا أكفيك، فاذهب أنت. ثم خرج إلى المسجد فرأى أسامة بن زيد، فتوكأ على يده حتى دخل دار طلحة وهي مملوءة من الناس، فقال له: يا طلحة، ما هذا الأمر الذي صنعت

بعثمان؟ فقال: يا أبا الحسن، أبعد أنّ مس الخرام الطبين! فانصرف عليﷺ حتى أتى بيت المال، فقال: افتحوه، فلم يجدوا المفاتيح، فكسر الباب، وفرق مافيه على الناس؛ فانصرف الناس من عند طلحة حتى بقي وحده، وسرّ عثمان بذلك؛ وجاء طلحة فدخل على عثمان، فقال: يا أمير المؤمنين؛ إنّي أردت أمراً فحال الله بيني وبينه، وقد جئتك تائباً ـ فقال: والله ما جئت تائباً ولكن جئت مغلوباً؛ الله حسيبك يا طلحة.[١] ثم ذكر الطبري في موضع آخر من تأريخه أنّ عثمان حين قتل، خرج من عنده «سودان بن حمران» وهو يقول «أين طلحة؟ فقد قتلنا عثمان»[٢].

فالذي يستفاد من هذه الشواهد وسائر القرائن التأريخية أن طلحة كان من المخططين الرئيسيين لقتل عثمان. أمّا جملة عائشة بشأن عثمان فهي معروفة مشهورة للجميع فقد كانت تنادي صراحة «اقتلوا نعثلاً! قتل الله نعثلاً» وكانت تقصد بنعثل عثمان.

ابن أبي الحديد يصرح في شرحه لاحدى خطب نهج البلاغة بشأن موقعة الجمل فيقول: يعترف جميع المؤرخين المسلمين بأنّ عائشة كانت من أعدى أعداء عثمان وهي التي أخرجت قميص رسول اللهﷺ وكانت تقول «هذا قميصه لم يبل وقد أبلى عثمان سنته»، وقيل أنّ أول من دعا عثمان نعثلاً عائشة، وكانت تقول: «اُقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً»[٣]. فالعجيب ورغم ذلك قد خرج هؤلاء للمطالبة بدم عثمان! ويبدو أنّ هذه المسائل ليست عجيبة في عالم السياسة (السياسة التي تفتقر إلى الايمان والتقوى والورع) في أن يتآمر بعض الأفراد ثم يهبون للوقوف بوجه هذه المؤامرات من باب الدفاع! ثم قال الإمامﷺ: «**فلئن كنت شريكهم فيه فان لهم لنصيبهم منه ولئن كانوا ولوه دوني فما التبعة إلا عندهم**».

فالمراد أنّ الجميع يعلم بأنّ هؤلاء شركاء في قتل عثمان، ولو افترض بانّي شريك أيضاً في هذا الدم (والحال اني لست غير شريك فحسب، بل بذلت قصارى جهدي لاطفاء نيران هذه الفتنة) فانّ التهمة ثابتة بحقهم، فان كانوا هم النواة الأصلية في هذا العمل فان عليهم أن يتحملوا مسؤولية عملهم! وإذا كان الأمر كذلك فما أوقحهم في قيامهم ومطالبتهم إيّاي بدم عثمان.

---

١. تأريخ الطبري ٣/ ٤٥٣.
٢. تأريخ الطبري ٣/ ٤١١.
٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٦/ ٢١٥.

ويواصل الإمامعليه السلام كلامه قائلاً: «**وإن أعظم حجتهم لعلي أنفسهم**». حيث يميط اللثام عن الدافع الرئيسي وهو أنّ هؤلاء كانوا يرغبون باستمرار الأوضاع التي كانت سائدة على عهد عثمان، فتجعل لهم بعض الامتيازات في بيت المال، غير أنّ ذلك العهد ولى واندرس وليس هنالك من سبيل إلى عودته إلى مسرح الأحداث ثانية: «**يرتضعون أمّا قد فطمت ويحيون بدعة قد أُميتت**».

كما وردت عدة تفاسير لقولهعليه السلام: «**أما قد فطمت**» منها أن يكون المراد تلك السنن الجاهلية والبدع والعصبية التي كانت سائدة قبل الإسلام، حيث يتشبثون بكل الوسائل الأخلاقية من أجل الحكومة، فأمير المؤمنين يصف ذلك العهد بالأم التي فطمت فلم تعد هنالك من وسيلة لتحقيق المطامع»[1].

ويبدو أنّ هذا التفسير يناسب العبارة الثانية «**ويحيون بدعة قد أُميتت**» لا العبارة الاولى، كما أنّ جمع العبارتين بمعنى واحد يخالف ظاهر اللفظ. في حين ذهب البعض إلى أنّ المراد أنّهم بمطالبتهم بدم عثمان إنّما يريدون احياء أيام حكومته، رغم أن هؤلاء المطالبون بدمه هم من بين الأفراد الذين ثاروا عليه وسببوا قتله ومن هنا أرادوا أن يرتضعوا أما قد فطمت. وبالطبع فانه يمكن الجمع بين كل هذه المعاني، وإن بدأ المعنى الأول أنسب. فالنتيجة التي ستتمخض عنها حركة هؤلاء الافراء سوف لن تكون سوى الفشل الذريع؛ الأمر الذي عبر عنه الإمامعليه السلام بالقول «**يا خيبة الداعي! وإلام أُجيب**»[2]. والواقع انهذه العبارة تكهن بالنتيجة التي ستؤول اليها معركة الجمل. فالإمامعليه السلام يعلن أنّ عاقبتهم ستكون الفشل والهزيمة؛ عاقبة الغدرة الذين خططوا لقتل عثمان ثم انبروا للمطالبة بدمه ففرقوا صفوف المسلمين فضلوا طائفة من الناس وخسروا الدنيا والآخرة. ثم قال الإمامعليه السلام: «**وإنّي لراض بحجة الله عليهم وعلمه فيهم**» ولعل مراده بحجة الله، ما ورد في الآية القرآنية بشأن البغاة **﴿وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي**

---

١. منهاج البراعة ٣/ ٣١٠.

٢. «الخيبة» بمعنى اليأس، والمراد بالداعي هنا طلحة والزبير الذين دعوا الناس للخروج على عثمان. وقوله إلام أجيب، تحقيراً لاولئك الذين اتبعوهما دون دليل.

حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾[١]. أمّا قوله ﷺ: «**علمه فيهم**» فقد تكون إشارة للحديث المشهور عن النبي ﷺ بشأن علي ﷺ «**قاتل الناكثين والقاسطين والمارقين**». فلما سألت أم سلمة رسول الله ﷺ عن هذه الفرق الثلاث قال: الناكثين أهل الجمل، والقاسطين أهل الشام والمارقين أصحاب النهروان»[٢].

ولما كان الإمام ﷺ راضي برضا الله وعالم بما ستؤول إليه الأحداث من يأس العدو وهزيمته فان روحه مفعمة بالرضى والهدوء والسكينة.

---

١. سورة الحجرات / ٩.

٢. إحقاق الحق ٤ / ٩٩ نقلاً عن ينابيع المودة.

القسم الثالث

«فَإِنْ أَبَوْا أَعْطَيْتُهُمْ حَدَّ السَّيْفِ وَكَفَى بِهِ شَافِياً مِنَ الْبَاطِلِ وَنَاصِراً لِلْحَقِّ! وَمِنَ الْعَجَبِ بَعْثُهُمْ إِلَيَّ أَنْ أَبْرُزَ لِلطِّعَانِ! وَأَنْ أَصْبِرَ لِلْجِلادِ هَبِلَتْهُمُ الْهَبُولُ! لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ وَلاَ أُرْهَبُ بِالضَّرْبِ! وَإِنِّي لَعَلَى يَقِينٍ مِنْ رَبِّي وَغَيْرِ شُبْهَةٍ مِنْ دِينِي».

الشرح والتفسير

تهديد علي عليه السلام

لقد تقدم الإمام عليه السلام بتحذير تلك العناصر من مغبة مواصلة الغواية وضرورة الوقوف على جسامة الأخطاء وهجر سبيل الشيطان والوفاء ببيعتهم للإمام عليه السلام والكف عن إثارة الفتن وتأجيج نار الحرب. وهنا ـ في القسم الأخير من الخطبة ـ يحذرهم من أنّ عدم الارعواء ومنح الآذان الصاغية للنصح سوف يضطره للتكلم معهم بلغة السيف، السيف الذي كفى به شافياً في الرد على عبدة الأهواء والشهوات من أصحاب المنطق الغاشم.

فقد قال عليه السلام: **«فان أبوا أعطيتهم حد السيف»** العلاج الأفضل للباطل **«وكفى به شافياً من الباطل وناصراً للحق»**. فما يقال أن رسول الله صلى الله عليه وآله حمل القرآن الكريم بيد والسيف بأخرى إنّما يكشف عن حقيقة واقعية مسلمة في الحكومات الإلهية. فالجهود التي بذلها الأنبياء من أجل إصلاح المجتمعات واجتثاث جذور الفساد والانحراف إنّما تكرست بالأساليب المنطقية والعقلية واسداء النصائح والمواعظ بغية إلفات إنتباه الخاطئين إلى أخطائهم، ولكن من المسلم به أنّ هناك طائفة قد جعلت عقلها وضميرها آلة طيعة بيد أهوائها وشهواتها، فهي لا تعرف سوى لغة السيف والقوة؛ الأمر الذي يضطر زعماء الأمّة

الربانيين إلى شهر السيف بوجه هذه الطائفة الطائشة والاطاحة برؤوسها العفنة، وهذا هو آخر الدواء حيال تلك الأمراض المستعصية إذا ما عجزت غيره من الأدوية عن شفاء تلك الأمراض «إن آخر الدواء الكلي»[١] والواقع هو أنّ قوله‌عليه السلام: «**شافياً من الباطل**» وقوله: «**ناصراً للحق**» من قبيل اللازم والملزوم؛ وذلك لأنّ علاج الباطل يؤدي إلى نصرة الحق ونصرة الحق تؤدي إلى اضمحلال الباطل. ثم يعرب الإمام‌عليه السلام عن فائق دهشته إلى أنّ هؤلاء قد أعلنوا عليه الحرب ودعوه إلى الطعان والصمود أمام سيوفهم وهو الذي تشهد له ساحات الوغى وميادين القتال في المواقع التي تنكص فيها الأبطال «**ومن العجب بعثهم إليّ أن أبرز للطعان**[٢] **وأن أصبر للجلاد**»[٣].

فالعبارة تكشف بجلاء أنّ ناكثي البيعة هم الذين بادروا إلى نشوب المعركة، حيث هدوا الإمام‌عليه السلام بكل وقاحة بإعداد نفسه لمواجهة سيوفهم وحرابهم، وهذا ما نوّه إليه ابن أبي الحديد عن المؤرخ المعروف أبو مخنف قوله: رجع رسل علي‌عليه السلام من عند طلحة والزبير وعائشة يؤذنونه بالحرب.[٤]

على كل حال فانّ هذا التهديد يكشف عن مدى تعامي مؤججي فتنة الجمل عن رؤية الحقائق والوقائع، وقد أعمى حبّ المناصب والمقامات بصيرتهم وبصائرهم حتى لم يعودوا يروا الحقيقة المطلقة التي تهتف بانديتهم ليل نهار، ألا وهي شجاعة وبسالة علي‌عليه السلام التي رأوها مراراً وكراراً في الغزوات الإسلامية على عهد النبي‌صلى الله عليه وآله. ثم عاود الإمام‌عليه السلام مواصلة حديثه في الاستغراب من ذلك التهديد الفارغ ليقدم الدليل القاطع على رفضه لما أوردوه فقال‌عليه السلام: «**هبلتهم الهبول! لقد كنت وما أُهدد بالحرب ولا أُرهب بالضرب! وإني لعلى يقين من ربّي وغير شبهة من ديني**»، قوله‌عليه السلام «**هبلتهم الهبول**»[٥] ـ بالاستناد إلى مفهوم الهبل بمعنى الثكل

---

١. العبارة مثل عربي معروف وقد أشير إليه في بعض الروايات الإسلامية ومنها الخطبة ١٦٨ من خطب نهج البلاغة.

٢. «طعان» بمعنى الضرب بآلة وتستعمل عادة للرمح ويقال لذرب اللسان طعن أيضاً.

٣. «جلاد» من مادة «جلد» بمعنى الضرب بالعصا أو السيف أو السوط وهو هنا كناية عن الحرب.

٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٣٠٦.

٥. «هبلتهم» بمعنى ثكلتهم، والهبول بفتح الهاء المرأة التي لا يبقى لها ولد، وهو دعاء عليهم بالموت.

بالولد ـ يريد به أنّكم لا تستحقون الحياة والبقاء وليس لكم سوى الموت، ثكلتكم أمهاتكم على هذه الأخطاء الشنيعة والانحراف الفكري الذي أوصلكم إلى هذه الحالة. وقد ورد شبيه هذه العبارة الذي يعطي ذات المعنى وهو قولهم «**ثكلتهم الثواكل**» والتي استعملها الإمامعليه السلام لهذا الغرض في سائر خطبه من نهج البلاغة.

على العموم فانّ الإمامعليه السلام قد أشار في هذه العبارات إلى سابقته العريقة وتأريخه المشرق ليشير كناية، إنّما يعرفني حتى مشركي العرب ولم يجرأ أحد على تهديدي بالحرب والمبارزة طيلة حياتي، وقد عشتم معي وزعمتم أنّكم من المسلمين. المسألة الأُخرى التي أشار اليها الإمامعليه السلام هى أنّ من يخشى الحرب يخشى القتل والشهادة، ومن يخشى القتل والشهادة فليس له من إيمان ويقين بالله سبحانه وأن طريقه مليء بالشكوك والشبهات؛ لأنّ من آمن وأيقن بسلامة طريقه ووثق بما عند الله فانّه يعلم أنّ قتال أعداء الحق وخصوم الدعوة لا يكتنفه أي فشل أو هزيمة ولن ينطوي سوى على احدى نتيجتين إمّا النصر وإمّا الشهادة؛ الأمر الذي صرحت به الآية الشريفة ٥٢ من سورة التوبة: **﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾** وأمّا قولهعليه السلام: «**فاني لعلى يقين من ربي، وغير شبهة من ديني**» فقد اعتبره بعض شرّاح نهج البلاغة أنه يعطي مفهوماً واحداً ويؤكد بعضه البعض، إلّا أنّ الصحيح هو أنّ العبارتين من قبيل بيان العام بعد الخاص، وهى تشتمل على مفهومين. فالعبارة الاولى تشير إلى مقام اليقين لدى الإمامعليه السلام والذي ورد التعبير به عن الإمامعليه السلام قائلاً: «**لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً**»[1].

والعبارة الثانية تشير إلى الوظائف الدينية التي كشفت له عن كافة معالم الطريق دون الشعور بأدنى شك أو ريب، ولا سيما أنّه سمع رسول اللهصلى الله عليه وآله وقد قال له: «**يا علي ستقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين**» (أصحاب الجمل وصفين والنهروان).

الرجال الأشداء

هنالك عدد من الأفراد أو الفئات التي تطالعنا في سوح الوغى طيلة الصراع المرير بين

---

١. شرح نهج البلاغة لابن ميثم لمئة كلمة مختارة من الجاحظ، الكلمة الاولى.

الحق والباطل وهم يتمتعون بالتفوق الكبير على خصومهم. على سبيل المثال فقد انتصر جند الإسلام على الجيوش الساسانية الجرارة ـ التي كانت تفوقهم بعشرة أضعاف من حيث العدد والعدة ومن حيث التجهيزات والوسائل الحربية التي لا يمكن مقارنتها بنظيرها لدى المسلمين ـ بل تميزت العسكرية الإسلامية من حيث التعبئة والقتال على قيام مجموعات المستضعفين الحافقة العزل من السلاح إلّا من نور الإسلام والإيمان والمفاهيم القرآنية والتعاليم الإسلامية باقتحام الميدان وتحطيم اسطورة توازن القوى، لتحقق الانتصارات تلو الانتصارات على أكبر الجيوش وأقواها. ولا غرو فانما ينبع ذلك من **﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾** فقد كانوا يرون أنفسهم منتصرين مهما كانت نتيجة الحرب، سواء انتهت المعركة بهزيمة الأعداء أو نيل الشهادة، فكلا النتيجتان سعادة كبرى.

وقد لمسنا هذا المعنى بوضوح في الحرب المفروضة التي شنها النظام الصدامي ضد الجمهورية الإسلامية الفتية، حيث وقفت كافة قوى العالم من الشرق والغرب خلفه لتقدم له كافة ألوان الدعم والاسناد، غير أنّ شبابنا المؤمن من قوات التعبئة والحرس الثوري والجيش الذين تربوا في أحضان القرآن ومدرسة أهل البيت عليهم السلام قد أركعوا هذا العدو الشرس وجرعوه مرارة الهزيمة. نعم هذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في هذه الخطبة ليعلن للأعداء من عبدة الأهواء، لست أنا الذي يهدد بالحرب! لست أخشى الضرب في سبيل الله، فقلبي قد غمر بنور الإيمان واليقين، بل أنا ربيب الإسلام والمدرسة النبوية التي ترى النصر حليفها بغض النظر عن النتيجة، وما عساها تكون سوى هزيمة العدو أو الفوز بالشهادة. وهذه هي الروحية التي ينبغي أن يستشعرها المسلمون تجاه أعدائهم ولا يولون أدنى أهمية لهذا التفوق المادي الكاذب الذي قد يكون مؤثراً إلّا أنّه لن يحسم المعركة لصالح الباطل أبداً.

⁂

الخطبة ٢٣ [١]

ومن خطبة له عليه السلام

وتشتمل على تهذيب الفقراء بالزهد وتأديب الأغنياء بالشفقة

القسم الأول

«أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْأَمْرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ كَقَطَرَاتِ الْمَطَرِ إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قُسِمَ لَهَا، مِنْ زِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ لِأَخِيهِ غَفِيرَةً فِي أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ نَفْسٍ فَلَا تَكُونَنَّ لَهُ فِتْنَةً! فَإِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ مَا لَمْ يَغْشَ دَنَاءَةً تَظْهَرُ فَيَخْشَعُ لَهَا إِذَا ذُكِرَتْ وَيُغْرَى بِهَا لِئَامُ النَّاسِ كَانَ كَالْفَالِجِ الْيَاسِرِ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَوَّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِدَاحِهِ تُوجِبُ لَهُ الْمَغْنَمَ، وَيُرْفَعُ بِهَا عَنْهُ الْمَغْرَمُ. وَكَذَلِكَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ الْبَرِيءُ مِنَ الْخِيَانَةِ يَنْتَظِرُ مِنَ اللَّهِ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ: إِمَّا دَاعِيَ اللَّهِ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ، وَإِمَّا رِزْقَ اللَّهِ فَإِذَا هُوَ ذُو أَهْلٍ وَمَالٍ، وَمَعَهُ دِينُهُ وَحَسَبُهُ، وَإِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الْآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لِأَقْوَامٍ».

---

١. أورد المرحوم الكليني عن الإمام الحسن عليه السلام قسماً من هذه الخطبة في كتاب الكافي ٥ / ٥٦، كما أورد قسمها الآخر ـ حسب صاحب مصادر نهج البلاغة ـ نصر بن مزاحم في صفين وابن عبد ربه في العقد الفريد والزمخشري في ربيع الأبرار.

نظرة إلى الخطبة

استهل الإمام عليه السلام خطبته بتقسيم رزق الإنسان وما قسم له على ضوء التقدير والتدبير الإلهي، ثم أوصى عليه السلام بأن من رأى لأخيه نعمة فلا ينبغي أن يكن له البغض أو الحسد (كما لا ينبغي أن يغتر إن جنى ثروة فيضحي بدينه وإيمانه من أجلها) آنذاك دعا عليه السلام الناس إلى الإخلاص والورع والتقوى وصفاء النية وصلاح العمل بعيداً عن الرياء والعجب والفخر. أمّا في القسم الأخير من الخطبة فقد أشار عليه السلام إلى بعض المسائل الاجتماعية الحساسة من قبيل تقوية أواصر القرابة وضرورة التعاضد والتعاون بين أفراد القبيلة والأُمّة الإسلامية الواحدة بغية التغلب على المصاعب والمشاكل، مؤكداً على عدم فقدان الانتماء إلى العشيرة من خلال اعتياد البخل والإمساك؛ فإنّ ضرر هذا الفقدان عليه سيكون أعظم وأشد ممّا هو عليه بالنسبة للعشيرة، فانه إنّما يمسك يده بينما بالمقابل تمسك عنه أيدي كثيرة.

الشرح والتفسير

الرضا والتسليم أمام إرادة الله

أشار الإمام عليه السلام ـ في هذه الخطبة ـ إلى مسألة مهمّة ذات أثر عظيم في تهذيب النفوس والحد من جموح الفرد والمجتمع. وهي ممّا لاشك فيه أنّ الحياة الاجتماعية البشرية تعد الأساس لبركات وثمرات عظيمة، بحيث يمكن أن نقول إنّ القسم الأعظم من النجاحات والمكتسبات الباهرة في كافة المجالات والميادين العلمية والصناعية والاجتماعية إنّما حققتها البشرية في ظل هذه الحياة الاجتماعية. وإلى جانب تلك الثمار والمعطيات والبركات كانت هنالك المشاكل الخطيرة التي تهدد بالفناء جميع الآثار الايجابية لهذه الحركة مالم تجد الحلول الشافية.

ومن ذلك، وجود الفوارق بين بني البشر من حيث الاستعداد والقابليات الجسمية والروحية على المستوى الفردي والاجتماعي؛ الأمر الذي أدّى إلى التفاوت الفاحش في الإمكانات المادية والمالية. ومن هنا بدت ردود الفعل السلبية للأفراد الذين تخلفوا عن هذه المسيرة، أو سعوا بتخبط للخلط بين الحلال والحرام ليزجوا بأنفسهم في هذا السباق غير المتكافئ والمجهول النهاية في مصاف من تقدّم عليهم من حيث الجوانب المادّية ولم يكن أمامهم

سوى سبيلين، إمّا الشعور بالإحباط واليأس والانسحاب من ميدان العمل والنشاط والتقوقع على الذات، أو اشتعال نيران الحسد والبغض في قلوبهم تجاه أُولئك والهم بالانتقام منهم. من جانب آخر فإنَّ البعض الذي يتمتع بالإمكانات قد يصاب بالغرور والكبر والعجب والفخر فيندفع نحو الطغيان والفساد والانحراف.

الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بدورها ودرءاً لهذه المفاسد والحيلولة دون ظهورها قد لفتت أنظار الجميع إلى حقيقة مفادها أنّ هذه الفوارق والزيادة والنقصان ليست مسألة عبثية بقدر ماهي واقع يستند إلى الحكمة الإلهية التي تنظم شؤون العباد على أساس ما يصلحهم ويقوم حياتهم. ولعل الأسرار التي يختزنها هذا التصنيف خافية علينا نحن العباد في أغلب الأُمور، إلّا أنّ مجرد علمنا بأنّ الله حكيم ورحمن ورحيم هو الذي ينظم الأُمور وتتشعر قلوبنا الرضى والتسليم لهذا التنظيم والتخطيط؛ فإنَّ القضية ستتغير وتخرج من شكلها الظاهري، آنذاك ستسود السكينة والطمأنينة قلوبنا وأرواحنا وستزول كافة تلك العواقب السلبية التي بدت لنا لأول وهلة. ومن هنا تواتر التأكيد على الرضى والتسليم ولاسيّما بالنسبة للرزق في الآيات والروايات.

نعود الآن بعد هذه المقدمة المختصرة إلى تفسير الخطبة. فقد تطرق الإمام عليه السلام في بداية خطبته عن تهذيب النفوس ووضع حدّ للمفاسد الاجتماعية، فقد قال عليه السلام: «**أمّا بعد: فان الأمر ينزل من السماء إلى الأرض كقطرات المطر إلى كلّ نفس بما قسم لها، من زيادة أو نقصان**» فالتشبيه بقطرات المطر تشبيه غاية في الروعة؛ لأنّ قطرات المطر تنزّل بصورة مختلفة على الأرض وفقاً للإرادة الإلهية والحكمة الربانية، والأرزاق الإلهية تسقط على هذه الشاكلة من السماء إلى البشرية على الأرض بفضل الله ورحمته. فقد ينزّل المطر بغزارة على بعض المناطق حتى تسيل أنهاراً عظيمة بينما قد تشهد مناطق أُخرى زخات خفيفة من المطر طيلة السنة. ثم يخلّص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة التي ينبغي أن يستحضرها الناس: «**فاذا رأى أحدكم لأخيه غفيرة**[1] **في أهل أو مال أو نفس، فلا تكونن له فتنة**».

---

١. «غفيرة» من مادة «غفر» بمعنى الستر ومن هنا اطلقت المغفرة على ستر الذنوب كما تطلق على المال الكثير لتغطيته جزءاً واسعاً من الحياة، حتّى أنّه يستر العيوب أحياناً، ولذلك يقال للكثرة والزيادة غفيرة.

لعل غفيرة تشير إلى أنّ الأموال والثروات لمن دوافع الغفلة وستر عيوب الإنسان حتّى عن نفسه، وإنْ وردت غفيرة هنا بمعنى المال الكثير.

مايجدر ذكره أنّ الفتنة هنا لا تعني الامتحان، وإن وردت عادة بهذا المعنى في الأعم الأغلب، بل المراد بها ما يدعو إلى الفساد والخداع وردود الأفعال السلبية من قبيل الحسد والعداوة والبغضاء التي يمارسها الفقراء المعدومون حيال أصحاب الأموال والثراء. ثم قال: **«فان المرء المسلم مالم يغش دناءة تظهر فيخشع لها إذا ذكرت ويغرى بها لئام الناس، كان كالفالج[1] الياسر[2] الذي ينتظر أول فورة من قداحه[3] توجب له المغنم، ويرفع بها عنه المغرم»**. كما أنّ المسلمين البعيدين عن الخيانة إنّما ينتظرون من الحق سبحانه أمرين: أمّا حلول الأجل الإلهي (وقد أفنى عمره بطيب السمعة وحسن العاقبة) فما عند الله خير له وأبقى. وأمّا أنْ يوسّع الله عليه رزقه في هذه الدنيا ويمّن عليه بالصاحبة والأهل والولد في سلامة من دينه وصون لعزته وكرامته «وكذلك المرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر من الله إحدى الحسنيين: إمّا داعي الله فما عند الله خير له، وإمّا رزق الله فاذا هو ذو أهل ومال، ومعه دينه وحسبه». ولكن لابدّ من الإذعان إلى الفارق الكبير بينهما فأحدهما من قبيل زرع الدنيا كالمال والولد، والآخر من زرع الآخرة وهو العمل الصالح «وإنَّ المال والبنين حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة». وقد يجمع الله سبحانه نعم الدنيا والآخرة لبعض الأفراد «وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام».

والواقع هو أنّ الإمام قد كشف بهذه العبارات عن حقيقة مهمّة ومصيرية في حياة الإنسان تكمن في ضرورة عدم تلوثه بالذنوب والمعاصي والإرجاس التي لا تجر عليهم سوى الخزي والعار والسقوط من أعين الناس والحد من شخصيته لديهم.

---

١. «الفالج» من مادة «فلج»، قال صاحب مقاييس اللغة لها معنيان؛ الأول النصر والغلبة، والآخر المسافة بين شيئين. وفسّره صحاح اللغة بالظفر والفوز، وقد ورد هنا بهذا المعنى.

٢. «الياسر» من مادة «يسر» بمعنى السهولة، وميسر ويسار حسب قول الراغب في المفردات بمعنى الغنى والثروة. وأطلق على المقامر الذي يلعب بقداح الميسر وقد وردت في العبارة بمعنى اللاعب بالقداح المحفوظ منها.

٣. «قداح» جمع «قدح» على وزن فِعل بمعنى السهم. وهى في الأصل بمعنى كسر الشيء وعيبه.

وبناءً على ما تقدّم فإنّ هناك أحد مصيرين رفيعين بانتظار الفرد الذي يعيش النقاء والعفّة في حياته، أنْ يقضي حياته معززاً مكرماً ليحث السير نحو رحمة الله ومغفرته وأجره وثوابه. أو أن يفيض الله عليه من نعم الدنيا في هذه الحياة الدنيا ويجمع له خير الدارين.

القضية المهمّة التي حظيت باهتمام شرّاح نهج البلاغة هي أنّ الإمام عليﷺ شبّه المؤمن الذي يتمتع بالغلبة والسعادة والفوز بلطف الله ورحمته المقامر الماهر الذي يفوز بالتضارب بالقداح، وهنا يطرح هذا السؤال نفسه: كيف يشبه الإمامﷺ المؤمنين الذين يعيشون الرضى والتسليم تجاه رزق الله وقسمه بهذا الفرد المقامر الأثيم المقارف لهذه الكبيرة من الكبائر؟

يتّضح من التأمّل في عبارات الإمامﷺ من قبيل «فوزة» و«قداح» و«مغنم» و«مغرم» أنّ الياسر ليس المراد به القمار، بل أراد به نوعاً خاصاً من الاقتراع كانت تمارسه العرب، حيث كانوا يأتون بعشرة سهام لكل واحد منها اسم، ويشترون جملاً فيذبحوه ويقسّموه عشرة أقسام، ثم يجعلون السهام مع بعضها ليقوم من يثقون به باستخراجها واحداً واحداً، ثم يكون الفائز على أساس ترتيب السهام حسب أسمائها الأول والثاني إلى السابع والسهم الأول فيها يسمى «مُعَلّى» ـ والسهام الأخرى إذا خرجت باسم أحدهم فهو الذي يدفع قيمة الجمل، أمّا الفائزون فيعطون سهامهم للفقراء دون أن يأكلوا منها شيئاً، وكانوا يفتخرون بذلك العمل.[١]

طبعاً لايجوز هذا العمل شرعياً، إلّا أنّه لا يشتمل على معايب وفواجع القمار. فالإمامﷺ أراد أن المؤمنين من أهل الرضى والتسليم يشبهون الأفراد الذين يفوزون بسهم المُعلّىٰ في ذلك الاقتراع، ووجه الشبه أنّه يفوز بأكبر نصيب دون أدنى عناء. والتعبير بالقداح وأول فوزة والغنيمة والنجاة من الخسارة كلّها تناسب هذا المعنى؛ وهذا ليس متعارفاً في القمار حيث لا يترك المقامر المقامرة لمجرد غلبه في الوهلة الاولى، بل يواصل قماره حتّى لا تعرف النتيجة التي سيؤول إليها. وبالطبع فإنّنا لا ننكر أنّ المفردة مفهوم واسع يشمل الاقتراع وألعاب الحظ، ولكن لابدّ من الالتفات إلى أنّ القمار بمعناه الحقيقي يختلف تماماً عن ذلك النوع من الاقتراع، ولا سيما أنّ القرآن قد عبر بـ«الأزلام» لا الميسر وإنْ ورد الذم عليهما معاً **﴿إِنَّما الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ...﴾**.[٢]

---

١. شرح نهج البلاغة، المحقق الخوئي، ٣/ ٣١٩ (بتلخيص). وقد وردت إشارة مختصرة إلى هذا المطلب في كتاب معارج نهج البلاغة وهو من أقدم شروح هذا الكتاب، معارج نهج البلاغة، ص ١١٠.

٢. سورة المائدة / ٩٠.

الرضى والتسليم إلى جانب السعي والعمل

لعل هنالك من يقول بأنّ روح الرضى والتسليم لأمر الله في الرزق وفي المنافع المادية بصورة عامّة إنّما تهدأ النفس البشرية وتحدّ من جماحها وتحوّل دون الإنسان والارتماء في ميادين الحرص والطمع وجباية الأموال واللهث وراء الثروة والانغماس في المحرمات كما تصدّه عن استشعار معني الحسد والبغض، إلّا أنّ مثل هذا الشعور قد يقتل عند الإنسان روح السعي والمثابرة بحيث يتشبّث كلّ فرد بذريعة من الذرائع من قبيل أنَّ الأرزاق مقسّمة وكلّ قد سمّى الله له رزقه ونصيبه فيخلد إلى السكون والدعة والكف عن العمل، فما جدوى ذلك والأرزاق قد قسمت؛ الأمر الذي يؤدي بالتالي إلى تخلّف الأمّة في المجال الاقتصادي والتطور المادي واجتثاث جذور الفقر والحرمان.

إلّا أنّ هذا الإشكال قد يزول إذا ما ألتفت إلى أمرين: الأول هو أنّ هذه التعاليم الإسلامية والوصايا الأخلاقية إنّما توخّت الحد من تهافت الإنسان على الماديات وتناسيه لكل ما سواها، بعبارة أُخرى فإنّ الإنسان يمتلك الدوافع التي تسوقه نحو الماديات والنهوض بحياته الاقتصادية، ولو لم تكن هنالك من كوابح لهذه الدوافع فإنّه سينطلق بسرعة هوجاء نحو الحرص والتسابق في جني الأموال والثروة بحيث يحطم كافة الحدود والقيود الأخلاقية والقيم المعنوية. وبعد هذا هو المعنى الذي أشار له الإمام علي بن الحسين عليه السلام حين قال: «**معاشر أصحابي! أوصيكم بالآخرة ولست أوصيكم بالدنيا! فإنّكم بها مستوصون وعليها حريصون وبها متمسّكون**»[1]. والأمر الثاني يكمن ضرورة جمع كافة الآيات والروايات الواردة بهذا الشأن من أجل التوصّل إلى النتيجة النهائية بخصوص التعاليم الإسلامية؛ لأنَّ القضايا الإسلامية المحورية لاتبدو واضحة المعالم من خلال آية واحدة أو حديث واحد. ففي مجال تحصيل الرزق والقناعة به وضرورة السعي والحركة هنالك الآيات والروايات التي أشارت من جهة إلى مسألة الرضى والتسليم تجاه التقديرات الإلهية، وهنالك من جهة أُخرى الآيات والروايات التي وردت في الحث على السعي والعمل، بحيث يفهم من مجموع الطائفتين

---

١. بحار الأنوار ٧٥ / ١٤٧.

من الآيات والروايات أنّ الضعف والوهن في هذا المجال ليس صحيحاً كما أن الحركة الحريصة والممزوجة بالذنب والمعصية التي تفرزها طبيعة تجاهل التقدير الإلهي والتوكّل على الله هي الأخرى ليست صحيحة أيضاً. وبعبارة أُخرى، صحيح أنّ الرزق قد قسم من جانب الله، غير أنَّ ذلك مشروط بشرط السعي والجهد المقرون بالخلق والتقوى والورع.

ونختتم البحث بما ورد في الحديث النبوي الشريف بشأن مقام الرضى والتسليم في أنّ طائفة من المسلمين تطير من قبورها يوم القيامة إلى الجنّة لتتنعّم بنعيمها دون أن تشهد الحساب فتسألهم الملائكة عن الحساب والجواز على الصراط، فتجيب أنّها لم تر الحساب والصراط. وتسألهم عن جهنّم، فجيبوا بعدم رؤيتها. فيسألون من أيّة أُمّتم أنتم؟ فتقول من أُمّة محمد ﷺ فتقسم عليهم الملائكة عن أعمالهم التي أدّت بهم إلى هذه الكرامة، فيقولون: «**كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه ونرضى باليسير ممّا قسّم لنا**» فتقول لهم الملائكة: «**حقّ لكم هذا**»[1].

؀؀؀

١. مسكن الفؤاد نقلاً عن بحار الأنوار ١٠٠ / ٢٥.

القسم الثاني

«فَاحْذَرُوا مِنَ اللَّهِ ما حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَاخْشَوْهُ خَشْيَةً لَيْسَتْ بِتَعْذِيرٍ! وَاعْمَلُوا فِي غَيْرِ رِياءٍ وَلا سُمْعَةٍ فَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلْ لِغَيْرِ اللَّهِ يَكِلْهُ اللَّهُ لِمَنْ عَمِلَ لَهُ. نَسْأَلُ اللَّهَ مَنازِلَ الشُّهَداءِ وَمُعايَشَةَ السُّعَداءِ وَمُرافَقَةَ الأَنْبِياءِ».

الشرح والتفسير

سبيل بلوغ مقامات الصالحين

يواصل الإمام‪ﷺ‬ خطبته بعدد من الوصايا الأخلاقية فيقول‪ﷺ‬: **«فاحذروا من الله ما حذَّركم من نفسه»** ولعلّ العبارة إشارة إلى الآية الشريفة: **﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾**[1] أو إلى الآية: **﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾**[2]. ثم حثّ‪ﷺ‬ على خشيته وتقواه بحيث لا تكون هناك من حاجة لالتماس الأعذار الواهية **«واخشوه خشية ليست بتعذير»**[3]، لأنّه العالم بباطن كل فرد وأسراره وأعذاره الصحيحة من السقيمة. جدير بالذكر أنّ العبارة السابقة تحدثت عن الحذر من الله، ثم أُردفت بالحديث عن الخشية، وقد صرّح اللغوين أنّ الخشية تتضمن الخوف المقرون بدرك العظمة، ومن هنا صرّح القرآن الكريم **﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ﴾**[4]. أمّا الحذر فيقال حين يحتاط الإنسان من خطر قطعي أو محتمل. ثم أشار‪ﷺ‬ في وصيته الثالثة إلى الإخلاص في النيّة وتنقية الأعمال من الرياء والسمعة لأنّ من عمل لله

---

١. سورة النور / ٦٣.
٢. سورة آل عمران / ٢٨.
٣. «تعذير» من مادة «عذر» وهنا بمعنى عدم العذر الصحيح.
٤. سورة فاطر / ٢٨.

وشرك معه آخر وكله الله إلى ذلك الآخر وقال له خذ أجرك منه فانّك لم تعمل لي «**واعملوا في غير رياء ولا سمعة، فإنّه من يعمل لغير الله يكله الله لمن عمل له**».

نعم خشية الله وخشية مقارفة الذنوب والمعاصي لا تكفي لوحدها، بل لابدّ من الإتيان بالأعمال الصالحة البعيدة عن كافة أشكال الرياء والسمعة، والرياء يعني مراءاة الآخرين ولفت أنظارهم لما يقوم به الإنسان من أعمال، والسمعة أن يقوم بالعمل لله، إلّا أنّه يسعى لإسماعه الآخرين، بحيث يجلب انتباههم إليه، و إلاّ يفعل ذلك يسر لسماع الآخرين فيثنون عليه ويطرونه.

والمعروف بين العلماء أنّ السمعة لا تبطل العمل، إلّا أنّها مذمومة خلقاً ومدعاة لانحطاط الإنسان الروحي والمعنوي، ولعلّها تؤدّي إلى زوال الأجر والثواب. وقد استدل الإمام عليه السلام في تحذيره من السمعة والرياء بأنّ الله سبحانه لا يقبل إلّا العمل الخالص لوجهه فإنّ شرك العبد معه أحد آخر وكله الله إليه ليأخذ منه أجره، وبالطبع فإنّه لا يملك القدرة على إعطاءه الأجر والثواب. والعبارة هي مضمون حديث قدسي معروف نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الحق سبحانه قال: «**أنا خير شريك ومن أشرك معي شريكاً في عمله، فهو لشريكي دوني، لأني لا أقبل إلّا ما خلص لي**»[1].

ثم اختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «**نسأل الله منازل الشهداء ومعايشة السعداء ومرافقة الأنبياء**». حيث يهدف الإمام عليه السلام إلى تعريف الأُمّة بالقيم الإلهية الحقّة من قبيل الشهادة ومرافقة الأنبياء وهي الأُمور التي لا تنال بسهولة كما لا تمنح للإنسان بالمجان ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولـئِكَ رَفِيقاً * ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفى بِاللّهِ عَلِيماً**﴾[2].

فالمراحل الثلاث ـ الشهادة والسعادة ورفقة الأنبياء ـ التي وردت في كلام الإمام عليه السلام يمكن أن تكون من قبيل العلّة والمعلول، فالشهادة سبب السعادة، والسعادة سبب مرافقة الأنبياء. كما يمكن أن يكون الكلام إشارة لطيفة إلى حوادث المستقبل وشهادة الإمام عليه السلام.

---

١. منهاج البراعة ٣ / ٣٢٤كما ورد هذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السلام في بحار الأنوار ٦٧ / ٢٤٣.
٢. سورة النساء / ٦٩ ـ ٧٠.

فصل في أنّ الاخلاص أساس العمل

للشرك والوثنية شعب، من أهمها الرياء والسمعة. والرياء من مادة الرؤية بمعنى التظاهر وإلفات نظر الآخرين إليه من خلال التظاهر بالعبادة والأعمال الحسنة. وهذا الفرد في الواقع مشرك، لأنّه يرى عزّته وكرامته بيد الآخرين لا بيد الله، ولذلك يقوم بأعماله بدافع من لفت انتباه الآخرين إليه.

أمّا بشأن السمعة فهناك تفسيران: أحدهما أنّ السمعة هو أن يقوم الفرد بالعمل قربة إلى الله، فتخالطه الأفكار باطّلاع الآخرين وإسماعهم بعمله ليحظى بمديحهم وثنائهم. وهو الأمر الذي لا يوجب بطلان العمل حسبما صرّح بذلك الفقهاء، لأنّه قد حصل بعد الإتيان بالعمل، إلّا أنّها تقلل من ثواب العمل أو تقضي عليه، والآخر أن تكون خالطته فكرة إسماع الآخرين منذ بداية العمل ليثنوا عليه ويكيلوا له المدح والثناء. وليس هنالك من فارق بين السمعة بهذا المعنى والرياء، سوى أنّ المرائي يقوم بالعمل ليراه الآخرون بينما يقوم الآخر بالعمل ليسمعه الآخرون، وعليه فالعملان ليسا بخالصين.

على كلّ حال فإنّ الرياء والسمعة من أكبر آفات الأعمال العبادية. ولما كان نفوذ الرياء والسمعة إلى الأعمال الإنسانية غاية في التعقيد والدقّة فقد تواتر التحذير منه كراراً في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية. وأعظم مفسدة لهذا العمل هو أنّه يقضي على روح التوحيد ويقذف بصاحبه في وادي الشرك والازدواجية في العبادة، لأنّ توحيد الأفعال يعلّمنا الإيمان والإذعان بأنّ كلّ شيء بيد الله وأنّ الأجر والثواب والعزّة والكرامة والرزق و... تابعة لإرادة الله مأتمرة بأوامره، إلّا أنّ المرائين إنّما يلتمسون هذه الأمور من الآخرين، وهذا شرك علني. وقد ورد في الروايات يقال يوم القيامة للمرائي: «**يا كافر! يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! حبط عملك وبطل أجرك، فلا خلاص لك اليوم**»[1]. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنّ الرياء والسمعة مصدر كافة الاختلالات الاجتماعية، فالمرائي إنّما يهتم بظاهر العمل دون الإكتراث إلى باطنه، فالظاهر جميل والباطن فاسد.

---

١. وسائل الشيعة ١ / ٥٠.

المؤسّسات والدوائر تتمتع بظاهر أنيق بينما تستبطن الخواء والفساد من الداخل، الأفكار سطحية ساذجة خالية من أيّ عمق وجذور فالهدف في المجتمعات المرائية إنّما يولى للكميّة لا للكيفيّة. ومن البديهي أنّ مثل هذه المجتمعات إنّما تحث الخطى نحو الانحطاط والاضمحلال والانهيار. وبالطبع على العكس من ذلك فهنالك اليوم البلدان التي أولت أهمية قصوى للقطاعات الصناعية والزراعية والاقتصادية وحثت الخطى من أجل خدمة المجتمع ورفاهه فقد سارت نحو الرقي والتطور والازدهار.

نكتفي بهذا المقدار بشأن الرياء والسمعة ونترك الخوض في التفاصيل أكثر إلى الأبحاث القادمة بما يتناسب والموضوع.

ﮋﮊ

القسم الثالث

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لاَ يَسْتَغْنِي الرَّجُلُ -وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ- عَنْ عِتْرَتِهِ، وَدِفَاعِهِمْ عَنْهُ بِأَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ حَيْطَةً مِنْ وَرَائِهِ وَأَلَمُّهُمْ لِشَعَثِهِ وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَ نَازِلَةٍ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ وَلِسَانُ الصِّدْقِ يَجْعَلُهُ اللَّهُ لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يَرِثُهُ غَيْرُهُ».

الشرح والتفسير

السند الشعبي

لمّا فرغ الإمام عليه السلام من وصاياه للفقراء والمعدمين بطاعة الله وخشيته وإلّا يصدهم عن ذلك الانحراف الأخلاقي بسبب سوء الأوضاع وصعوبة العيش التي يعانون منها، وأصل خطبته ليخاطب هنا الأغنياء والمرفهي بما يحفظ التوازن في المجتمع. فقد حثم باديء ذي بدء إلى مدّ يد العون والمساعدة إلى بطانتهم وأقربائهم وعشيرتهم، ويلفت نظرهم إلى غض الطرف عن الأموال والثروة التي ليس من شأنها أن تجعل الإنسان غنياً عن قرابته «**أيها الناس إنه لا يستغني الرجل -وإن كان ذا مال- عن عترته**[1]**، ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم**». فالواقع أنّهم أعظم سند يوفر له الحماية والدعم ويزيل عنه المشاكل والمخاطر، وإذا ما تعرض لبعض الظروف الصعبة والحوادث الخطيرة، كانت عترته أشفق من الآخرين به وأحرصهم

١. «عترة» قال أرباب اللغة تعني أصل الشيء وأساسه، كما قيل أنّ هذه المفردة أقتبست من عِتر (على وزن فِطر) نبات معطر كثير الغصون والأوراق وتشير إلى فروع القرابة. وقيل تطلق العترة على الأولاد فقط. وعليه فعترة النبي صلى الله عليه وآله هم ولد فاطمة عليها السلام وإلى ذلك أشار الحديث المعروف «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي (لسان العرب، الصحاح، مقاييس اللغة).

عليه «**وهم أعظم الناس حيطة**[١] **من ورائه وألمّهم**[٢] **لشعثه**[٣] **وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به**». نعم فالحياة مليئة بالمخاطر والمطبات والعواصف الهوجاء والأحداث المريرة التي لا يسع الإنسان التغلب عليها بمفرده، ومن هنا فإنّ العقل والحكمة تتطلب من الإنسان التفكير في مثل هذه الأحداث. وما أروع أن تكون لهذا الإنسان قرابة تهب لدعمه وحمايته في مثل هذه الظروف. ولكن، هل يمكن الحصول على دعم القرابة ومساندتها دون الإحسان إليها وتفقد أمورها وإحاطتها بالحب والرعاية وإغاثتها مالياً ومعنوياً؟ قطعاً، لا. فما أحرى كل إنسان أن يوطد أواصر مودّته لقرابته من خلال بعض البذل المادي حتّى لا يبقى وحده حين تعصف به الأحداث والمصائب. طبعاً الإحسان إلى الآخرين ممّا ورد الندب إليه ولا تخفى آثاره «**الإنسان عبيد الإحسان**» إلّا أنّ الأولوية في هذا الأمر للقرابة «**الأقربون أولى بالمعروف**» حيث تمهد الأجواء أمام تعميق أواصر الاخاء والمحبّة. وبغضّ النظر عما سبق فإنّ هذا الأمر لو طبق في المجتمع كما ينبغي فقد لا تبقي هنالك من آثار للفقر والحرمان في المجتمع، كيف لا وفي كلّ قبيلة عدد من الأفراد المتمكنين الذين لو مدّوا يد العون إلى سائر أفراد قبيلتهم لما ظل هنالك من يعاني من الحرمان. وقد أوصى الإمام عليه السلام ولده الإمام الحسن عليه السلام بهذا الأمر مبيّناً فوائد إكرام العشيرة ومعالجة مشاكلهم إذ قال عليه السلام: «**وأكرم عشيرتك! فإنّهم جناحك الذي به تطير وأصلك الذي إليه تصير ويدك التي بها تصول**»[٤]. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى دليل الآخر في إطار حثه الأفراد المتمكنين على مساعدة قرابتهم فيقول: «**ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يرثه غيره**».. وقد ورد في هذا المعنى من النثر والنظم الكثير الواسع، فمن ذلك قول عمر لابنة هرم: ما الذي أعطى أبوك زهيراً؟ قالت: أعطاه مالاً يفنى، وثياباً تبلى. قال: لكن ما أعطاكم زهير لا يبليه الدهر، ولا يفنيه الزمان.

إذا أنت أُعطيت الغنى ثم لم تجد ... بفضل الغنى ألفيت مالك حامد

---

١. «حيطة» اسم مصدر من مادة «حوط» بمعنى الاحاطة، وهي هنا بمعنى الرعاية والكلاءة. وقال البعض الحيطة بفتح الحاء بمعنى المراقبة وبكسرها بمعنى الحفظ.

٢. «الم» من مادة «لمم» بمعنى الجمع والاصلاح.

٣. شعث بالتحريك بمعنى التفرق والانتشار.

٤. نهج البلاغة، آخر الرسالة رقم ٣.

وقل غناء عنك مال جمعته إذا كان ميراثاً وواراك لاحد

نعم لايحمل الإنسان شيئاً من الأموال معه في قبره، إلّا أنّه يحمل العمل الصالح والذكر الحسن لدى الناس، فلا يكد يذكر إسمه حتّى يترحم عليه الناس ويسألون الله له المغفرة والعفو والرحمة.

هذا هو رأس المال المعنوي والمادي الخالد الذي يمكن نيله من خلال الإنفاق في سبيل الله وبذل الإحسان إلى عباد الرحمن. وزبدة الكلام فانّ الأغنياء قد دعوا إلى مدّ يد العون إلى فقراء المجتمع ومساعدتهم من خلال دافعين؛ الأول بغية الحصول على الأعوان والأنصار وتوظيفهم لصالحهم حين بروز النوائب والشدائد التي تواجههم في حياتهم، والثاني بهدف الحصول على السمعة الحسنة والذكر الطيب بعد الموت بما يجعل الآخرين يترحّمون عليهم ويسألون الله لهم العفو والمغفرة. وما أعظم هذه التجارة بهذا المتاع الدنيوي الزائل من أجل الحصول على السندين المذكورين.

فصل في حسن الثناء (لسان الصدق)

لقد ذكر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة أنّ لسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يورثه غيره. ولسان الصدق هو أن يذكر الإنسان بالخير، ويثنى عليه به، قال سبحانه: **﴿وَاجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾**[1] وهو دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام. كما أشار البارئ سبحانه في إطار ثنائه على طائفة من الأنبياء **﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيّاً﴾**[2]. واللسان في الآية بمعنى ذكر الإنسان بالخير. وممّا لا شك فيه أنّ هذه القضية ليست من قبيل القضايا الروتينية الجوفاء، بل تنطوي على عدّة معطيات على مستوى الفرد والمجتمع، فهي:

أولاً: أنّها لمن دواعي الفخر والاعتزاز الخالد، بينما نرى أنّ الأموال والثروات المادية إنّما توزّع في لحظة وقد لا يبقى لها من أثر.

ثانياً: إنّ حسن الثناء والذكر الحسن إنّما يسوق الآخرين للدعاء لهؤلاء الأفراد وطلب

1. سورة الشعراء / 84.
2. سورة مريم / 50.

الرحمة والمغفرة لهم من الله؛ الأمر الذي لا تخفي آثاره المعنوية.

ثالثاً: إنّ هذا الأمر له تأثيره البالغ في نفوس أبناء المجتمع في الاقتداء باولئك الأفراد وإحياء القيم العليا في المجتمع والقضاء على ما يخالفها. فقد جاء في الرواية المعروفة **«من سنّ سنّة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها»**[1].

وأخيراً أنّ ذلك من مدعاة العزة والرفعة والكرامة لدى نسل أُولئك الأفراد المحسنين، فما أكثر من نعرف من الأفراد الذين نكن لهم الحب والاحترام لانحدارهم من أُولئك الأفراد. هذه طائفة من الآثار المعنوية الفردية والاجتماعية للسان الصدق وطيب الاحدوثة.

---

١. لقد ورد هذا المضمون في عدة روايات ومنها كتاب وسائل الشيعة ١١ /الباب ١٦ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

القسم الرابع

ومنها: «**أَلاَ لاَ يَعْدِلَنَّ أَحَدُكُمْ عَنِ الْقَرَابَةِ يَرَى بِهَا الْخَصَاصَةَ أَنْ يَسُدَّهَا بِالَّذِي لاَ يَزِيدُهُ إِنْ أَمْسَكَهُ وَلاَ يَنْقُصُهُ إِنْ أَهْلَكَهُ؛ وَمَنْ يَقْبِضْ يَدَهُ عَنْ عَشِيرَتِهِ، فَإِنَّمَا تُقْبَضُ مِنْهُ عَنْهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ وَتُقْبَضُ مِنْهُمْ عَنْهُ أَيْدٍ كَثِيرَةٌ وَمَنْ تَلِنْ حَاشِيَتُهُ يَسْتَدِمْ مِنْ قَوْمِهِ الْمَوَدَّةَ**».

الشرح والتفسير

الإعتضاد بالعشيرة

بعد أن قرظ الإمامعليه السلام الثناء والذكر الجميل وفضله على المال، أمر بمواساة الأهل وصلة الرحم وإن قلّ ما يواسى به، حيث أكد هذا الأمر بثلاث عبارات فقالعليه السلام: «**ألا لا يعدلن أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة**[1] **أن يسدها بالذي لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه**». يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة لأحد معنيين؛ الأول إلى البعد المعنوي لهذا العمل في أنّ حرمان القرابة ممّا يتمتع به الإنسان من إمكانات وثروات من شأنه أن يسلب بركة مال الإنسان وحياته ويحول دون نمائه وزيادته، وعلى العكس من ذلك فانّ معونة القرابة ومساعدتها تنطوي على عدة بركات من شأنها أن تدرك هذا النقص الظاهري بتفضّلات الله وألطافه؛ أو أن يكون إشارة إلى بعده الظاهري والمادي، لأنّ مشاكل القرابة إنّما تنتقل بشكل أو بآخر إلى الإنسان وتؤرق فكره وتشغل روحه وتعرض سمعته وشخصيته للخطر وبالتالي تضاعف من مشاكله ومعاناته، وعليه فما أحراه أن يهب لمساعدتهم ومعونتهم ليظفر بثواب

---

١. «الخصاصة» هي الفقر والحاجة الشديدة وهي مصدر خص الرجل بمعنى احتاج وافتقر، وقال صاحب مقاييس اللغة تعني الثلمة ومن هنا أطلقت على الفقر والحاجة لأنّها ثلمة في حياة الإنسان.

الآخرة وبركات الدنيا وينال الذكر الطيب والاحدوثة الحسنة. فقد جاء في الحديث أن الإمام علي عليه السلام قال: «**البركة في مال من آتى الزكاة وآسى المؤمنين ووصل الأقربين**»[١] ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلى الأضرار الفادحة التي يتكبدها الإنسان إذا أمسك يده عن قرابته ولم يقدم العون والمساعدة، ومن ذلك إنّه إنّما يقطع عنهم يده بينما يقطعون عنه أيديهم التي لا غنى له عنها «**ومن يقبض يده عن عشيرته، فإنّما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه أيد كثيرة**». فالحق ليس هنالك من عاقل مستعد للتضحية بكل هذه المنافع من أجل التنازل عن بعض منافعه الشخصية الضئيلة، ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه بالقول «**ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودّة**». يمكن أن تنطوي مفردة «حاشيته» على معنيين؛ الأول صفات الإنسان وروحياته، والآخر أن تكون إشارة إلى البطانة وبناءً على هذا، فإنّ مفهوم الجملة هو تمحور قوم الإنسان حوله إذا حسن سلوك بطانته تجاه الناس. فقد رأينا الكثير من الأفراد الصالحين الذين انفرجوا عنهم الناس رغم صلاحهم بسبب سوء تصرف بطانتهم ومن حولهم.

فصل في بركات التعاضد بالقرابة

إنّ مسألة صلة الرحم وتوطيد أواصر المحبّة بالقرابة وإن كانت وظيفة إلهية ورد التأكيد عليها في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية، إلّا أنّ ممّا لاشك فيه أنّ القيام بهذه الوظيفة الدينية والإنسانية إنّما ينطوي على بركات جمة تعرضّ لها الإمام عليه السلام أواخر هذه الخطبة والمهم أن يعزز الإنسان هذه الأصرة ولا يمارس كلّ ما من شأنه الإساءة إليها أو قطعها. ولابدّ من الإحسان إلى القربى حين شعور الإنسان بوفور النعمة، لتهب للوقوف إلى جانبه إذا ما واجهته بعض المحن والخطوب. وقد دلّ الواقع بما لا يقبل الشك أنّ التفوّق على المشاكل لا يتأتى من خلال الجهود الفردية، بل يتطلب مؤازرة الآخرين وتكافؤ جهودهم، وما أحرى أن تكون الأولوية في هذه الرابطة للقرابة والعشيرة حيث يعرف كلّ منهما الآخر إلى جانب الإرتباط العاطفي الذي يشدّ كلّ منهما الآخر إلى جانب الإرتباط العاطفي الذي يشدّ كلّ منهما للآخر،

١. بحار الأنوار ٧٤ / ٤١٣.

غير أنّ المؤسف له أنّ أغلب الأفراد إنّما يضربون هذه الأمور عرض الجدار بمجرّد نيلهم بعض الثراء والنعمة فيبتعد عن قرابته ويحرم نفسه من كلّ هذه الطاقات التي يمكنها معالجة مصاعبه ومشاكله، وهذا هو المعنى الذي تناولته أغلب الروايات الواردة بهذا الشأن. فقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**صِلَةُ الرّحِمِ وَحُسْنُ الجِوار، يُعَمّران الديار وَيَزيدان فِي الأعمار**»[١]. وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**صِلَةُ الأرحامِ وَحُسنُ الجِوارِ، زيادَةٌ في الأموالِ**»[٢]. كما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**صِلَةُ الأرحامِ تُزَكّي الأعمال وَتُنْجِى الأموال وتَرْفَعُ البَلوى وتُيَسِّرُ الحِسابُ وتُنسِئ في الأجل**»[٣]. وبالمقابل فإنّ قطع الرحم ينطوي على آثار خطيرة على حياة الإنسان في الدنيا وسوء العذاب في الآخرة. فقد جاء في الحديث أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**أخبَرني جبرئيلُ إنَّ رِيحَ الجنَّةِ تُوجَدُ مِن مَسيرةِ ألفِ عامٍ ما يَجِدُها عاقٌّ ولا قاطِعُ رَحِمٍ ولا شَيخُ زانٍ**»[٤]

ولعل هنالك من يسأل: ما المراد بصلة الرحم؟ المراد هو تعميق أواصر المحبّة والنجدة في حل المشاكل وعدم الغفلة وتفقد الأحوال في كافة الظروف، وقد تحفظ هذه الصلة حتّى بالسلام والإرتباط عن طريق الهاتف. فقد قال أميرالمؤمنين علي عليه السلام: «**صِلُوا أرحامَكُم ولو بِالتسليمِ**»[٥] وسنتكلم في الأبحاث القادمة عن صلة الرحم ومعطياتها المادية والمعنوية بما يتناسب والمواضيع الواردة في الخطب. هذا وقد قال السيد الرضي(ره) في آخر هذه الخطبة:

«الغفيرة هاهنا الزيادة والكثرة؛ من قولهم للجمع الكثير: الجم الغفير، والجماء الغفير. ويروى عفوة من أهل أو مال».

والعفوة: الخيار من الشيء. يقال: «أكلت عفوة الطعام» أي خياره. وما أحسن المعنى الذي أراده عليه السلام بقوله: «ومن يقبض يده عن عشيرته...» إلى تمام الكلام؛ فانّ الممسك خيره عن عشيرته إنّما يمسك نفع يد واحدة، فاذا احتاج إلى نصرتهم، واضطر إلى

---

١. بحار الأنوار ٧١ / ١٢٠.
٢. بحار الأنوار ٧١ / ٩٧.
٣. بحار الأنوار ٧١/ ٢١١.
٤. معاني الأخبار نقلاً عن بحار الأنوار ٧١ / ٩٥ ح ٢٦.
٥. اصول الكافي نقلاً عن بحار الأنوار ٧١ / ١٢٦.

مرافدتهم، قعدوا عن نصره، وتثاقلوا عن صوته، فمنع ترافد الأيدي الكثيرة، وتناهض الأقدام الجمة.

الخطبة ٢٤

ومن خطبة لهﷺ

وهي كلمة جامعة له، فيها تسويغ قتال المخالف والدعوة إلى طاعة الله، والترقي فيها لضمان الفوز

«وَلَعَمْرِي! مَا عَلَيَّ مِنْ قِتَالِ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ وَخَابَطَ الْغَيَّ، مِنْ إِدْهَانٍ وَلاَ إِيهَانٍ. فَاتَّقُوا اللّٰهَ عِبَادَ اللّٰهِ، وَفِرُّوا إِلَى اللّٰهِ مِنَ اللّٰهِ، وَامْضُوا فِي الَّذِي نَهَجَهُ لَكُمْ، وَقُومُوا بِمَا عَصَبَهُ بِكُمْ، فَعَلِيٌّ ضَامِنٌ لِفَلْجِكُمْ آجِلاً، إِنْ لَمْ تُمْنَحُوهُ عَاجِلاً».

نظرة إلى الخطبة

يهدد الإمامﷺ في هذه الخطبة مخالفيه بشدة ويعرب عن عزمه الراسخ في التصدي لهم وقتالهم بعد أن يقنطهم من أدنى موادعة أو مصالحة على حساب العدل والحق، ثم يوصي صحبه بمواكبته في هذا الطريق والتأهب لمواجهة أعداء الدين. ويرى البعض أنّ الخطبة في الواقع ردّ على أُولئك الذين يشكلون على الإمامﷺ في مساومة الأعداء واضطرارهم للاستسلام من خلال استمالتهم بالرشوة و... فالإمامﷺ يكشف أنّه ليس من أهل المساومة والخداع.[1]

١. مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة ١/ ١١٢.

الشرح والتفسير

المساومة والمصانعة

استهلّ الإمام عليه السلام خطبته بالقول: «**ولعمري[١] ما عليّ من قتال من خالف الحق وخابط[٢] الغي، من إدهان[٣] ولا إيهان[٤]**».

يبدو أنّ هنالك فارق بين العبارتين «خالف الحق» و«خابط الغي» ـ هو أنّ العبارة الاولى إلى الفرد الذي يشق عن علم سبيل مخالفة الحق، بينما تشير الثانية إلى من يختار ذلك الطريق ويسبح في بحر من الضلال جهلاً وخطأ ودون أدنى تأمّل ومطالعة. أمّا تعبيره عليه السلام بالادهان (المجاملة والمداهنة) والايهان (الضعف) فهو تحديد إلى أنّ الكف عن القتال والمواجهة إنّما يستند إلى أحد سببين؛ إمّا المجاملة والمداهنة لأعداء الحق، أو الضعف والعجز، وحيث لم يكن لأي من هذا السببين من سبيل إلى كيان علي عليه السلام فإنّ مواجهته لمخالفي الحق عنيفة لا هوادة فيها.

وقد ورد تقريباً شبه هذا المعنى في سائر كلمات الإمام عليه السلام في إطار حديثه عن الإطار العام الذي يتحرّك ضمن دائرته زعماء المسلمين وأئمتهم فقد قال عليه السلام: «**لا يُقيمُ أمرَ اللهِ سُبحانَه إلّا مَنْ لا يُصانِعُ ولا يُضارِعُ ولا يَتّبِعُ المَطامِعَ**»[٥]. كما وصف نفسه عليه السلام في موضع آخر فقال: «**وأيمُ الله لقد كنتُ مِن ساقتها حتّى تَوَلّتْ بِحَذافيرِها واستَوسَقَتْ في قِيادها، ما ضَعُفْتُ ولا جَبُنْتُ ولا خُنْتُ ولا وَهَنْتُ**»[٦].

---

١. «العمري» و«عَمْر» و«عُمُر» و«عُمْر» بمعنى مدة الحياة ويقال حين القسم لعمري بفتح العين. وهي هنا مبتدأ لخبر محذوف تقديره «لعمري قسمي» وقد ورد سؤال في مجمع البحرين كيف بهذا القسم وهو لا يجوز بغير الذات الالهية المقدسة؟ وأجيب بأنّ هذا القسم ليس حقيقة بل بصورة قسم، وتقديره «بواهب عمري وعمرك».

٢. «خابط» من مادة «خبط» وخابط الغي بمعنى صارع الفساد، وأصل الخبط اليسر في الظلام، وتستعمل للناقة حين تخبط في مشيها.

٣. «الادهان» من مادة «دهن» بمعنى المنافقة والمصانعة ولا تخلو من مخالفة الباطن للظاهر، كما تستعمل كناية عن المجاملة والمداهنة.

٤. «الايهان» من مادة «وهن» بمعنى الضعف سواء في الخلقة أو الأخلاق، والايهان والتوهين بمعنى الاضعاف.

٥. نهج البلاغة، الكلمات قصار، ١١٠.

٦. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٤.

ثم أبدىعليه السلام نصائحه ووصاياه وفي مقدمتها مراعاة الورع والتقوى فقالعليه السلام: «**فاتقوا الله عباد الله**». فالتقوى ـ التي تعني خشية الله في الباطن وعدم مقارفة الذنوب والمعاصي والعمل على طاعة الله ـ هي أساس الأعمال الصالحة والباقيات الصالحات، ومن هنا ورد التأكيد عليها بصفتها مقدمة لسائر الوصايا الأخلاقية والدينية. ثم أوصىعليه السلام بالفرار من معصية الله إلى طاعته وغضبه وسخطه إلى رضاه وعذابه إلى رحمته ونقمته إلى نعمته «**وفرّوا إلى الله من الله**» فالعبارة إشارة لطيفة إلى مسألة توحيد الأفعال، لأنّ أية مشكلة تواجه الإنسان في هذا العالم إنّما تفرزها طبيعة أعماله والآثار التي أودعها الله هذه الأعمال. وعليه فمشاكله من ذاته وعقابه ممّا تفرزه أعماله، وعليه فليس أمامه من سبيل لحل مشاكله سوى الفرار إلى الله واللجوء إليه إذ «لا مؤثر في الوجود إلّا الله» وكل خير وبركة ونجاة تفاض على الإنسان من الله سبحانه ـ القرآن من جانبه تحدث عن طائفة من العصاة الذين استحقوا سخط الله وغضبه ولم يعد أمامهم من سبيل سوى اللجوء إلى الله سبحانه ﴿**وَظَنُّوا أَنْ لامَلْجَأَ مِنَ اللّـهِ إلّا اليه**﴾[1] الطريف في الأمر أنّ الإنسان إذا شعر بخوف من أحد لاذ بآخر، إلّا أنّ ذلك ليس كذلك بالنسبة لله سبحانه، فاذا ما خافه الإنسان وخشي عذابه، لجأ إليه، وهل هناك من هو أرحم بالإنسان منه؟! هذا هو الدرس الذي ينبغي أن تتعلمه من التوحيد الأفعالي في أنّ الله هو مصدر كلّ خير وحركة وبركة. فلله الأسماء والصفات التي تدعونا للجوء إلى الله على كلّ حال وفي كلّ الظروف.

فان خشينا سخطه وغضبه لذنا بعفوه ورحمته، وإن خفنا عدله لجأنا إلى فضله وكرمه. وأخيراً يبدو أنّ هذه العبارة مقتبسة من قوله سبحانه على لسان رسوله الكريمصلى الله عليه وآله: ﴿**فَفِرُّوا إِلىٰ اللّٰهِ إِنّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾[2]. ثم قال عليه السلام في الوصية الثالثة «وامضوا في الذي نهجه لكم» ثم أوصىعليه السلام قائلا: «**وقوموا عصبة**[3] **بكم**». والواقع أنّ الإمامعليه السلام قد سنّ بهذه العبارات قانوناً جامعاً يشتمل على أربعة بنود من شأنها ضمان السعادة النجاة:

---

١. سورة التوبة / ١١٨.
٢. سورة الذاريات / ١٥١.
٣. «عصب» من مادة «عصب» على وزن ضَرَبَ الذي يربط العظام والعضلات، أي كلفكم به وألزمكم أدائه.

الأول: مراعاة التقوى وخشية الله.

الثاني: الحركة نحو الله من خلال الفرار منه إليه سبحانه.

الثالث: الثبات على النهج الإيماني وسلوك السبيل الصحيح نحو الله.

الرابع: العمل بالتكاليف والوظائف الدينية التي أمر بها الشارع المقدس.

قد يقال أنّ الوصايا الأربعة استهلت بفاء التفريع فما علاقتها بصدر الخطبة الذي تحدث عن العزم الراسخ في مجابهة مخالفي الحق وقتالهم؟ والجواب على هذا السؤال واضح، لأنّ قتال هذه الطائفة المنحرفة الجائرة إنّما يتطلب جنوداً أشداء مؤمنين من ذوي العزم والإرادة، وكأنّ الإمام عليه السلام أراد أن يعدّ أصحابه للوقوف بوجه أصحاب الباطل. جدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام عبّر عن التكاليف بقوله «**ما عصيه بكم**» (التكاليف التي كلّفتم بها وأمركم بأدائها)، ومفهوم العبارة هو أنّ الوظائف الإلهية ليست من الأمور التي يستطيع الإنسان إهمالها وعدم الإكتراث لها، بل هي طوق في رقبته ودين في ذمته لابدّ له من أدائه.

يذكر أنّ هذه التعبيرات قد وردت في أغلب الآيات والروايات التي تشير إلى أنّ الإنسان إنّما يتحرر من القيود إذا ما أدّى هذه التكاليف والوظائف. وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته بضمانة النصر والغلبة والعاقبة الحسنة لأصحابه في خوضهم القتال ضد تلك الطائفة الضالة عن الحق، النصر الذي سيفوزون به في الدار الآخرة لا محالة إذا تعذر في دار الدنيا «**فعليَّ ضامن لفلجكم آجلاً إن لم تمنحوه عاجلاً**». وهذا هو المنطق القوي والرصين الذي اعتمده القرآن في مخاطبته لأتباعه في تصديهم لأعداء الحق بأنّهم منتصرون غالبون مهما كانت نتيجة القتال: ﴿**قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ**﴾[1] ومعلوم أنّ الجنود الذين يرون أنفسهم منتصرين في جميع الأحوال وأنّ عدوهم مهزوم، إنّما يقاتلون بمعنويات عالية دون أن يشعروا بأدنى خوف أو خطر ممّا ستفرزه أحداث القتال. فيرى أغلب العلماء والمفكّرين أنّ الإيمان بهذا المبدأ ـ النصر أو الشهادة ـ هو العامل الرئيسي الذي يقف وراء

---

١. سورة التوبة / ٥٢.

الانتصار الذي يشعر به المسلمون في جبهات القتال رغم عدم الموازنة في القوى والتكافؤ في العدة والعدد مع جيوش الأعداء. وهذا هو المبدأ الذي ينبغي أن يجعله العالم الإسلامي اليوم نصب عينيه في مجابهته لعالم الكفر فلا ينبهر بإمكاناته وتجهيزاته الزائفة.

والحق أنّ هذا المبدأ لا يحصل إلّا في ظل الإيمان والورع والتقوى وخوف الله.

فصل في الضعف والمساومة

إنّ من الفوارق الأساسية بين الساسة الربانيين والساسة العاديين إنّما يكمن في أنّ ساسة الدنيا لا يتورّعون عن أيّة وسيلة من أجل تحقيق أطماعهم وأغراضهم الشخصية، وغالباً ما يساومون العدو على المبادئ الإنسانية ومصالح مجتمعاتهم ويتجاهلون الحق والعدالة، بغية حفظ مواقعهم السياسية والاجتماعية، في حين ليست هنالك من مساومة في قاموس الساسة الربانيين، بل غالباً ما يضحي هؤلاء بمواقعهم الحساسة حرصاً على حفظ المبادئ ورعاية للحق والعدل والقسط؛ الأمر الذي نلمسه بوضوح في سيرة الرسول الأكرمﷺ وتلميذه أميرالمؤمنين عليعليه السلام. فما أكثر الأفراد الذين اعترضوا على سياسة عليعليه السلام من قبيل استمالة الآخرين عن طريق التمييز في العطاء من بيت مال المسلمين: أو الإبقاء على معاوية في حكومة الشام، دون أن يحدثوا أنفسهم بالأساليب التي يتبعها معاوية في حكومته للناس أو المبادئ التي سيعبر عليها في هذه الحكومة! أو الاقتراح الذي طرحه عليه عبد الرحمن بن عوف في الشورى بتسليمه مقاليد الأُمور شريطة العمل بسياسة الشيخين، أو تفويض طلحة والزبير ولاية البصرة والكوفة. وقد اقترح من قبل، على رسول اللهﷺ بعض الاقتراحات من قبيل اقتضاء المصلحة لطرده الضعفاء والمستضعفين. فأُولئك وإن كانوا يفيضون إيماناً بالله ورسوله، إلّا أنّ المصلحة تقتضي استقطاب الأغنياء وتعبئتهم ضدّ العدو رغم خلو قلوبهم من الإيمان!

ويبدو أنّ اختلاف الرؤية (على ضوء السياسة الإلهية والسياسة الشيطانية) واختلاف المصلحة من الواقع هي التي دفعت بأُولئك الأفراد والفئات الدنيوية للاعتراض على السياسة النبوية والعلوية.

والإمامعليه السلام يوضح في هذه الخطبة السياسة التي سيتبعها وأنّه ليس من أولئك الساسة

الذين يرون للمجاملة والمداهنة من مكان في سياسته وتعامله مع المارقين عن الحق والعدالة، وليس لديه من وسائل سوى التقوى وامتثال التكاليف الشرعية دون الإكتراث لهذا أو ذاك من المساومين والمعترضين، ونوكل المزيد من الكلام في هذا الموضوع إلى محلّه.

الخطبة[1] ٢٥

ومن خطبة له ﷺ

وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، وقدم عليه عاملاه على اليمن ـ وهما عبيد الله بن عباس وسعيد بن نمران ـ لمّا غلب عليهما بسر بن أبي أرطاة فقام ﷺ على المنبر ضجرا بتثاقل أصحابه عن الجهاد، ومخالفتهم له في الرأي، فقال:

القسم الأول

«مٰا هِيَ إِلاَّ الْكُوفَةُ أَقْبِضُهٰا وَأَبْسُطُهٰا، إِنْ لَمْ تَكُونِي إِلاَّ أَنْتِ تَهُبُّ أَعٰاصِيرُكِ، فَقَبَّحَكِ اللّٰهُ وتمثل بقول الشاعر:

لَعَمْرُ أَبِيكَ الْخَيْرِ يٰا عَمْرُو إِنَّنِي ... عَلَى وَضَرٍ مِنْ ذٰا الْإِنٰاءِ قَلِيلِ»

نظرة إلى الخطبة

يعتقد بعض شرّاح نهج البلاغة كابن أبي الحديد أنّ الخطبة بعد صفين والتحكيم والخوارج، حيث ألقاها ﷺ أواخر عمره الشريف[2]. ويفهم من مقدمة الشريف الرضي أنّ الإمام ﷺ أورد هذه الخطبة حين تواترت عليه الأخبار بشأن استيلاء أصحاب معاوية على

١. جاء في مصادر نهج البلاغة أنّ المسعودي أورد هذه الخطبة مع اختلاف طفيف في مروج الذهب قبل المرحوم السيد الرضي، ثم قال: وقد أشار إليها العقد الفريد وابن عساكر في تاريخ دمشق.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، آخر الخطبة.

البلاد الإسلامية، حيث بلغه عاملاه على اليمن فأطلعاه على غلبة بسر بن أرطاة لهما على تلك المنطقة. فقد كان بعض أتباع عثمان في صنعاء وكانوا قد بايعوا علياًﷺ مكراً وخديعة. وكان عبيد الله بن عباس آنذاك عامل عليﷺ على اليمن وقائد الجيش كان سعيد بن نمران. وقد شنت الغارات تلو الغارات من قبل أهل الشام على المناطق الإسلامية بعد قتل محمد بن أبي بكر الذي نصبه الإمامﷺ والياً على مصر. قام أتباع عثمان ـ في اليمن ـ بدعوة الناس للمطالبة بدم عثمان، فتصدى لهم عبيد الله بن عباس وأمر بسجنهم. فكتبوا من السجن إلى بعض أصحابهم في الجيش لعزل سعيد بن نمران والخروج عليه. ففعلوا والتحق بهم طائفة من اليمن ثم امتنعوا عن دفع الزكاة. فكتب عبيد الله وسعيد كتاباً للإمامﷺ. فكتب الإمامﷺ كتاباً لأهل اليمن ودعاهم للعمل بوظائفهم وحذرهم من العصيان والتمرد. فردّوا عليه بالتزامهم بطاعة الإمامﷺ بشرط عزل هذين الشخصين. ثم كتبوا لمعاوية. فبعث معاوية بسراً إلى اليمن في جيش كثيف وأمره أن يقتل كلّ من كان في طاعة عليﷺ. فقتل خلقاً كثيراً، وقتل في من قتل في مكّة داود وسليمان، إبني عبيد الله بن عباس كما قتل في الطائف صهر عبيد الله. ثم بلغ اليمن بعد أن خرج منها عبيد الله وسعيد، واستخلف علياً عبدالله بن عمرو الثقفي، فحمل بسر عليه فقتله ثم استولى على صنعاء مركز اليمن. فلمّا دخل عبيد الله وسعيد على الإمامﷺ في الكوفة ذمهماﷺ لتركهما مكانهما، ثم صعد المنبر وألقى هذه الخطبة.

على كل حال فإنّ الخطبة قد أوردت حين اشتدت حملات أهل الشام على مختلف مناطق البلاد الإسلامية وضعف المقاومة التي أبداها أصحاب الإمامﷺ حيث كان الإمامﷺ في غاية التذمر والاستياء، فقد استهل الإمامﷺ خطبته بالشكوى من قلّة الأفراد المطيعين، ثم تعرّضﷺ إلى الواقعة الأليمة لحملات بسر بن أرطاة وغلبته على اليمن، ثم يختتم الإمامﷺ خطبته بالشكوى لله من هؤلاء القوم الذين مردّوا على النفاق والمعصية فيدعوا عليهم ويسأل الله أبدالهم بشر منه وإبداله من هو خير منهم.

الشرح والتفسير

النفاق والعصيان ودور الإمام

تبدو عبارات الإمامﷺ واضحة بالالتفات إلى سبب ورود الخطبة والأجواء التي كانت

حاكمة آنذاك، فقد أشار الإمام﵇ إلى أنّه لم تبق لديه سوى الكوفة بعد ذلك التمرّد والعصيان «**ما هي**[1] **إلّا الكوفة، أقبضها وأبسطها**». والسؤال المطروح هنا: ماهي العلل والعوامل التي جعلت جيش الإمام﵇ يعيش هذه الحالة الخطيرة في العراق وسائر المناطق الإسلامية؟ نترك الإجابة على هذا السؤال إلى البحث الذي سنخوض فيه في موضوع تأملات.

أمّا المسألة المهمّة فهي أنّ رجلاً ربانياً مثلَ علي﵇ وبتلك الشجاعة والبطولة والحنكة في التدبير إنّما عاش تلك الحالة تجاه أعداء الإسلام أثر عدم وجود القُوىٰ المخلصة والشجاعة الموالية للحق والمواكبة لحركة الإمام﵇. فقد أشار الإمام﵇ بقوله «**أقبضها وأبسطها**» بشأن الكوفة إلى خروج سائر المناطق عن حكومته وإن كانت خاضعة لها ظاهرياً. ثم قال﵇: «**ان لم تكوني إلّا أنت تهبّ أعاصيرك**[2] **فقبحك الله**» في إشارة إلى أنّ الكوفة وإن كانت مركز حكومة الإمام﵇ إلّا أنّها لم تكن خالية من التمرد والنفاق، بحيث لم يكن الإمام﵇ يحسب لأهلها ذلك الحساب. وما أعظم معاناته﵇ وهو بذلك العلم والحلم والحكمة والشجاعة إلّا أنّه يفتقر إلى المخلصين من الأتباع.

ثم تمثل﵇ بقول الشاعر:

لعمر أبيك الخير يا عمرو إنني ... على وضر من ذا الإناء قليل

«وضر» سواء كان بمعنى بقية الدسم في الإناء، أو بقية قطرات الماء في الإناء، أو الرائحة الباقية في إناء الطعام، فهي إشارة إلى أنّ الكوفة لم تكن سوى ذرة زهيدة آنذاك بالنسبة للعالم الإسلامي الواسع، ولا يسع أيّ زعيم بالاعتماد على أهل هذه المنطقة مهما كان من حفظ بيضة الإسلام والدفاع عن البلاد الإسلامية والوقوف بوجه هذه الذئاب الكاسرة المتعطشة للدماء.

الشرح والتفسير

١ـ الكوفة على وجهين

تعتبر الكوفة من المناطق الإسلامية المشهورة في التأريخ والتي كانت مسرّحاً لعدّة

---

١. الضمير «هي» يعود إلى الحكومة أو البلاد فمفهوم العبارة «ما الحكومة والمملكة التي تحت سيطرتي إلّا الكوفة».

٢. «أعاصير» جمع «إعصار» وهي ريح تهب وتمتد من الأرض نحو السماء كالعمود كما تطلق كناية على الأمور الاجتماعية وهي تعني الفوضى التي كانت سائدة في الكوفة طول التأريخ.

حوادث حتى إقترن تأريخ الإسلام بتلك المنطقة ويعتقد البعض أنّ إسمها مشتق من شكلها الذي يشبه الدائرة، حيث كانت تصطلح العرب على المنطقة الرملية المدورة بإسم «كوفان»، وقال البعض سمّيت بذلك الإسم لاجتماع الناس هناك؛ لأنّ أحد معاني هذه المفردة هو الاجتماع والتجمّع كما ذكروا عدّة وجوه أُخرى للتسمية لايسع المقام الخوض في تفاصيلها. وقيل بنيت عام ١٧ هـ على عهد الخليفة الثاني على يد سعد بن أبي وقّاص، وكانت أكبر مدن العراق التي تشد إليها الرحال. وسمّيت «قبة الإسلام». وقيل أن سعد بن أبي وقاص قد نزل المدائن بعد فتح العراق وغلبة الساسانيين فبعث رسله ليبشّر الخليفة الثاني بالفتوحات، فلما رأىٰ الخليفة رسل سعد وقد شحبت وجوههم سألهم السبب، فذكروا له سوء مناخ مدن العراق، فأمر ببناء مدينة تتناسب ومزاج العسكر فاختار سعد الكوفة. ولم تمض مدة حتّى إشتعلت فيها النار فاحترقت ـ ثم بنيت من اللبنات. وقد خيّر سعد المسلمين بنزول المدائن أو الكوفة. فاختار فريق منهم الكوفة واستعادوا صحتهم.[1]

وهناك عدّة روايات صرّحت بعضها بذم الكوفة في حين صرّح البعض الآخر بمدحها، ويبدو أنّ الروايات قد وردت بشأن مختلف عصور الكوفة والأقوام التي سكنت فيها. فقد فسرّت بعض الروايات قوله سبحانه ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾[2] الواردة في الآية بالكوفة.

وجاء في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**الكُوفَةُ رَوْضَةٌ مِن رِياضِ الجَنَّةِ**»، كما ورد في ذيل هذه الرواية أنّ فيه قبر نوح وإبراهيم وقبر سيد الأوصياء الإمام علي عليه السلام وقبور ثلاثمأة وسبعين نبياً وستمأة وصيّاً. وروى عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال: «**إنّه ليس بَلَدٌ مِنَ البُلدانِ وَمِصرٌ مِنَ الأمصارِ، أكثَرَ مُحِبّاً لنَا مِن أهلِ الكُوفةِ**»[3]. مع ذلك فقد شهدت الكوفة عدّة عصور تسلّط عليها الأعداء ولاسيّما أعداء أهل البيت عليهم السلام بحيث أصبحت من الأوكار المناهضة للإسلام وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

---

١. معجم البلدان، مادة «كوفة»، التأريخ الكامل ٢ / ٥٢٧، قاموس (مادة كوفة).
٢. سورة التين / ٢.
٣. سفينة البحار، مادة «كوفة».

٢ ـ أهل الكوفة والإمام عليه السلام

كلّنا نعلم بأنّ إحدى مشاكل حكومة الإمام علي عليه السلام تكمن في أهل العراق ولاسيا أهل الكوفة الذين يتّصفون بالتمرد وعدم الطاعة؛ الأمر الذي جعل الإمام عليه السلام يتعرّض له في عدّة خطب ليعرب عن إستيائه منهم وشكواه، في حين كانت روحية أهل الشام وطاعتهم تمثّل أحد عوامل تفوّق معاوية في أعماله.

وقد نظر بعض المؤرّخين إلى هذا الموضوع نظرة إيجابية فذهبوا إلى أنّ العلّة في عصيان أهل العراق على الأمراء وطاعة أهل الشام، أنّ أهل العراق أهل نظر وذوو فطن ثاقبة، ومع الفطنة والنظر يكون التنقيب والبحث، ومع التنقيب والبحث يكون الطعن والقدح والترجيح بين الرجال، والتمييز بين الرؤساء، وإظهار عيوب الأمراء، وأهل الشام ذوو بلادة وتقليد وجمود على رأي واحد، لا يرون النظر، ولا يسألون عن مغيب الأحوال ومازال العراق موصوفاً أهله بقلّة الطاعة، وبالشقاق على أُولى الرئاسة.[1]

إلّا أنّ المرحوم مغنية يرى أنّ هذا الكلام أجوف لا أساس له. فأي عيب كان يسع أهل العراق أن يردّوه على حكومة العدل العلوية حتّى مارسوا ذلك الشقاق والنفاق (أيّة فطنة ثاقبة تدفع بالأفراد إلى العصيان والتمرّد والذي أدّى إلى تلك الذلّة والخنوع أمام العدو؟!) والحق كما ذكره المؤرّخون ومنهم طه حسين في كتابه (علي وبنوه) أنّ سياسة معاوية كانت قائمة على المكر والخداع وشراء دين الناس بينما اعتمد الإمام علي عليه السلام على الحق والعدل، ولعل الشاهد على ذلك مارد به الإمام عليه السلام حين قال: «**أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن ولّيت عليه؟! والله لا أطور به ما سمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً**»[2]. ثم ردّ عليه السلام على أُولئك الذين قارنوا بين سياسته وسياسة معاوية قائلاً: «**والله ما معاوية بأدهى منّي لكنّه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس**»[3]. وهو الأمر الذي نلمسه اليوم بوضوح في عصرنا الراهن حيث يرى بعض الأفراد وضمن تحليلاتهم الاجتماعية أن الساسة

---

١. نقل هذا الكلام ابن أبي الحديد عن الجاحظ (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٣٤٣).
٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٦.
٣. نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٠.

الأفذاذ هم أُولئك الذين يعتمدون أساليب التضليل والخداع والذين لا يتورعون عن التشبث بأخسّ الوسائل من أجل تحقيق أهدافهم وأطماعهم، في حين لا يرون من كفاءة وجدارة لأُولئك الأفراد من أهل الإيمان والورع والتقوى الذين لا يساومون على القيم والمبادئ، نعم للأسف مازال هذا الخطأ الفاحش هو الذي يسود بعض العقول والأفكار، وقد أدى إلى سلسلة من المفاسد السياسية والاجتماعية، بل ما أعظم الدماء البريئة التي سفكت على مدى التأريخ بسبب هذه النظرة الخاطئة على كلّ حال فإنّ الواقع هو غير ماذكر، فالعراق ولاسيما منطقة الكوفة إنّما سكنت من عدّة فئات وبمختلف الثقافات وقد تأثروا إلى حد بعيد بسياسة عثمان بما دفعهم للتكالب على الدنيا والاغترار بها وقد أصبحت السنن الخاطئة آنذاك من مفردات حياتهم اليومية (بما في ذلك التمييز في العطاء من بيت المال) حتّى كان أغلب زعماء القبائل يتوقعون المناصب والأموال الطائلة؛ الأمر الذي جعل معاوية ينجح في إستمالتهم فكانوا يتقاطرون على معاوية، الواحد تلو الآخر.

أضف إلى ذلك فقد كانت هنالك بعض الفوارق بين روحية أهل العراق والشام، منها أنّ أهل الشام كانوا يعرفون بالعمل، بينما كان العراقيون أهل كلام كما كان الشاميون يتحلّون بالانضباط الاجتماعي ولم يكن مثل هذا الانضباط سائداً لدى أهل العراق. وأخيراً كان أهل الشام أوفياء، بينما يمتاز أهل العراق بالغدر ونكث العهود.

وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا ينسحب على أهل العراق في أيّ عصر وزمان غير زمان الإمام علي عليه السلام كعصر الإمام الحسن أو الحسين عليهما السلام. ومن هنا وردت روايات الأئمة المعصومين عليهم السلام التي تشيد بأهل العراق والكوفة. ولا غرابة أن تتّصف أُمّة ببعض الصفات السلبية في عصر من العصور، ثم تنسلخ عنها فتتحلى بصفات إيجابية.

ﮓﮔ

القسم الثاني

ثم قال عليه السلام:

«أُنْبِئْتُ بُسْراً قَدِ اطَّلَعَ الْيَمَنَ وَإِنِّي -وَاللّهِ- لأَظُنُّ أَنَّ هؤُلاَءِ الْقَوْمَ سَيُدَالُونَ مِنْكُمْ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى بَاطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ وَبِمَعْصِيَتِكُمْ إِمَامَكُمْ فِي الْحَقِّ، وَطَاعَتِهِمْ إِمَامَهُمْ فِي الْبَاطِلِ وَبِأَدَائِهِمُ الأَمَانَةَ إِلَى صَاحِبِهِمْ وَخِيَانَتِكُمْ وَبِصَلاَحِهِمْ فِي بِلاَدِهِمْ وَفَسَادِكُمْ، فَلَوِ ائْتَمَنْتُ أَحَدَكُمْ عَلَى قَعْبٍ، لَخَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَ بِعِلاَقَتِهِ».

الشرح والتفسير

سرّ الانهيار

أشار الإمام عليه السلام -في هذا المقطع من الخطبة- إلى قصة بسر بن ارطاة ذلك الجبار الشامي الفض وغلبته على اليمن، ثم تطرق عليه السلام إلى مصير أهل العراق والمستقبل المظلم الذي ينتظرهم مع ذكر الأسباب والعلل التي ستفضي إلى ذلك المستقبل. فقد ذكر بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ معاوية وجّه بسراً إلى المدينة وأمره بقتل شيعة علي عليه السلام وإرعاب أهل المدينة التي هبت لنصرة رسول الله صلى الله عليه وآله وقاتلت أبي سفيان، فدخل المدينة وشتم أهلها وهدّدهم وتوعدهم، ثم دعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوه، وأحرق دوراً كثيرة. ثم قصد اليمن فاستباح أهلها وقد قتل ولدي حاكم اليمن آنذاك عبد الله بن عباس.[1] وقد ذكر ابن أثير أنّ هذين الطفلين لاذا بأعرابي من بني كنانة، فلما أراد بسر أن يقتلهما، قال له الكناني: دعهما فلا ذنب لهما، فإن كنت قاتلهما

1. في ظلال نهج البلاغة ١ / ١٧٧.

فاقتلني معهما، حيث كان يعتبر ذلك الأعرابي أن قتلهما يعني تقصيره في أداء الأمانة. فما كان من بسر إلّا أن قتلهما وقتل هذا الأعرابي.[١]

على كل حال إطلع أمير المؤمنين علي ﷺ على هذه الأخبار الأليمة فساءه ذلك فقال: «**أُنبئت بسراً قد اطَّلع[٢] اليمن وإني والله لأظن أنّ هؤلاء القوم سيدالون[٣] منكم**»، ثم تطرق ﷺ إلى علل هذه الدولة ليسلط الضوء على أربعة عناصر مهمّة تقف وراء النصر، فقال ﷺ: «**باجتماعهم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقكم**». فالاتحاد دعامة النصر ولاسيّما إذا سادت الوحدة أتباع الحق. ولكن يالها من مصيبة أن يتفرق دعاة الحق عن حقهم ويجتمع دعاة الباطل ويتحدون على باطلهم! رغم أنّ الباطل مصدر الخلاف والتشتت وأنّ الحق مركز الاخاء والوحدة. نعم فإنّ الوفاق والاتحاد لمن دوعي النصر والنجاح في كل عمل وإنّ الشقاق والفرقة لمن دواعي الهزيمة والفشل.

أمّا العنصر الثاني فيخلّص في الطاعة وإمتثال الأوامر التي كانت سائدة لأصحاب الباطل وعدم طاعة أهل الحق لإمامهم: «**وبمعصيتكم إمامكم في الحقّ، وطاعتهم إمامهم في الباطل**». أجل فالانضباط والطاعة حيثما كانت إنّما تقود إلى النصر والغلبة. وليس لجيش ولا لأُمّة أن تبلغ ما تريد دون رعايتها للانضباط وطاعتها لآمرها وزعيمها، ومن هنا ورد التأكيد في كافّة الدوائر والمؤسسات اليوم على مسألة الانضباط والالتزام بالمقررات.

العنصر الثالث يتمثّل بالأمانة والوفاء بالعهد والتي تقابلها الخيانة ونقض العهود ولاسيّما حيال الرؤساء والزعماء «**وبادائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم**» فأمانتهم إنّما دفعت بهم لتعبئة كافّة الإمكانات والطاقات ضد أعدائهم، في حين بددت خيانتكم هذه الطاقات وذهبت بها أدراج الرياح، وهل من مصير ينتظر من ضيع طاقاته وبدد إمكاناته سوى الهزيمة

---

١. الكامل لابن أثير ٣٨٣/٣؛ تأريخ الطبري ٤/ ١٠٦، ١٠٨.

٢. اطلع، تعني في الأصل النظر من الأعلى، واستعملت كناية عن النصر والغلبة المفاجاة، مادة «طلوع» بمعنى الظهور.

٣. «يدالون» (فعل مضارع مجهول من باب الأفعال) من مدة دولة بمعنى الانتقال من مكان إلى آخر. ومن هنا اطلقت الدولة على المال والثروة التي تتداول بين الناس، والمراد بها في هذه العبارة سيغلبونكم وتكون لهم الدولة بدلكم.

والفشل. لقد فسرّ بعض شرّاح نهج البلاغة الأمانة هنا بالبيعة، غير أنّ التفسير الذي أوردناه سابقاً واستناداً إلى سائر عبارات الخطبة يبدو أنسب من هذا التفسير، أضف إلى ذلك فإن كانت البيعة بمعنى الطاعة فقد ذكرت سابقاً ولا داعي للتكرار.

وأخيراً «وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم» وعليه فقد أوجز الإمام عليه السلام عوامل نصرهم وفشل إتباعه في اتّحادهم وانضباطهم وأمانتهم وصلاحهم في بلادهم، في حين عاش أتباعه الفرقة والاختلاف والغدر والخيانة والفساد. فأساليب الإدارة والحنكة في الحكومة وإدارة شؤون البلاد مهما كانت قويّة فإنّها لن تؤدّي إلى نتائج مرضية في ظلّ هؤلاء الأفراد الذين يمثّلون أذرع الحاكم وعناصره في الدولة.

أجل فالحق ضعيف مهضوم إذا مافسد أتباعه، والباطل قوي في ظلّ اتّحاد أتباعه.

ثم يختتم الإمام عليه السلام كلامه قائلاً: «**فلو ائتمنت أحدكم على قعب**[1] **لخشيت أن يذهب بعلاقته**[2]».

فهل من مجال للوثوق بمثل هؤلاء الأفراد الذين لا يؤتمنون على أتفه الأشياء، فضلاً عن القيام بإدارة شؤون الحكومة الإسلامية ومسائل الصلح والقتال وبيت المال وامثال ذلك.

تأمّلات

١ ـ بسر بن أرطاة القائد السفاح لمعاوية

فأمّا خبرُ بُسْرِبن أرطاة العامريّ؛ من بني عامربن لؤي بن غالب، وبَعث معاوية له ليُغيرَ على أعمال أميرالمؤمنين عليه‌السلام، وما عَمِله من سَفْك الدماء وأخذ الأموال، فقد ذكر أرباب السّير أنّ الذي هاج معاوية على تسريح بُسْر ابن أرطاة ـ ويقال ابن أبي أرطاة ـ إلى الحجاز واليمن، أنّ قوما بصنعاء كانوا من شيعة عثمان، يُعَظِّمون قتلَه، لم يكن لهم نظام ولا رأس، فبايعوا لعليّ عليه‌السلام على ما في أنفسهم؛ وعاملُ عليّ عليه‌السلام على صنعاء يومئذ

١. «قعب»، قال بعض أرباب اللغة بمعنى قدح خشبي وقال البعض الآخر قدح كبير ضخم.

٢. «علاقة» إذا استعملت مفتوحة العين عنت الرابطة المعنوية وإن كسرت كانت بهذا المعنى أو بمعنى الروابط المادية، وقد وردت هنا بمعنى ما يعلق بالظرف من ليف أو نحوه.

عُبيدالله بن عباس؛ وعامله على الجَنَد سعيدبن نِمْران.

ووجّه الكتاب مع رجل من همْدان، فقدِم عليهم بالكتاب فلم يجيبوه إلى خَيْر، فقال لهم: إنّي تركت أميرَالمؤمنين يريد أن يوجِّه إليكم يزيدَبن قيس الأرْحبيّ، في جيش كثيف، فلم يمنعْه إلا انتظارُ جوابكم. فقالوا: نحن سامعون مطيعون، إن عَزَل عنّا هذين الرجلين: عُبيدَالله وسعيدا.

فرجع الهمْدانيّ من عندهم إلى عليّ عليه‌السلام فأخبره خبر القوم.

فلما قدِم كتابهم، دعا بُسْرَبن أبي أرطاة، وكان قاسيَ القلب فَظّاً سفّاكاً للدماء، لا رأفة عنده ولا رحمة، فأمرَه أن يأخذَ طريقَ الحجاز والمدينة ومكة حتى ينتهيَ إلى اليمن، وقال له: لا تنزِلْ على بلد أهله على طاعةِ عليّ إلّا بسطتَ عليهم لسانَك؛ حتى يَرَوْا أنّهم لا نجاءَ لهم، وأنّك محيط بهم. ثم اكفُفْ عنهم، وادعُهم إلى البيْعة لي، فمنْ أبي فاقتلْه، واقتلْ شِيعةَ عليّ حيث كانوا.

ﮪﮫ

وروى إبراهيم بن هلال الثقفيّ في كتاب "الغارات" عن يزيدبن جابر الأزديّ، قال:

سمعت عبدالرحمن بن مَسعدة الفزاريّ يحدّث في خلافة عبدالملك، قال: لما دخلتْ سنةُ أربعين، تحدّث الناس بالشام أنّ عليّاً عليه‌السلام يستنفِرُ النّاس بالعراق فلا ينفِرون معه، وتذاكروا أن قد اختلفتْ أهواؤهم، ووقعت الفُرقة بيهم، قال: فقمت في نَفَرٍ من أهل الشام إلى الوليدبن عُقْبة، فقلنا له: إنّ الناس لا يشكّون في اختلاف الناس على عليّ عليه‌السلام بالعراق، فادخلْ إلى صاحبك فمُرْه فليسِرْ بنا إليهم قبل أن يجتمعوا بعد تفرقهم، أو يصلُحَ لصاحِبهم ما قد فسد عليه من أمره. فقال: بلَى، لقد قاولته في ذلك وراجعته وعاتبته، حتى لقد برِم بي، واستثقل طَلْعتي، وايمُ اللّه على ذلك ما أدع أنْ أبلّغه ما مشيْتم إليّ فيه.

فدخل عليه فخبّره بمجيئنا إليه، ومقالتنا له، فأذن لنا، فدخلْنا عليه، فقال: ما هذا الخبرُ الذي جاءني به عنكم الوليد؟ فقلنا: هذا خبرٌ في الناس سائر، فشمِّرْ للحرب، وناهِض الأعداء، واهتبل الفرصة، واغتنم الغِرة، فإنّك لا تدري متى تقدرُ على عدوّك على مثل حالِهم التي هم عليها، وأن تسيرَ إلى عدوِّك أعزُّ لك من أن يسيرُوا إليك. واعلم واللّه أنّه تفرّق الناس عن صاحبك لقد نهض إليك. فقال لنا: ما أستغِني عن رأيكم ومشورتكم، ومتى أحْتَجْ إلى

ذلك منكم أدْعُكم. إنّ هؤلاء الذين تذكُرون تفرّقهم على صاحبه، واختلافَ أهوائهم، لم يبلغ ذلك عندي بهم أن أكونَ أطمعُ في استئصالِهم واجتياحهم، وأنْ أسيرَ إليهم خاطرا بجنْدي، لا أدري عليّ تكونُ الدائرة أم لي! فإيّاكم واستبطائي، فإنّي آخذُ بهم في وجهٍ هو أرفقُ بكم.

وبعث معاوية عند خروجنا من عنده إلى بُسر بن أبي أرطاة، فبعثه في ثلاثة آلاف، وقال: سِرْ حتى تمرّ بالمدينة، فاطرد الناس، وأخِفْ مَنْ مررت به، انهبْ أموال كلِّ مَنْ أصبت له مالاً؛ ممّن لم يكن دخل في طاعتنا، فإذا دخلتَ المدينة، فأرِهم أنّك تريد أنفسَهم، وأخبرْهم أنّه لا براءةَ لهم عندك ولا عذرَ؛ حتى إذا ظنّوا أنّك موقعٌ بهم فاكففْ عنهم، ثم سِرْ حتى تدخل مكة، ولا تعرِضْ فيها لأحد، وأرْهب الناسَ عنك فيما بين المدينة ومكة، واجعلها شرداتٍ؛ تأتي صنعاء والجَند، فإنّ لنا بهما شيعة، وقد جاءني كتابهم.

✽✽✽

أن بُسراً لما أسْقَط مَنْ أسقط من جيشه، سار بمن تخلّف معه، وكانوا إذا وردوا ماء أخذوا إبلَ أهلِ ذلك الماء فركبوها، وقادوا خيولَهم حتى يرِدُوا الماء الآخر، فيردّون تلك الإبل، ويركبون إبل هؤلاء، فلم يزل يصنع ذلك حتى قرب إلى المدينة.

قال: وقد روى أنَّ قُضاعة استقبلتهم ينحرُون لهم الجُزُر، حتى دخلوا المدينة. قال: فدخلوها، وعامل عليّ عليه‌السلام عليها أبو أيّوب الأنصاريُّ، صاحب منزل رسول‌اللّه صلى اللّه عليه وآله، فخرج عنها هارباً، ودعا الناس إلى بيعة معاوية فبايعوه. ونزل فأحرقَ دوار كثيرة.

✽✽✽

قال إبراهيم: وقد روى عَوانة عن الكلبيّ أن بُسْراً لمّا خرج من المدينة إلى مكّة قتل في طريقه رجالاً، وأخذ أموالاً. وبلغ أهلَ مكة خبرُه، فتنحّى عنها عامّةُ أهلها، وتراضَى النّاس بشيبة بن عثمان أميراً لما خرج قُثَم بن العباس عنها، وخرج إلى بُسر قوم من قريش، فتلقّوْه، فشتمهم، ثم قال: أمَا واللّه لو تُركت ورأيي فيكم لتركتُكم وما فيكم روح تمشي على الأرض، فقالوا: نَنْشُدك اللّه في أهلك وعِتْرتك!

✽✽✽

قال إبراهيم: وروى عليّ بن مجاهد، عن ابن إسحاق، أن أهلَ مكة لما بلغهم ما صنع بُسْر، خافوا وهربوا، فخرج بنا عبيدالله بن العباس، وهما سليمان وداود، وأمهما جُوَيْرِيَة ابنة خالد بن قَرَظ الكنانية، وتُكنَى أمّ حكيم، وهم حلفاء بني زُهرة، وهما غلامان مع أهل مكة، فأضلوهما عند بئر ميمون بن الحضْرميّ.

وخرج بُسر من الطائف، فأتى نَجْران، ثم جمعهم وقام فيهم، وقال يا أهلَ نجران، يا معشرَ النصارى وإخوان القرود: أما والله إنْ بلغني عنكم ما أكرَه لأعودَنّ عليكم بالتي تقطع النَّسْل، وتُهلِكُ الحرث، وتخرّب الديار!

وتهددّهم طويلاً، ثم سار حتى أَرْحَب، فَقَتل أبا كرب ـ وكان يتشيّع ـ ويقال إنّه سيّد مَنْ كان بالبادية من هَمْدان، فقدمه فقتله.

وأتى صنعاء وقد خرج عنها عبيدالله بن العباس، وسعيد بن نِمْران، وقد استخلف عبيدالله عليها عَمْروا بن أراكة الثقفيّ، فمنع بُسْراً من دخولها وقاتله، فقتله بُسْر، ودخل صنعاء، فقتل منها قوماً، أتاه وفد مأرِب فقتلهم، فلم ينجُ منهم إلاّ رجل واحد، ورجع إلى قومه، فقال لهم: «أنعى قتلاّنا، شيُوخاً وشُبّاناً».

فندب عليّ عليه‌السلام أصحابَه لبعث سرّية في إثر بُر، فتثاقلوا، وأجابوا جارية بن قُدامة السعدي، فبعثه في ألفين، فشخَص إلى البصرة، ثم أخذ طريق الحجاز حتى قِدم اليمن، وسأل عن بُسر فقيل: أخذ في بلاد بني تميم، فقال: أخذ في ديار قوم يمنعون أنفسهم. وبلغ بُسراً مسيرُ جارية، فانحدر إلى اليمامة. أخذ جارية بن قدامة السير، ما يلتِفت إلى مدينة مرّ بها ولا أهل حصن، ولا يعرِّج على شيء إلاّ أن يُرْمِلَ بعضُ أصحابه من الزاد فيأمر أصحابه بمواساته أو يسقط بعير رجل، أو تحْفَى دابته، فيأمر أصحابه بأن يُعْقِبوه، حتى انتهوْا إلى أرضْ اليمن، فهربت شيعة عثمان حتى لحقوا بالجبال، واتّبعهم شيعة عليّ عليه‌السلام، وتداعت عليهم من كلّ جانب، أصابوا منهم، وصَمَد نحو بُسر، وبسر بين يديه يفرّ من جهة إلى جهة أُخرى، حتى أخرجه من أعمال عليّ عليه‌السلام كلّها.

وقال بُسْر: أحْمَد الله يا أميرالمؤمنين أني سرت في هذا لاجيش أقتل عدوك ذاهباً جائياً لم يُنْكَب رجل منهم نكبة، فقال معاوية اللّهُ قد فعل ذلك لا أنت.

﴿﴾

قال: ودعا عليّ عليه‌السلام على بُسْر، فقال: اللّهم إنّ بُسرا باع دينهَ بالدنيا، وانتهك محارمك، وكانت طاعةُ مخلوقٍ فاجرٍ آثرَ عنده مما عندك. اللّهمّ فلا تُمِتْه حتى تَسْلُبه عقلَه، ولا توجب له رحمتك ولا ساعة من نهار. اللهمّ ألعن بُسراً وعمراً ومعاوية، وليحلّ عليهم غضبُك، ولتنزل بهم نِقْمَتُك وليصبهم بأسُك ورِجْزُك الذي لا تردّه عن القوم المجرمين.

فلم يلبث بُسْرٌ بعد ذلك إلّا يسيراً حتى وسوس وذهب عقلُه، فكان يهذِي بالسيف، ويقول: اعطُوني سيفاً أقتلْ به، لا يزال يردد ذلك حتى اتَّخِذ له سيف من خشب، وكانوا يدنون منه المرفقة، فلا يزال يضربها حتى يُغشى عليه، فلبث كذلك إلى أن مات.

قال المسعودي في مروج الذهب بعد نقل هذه القصة أن بسراً كان يقول للناس: انظروا كيف يطعمني هذان الغلامان إبنا عبيدالله ـ الذان قتلا مظلومان بيدي ـ وكان ربما شدت يداه إلى الوراء منعا من لعبه بخرئه والناس تمنعه من ذلك.[1]

٢ ـ مقوّمات النصر وهزيمة الأمم

لقد شرح الإمام عليه‌السلام في هذه الخطبة بعباراتها القصيرة ذات المعاني العميقة المقوّمات التي تمنى بها الأُمم والشعوب، ولا يقتصر هذا الأمر على أهل العراق والحجاز واليمن وقضية والي من الولاة كمعاوية وقائد عسكره بسر بن ارطاة، بل يشمل كافة العصور والدهور. فقد تحدّث الإمام عليه‌السلام في بادئ الأمر عن وحدة الكلمة التي تعدّ السبب الرئيسي في تضامن القوىٰ وتعبئة طاقاتها في مواجهة الأعداء. وممّا لاشك فيه أنّ أهم العوامل التي أدّت إلى انتصار جنود الإسلام على عهد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله على أعدائهم الذين كانوا يفوقونهم عدّة وعدداً إنّما يكمن في وحدة الكلمة. فكم من فئة قليلة هزمت عدوّها بفضل الاتحاد والإخاء. القرآن من جانبه اعتبر وحدة كلمة المسلمين من معاجز النبي الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله **﴿هُوَ الَّذي اَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلٰكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾**[2]، كما اعتبر الوحدة الإسلامية التي سادت المسلمين أبان عصر

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٣ ـ ١٨؛ مروج الذهب ٣ / ١٦٣ (بحث ذكر أيام الوليد بن عبدالملك).

٢. سورة الأنفال / ٦٢ ـ ٦٣.

الرسالة من النعم الإلهية الكبرى على الأمّة الإسلامية **﴿وَاذكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً﴾**[1]. في حين قرن الفرقة والشقاق بالعذاب الدنيوي والأخروي **﴿قُلْ هُوَ القادِرُ عَلىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾**[2]. كما أشار الإمام ﷺ إلى مسألة الانضباط وحنكة القيادة على أنّها العامل الآخر المكمّل لعنصر الاتحاد والإخاء والتضامن. والحق رأينا عدّة ثورات في عصرنا الراهن قد كتب لها النجاح بينما لم توفّق غيرها لهذه النتيجة، ولعلّ العامل الرئيسي في ذلك النجاح إنّما يستند إلى وحدة القيادة، بينما تعاني غيرها من التشتت وتعدد مراكز القرار.

ثم تطرق ﷺ إلى الأمانة بفضلها العامل الثالث من عوامل النصر. فما لاشكّ فيه أنّ أيّة أمة من الأمم لن تذيق طعم النصر والسعادة مالم تستثمر طاقاتها وثرواتها بالشكل الصحيح. ولا يتيسّر هذا الأمر إلّا إذا كانت الأمانة هي التي تحكم أفراد الأمة وتدفعها لصون إمكاناتها الاجتماعية.

أمّا العامل الأخير الدخيل في النصر فإنّما يكمن في صلاح أفراد المجتمع، وبعبارة أُخرى فإنّ أفراد الأمة لن يتخلّوا على مشاكلهم ويتخلّصوا من مخالب الأعداء مالم يأخذوا بنظر الاعتبار مصالح المجتمع ويضحوا بمنافعهم الشخصيّة ويجدوا ويجتهدوا في إصلاح مجتمعهم، وليعلم أُولئك الذين يهمّون بمنافعهم الشخصيّة ولو أدّت إلى فساد المجتمع إنّهم إنّما يقضون على المجتمع وبالتالي يقضون على أنفسهم.

---

١. سورة آل عمران / ١٠٣.

٢. سورة الانعام / ٦٥.

القسم الثالث

«اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي وَسَئِمْتُهُمْ وَسَئِمُونِي[1] فَأَبْدِلْنِي بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي! اللَّهُمَّ مِثْ[2] قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، أَمَا ـ وَاللَّهِ ـ لَوَدِدْتُ أَنَّ لِي بِكُمْ أَلْفَ فَارِسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسِ بْنِ غَنْمٍ.

هُنَالِكَ لَوْ دَعَوْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ   فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ».

ثم نزل ﷺ من المنبر.

الشرح والتفسير

السئم والملل

يتضرع الإمام ﷺ في آخر الخطبة إلى الله بقلب مفعم بالهم والحزن فيدعو على أولئك الأتباع، غير أن دعائه عليهم يحمل تحذيراً جدياً لمن كان له أدنى صحوة من ضمير، حيث يسعى الإمام ﷺ عن هذا الطريق إلى تنبيه أهل الضلالة وإعادتهم إلى الصراط المستقيم، فقال ﷺ: **«اللّهم إنّي قد مللتهم وملوني وسئمتهم وسئموني»** ومن الطبيعي ألا يكون هناك من وقع لنصائح الإمام العادل والقائد الشجاع في قلوب عبدة الدنيا والأهواء من أهل الجهل والعجز والذل إذا ما تباينت أهداف القائد ومبادئه وخلقه مع أهداف الرعية

---

١. «سئمتهم» من مادة «سأم» بمعنى الملل والتعب من الشيء.

٢. «مث» من مادة «ميث» بمعنى حل الشيء في الماء، ويطلق على المطر الذي يذيب تراب الأرض، كما يطلق على الحوادث المريرة التي تذيب عقل الإنسان وتصدع قلبه.

وأخلاقها، الأمر الذي يؤدي بالتالي إلى تعب الطرفين وسئم كل منهما الآخر. وإذا كان النبي ﷺ قد استطاع النهوض بزعامة الأقوام الجاهلية، فإنّما ذلك لأنّهم أقروا بأهدافه ومبادئه في التربية وقد كيفوا أنفسهم مع سننه وخلقه. ومن هنا فانّ الأنبياء الذين لم يوفقوا في هذا الأمر ملوا أتباعهم، كما أنّ أقوامهم هي الأخرى لم تكن تطيق تحملهم. ولا يفوتنا هنا ضيق ذرع قوم لوط بنبيهم لطهارته وعفته **﴿أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾**.[1]

ثم دعا عليهم قائلاً: «**فابدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً مني**».

فهم ليسوا أتباعاً جديرين بهذا الإمام، ولم يعد إماماً مناسباً لهم، فالحكمة الإلهية تقتضي أن يخرجوا مسودي الوجوه من هذا الامتحان بعد أن تسلب منهم هذه النعمة الإلهية فيعشوا أنواع الهوان والذل. وما أسرع ما استجيب دعاء الإمام عليه السلام، فقد تسلط عليهم بنو امية ليرتكبوا بحقهم ما قل نظيره أو انعدم في التأريخ والعجيب ماورد في بعض التواريخ الإسلامية من أنّ الحجاج قد ولد[2] آنذاك، وبالطبع فانّ أهل العراق والكوفة قد دفعوا ثمن جرائمهم وتخاذلهم قبل ذلك، إلّا أنّها بلغت ذروتها على عهد الحجاج.

طبعاً ليس المراد بالعبارة «**أبدلم بي شراً مني**» أنّي سيء ولكن سلط عليهم من هو أسوأ منّي. بل هي مقارنة تطلق على الخير المطلق والشر المطلق، فقد جاء في القرآن سورة الفرقان بعد أنّ أشار إلى شدة عذاب جهنم قائلاً: **﴿قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾**. وبعبارة أُخرى لم يكن أهل العراق والكوفة آنذاك أخيار ليسأل الإمام عليه السلام الله أخير منهم، ولا الإمام عليه السلام ـ والعياذ بالله ـ كان سيئاً ليسلط الله عليهم من هو أسوأ منه، ففي مثل هذه الموارد تفقد صيغة أفعل التفضيل مفهومها العادي وترد للمقارنة بين شيئين متضادين. ويبدو أن هذا الدعاء شبيه الدعاء الذي ابتهل به نبي الله نوح عليه السلام على قومه بعد أن يئس من صلاحهم **﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيّاراً﴾**[3]. ثم قال عليه السلام: «**اللّهم مث قلوبهم كما يماث الملح**

1. سورة الأعراف / ٨٢.
2. منهاج البراعة ٣ / ٣٥٨. صرح المسعودي ـ من المؤرخين المشهورين ـ أنّ الحجاج ولد عام ٤١ هـ وتوفي عام ٩٥ وله من العمر ٥٤ سنة.
3. سورة نوح / ٢٦.

في الماء». لعل المراد بموث قلوبهم (بمعنى ذوبانها) هو هجوم الهموم والغموم عليها بحيث تجرح عواطفهم الإنسانية إلى درجة يقال ذاب القلب، فقد ورد شبيه هذا المعنى في خطبة الجهاد رقم ٢٧ إذ قال ﷺ: «**والله، يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم**». ومن الواضح أنّ المراد بذوبان القلب ضياع العقل والفطنة والدراية والحكمة. فمفهوم العبارة: خذ عقولهم وحكمتهم لهذا النفاق والعصيان فيعيشوا الحيرة والاضطراب في حياتهم. وقد ورد التعبير عن القلب بمعنى العقل والحكمة أو وعاء العقل والحكمة في عدة آيات وروايات، ومن ذلك ماورد في الآية ٢٥ من سورة الانعام: **﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾**. والواقع أن من أعظم العقوبات الإلهية ـ التي أوردها القرآن الكريم والروايات بالنسبة للأفراد من أهل النفاق والمعصية ـ هي الا يرى الإنسان الحقائق ولا يدركها كما هي، فيعيش القلق والحيرة والضلال. ثم يختتم الإمام ﷺ خطبته بالقول: «**أما ـ والله ـ لوددت أن لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم**. ثم تمثل بقول الشاعر:

هنالك لو دعوت أتاك منهم ... فوارس مثل أرمية الحميم

ثم نزل الإمام ﷺ من المنبر:

قال السيد الشريف: أقول: «الارمية» جمع «رمى» وهو السحاب والحميم، هاهنا وقت الصيف. وإنّما خص الشاعر سحاب الصيف بالذكر لأنه أشد جفولاً ولا أسرع خفوفاً؛ لأنّه لا ماء فيه. وإنّما يكون السحاب ثقيل السير لامتلائه بالماء، وذلك لايكون في الأكثر إلّا زمان الشتاء، وإنّما أراد الشاعر وصفهم بالسرعة إذا دعوا، ولا إغاثة إذا استغيثوا، والدليل على ذلك قوله: هنالك لو دعوت أتاك منهم.

بنو فراس بن غنم

هم بنو فراس بن غنم بن ثعلبة بن مالك بن كنانة، حي مشهور بالشجاعة، منهم علقمة بن فراس وهو جذل الطعان. ومنهم ربيعة بن مكدم بن حرثان بن جذيمة بن علقمة بن فراس الشجاع المشهور، حامي الظعن حياً وميتاً، ولم يحم الحريم وهو ميت أحد غيره؛ عرض له فرسان من بني سليم، ومعه ظعائن من أهله يحميهم وحده، فطاعنهم، فرماه نبيشة بن حبيب

بسهم أصاب قلبه، فنصب رمحه في الأرض، واعتمد عليه وهو ثابت في سرجه لم يزل ولم يمل، وأشار إلى الظعائن بالرواح، فسرن حتى بلغن بيوت الحي، وابن سليم قيام إزاءه لا يقدمون عليه، ويظنونه حياً؛ حتى قال قائل منهم: إنّي لا أراه إلّا ميتاً، ولو كان حياً لتحرك؛ إنّه والله لمائل راتب على هيئة واحدة، لا يرفع يده، ولا يحرك رأسه. فلم يقدم أحد منهم على الدنو منه، حتى رموا فرسه بسهم، فشب من تحته، فوقع وهو ميت، وفاتتهم الظعائن.[1]

وجاء في كتاب بلوغ الأدب أن شجاع كل فرد من أبناء هذه القبيلة بعشرة من شجعان سائر القبائل، وهم أشجع قبائل العرب.[2]

والطريف في الأمر أن جيش الإمام عليه السلام في الكوفة قد بلغ عشرات الآلاف، بل بلغ طبق رواية مئة ألف جندي[3]، إلّا أنّ الإمام عليه السلام يتمنى استبدال كل هذا الجيش بألف من فرسان بني فراس؛ الأمر الذي يدل على مدى ضعف جيش الكوفة وعجزه، ومدى شجاعة أبناء قبيلة بني فراس، فقد تضاعفت شجاعتهم الذاتية في ظل الإسلام والإيمان. كما جاء في القرآن الكريم: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.[4]

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٣٤١.
٢. بلوغ الأدب ٢ / ١٢٥.
٣. المصدر السابق.
٤. سورة البقرة / ٢٤٩.

الخطبة ٢٦

ومن خطبة له ﷺ

وفيها يصف العرب قبل البعثة ثم يصف حاله قبل البيعة له نظرة إلى الخطبة.

نظرة إلى الخطبة

يرى بعض المحققين أنّ الدافع من هذه الخطبة (أو بتعبير آخر كتابة هذه الرسالة) أنّه سأل البعض علياً ﷺ عن رأيه بمن سبقه من الخلفاء بعد أن استولى أصحاب معاوية على مصر وقتلوا محمد بن أبي بكر. فاستنكر عليهم الإمام ﷺ ذلك بعد أن استولى معاوية على مصر وقتل شيعته، فكتب الإمام ﷺ هذا الكتاب.[1] ويتصور أحياناً بأنّ الخطبة اختتمت بالدعوة إلى الجهاد وهذا ما يتنافى وما ذكر، حيث يدل ذلك على أنّ الكلام صدر عن الإمام ﷺ قبل معركة صفين، لكن يمكن أن يكون هذا الكلام إشارة إلى معركة أراد الإمام ﷺ أن يعبّ الناس لها قبل شهادته، غير أنّ شهادته ﷺ حالت دون ذلك. على كل حال فالخطبة على ثلاثة أقسام: القسم الأول في وضع العرب في الجاهلية وعلى أعتاب انبثاق الدعوة الإسلامية وبعثة النبي الأكرم ﷺ التي أنقذتهم مما لا يمكن تصوره من البؤس والشقاء.

والقسم الثاني في الحوادث التي أُعقبت رحيل رسول الله ﷺ وكيفية غصب حق الإمام ﷺ في الخلافة، وسكوته حفظاً للإسلام والقرآن بينما كان يعيش حالة من التذمر والاستياء.

---

١. مصادر نهج البلاغة ١ / ٣٩٠.

والقسم الثالث إشارة إلى البيعة المشروطة لعمرو بن العاص على معاوية والتي أدت إلى تلك الويلات والمصائب والأضرار الفادحة في الأرواح والأموال، ثم يختتم الخطبة بحث أتباعه بالتأهب للقتال.

ﮧﮨ

القسم الأول

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداًﷺ نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ ـ مَعْشَرَ الْعَرَبِ ـ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَّاتٍ صُمٍّ تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَالْآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ».

الشرح والتفسير

العرب في الجاهلية

يتطرق الإمام ﵇ في هذا القسم من الخطبة إلى أوضاع العرب في الجاهلية فيرسم صورة واضحة الملامح عن حياتهم من خلال الأبعاد الفكرية والعاطفية والاقتصادية والاجتماعية، بحيث لا نتوصل لهذه الصورة التي رسمها الإمام ﵇ ولو طالعنا كافة المؤلفات التي صنفت بشأن العرب في العصر الجاهلي. ويبدو أنّ الإمام ﵇ استهل الخطبة بهذا الكلام ليذكرهم بالعصر الجاهلي الذي سبق الإسلام فيقارنونه بما بعد البعثة النبوية الشريفة فيقفوا على قيمة الإسلام ولا يضحوا بهذه القيمة والنعمة من خلال هذه الفرقة والاختلاف وأتباع الأهواء والشهوات، ولا غرو فقيمة النعم تبق مجهولة ولا يعرف قدرها إلّا إذا فقدت فقد قال ﵇: «**إن الله بعث محمداًﷺ نذيراً للعالمين وأميناً على التنزيل**».

الجدير بالذكر أنّ الإمام ﵇ أكد على جانب الانذار في رسالة النبيﷺ، بينما نعلم أنّ الانذار قد قرن بالبشارة، كما ورد ذلك في عدة آيات قرآنية، كالآية الشريفة ﴿**يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً**﴾[1] وسائر الآيات القرآنية.[2] غير أنّ الانذار بالعقاب

---

١. سورة الأحزاب / ٤٥.
٢. سورة سبأ / ٢٨؛ سورة فاطر / ٢٤؛ سورة الفتح / ٨ وسورة البقرة / ١١٩.

والتهديد بالعذاب غالباً ما يكون الدافع لحركة الأمّة نحو القيام بوظائفها والتحفظ عن تركها كان التأكيد أكثر على مسألة الانذار، ومن هنا ورد التأكيد في أغلب الآيات القرآنية على الانذار بشأن رسالة النبي ﷺ وسائر الأنبياء، ولم تطالعنا أي من الآيات التي اقتصرت على البشارة. وهذا هو الاسلوب الذي اعتمدته القوانين المعاصرة، حيث ركزت على جانب العقوبة بصفتها الضمانة الإجرائية الناجحة، ونادراً ما يعتمد الحث والتشجيع من أجل تحقيق الغرض المذكور. بصورة عامة فانّ الهدف النهائي للانذار هو إثارة الشعور بالمسؤولية تجاه الوظائف والتكاليف الملقاة على عاتق الإنسان. وهنا لا ينبغي أن ننسى بأن انذار النبي ﷺ يشمل كافة الكائنات؛ الأمر الذي يدل على عالمية الدين الإسلامي وخلوده، لأنّ للعالمين مفهوم واسع يشمل كافة أفراد البشرية في كل عصر ومصر. قوله ﷺ: «**أميناً على التنزيل**» تلويح ضمني بعصمة رسول الله ﷺ، فهو صائن لكتاب الله ومبلغه للعالم دون أدنى تغيير. ثم تطرق ﷺ لأوضاع العرب زمان الجاهلية في عشرة عبارات مقتضبة عظيمة المعاني تشير إلى أربعة محاور، فقال: «**وأنتم معشر العرب على شر دين**» وأي دين أسوأ من الوثنية؟ أن ينحت عاقل قطعة من الحجر أو الخشب بيده ثم يسجد لها ويعبدها ويرى مقدراته بيدها ويلوذ بها في حل المشاكل التي تواجهه في حياته، أو أن يصنع صنماً من التمر يتخذه إلهاً فاذا جاع أكله. أضف إلى ذلك الانحراف الخطير فان طقوس هؤلاء القوم مملوءة بالخرافات والعقائد السخيفة البعيدة عن المنطق والتي سطرتها كتب تأريخ العرب في العصر الجاهلي، وسنعرض لجانب منها لاحقاً.

هذا على مستوى العقائد والأفكار. ثم تطرق ﷺ إلى أوضاعهم الاقتصادية المزرية فقال ﷺ: «**وفي شر دار منيخون**»[1] **بين حجارة خشن وحيات صم، تشربون الكدر وتأكلون الجشب**».[2]

تعبيره ﷺ «**شر دار**» بالنسبة لمحل إقامة عرب الجاهلية، رغم أن أغلبهم (ولاسيما من

---

١. «منيخون» من مادة «نوخ» بمعنى تنويم الجمل، ومن البديهي أن يكون موضع استراحة الأفراد هو ذلك الموضع الذي ينومون فيه الجمال بين حجارة خشن.

٢. «الجشب» على وزن «خشن» بمعنى الطعام الغليظ أو ما يكون منه بغير أدم.

خاطبهم الإمام ﷺ بهذه الكلمات) كانوا يقطنون في مكة أو المدينة يفيد أن هاتين المنطقتين قد فقدتا قدسيتهما ومكانتهما المعنوية إثر تبدلهما إلى مركز للأصنام والأوثان والفساد والانحراف. وقد أحاطت بهم عواصف الرمل والرياح المحرقة في تلك الصحاري الجرداء، بحيث إذا تمكن أحدهم من العثور على بقية ماء في بعض البرك والآبار فانه كان على درجة من التلوث والتعفن بسبب هبوب الرياح أو تلويثه من قبل بعض الأفراد حتى ليشعر شاربه بالغثيان، غير أن هؤلاء كانوا مضطرين لشربه، ولم يكن طعامهم بأفضل ممّا عليه الشراب.

نقل أحد شرّاح نهج البلاغة أنّ إعرابياً سئل: «أي الحيوانات تأكلون في البادية؟» قال: «نأكل كل ما دبّ ودرج الا أم جبين».[1]

أمّا التعبير بالحيات الصم، هو أن الحية الصماء أخطر من غيرها لأنّها صماء لا تنزجر بالصوت، أو لعل سمها أخطر.

أما المحور الثالث فقد أشار فيه الإمام ﷺ إلى أوضاعهم الاجتماعية المزرية وإنعدام الأمن والاستقرار فقال ﷺ: «**وتسفكون دمائكم**» والتعبير بالمضارع «**تسفكون دمائكم**» كسائر الأفعال في عبارات الخطبة يفيد استمرار هذه الأوضاع المتفاقمة. والواقع لا تحتاج قضية سفك الدماء المتعارفة بينهم إلى دليل، فسيوفهم تشهر لأتفه الأسباب ليخوضوا أعنف المعارك وأشرسها لشهور بل لسنوات ـ ولعل نظرة عابرة إلى معاركهم المعروفة بحرب الفجار والتي ستشير إليها لاحقاً تفيد أنّ أولئك الجهال كانوا يخوضون أشرس القتال من أجل أهون الأشياء. وأخيراً أشار ﷺ إلى المحور الرابع المتمثل بأوضاعهم العاطفية المتردية «**وتقطعون أرحامكم**» ولعل العبارة إشارة إلى قضية وأد البنات ودفنهن أحياء، حيث كانوا يرون البنت تجر عليهم الخزي والعار، فكان أحدهم يتوارى عن الأنظار خجلاً إذا ولدت له بنت، وهذا ما أشارت إليه الآية ٥٨ و ٥٩ من سورة النحل **﴿وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوارىٰ مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي**

١. شرح نهج البلاغة، ابن ميثم ٢ / ٢٤ أماكيف ضبطت مفردة (أم جبين) فقيل بالنون وقيل باء وياء وقيل بالجيم كما قيل بالحاء (أم جبين) و(أم حبين)، كما كثر الكلام بشأن هذا الحيوان فقيل هو نوع من العضايا وتنفر منه عرب البادية لأنّه سام عند الأكل.

التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ وقد لا يكتفي البعض بالاقتصار على هذا القتل على البنات فيعمد إلى قتل ولده خشية الفقر؛ الأمر الذي نهى القرآن عنه بشدّة، فقد نهت عن ذلك الآية ٣١ من سورة الاسراء **﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيّاكُمْ﴾** بل كان الوالد يقتل ولده والولد والده والأخ أخيه عبثاً، فقد عاشت الرحم فاجعة لم يشهد لها التأريخ مثيل.

ويختتم الإمام ﷺ كلامه بخلاصة مفاسدهم المعنوية والمادية بالقول «**الأصنام فيكم منصوبة والآثام بكم معصوبة**». وكأن تعبيره (منصوبة) إلى أنّهم كانوا يفتخرون بهذه الأصنام فينصبونها في كل مكان فضلاً عن عبادتها والسجود لها. ومعصوبة من مادة عصب (مايربط العضلات بالعظام) إشارة إلى أنواع المعاصي من قبيل سفك الدماء وقتل النفس وقطع الرحم والتعرض للنواميس ونهب الأموال وشرب الخمر والقمار و... التي اجتاحت عرب الجاهلية وعليه فقد أشار الإمام ﷺ بهذه العبارات إلى انحرافاتهم العقائدية والأخلاقية وأزماتهم الاقتصادية والعاطفية ومدى الانحطاط والسقوط الذي بلغوه على هذه المستويات.

تأمّلات

١ـ آفاق العصر الجاهلي

ضروري هو البحث حول العصر الجاهلي والمسائل المختلفة المرتبطة به من أجل التعرف على الإسلام وعظمة النبي ﷺ، فقد سعى المؤرخون لإحصاء المسائل المتعلقة بذلك العصر، وقد أشرنا إلى هذه المسألة في شرح الخطبة الثانية، وحيث أشار الإمام ﷺ في القسم الأول من هذه الخطبة إلى ذلك الموضوع فإننا نرى ضرورة الإشارة إلى بعض الأمور:

أـ الحديث طويل في عقائدهم الخرافية فالوثنية كانت هي الحاكمة والمنصوبة في جوف الكعبة فهناك أوثان القبيلة والاسرة، ولبعضها أشكال وأخرى دون شكل. من عقائدهم أن الملائكة بنات الله، في حين ينفرون أنفسهم بشدة من البنات. وينكرون القيامة ويشاورون أصنامهم في الأمور المهمة، وطريقة ذلك أنهم يكتبون على السهام «افعل» و«لا تفعل»

فيجعلونها مع بعضها ويخرجون واحد منها على أنه الأمر الذي أصدره الوشن. ومن خرافاتهم العقائدية الإيمان بالغيلان وطيور الشؤم والبركة وما إلى ذلك.

ب ـ على الصعيد الإقتصادي فقد كان يدفعهم الفقر وعلاوة على وأد البنات إلى قتل الأولاد. وأغلب دخلهم كان عن طريق السلب والنهبت، وكان الأغلب وبسوء الوضع الإقتصادي يعيش حافيا شبه عريان، وإن كان لأحدهم لباس متواضع دعا، ذلك للفخر فينشد:

من يك ذابت فهذا بتّي مقيّظ مصيّف مشتّ!

ج ـ على المستوى العاطفي فكفاهم أنهم لم يرحموا أي شيء وذلك بسبب طبيعتهم الوحشية كما يقول ابن خلدون حيث يميلون إلى السلب والنهب ولذتهم بذلك وفخرهم بالقتل ـ روي أن أحدهم سمع قول النبيﷺ في وصف الجنة ونعمها، فسأل هل فيها قتال ـ قيل: لا. قال إذن لا خير فيها. قيل في بعض التواريخ أن الحروب التي نشبت بين عرب الجاهلية بلغت ١٧٠٠ حرب دام لبعضها مئة عام وتعاقبت عليها الأجيال، وما أكثر الحروب التي كانت تنشب لأتفه الأسباب.

ى ـ أما على الصعيد الإجتماعي فقد كانت أوضاعهم مزرية بفضل إنتشار الفساد والخمر حتى كان الشراب هو المتبادر إلى الأذهان من التجارة والشجاعة تعني القتل والغيرة والعفة تعني وأد البنات ـ كانوا يعشقون ثلاث: المرأة والخمر والقتال حتى قال شاعرهم:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة تروى عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني في الفلات فانّني أخاف اذا ما متّ ألاّ أذوقها

كانوا يعتقدون بوجوب نصرة الصديق على الحق كان أم الباطل. كما كان القمار بارزا عندهم حتى أنهم كانوا يخسرون فيها نسائهم. كان الزنا منتشرا بينهم حتى إشتهر عندهم الزانيات من أصحاب الرايات، وهكذا سائر المفاسد التي لا مجال لإحصائها.[1]

نعم هكذا كان العرب وقد أنقذهم الله بالإسلام، فلم ينجو من الخرافات والوثنية

١. للوقوف على المزيد راجع بلوغ الأدب والإسلام والجاهلية والتأريخ الكامل (ج ١) وسيد المرسلين وشرح العلامة الخوئي لنهج البلاغة.

والعقائد المنحطّة، بل تغيرت حتى أوضاعهم الإجتماعية والإقتصادية والعاطفية وقد صنع من إنسانهم المتوحش مثال الفرد المتحضر الأسوة كمن على شاكلة أبي‌ذر والمقداد وعمار وبلال. وتتضح عظمة الإسلام ورسالة النبي ﷺ من هذه المقارنة، أما ظهور آثار الجاهلية في عصرنا باشكالها الأوسع والأقسى ـ بسبب الإبتعاد عن تعاليم الأنبياء سيما تعاليم نبي الإسلام ﷺ لهي شهادة أخرى على عظمة هذه الرسالة.

٢ـ شر دار أم خيرها

النقطة الجديدة بالذكر في الخطبة المذكورة وصفه لموضع سكن عرب الجاهلية بشر دار، بينما وصف ذلك العصر في الخطبة الثانية بالقول «خير دار وشر جيران» ولما كان المراد في العبارتين أرض مكة فيبدو هناك تناقضا، إلا أنّ أدنى تأمل يفيد عدم وجود أي تناقض ـ فأرض مكة ذاتاً مركزاً لأفضل دار يعني الشعبة، ولكن بالعرض فإن جميع هذه الأرض المقدسة حتى بيت الله فقد لوثت بالشرك والوثنية والمفاسد الأخلاقية. وعليه فهي شر دار باعتبار وخير دار باعتبار آخر.

القسم الثاني

«فَنَظَرْتُ فَإِذَا لَيْسَ لِي مُعِينٌ إِلاَّ أَهْلُ بَيْتِي، فَضَنِنْتُ بِهِمْ عَنِ الْمَوْتِ، وَأَغْضَيْتُ عَلَى الْقَذَى، وَشَرِبْتُ عَلَى الشَّجَا، وَصَبَرْتُ عَلَى أَخْذِ الْكَظَمِ، وَعَلَى أَمَرَّ مِنْ طَعْمِ الْعَلْقَمِ».

الشرح والتفسير

الصبر المرير

أشار الإمام ﷺ ـ في هذا المقطع من الخطبة ـ إلى الحوادث التي أعقبت رحيل رسول‌الله ﷺ ولاسيما حادثة الخلافة، ويتطرق إلى السبب الذي دعاه إلى السكوت وعدم المطالبة بحقه المسلّم في الخلافة، أي خلافة رسول الله ﷺ ـ والتي كانت في الواقع حق المسلمين ـ فقال ﷺ: «**فنظرت فاذا ليس معين إلا أهل بيتي**». من الواضح أنّ القيام بالأمر تجاه تلك الطائفة المتحزبة ـ التي تشهد التواريخ بأنّها خططت للالتفاف على الخلافة قبل وفاة رسول الله ﷺ ـ لا ينسجم وأي منطق؛ لأنّ مثل هذا القيام ليس فقط لا يتمخض عن نتيجة، بل سيؤدي ذلك القيام إلى قتل طائفة من صفوة أهل بيت النبي ﷺ، أضف إلى ذلك فان هذه المواجهة قد تقود إلى شق صفوف المسلمين بما يعود بالنفع للمنافقين الذين كانوا يتربصون بالمسلمين مثل هذه الحوادث بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ الأمر الذي جعل الإمام ﷺ يفضل الصمت والسكوت ومن هنا واصل الإمام ﷺ خطبته بهذا الشأن فقال: «**وأغضيت[1] على**

---

١. «أغضيت» من مادة «غضى» تعني السكوت على مضض، كما تعني اغماض العين ـ ومن هنا تطلق الليالي الغاضية على الليالي الظلماء.

القذى[١] وشربت على الشجا[٢]، وصبرت على أخذ الكظم[٣] وعلى أمر من طعم العلقم[٤]».

تأمّلات

١ ـ الأحداث المريرة بعد رسول الله ﷺ

تشبه هذه العبارات تلك التي وردت في الخطبة الثالثة المعروفة بالخطبة الشقشقية، بل هي أشد وقعاً منها، وتفيد أنّ الإمام عليه السلام قد قضى ساعات ولحظات غاية في المرارة إبان تلك السنين ـ ما يقارب خمس وعشرين سنة ـ التي قضاها بعد رسول الله ﷺ جليس الدار حين دفع عن حقّه في الخلافة.

ولم يكن تذمر الإمام عليه السلام كونه لم يتزعم الحكومة، فقد أعلن صراحة عن عدم إكتراثه لهذا الأمر وأشار كراراً إلى أن هذه الخلافة لا تساوي عنده شيء إلّا أن يقيم حقّاً أو يدحض باطلاً، فهي مسؤولية إلهية وليست وسيلة للفخر والمباهاة، وإنّما كان تذمره لأنّه كان يشهد تنصل الأمّة شيئاً فشيئاً عن الإسلام وابتعادها عن القيم واحيائها لسنن الجاهلية حتى حدث ما كان يخشى منه، فقد تسلم معاوية زمام أُمور الدولة الإسلامية وأصبحت خلافة رسول الله ﷺ ملكية وراثية ليرثها من بعده ولده يزيد الذي ارتكب أفظع الجرائم والجنايات بحق المسلمين وتكشف عبارات الإمام عليه السلام عن مدى الدعايات الشديدة التي مارسها القائمين على شؤون الحكومة من جهة وتهديد الأُمّة وارعابها من جهة أُخرى في إقصاءه عن حقه المسلم في الخلافة بحيث لم يكن معه من ينهض بالأمر سوى أهل بيته، فقد نقل المؤرخون عن الإمام عليه السلام أنّه قال: «**لو وجدت أربعين ذوي عزم لقاتلت**»[٥] والذي يستوحى من عباراته عليه السلام أنّ

---

١. «قذى» على وزن قضا الصفاء والاخلاص، ومن هنا يطلق القذى على الشيء الذي يقع في الماء فيلوثه، كما يطلق على ما يقع في العين.

٢. «شجا» من مادة «شجو» ما يعترض في الحلق من عظم أو نحوه، كما يطلق على الشدة والهم والغم.

٣. «كظم» على وزن غضب من مادة «كظم». قال الراغب في المفردات الكظم بمعنى مخرج النفس، والكظوم بمعنى الاختناق وحبس النفس، كما تستعمل بمعنى ربط القربة بعد ملئها بالماء، ومعنى العبارة صبرت على الخناق رغم الضغط الذي مارسه العدو.

٤. «العلقم»، قال صاحب مجمع البحرين هي شجرة شديدة المرارة، وتسمى الحنظل أيضاً، كما جاءت علقمة بمعنى المرة.

٥. رواها نصر بن مزاحم عن الإمام عليه السلام؛ شرح نهج البلاغة، ابن ميثم ٢ / ٢٦، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٢٢.

المتحمسين لغصب الخلافة لم يكونوا يتورعون حتى عن سفك دماء أهل البيت، وهذا ما أشار إليه الإمام بقوله: «**فضننت بهم عن الموت**»؛ الأمر الذي يبدو عجيباً ورهيباً للغاية، وان كانت مثل هذه الأمور الأخلاقية ليست عجيبة في عالم السياسة والحكومة اكما يحتمل أن يكون أولئك المتعصبين للخلافة يتربصون الدوائر بذرية الإمام التي كانوا يرون أنّها ستتصدى للخلافة مستقبلاً، فهم يهمون بقتلهم لكي لا تبق لأهل البيت من باقية تنهض بمسؤولية الخلافة.

أمّا السؤال عن مدى لوعة الإمام وشدة تلك الأيام التي كانت تمر عليه وهو جليس الدار، يتطلع بذهول لتلك الأفعال التي ارتكبت باسم الحكومة الإسلامية من قبيل تحريف العقائد والانحراف في فهم النصوص والأحكام الإسلامية وتضييع العدالة وبالتالي استبدال الحكومة الإسلامية بالملكية الوراثية كحكومة فرعون وقيصر وكسرى، فالإجابة عليه قد وردت في الخطبة الثانية والستين من نهج البلاغة التي قال فيها الإمام: «**أما بعد، فان الله سبحانه بعث محمداً نذيراً للعالمين، ومهيمناً على المرسلين، فلما مضى تنازع المسلمون الأمر من بعده، فو الله ما كن يلقى في روعي ولا يخطر ببالي أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده عن أهل بيته، ولا أنّهم منحوه عني من بعده! فما راعني إلّا انثيال الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد، فخشيت إن لم أنصر الإسلام، وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولا يتكم التي إنّما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ماكان، كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحاب؛ فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه**» فالإمام كان يشهد آنذاك مشكلتين خطيرتين؛ الاولى ذهاب حقه المسلم في الخلافة؛ الحق الذي أدى زواله إلى انحرافات عظيمة برزت على الساحة الإسلامية، والثانية تكمن في الخطر الذي كان محدقاً بالإسلام، والفرصة التي كان ينتظرها تيار النفاق من أجل الاجهاز عليه، فما كان منه إلّا أنّ يعمل بالقاعدة المنطقية العقلائية والشرعية في تقديم الأهم على المهم عند التزاحم، فسكت على مضض عن حقه في الخلافة حفاظاً على بيضة الإسلام.

٢ ـ هل بايع الإمام عليه السلام الخليفة الأول؟

كثر الكلام بين المؤرخين والمحدثين بشأن موقف الإمام علي عليه السلام من خلافة الأول والبيعة التي تمت له في سقيفة بني ساعدة. وليس هنالك من اتفاق بين علماء الشيعة والسنة بهذا المجال، فقد صرح الشارح البحراني أنّ أغلب علماء الشيعة يعتقدون أنّ الإمام علي عليه السلام امتنع عن مبايعة الخليفة الأول، وقد انضم إليه عدد من بني هاشم، إلّا أنّهم اضطروا آخر الأمر لبيعته بعد أن أُجبروا عليها. وقيل أنّ أمير المؤمنين علي عليه السلام لازم البيت ولم يخرج، فلما رأوا أنّه وحيد تركوه ولم يحملوه على البيعة. أما محدثوا العامة فقد ذهبوا إلى أنّ الإمام عليه السلام قد امتنع عن البيعة ستة أشهر حتى توفت الزهراء عليها السلام فبايع طوعا. وللمرحوم العلّامة السيد شرف الدين صاحب المراجعات تحليل رائع بهذا الشأن، خلاصته أنّ الإمام عليه السلام أراد أن يؤكد حقه المسلم في الخلافة ونص النبي صلى الله عليه وآله بالوصية عليه من جانب، ومن جانب آخر أراد أن يفوت الفرصة على المنافقين ـ الذين كانوا يتربصون الدوائر بالإسلام ويرون السبيل قد تمهد أمام أطماعهم بالقضاء على الدين من خلال الاختلافات بين الأنصار والمهاجرين ـ فامتنع عن البيعة مدة (ليعلن عن حقه في الخلافة)، ثم بايع حفظاً للإسلام ودرءاً لخطر المنافقين والمتربصين بالدين.[١] وقد وردت بعض العبارات التي تشير إلى هذا المعنى في الخطبة ٦٢ من نهج البلاغة «.. **فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم...**».

٭٭٭

وسنتحدث إن شاء الله بما يناسب المقام حين شرحنا للخطب والرسائل المرتبطة بهذا البحث.

---

١. المراجعات، الرسالة ٨٤.

القسم الثالث

ومنها: «وَ لَمْ يُبايِعْ حَتَّى شَرَطَ أَنْ يُؤْتِيَهُ عَلَى الْبَيْعَةِ ثَمَناً، فَلاَ ظَفِرَتْ يَدُ الْبائِعِ، وَخَزِيَتْ أَمانَةُ الْمُبْتاعِ، فَخُذُوا لِلْحَرْبِ أُهْبَتَها، وَأَعِدُّوا لَها عُدَّتَها فَقَدْ شَبَّ لَظاها، وَعَلاَ سَناها، وَاسْتَشْعِرُوا الصَّبْرَ فَإِنَّهُ أَدْعَى إِلَى النَّصْرِ».

الشرح والتفسير

المساومة السياسية المفضوحة

أشار الإمام عليه السلام إلى المساومة الفاضحة التي اشترطها عمرو بن العاص على معاوية كثمن للبيعة، فقال: «**ولم يبايع حتى شرط أن يؤتيه على البيعة ثمناً**». فقد ذكر المؤرخون: لما نزل علي عليه السلام الكوفة بعد فراغه من أمر البصرة، كتب إلى معاوية كتاباً يدعوه إلى البيعة، أرسل فيه جرير بن عبدالله البجلي. فقدم عليه به الشام، فقرأه واغتم بما فيه، وذهبت به أفكاره كل مذهب، وطاول جرير بالجواب عن الكتاب، حتى كلم قوماً من أهل الشام في الطلب بدم عثمان، فأجابوه ووثقوا له، وأحب الزيادة في الاستظهار، فاستشار بأخيه عتبة بن أبي سفيان، فقال له: استعن بعمرو بن العاص فانّه من قد علمت في دهائه ورأيه، وقد اعتزل عثمان في حياته، وهو لأمرك أشد اعتزالاً؛ إلّا أنّ يثمن له دينه فسيبيعك، فانّه صاحب دنيا. فكتب إليه معاوية «أما بعد، فانه كان من أمر علي وطلحة والزبير ماقد بلغك، وقد سقط إلينا مروان بن الحكم في نفر من أهل البصرة، وقدم علينا جرير بن عبدالله في بيعة علي، وقد حبست نفسي عليك، فأقبل أذاكرك أُموراً لا تعدم صلاح مغبتها، إن شاء الله» ـ فلما قدم الكتاب على عمرو استشار ابنيه: عبد الله بن عمرو ومحمد بن عمرو، فقال لهما: ما تريان؟ فقال عبدالله: قر في منزلك فلست مجعولاً خليفة، ولا تزيد على أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة. أما ولده

الآخر فقال: الحق بجماعة أهل الشام فلما دخل عمرو بن العاص الاشم، خاطبه معاية قائلاً: «يا أبا عبدالله أدعوك إلى جهاد هذا الرجل الذي عصى الله وشق عصى المسلمين وقتل الخليفة وأظهر الفتنة وفرق الجماعة وقطع الرحم»[١]. فقال له عمرو: من هو؟ قال: علي. فقال عمرو بن العاص: «والله ما أنت وعلي بجملي بعير ليس لك هجرته ولا سابقته ولا صحبته ولا جهاده ولا فقهه ولا علمه». ووالله إنّ له مع ذلك لحظاً في الحرب ليس لأحد غيره، ولكني قد تعودت من الله تعالى إحساناً وبلاءً جميلاً؛ فما تجعل لي إن شايعتك على حربه، وأنت تعلم مافيه من الغرر والخطر؟ قال معاوية: حكمك. فقال عمرو: مصر. فتلكأ عليه معاوية وقال: يا أبا عبدالله إني أكره لك أن تتحدث العرب عنك أنّك إنّما دخلت في هذا الأمر لغرض الدنيا، قال عمرو: دعني عنك. فأشار عليه عتبة بأن يجيب عمرو، فأجابه وأعطاه مصر.[٢] جدير بالذكر إنّ مصر كانت في نفس عمرو بن العاص لأنّه هو الذي فتحها في سنة تسع عشرة من الهجرة في خلافة عمر، فكان لعظمها في نفسه وجلالتها في صدره، وما قد عرفه من أموالها وسعة الدنيا، لا يستعظم أن يجعلها ثمناً من دينه. أضف إلى ذلك فقد ولاها أربع سنوات على عهد الخليفة الثاني، وأربع أُخرى على عهد عثمان حتى عزله. ثم قال الإمام ﷺ: «**فلا ظفرت يد المبايع، وخزيت أمانة المبتاع**»[٣]. فالواقع كلامه ﷺ يتضمن الدعوة ضد المشتري والبائع. نعم صحيح أنّ معاوية قد وفى له بوعده وأعطاه مصر، إلّا أنّه لم يحكمها مدة طويلة بعد أن وافاه الأجل، إلى جانب ما نقل عنه أواخر عمره عن مدى خشيته من عاقبته ومصيره، فلم يذق طعم النصر الذي كان يحلم به. كما أنّ معاوية وإن وطد دعائم حكومته بهذا العمل إلّا أنّها آلت إلى الانهيار المخزي بعد أن انفرج عنه كافة الصحابة من المهاجرين والأنصار والأفراد المشهورين بحسن السمعة من أهل الورع والتقوى ولم يتمحور حوله سوى تلك الثلة التي ورثت العداء للإسلام وسليلي زعماء الجاهلية، فكانوا أعوانه الذين يبطش بواسطتهم الناس ويجرعونهم أبشع غصص القتل والارعاب والتهديد والوعيد. كما يحتمل ألّا تكون العبارة من

---

١. يقصد قرابة عثمان من بني هاشم.

٢. «المبتاع» بمعنى المشتري والمراد به هنا معاوية والبائع عمرو بن العاص.

٣. انظر أسد الغابة في معرفة الصحابة (عمرو بن العاص).

قبيل الدعاء، بل هى جملة خبرية؛ أي أنّ بيع الدين بالدنيا لا يقود إلى النصر أبداً، بل ستكون الخسارة من نصيب البائع والمشتري؛ الأمر الذي أشارت إليه بعض الآيات القرآنية **﴿أولـئك الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدىٰ فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ﴾**[١] والآية **﴿أُولـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَياةَ الدُّنْيا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذابُ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾**[٢]. وتعبير الإمام ﷺ بالأمانة عن حكومة مصر وحقوق أهلها من المسلمين إشارة صريحة إلى أنّ حكومة الأمّة وإدارة شؤونها إنّما هى أمانة إلهية لابدّ أن ينهض بعبئها الأخيار الصالحين بغية ضمان مصالح الأمّة، وأمّا أولئك الذين يتخذون هذه الحكومة وسيلة لتحقيق مآربهم وأغراضهم الشخصية إنّما يخونون هذه الأمانة الإلهية وهذا ما سيؤدي في آخر الأمر إلى فضيحتهم وزوال حكمهم. ومن هنا صرح أغلب المفسرين بأنّ المصداق الوحيد أو المصداق البارز للأمانة الواردة في الآية الشريفة **﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إِلىٰ أَهْلِها﴾**[٣] إنّما هى الحكومة والولاية. ثم واصل الإمام ﷺ كلامه بحث الأمّة على الاستعداد والتأهب لمنازلة العدو «**فخذوا للحرب أُهبتها**»[٤]، **وأعدوا لها عدتها فقد شبّ**[٥] **لظاها**[٦] **وعلا سناها**[٧]». فالعبارة تفيد أنّ الإمام ﷺ قد اعتمد كافة الطرق السلمية من أجل وضع حد لذلك النفاق والعداء ولاسيما غدر أهل الشام وحكامهم إلّا أنّ كل ذلك لم يجد نفعاً، فكان حجم التآمر والدسائس يزداد كل يوم، فما كان منه ﷺ إلّا أن أمر بالتأهب للقاء العدو؛ فقد شبت لظى نيران الأعداء وتصاعدت ألسنتها، ولابدّ من مواجهتها والعمل على اطفائها. كما يشير التأريخ الإسلامي إلى أنّ أعداء الإمام ﷺ كانوا يسارعون للاستعداد للقتال وقد بعثوا بكتبهم ورسائلهم إلى طلحة والزبير. وأخيراً يختتم الإمام ﷺ بالإشارة إلى الصبر بفضله أحد أهم مقومات النصر فقال «**واستشعروا**

---

١. سورة البقرة / ١٦.
٢. سورة البقرة / ٨٦.
٣. سورة النساء / ٥٨.
٤. «أهبة» على وزن لقمة بمعنى العدة والتأهب والاستعداد للقيام بعمل وإهاب على وزن كتاب بمعنى الجلد الذي لم يدبغ وقد أعد للدباغة.
٥. «شب» من مادة «شبب الشباب»، ويستعمل في شب النار.
٦. «لظا» بمعنى شعلة النار كما تطلق على نفس النار (الراغب في المفردات).
٧. «سنا»، قال صاحب المقاييس تتضمن العلو والارتفاع وقد وردت في العبارة بمعنى تصاعد ألسنة النيران.

الصبر فإنه أدعى إلى النصر». واستناداً إلى مفردة الاستشعار من مادة (ش ع ر) التي تعني الثياب الداخلية (في مقابل الدثار بمعنى الثياب الخارجية) يتضح أنّ الصبر والاستقامة لابدّ أن تسود باطن الإنسان وتمد الإنسان بمعاني الصمود إزاء الحوادث المريرة.

تأمّلات

١ ـ السياسات الدنيوية لا تعترف بالأصول الأخلاقية

هناك عبارة ما انفكت الألسن ترددها حتى صارت مثلاً، وهي قولهم «**الملك عقيم**» التي تفيد تنكر السياسة المادية ـ القائمة على أساس القيم الدنيوية والأنانية والأطماع الشخصية ـ حتى للقرابة بما فيها الزوجة والولد والوالدين والتضحية بها من أجل تحقيق أهدافها وأغراضها؛ ولا غرو فالساسة لا يرون من قيمة تفوق حفظ مواقعهم، وعليه فمن الطبيعي أن يضحون بالغالي والنفيس ويضربون كل قيمة عرض الحائط من أجل حفظ مصالحهم. وقوله عليه السلام: «**فضننت بهم عن الموت**» تشير إلى أنّ المتعطشين للخلافة كانوا مستعدين حتى لقتل أهل البيت من بني هاشم فيما لو استعان بهم الإمام عليه السلام ونهض بالأمر للمطالبة بحقه في الخلافة. والحديث النبوي المعروف «**حبّك للشيء يعمي ويصم**»[1] لأصدق على الرغبة بالجاه والمقام منه على سائر الأمور، ونموذج ذلك ماورد في الخطبة التي نحن بصددها. ويحفل التأريخ بسير أولئك الذين عبروا على كل شيء وسحقوه من أجل الظفر بأهدافهم في السلطة والرئاسة.

٢ ـ باعة الدين بالدنيا!

تعرضنا إلى حد ما في البحث السابق إلى مسألة بيه الدين والقيم والمثل المعنوية بالمنافع المادية الرخيصة، ولمسنا نموذج ذلك في شخصية عمرو بن العاص الذي أشارت إليه الخطبة المذكورة، حيث صرحت بأنّه ومن أجل حكومة مصر ولو لمدّة قصيرة قد باع دينه وقيمه،

---

١. بحار الأنوار ٧٤ / ١٦٥.

وقد أعرب آخر عمره كما أورد ذلك المؤرخون عن مدى ندمه، ولكن حيث لم ينفع الندم وقد أُغلقت كافة سبل العودة.

القرآن الكريم من جانبه أشار إلى هذا الأمر بصفته أحد العوامل الرئيسية المؤدية إلى الانحراف ولاسيما بالنسبة للعلماء من عبدة الدنيا. ومن ذلك ما أورده القرآن بشأن فريقاً من علماء بني اسرائيل ـ الذين كانوا يبشرون بظهور النبي قبيل انبثاق دعوته على ضوء العلم الذي كان لديهم والأخبار الواردة في كتبهم (التوراة والانجيل) إلّا أنّهم حرفوا الكلم حين تعرضت بعض مصالحهم المادية للخطر ـ فقد صرحت الآية ١٨٧ من سورة آل عمران قائلة: **﴿وَإِذ أَخَذَ اللّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ﴾**.

فمن الواضح أنّ القرآن الكريم يذمهم من أجل أنّهم حرصوا على متاع قليل، بل المراد أنّ المتاع المادي ـ وأن تضمن أرفع المقامات وأكثر الثروات ـ يبقى قليلاً مقارنة بالمتاع المعنوي **﴿فَما مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا فِي الآخِرَةِ إِلّا قَلِيلٌ﴾**[1].

على العموم فانّ كافة الأفراد الذين يقدمون طاعة المخلوق على طاعة الخالق ويؤثرون أطماعهم ومنافعهم على الآخرة ويضربون الأحكام الشرعية عرض الحائط ولا يكترثون للحلال والحرام من أجل تحقيق أهوائهم الشخصية إنّما هم في زمرة باعة الدين بالدنيا. ويقابلهم اولئك الأفراد الذين لا يرون في أعمالهم سوى رضى الله والتسليم لإرادته، وهؤلاء هم الذين وصفهم القرآن بحزب الله الذين لا يرون حتى في الأهل والقرابة من عائق أمام رضى الله **﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...﴾**[2].

٣ ـ علاقة النصر بالثبات

إن كان النصر يقوم على عدة عوامل، فانّ أحد أهم هذه العوامل هو الصبر، وتبدو الرابطة

١. سورة التوبة / ٣٨.
٢. سورة المجادلة / ٢٢.

بين النصر والصبر على درجة من الوضوح بحيث إن الأدباء ومنذ قديم الزمان قد قرنوا الظفر بالصبر «**من صبر ظفر**». وقد أشار القرآن الكريم صراحة إلى هذه الحقيقة حتى اعتبر أنّ النصر حليف جند الإسلام مهما كان عدد وعدة العدو إذا ما تحلو بالصبر والاستقامة **﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً﴾**[1]. وهذا هو السبب الذي يكمن وراء انتصار المسلمين في كافة الغزوات رغم عدم الموازنة والتفاوت الفاحش بين ما عليه الأعداء من عدة وعدد ومعدات وما عليه المسلمين، حيث كانوا يتحلون بالصبر النابع من إيمانهم بالله واليوم الآخر.

وهذا ما أكده الإمام عليه السلام في خطبته اذ قال: «**واستشعروا الصبر فانه أدعى إلى النصر**». ولا يسعنا هنا إلّا أن نكتفي بهذا المقدار ونوكل المزيد من الكلام إلى الأبحاث القادمة. أما المسألة الجديرة بالذكر فهي أن استشعار الصبر ـ بمعنى نفوذه إلى عمق النفس البشرية ـ أو دثاره ـ بمعنى التحلي به علي مستوى الظاهر؛ الأمر الذي يدخل الرعب إلى قلوب الأعداء ـ إنّما يقود إلى النصر وهزيمة العدو.

٭٭٭

---

١. سورة الانفال / ٦٥.

الخطبة ٢٧

ومن خطبة له ﷺ

وقد قالها يستنهض بها الناس حين ورد خبر غزو الانبار بجيش معاوية فلم ينهضوا. وفيها يذكر فضل الجهاد ويستنهض الناس ويذكر علمه بالحرب ويلقي عليهم التبعة لعدم طاعته.

سند الخطبة وزمانها ومكانها

قال ابن أبي الحديد هذه الخطبة من مشاهير خطبه ﷺ؛ قد ذكرها كثير من المحققين والمحدثين (غير المرحوم الشريف الرضي) ورواها أبو العباس المبرد في أول (الكامل) وأسقط من هذه الرواية ألفاظاً وزاد فيها ألفاظاً، وقال في أولها: إنه انتهى إلى علي ﷺ أنّ خيلاً وردت الأنبار[1] لمعاوية، فقتلوا عاملاً له يقال له: حسان بن حسان، فخرج مغضباً يجر رداءه، حتى أتى النخيلة، وأتبعه الناس، فرقى رباوة في الأرض، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيّه ﷺ ثم قال: **أما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنّة، فمن تركه رغبة عنه، ألبسه الله الذل وسيم الخسف»**[2].

كما أوردها المرحوم الكليني في كتابه الكافي في بحث الجهاد.[3]

---

١. الانبار محافظة من محافظات العراق التي تقع غرب بغداد.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٧٥.

٣. الكافي ٥ / ٤.

ونقلها صاحب مصادر نهج البلاغة عن عشرة مصادر معروفة قبل المرحوم السيد الرضي ومنها: «البيان والتبيين للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة والأخبار الطوال للدينوري والغارات للثقفي والعقد الفريد لابن عبد ربّه والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني...»[١]

وعليه فانّ الإمام عليه السلام قد أورد هذه الخطبة في النخيلة حين أُخبر عليه السلام بهجوم سفيان بن عوف الغامدي ـ والذي عبّر عنه الإمام عليه السلام بـ(أخو غامد) ـ على الأنبار وقتل عامله عليها حسان بن حسان وطائفة من المسلمين وقد نهبوا أموالهم وخربوا بيوتهم دون أن يواجهوا أدنى مقاومة ثم عادوا إلى الشام سالمين. فأمّا أخو غامد الذي وردت خيله الأنبار فهو سفيان بن عوف بن المغفل الغامدي؛ وغامد قبيلة من اليمن، وهي من الازد، أزد شنوءة ـ واسم غامد عمر بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد ـ وسمي غامداً لأنّه كان بين قومه شر فأصلحه وتغمدهم بذلك. قال سفيان بن عوف الغامدي، قال: دعاني معاوية، فقال: إنّي باعثك في جيش كثيف، ذي أداة وجلادة، فألزم جانب الفرات، حتى تمر بهيت فتقطعها، فان وجدت بها جنداً فأغر عليهم وإلّا فامض حتى تغير على الأنبار، فان لم تجد بها جنداً فامض حتى توغل في المدائن؛ ثم أقبل إليّ واتق أن تقرب الكوفة. واعلم انك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنّك أغرت على الكوفة؛ إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب قلوبهم وتفرح كل من له فينا هوى منهم، وتدعو الينا كل من خاف الدوائر. فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك، وأخرب كل ما مررت به من القرى، واحرب الأموال، فإن حرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب. قال: فخرجت من عنده فعسكرت، وقام معاوية في الناس فخطبهم، فقال: أيّها الناس، انتدبوا مع سفيان بن عوف، فانّه وجه عظيم فيه أجر، سريعة فيه أوبتكم إن شاء الله ـ ثم نزل. قال: فو الذي لا إله غيره ما مرت ثالثة حتى خرجت في ستة آلاف، ثم لزمت شاطئ الفرات، فأغذذت السير حتى أمر بهيت، فبلغهم أني قد غشيتهم فقطعوا الفرات، فمررت بها وما بها عريب، كأنّها لم تحلل قط، فوطئتها حتى أمر بصندوداء، ففروا فلم ألق بها أحداً، فأمضي حتى أفتتح الأنبار،

١. مصادر نهج البلاغة ١ / ٣٩٧.

وقد نذروا بي، فخرج صاحب المسلحة إلي، فوقف لي فلم أقدم عليه حتى أخذت غلماناً من أهل القرية. فقلت لهم: أخبروني كم بالأنبار من أصحاب علي ﷺ؟ قالوا: عدة رجال المسلحة خمسمائة، ولكنهم قد تبددوا ورجعوا إلى الكوفة؛ ولا ندري الذي يكون فيها، قد يكون مائتي رجل، فنزلت فكتبت أصحابي كتائب، ثم أخذت أبعثهم إليه كتيبة بعد كتيبة، فيقاتلهم والله ويصبر لهم، ويطاردهم ويطاردونه في الأزقة. فلما رأيت ذلك أنزلت إليهم نحواً من مائتين، وأتبعتهم الخيل، فلما حملت عليهم الخيل وأمامها ثلاثين رجلاً، وحملنا ما كان في الأنبار من الأموال؛ ثم انصرفت، فو الله ما غزوت غزاة كانت أسلم ولا أقر للعيون، ولا أسر للنفوس منها. وبلغني والله أنّها أرعبت الناس، فلما عدت إلى معاوية، حدثته الحديث على وجهه، فقال: كنت عند ظني بك، لا تنزل في بلد من بلداني إلّا قضيت فيه مثل ما يقضي فيه أميره، وإن أحببت توليته وليتك، وليس لأحد من خلق الله عليك أمر دوني، قال فو الله ما لبثنا إلّا يسيراً، حتى رأيت رجال أهل العراق يأتوننا على الابل هرّاباً من عسكر علي ﷺ. وكان اسم عامل علي ﷺ على مسلحة الأنبار أشرس بن حسان البكري. قال ابراهيم بن عبدالله بن قيس كنت مع أشرس بن حسان البكري بالأنبار على مسلحتها، إذ صبحنا سفيان بن عوف في كتائب تلمع الأبصار منها، فهالونا والله، وعلمنا إذ رأيناهم أنه ليس لنا طاقة بهم ولا يد، فخرج إليهم صاحبنا وقد تفرقنا فلم يلقهم نصفنا، وايم الله لقد قاتلناهم فأحسنا قتالهم؛ حتى كرهونا، ثم نزل صاحبنا، وهو يتلو قوله تعالى: **﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾**. ثم قال لنا: من كان لا يريد لقاء الله، ولا يطيب نفساً بالموت، فليخرج عن القرية مادمنا نقاتلهم، فان قتالنا إياهم شاغل لهم عن طلب هارب، ومن أراد ما عند الله فما عند الله خير للأبرار، ثم نزل في ثلاثين رجلاً، فهممت بالنزول معه، ثم أبت نفسي، واستقدم هو وأصحابه، فقاتلوا حتى قتلوا رحمهم الله، وانصرفنا نحن منهزمين.[1]

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٨٥ـ ٨٧.

نظرة إلى الخطبة

كما ذكرنا سابقاً فان هذه الخطبة ـ المعروفة بخطبة الجهاد ـ من أشهر خطب أمير المؤمنين عليه السلام التي تدور حول محور الجهاد. فقد استهل الخطبة بشرح أهمية الجهاد ومعطياته والعواقب الوخيمة التي تنتظر الأُمّة في حالة تركه. ثم عرض باللوم لأهل الكوفة بعد أن تعرض لحملة «سفيان الغامدي» على مدينة الأنبار وشهادة «حسان بن حسان» ـ العامل الوفي والأمين لأمير المؤمنين عليه السلام على الأنبار ـ والجرائم التي ارتكبها أهل الشام في سلب الأموال وهدم البيوت ـ وفي القسم الثالث من الخطبة إلى ذم أهل العراق آنذاك ثانية والتعلل ببعض الأُمور بهدف التقاعس عن الجهاد ـ وأخيراً يختتم الإمام عليه السلام خطبته ببيان استعداده التام لجهاد العدو وسوابقه المشرقة بهذا الخصوص وفي الختام فهى خطبة ذات تأثير بليغ في نفوس السامعين، حتى قال الشارح المعروف ابن أبي الحديد بهذا المجال: واعلم أنّ التحريض على الجهاد والحض عليه قد قال فيه الناس فأكثروا، وكلهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام؛ فمن جيد ذلك ما قاله ابن بناتة الخطيب بشأن الجهاد «.. **فانّ الجهاد أثبت قواعد الإيمان، وأوسع أبواب الرضوان، وأرفع درجات الجنان..**» ثم أضاف: فانظر إليها وإلى خطبته عليه السلام بعين الانصاف، تجدها بالنسبة إليها كمخنث بالنسبة إلى فحل، أو كسيف من رصاص بالاضافة إلى سيف من حديد.[1]

٨٠٣

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٨١.

القسم الأول

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَتَحَهُ اللّٰهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللّٰهِ الْحَصِينَةُ، وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ، فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللّٰهُ ثَوْبَ الذُّلِّ، وَشَمِلَهُ الْبَلَاءُ، وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ، وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ، وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ، وَسِيمَ الْخَسْفَ، وَمُنِعَ النَّصَفَ».

الشرح والتفسير

الجهاد باب من أبواب الجنّة

لقد تعرضت الخطبة إلى فلسفة الجهاد وبركاته في عبارات قصيرة ذات عدة معان، إلى جانب الآثار السيئة لترك الجهاد، فقد قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه «**أمّا بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنّة**» وبالطبع هناك عدة أسباب وردت في الأحاديث بصفتها «**أبواب الجنّة**» التي تؤدي إلى نيل الرحمة والفوز بالرضوان والجنّة يكمن أهمها في الجهاد، فقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**للجنّة باب يقال له «باب الجهاد» يمضون إليه فاذا هو مفتوح وهم متقلدون بسيوفهم، والجمع في الموقف، والملائكة ترحب بهم**»[1]. ونعلم أنّ الجهاد في الإسلام على نوعين: جهاد العدو وجهاد النفس، وقد اصطلح على الأول بالجهاد الأصغر وعلى الثاني بالجهاد الأكبر، وكل منهما باب من أبواب الجنّة.

---

١. الكافي ٥ / ٢، كتاب الجهاد، باب فضل الجهاد، ح ٢.

ولا يتيسر لقاء الله دون الجهاد الأكبر كما تتعذر العزة والرفعة في الدنيا والآخرة دون الجهاد الأصغر. ثم قال ﷺ «**فتحه الله لخاصة أوليائه**». صحيح أنّ جهاد العدو والنفس يعد وظيفة جميع المسلمين، إلّا أنّ أولياء الله فقط الذين يسعهم خوض غمارهما حتى النهاية على أساس الاخلاص والنية الحسنة، بينما قد تكون نيات الآخرين مشوبة بالطمع ونيل الغنام أو الحصول على الحياة والمنصب والشهرة وبالتالي فهم لا يواصلون المسيرة إلى آخرها. فأولياء الله فقط الذين يقتحمون الميدان ويصبرون على الأذى في حركتهم الجهادية فيركعون كافة قوى الشر والظلام.

ونخلص ممّا سبق إلى عدم ورود الإشكال على الإمام ﷺ في أنّه خص باب الجهاد بخاصة أولياء الله بينما كتب على جميع المسلمين. كما نفهم من قوله ﷺ أن من طوى مسيرة الجهاد الأصغر والأكبر فهو من خاصة أولياء الله سبحانه. ثم يصف ﷺ الجهاد فيقول «**وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة**» ونعلم أنّ اللباس زينة للإنسان وجمال له من جانب، ومن جانب آخر فانه حافظ لبدنه من شدة الحرارة والبرودة التي تؤذيه فيما لو كان عرياناً، كا يشكل أساس عزة الأقوام والشعوب ودرعها من أنواع المخاطر والآفات؛ الأمر الذي أكده الإمام ﷺ في عباراته اللاحقة.

وأخيراً فالجسد العاري عرضة لأنواع الأذى موصوفاً بالقبح والشناعة، وعليه فالأُمّة التي تولي ظهرها للجهاد هى أُمّة ذليلة مهددة بكافة عناصر الزوال والانهيار. أمّا علة إضافة اللباس للتقوى في العبارة فلعل ذلك يفيد تعذر حفظ أصول التقوى دون توفر الأمن، كما يتعذر الأمن دون الجهاد. كما يحتمل تفسيرها على أنّها اشارة إلى الآية ٢٦ من سورة الأعراف التي عدت التقوى نعمة الهية بعد ذكر اللباس الظاهر ﴿**وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ**﴾.

وبناءً على هذا فالمراد هو أن لباس التقوى الذي ورد في القرآن إنّما مصداقه الكامل هو الجهاد الذي يجعل المجتمع يعيش الأمن والأمان على كافة المستويات[1] وهو مصدر الحسن والجمال.

---

١. لابدّ من الالتفات إلى أنّ الاضافة (لباس التقوى) في التفسير الأول من قبيل الإضافة اللامية وفي التفسير الثاني إضافة بيانية.

ثم شبه الإمام ﷺ الجهاد بالدرع الحصينة والجنّة الوثيقة، والوسيلتان من المعدات الدفاعية في القتال، حيث لم يكن من أمان لاولئك الذين يخوضون المعارك سابقاً ولم يتدرعوا، وهذا هو حال الأُمّة التي تترك الجهاد فهي ضعيفة خاوية تجاه ضربات العدو. ولعل هذه العبارة تشير إلى حقيقة وهي أنّ الجهاد لا يراد به الهجوم على الآخرين ومن أجل التوسع والسيطرة ونهب الأموال والثروات وفرض الأفكار والعقائد، لأننا نؤمن بأنّ الإسلام والقرآن إنّما يستند إلى منطق قوي يغنيه عن شهر السيف بوجه المقابل. وعليه فانّما شرع الجهاد من أجل حفظ المجتمع الإسلامي وإزالة الموانع التي تعترض أساليب التبليغ والقضاء على الموانع التي تحول دون حرية البيان.

أمّا الحروب المعاصرة فهي وإن نحت الدروع القديمة إلّا أنّها تعتمد اليوم الوسائل التي تفوقها في الدفاع من قبيل المدرعات والمصفحات والمواضع المحصنة. كما تلجأ إلى بعض الملابس الخاصة بغية مواجهة الهجمات الكيميائية بحيث لا تتأثر من قريب أو بعيد بخطر هذه الأسلحة.

جدير بالذكر أن ما ذكر بشأن تفسير عبارة الجهاد الأصغر (العدو الخارجي) يصدق تماماً على الجهاد الأكبر (جهاد النفس)؛ حيث لا طاقة للإنسان بهجمات الشيطان دون جهاده لنفسه. ثم تطرق الإمام ﷺ إلى الآثار السلبية التي يتمخض عنها ترك الجهاد ليوجزها في سبع نقاط، فقال: «**فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل**» وقوله ﷺ (**رغبة عنه**) إشارة إلى استثناء الأفراد من هذا الحكم ممن يمتلكون الأعذار الموجهة التي لا تجعلهم قادرين على خوض الجهاد من قبيل العجز والمرض ونحو ذلك؛ الأمر الذي أكدته بعض الآيات القرآنية.[1] الأثر السلبي الثاني لترك الجهاد «**وشمله البلاء**» فمثل هذا الفرد أو الأمّة إنّما يعتكف في موضع أعزل يجعله عرضة لحملات الحيوانات المفترسة بحيث تدخل عليه دون أدنى مقاومة، والجهاد وحده هو الذي يشكل السد الحديدي إزاء مثل هذا البلاء فينأى بالانسان بعيداً عن هذه الحيوانات. أمّا الأثر السلبي الثالث فقد أشار إليه الإمام ﷺ بقوله «**وديث**[2] **بالصغار**[3]

١. سورة التوبة / ٩١ - ٩٢.
٢. «ديّث» من مادة «ديث» بمعنى الذلة والهوان، ومن هنا يصطلح بالديوث على من لا يكترث لعفة أهله، كأنه قد ذلل حتى صار كذلك.
٣. «صغار» بمعنى الذلة.

والقماءة[١]» وكيف لا يعيش الذل والهوان والضعة من ضيع هذا السند العظيم؛ أي الجهاد. وصحيح أنّ العبارتين قريبتان من بعضهما بالمعنى، إلّا أنّ هناك فارقاً طفيفاً، حيث كان الكلام هناك عن الذلة وهنا عن الحقارة والضعة. فالمفهومان مختلفان إلّا أنّهما من قبيل اللازم والملزوم. وأمّا المصيبة الأخرى التي تطيل تارك الجهاد فهي «**وضرب على قلبه بالأسهاب**»[٢] فالأفراد الضعفاء والعجزة والمهزومون إنّما يعانون من الأوهام على الدوام فلا يسعهم تقييم الحقائق كما هي. فخشية العدو تجعلهم يعيشون في هالة من الخيالات المرعبة، أو أنّهم يلجأون إلى بعض الخرافات من أجل تحقيق النصر كأن يتخلوا عن السيف والمقاومة ويلوذوا بالسحرة والكهنة.

وقد حفل التأريخ بنماذج حيّة لمثل هؤلاء الأفراد، الذين لا يكشفون بذلك سوى عن ضعفهم وعجزهم، بينما يتنزه المجاهدون الشجعان عن مثل هذه السفاسف.

ثم ذكر الأثر السلبي الخامس بقوله ﷺ «**وأُديل**[٣] **الحق منه بتضييع الجهاد**»، وذلك لأنّ الحق ـ كما ورد في المثل المعروف ـ يؤخذ ولا يعطى. فالطواغيت وأصحاب المنطق الغاشم والمستبدون لا يفوضون الحق لأصحابه أبداً، ولابدّ من التحلي بالقوة من أجل انتزاع الحق من براثن اولئك الطغاة؛ الأمر الذي نوه له الإمام ﷺ في الخطبة التاسعة والعشرين بقوله «**لا يدرك الحق الا بالجد**» وأمّا الأثر السلبي السادس «وسيم الخسف» وبالالتفات إلى اطلاق الخسف والخسوف على زوال نور القمر والاختفاء في الأرض، وان «سيم» من مادة «سوم» بمعنى الحركة إثر شيء فان مفهوم الجملة سيكون: أنّ تاركي الجهاد في الواقع إنّما يسيرون باتجاه الزوال والانقراض؛ الأمر الذي لاحظناه بوضوح في الأمم والبلدان التي آلت إلى السقوط والانهيار إثر تقاعسها عن الجهاد.[٤]

---

١. «القماءة» بمعنى الصغار والذل.

٢. الأسهاب ذهاب العقل أو كثرة الكلام، أي حيل بينه وبين الخير بكثرة الكلام بلا فائدة، وقد وردت بهذا المعنى في الخطبة.

٣. «أديل» من مادة «دولة»، قال صاحب المقاييس لها معنيين؛ الأول التحول والانتقال، والآخر الضعف، واريد بها هنا المعنى الأول.

٤. فسرها جمع من شرّاح نهج البلاغة بالذلة والهوان على أنّها من قبيل تكرار وتأكيد العبارات السابقة، أمّا ما

ثم قال ﷺ في إطار ذكره للاثر السلبي السابع «**ومنع النصف**»[١] ودليل ذلك واضح؛ لأنّ أتباع العدالة عادة ما يشكلون الأقلية، ولو لم يكونوا كذلك كمية فهم أقلية من حيث الكيفية والقدرة.

ومن هنا فان أصحاب السطوة يندفعون بكل ما أُوتوا من قوة لهضم حقوق الشعوب المظلومة ويسعون لمضاعفة ثرائهم وأموالهم. وليس لهذه الشعوب من وسيلة لاستعادة حقوقها وخلاصها من براثن الظلم والاضطهاد وتحقيق العدالة الاجتماعية سوى في خوض غمار الجهاد. وهنا تكمن أهمية العبارات التي أوردها الإمام ﷺ في هذه الخطبة بشأن الجهاد وفلسفته ومعطياته الايجابية والسلبية فيما لو تخلت عنه الشعوب والأُمم.

كما يتضح ممّا أوردنا أنّ الجهاد لم يندب بفعل الثواب المعنوي المترتب عليه، بل بسبب الآثار والمعطيات الكبيرة التي يفضي إليها في هذه الحياة الدنيوية. فهل هناك من يطلب الذل والهوان ويرضى بغصب الحقوق وتضييعها وبالتالي يحث الخطى نحو الزوال والفناء؟! فان كان الجواب بالسلب، كان علينا أن نشدد حيازيمنا ونهب لخوض الجهاد والتحلي بالصبر والاستقامة من أجل درك معطياته العظيمة في الدنيا والآخرة وتحمل كافة الآلام والمصاعب كاحتمال المريض لمرارة الدواء من أجل التماثل للعافية والشفاء.

تأمّلان

١ ـ الجهاد سر رفعة الشعوب وعزتها

كثر الكلام بشأن الجهاد، ولدينا المزيد من الكلام بهذا الخصوص طالما توالت خطبه ﷺ في نهج البلاغة في الحديث عن هذه المسألة.

أمّا الشيء المهم الذي نود التطرق إليه بصفته مبدأً حيوياً هو أنّ الجهاد قانون الحياة الذي يمنحها الدوام والبقاء وأنّ الإنسان وكل كائن ينبض بالحياة مازال مقبلاً على الجهاد وبخلافه

☜ أوردته في المتن فانه ورغم انسجامه مع المتون اللغوية الا أنه ينطوي على معنى جديد يأبى التكرار، وعليه يبدو هو التفسير الأنسب.

١. النصف والانصاف من مادة واحدة بمعنى العدل.

يبدأ عده العكسي في الموت والفناء. فالنبات يواجه عدة آفات يسعى للتغلب عليها من أجل البقاء حياً، وجذور الأشجار هي الأُخرى تغوص في أعماق الأرض من أجل امتصاص الماء والأملاح فاذا ما اعترضت بعض الموانع كالصخور سعت لاختراقها ومواصلة تغلغلها في أعماق التربة وإن عجزت عن ذلك فتشت عن طريق آخر واستمرت في مسيرتها. وهكذا الحال بالنسبة للحشرات والحيوانات التي تواجه الأخطار التي تهدد كيانها باستمرار فتبدي مقاومتها من أجل مواصلة حياتها. فهناك بعض الطيور التي تهاجر إلى مسافات شاسعة قد تنطلق من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي مقاومة كافة الظروف المحيطة بغية مواصلة حياتها. أمّا الإنسان فيعيش حركة جهادية مريرة على مستوى أعضائه الداخلية ودورته الدموية، فالجنود التي تدافع عن البدن ـ والتي يصطلح عليها بكريات الدم البيض ـ طيلة عمر الإنسان إنّما تتصدى ببسالة لكافة الأعداء المتمثلين بالمكروبات والفايروسات التي تحاول اختراق بدن الإنسان عن طريق الماء والغذاء والهواء والشقوق التي تحدث في الجلد.

وقد الهمت هذه الكريات سبل الصمود بوجه كافة الأسلحة الكيميائية والفيزيائية بحيث تبيدها وتبقي على البدن سالماً صحيحاً. فاذا ضعفت هذه الجنود لأي سبب من الأسباب وتقاعست في وظيفتها هجمت جميع الأمراض على الإنسان، وما المرض الخطير الذي يطلق عليه «الايدز» إلّا نتيجة طبيعية لاختلال عمل هذه الكريات وتوقفها عن العمل، ومن هنا فانّ المصابين بهذا المرض الخطير إنّما يكونون عرضة للاصابة بأخطر الأمراض. وزبدة الكلام فان الجهاد رمز الحياة وسر السعادة والسبب الرئيسي للنصر والغلبة وعامل الرفعة والعزة، لكن ليس ذلك سوى الجهاد من أجل تحقيق الحق والعدل وإلّا فليس ذلك سوى الجريمة والظلم والعدوان.

ومن هنا تظافرت الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بما فيها الخطبة المذكورة التي أكدت على قضية الجهاد بما لم تول مثل هذه الأهمية لغيره من المفاهيم، ولاسيما الجهاد بالمعنى الأشمل الذي يتضمن الوقوف بوجه العدو الخارجي والداخلي. فقد جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**من ترك الجهاد ألبسه الله ذلاً في نفسه وفقراً في معيشته**

ومحقاً في دينه»[١] ويستفاد من هذا الحديث أن ترك الجهاد إنّما يهدد بالخطر الحياة المعنوية للإنسان فضلاً عن حياته المادية. وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**إغزوا تورثوا أبنائكم مجداً**»[٢] كما ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في قصار حكمه في نهج البلاغة ضمن إطار بيانه لفلسفة الأحكام الشرعية فقال: «**والجهاد عزاً للإسلام**»[٣]. وأخيراً فهناك عدة خطب شحن بها نهج البلاغة بشأن الجهاد سنعرض لها في الأبحاث القادمة.

٢ ـ هل الجهاد الإسلامي دفاعي فقط؟!

منذ سنوات وقد شغل هذا السؤال أذهان الأوساط الإسلامية بما فيها العلماء، فقد ذهبت طائفة إلى أنّ كافة غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله كانت دفاعية حذراً من اتهام الإسلام من أنّه قد انتشر بالسيف ورهبة السلاح! أو بعبارة أُخرى خشية اتهام الإسلام بالروح السلطوية والفتوحات العسكرية. وبالمقابل هناك طائفة أُخرى ترى أنّ الغزوات الإسلامية على قسمين؛ بعضها هجومية وبعضها دفاعية، وترى أنّ هذين القسمين حق ثابت للمسلمين اليوم، وتعتقد أنّ الإسلام موظف بتحرير المسلمين الذين يرزحون تحت نير السلطات الظالمة؛ الأمر الذي يدخل ضمن الجهاد الهجومي، كما ترى أنّ الإسلام مكلّف بتمهيد السبيل أمام ممارسة الاعلام المنطقي وإزالة كافة العوائق التي تعترض هذا السبيل ولو اضطر للجوء للقوة وهذا نوع آخر من الجهاد الهجومي. كما هنالك رأي ثالث يقول أنّ طبيعة القتال في الإسلام هي طبيعة دفاعية، إلّا أنّ المسائل الدفعاعية قد تجعل الهجوم ضرورة. مثلاً الدفاع عن المظلومين، أو بعبارة أُخرى التدخل الإنساني وإن كان يبدو ظاهرياً هجوماً إلّا أنّه في الواقع دفاع عن قوم يرزحون تحت الظلم والاضطهاد، وعليه فالدفاع عنهم ضروري بالنسبة لكافة الأفراد من أهل الإيمان. والهجوم بالمعنى الثاني ـ يعني تمهيد السبيل أمام حرية الأعلام المنطقي وممارسة التبليغات ـ هو الآخر دفاع تجاه بعض الموانع، فانّ الإسلام يأذن بقتال العدو إذا ما خلق بعض الموانع والعراقيل.

---

١. بحار الأنوار ٩٨/٩.
٢. اصول الكافي ٥/٨.
٣. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٢٥٢.

أمّا العبارات التي وردت في بداية هذه الخطبة إنّما هي دليل واضح على دفاعية طبيعة الجهاد؛ فقد شبه في موضع باللباس وفي آخر بالدرع وفي ثالث بالجنة، ونعلم بأنّ جميع هذه الأمور من قبيل الوسائل الدفاعية. وأمّا العبارات القادمة فقد تضمنت إشارات إلى الهجوم الذي يختزن بعداً دفاعياً، ومن ذلك قوله ﷺ: «**قلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم**». ويمكن أن يكون هناك استثناء واحد لهذا القانون الكلي وهو الجهاد والقتال من أجل إزالة الصنمية والوثنية؛ وذلك لأنّ الإسلام يرى في الوثنية أكبر خطر يهدد المجتمع البشري من الناحية المعنوية والمادية، فيصرح بالجهاد من أجل القضاء على الوثنية في حالة عدم جدوى التبليغ.

لاشك أنّ بعض الطغاة والجبابرة سيستغلون مسألة الدفاع عن المظلومين أو مواجهة الانحطاط الفكري والثقافي كوسيلة للتغطية على أهدافهم العدوانية والتوسعية، إلّا أنّ ذلك لايحد من قيمة هذه المفاهيم أبداً. فاستغلال هذه المفاهيم المقدسة ليس بالشيء الجديد. وللوقوف على أهداف الجهاد في الإسلام يمكن مراجعة المجلد الثاني من تفسير الأمثل، الآية ١٩٣ من سورة البقرة.

القسم الثاني

«أَلا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لَيْلاً وَنَهاراً، وَسِرّاً وَإِعْلاناً وَقُلْتُ لَكُمُ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ، فَوَاللّٰهِ ما غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دارِهِمْ إِلاَّ ذَلُّوا. فَتَواكَلْتُمْ وَتَخاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغاراتُ وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطانُ.

وَهَذا أَخُو غامِدٍ وَقَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبارَ وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ وَأَزالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسالِحِها، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَالْأُخْرَى الْمُعاهِدَةِ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَها وَقُلُبَها وَقَلائِدَها وَرُعُثَها، ما تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلاَّ بِالِاسْتِرْجاعِ وَالِاسْتِرْحامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وافِرِينَ ما نالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَلا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً ماتَ مِنْ بَعْدِ هَذا أَسَفاً ما كانَ بِهِ مَلُوماً، بَلْ كانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً».

الشرح والتفسير

الموت كمداً

بعد أن فرغ الإمام ﷺ من تلك المقدمة المقتضبة، تطرق إلى نموذج بارز من الافرازات المشؤومة لترك الجهاد فقال ﷺ: «**ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم**» يذكر الإمام ﷺ بأنّه أشار إلى طبيعة هؤلاء الظلمة المردة الذين ينطوون على الروح العدائية التي تبرز على السطح إذا ما سنحت الفرصة فلا يتورعون عن قتل الأبرياء وسبي النساء ونهب الأموال والثروات، وعليه فان العقل والشرع يجيز الوقوف بوجه هؤلاء الطغاة وقبر مؤامراتهم في مهدها وكسر شوكتهم

وإخماد فتنهم قبل أن يتأهبوا للقتال والعدوان.

ثم يعرض ﷺ الدليل على ما أورده فقال: «**فوالله ما غزي قوم في عقر**[١] **دارهم إلا ذلوا**».
ومن الواضح أن من يتعرض للهجوم في عقر داره إنّما يفقد معنوياته ويشعر بالهزيمة والفشل في نهاية الأمر من جانب آخر فانّ المهاجم الذي يتعرض إلى قوم في عقر دارهم لا يفكر أبداً في حفظ حرمة الدار، بل يدمر كل شيء فيها، أضف إلى ذلك فان مثل هذه الدار تصبح مسرحاً للقتال؛ الأمر الذي يؤدي إلى سفك دماء من فيها بما فيهم الصبية والنساء، وعليه فان مثل هذه الأمور تشكل بمجموعها العناصر التي تؤدي إلى هزيمة القوم الذين يتعرضون للهجوم في عقر دارهم. ومن هنا ورد التأكيد على المقاتلين في كافة الغزوات الإسلامية (باستثناء بعض الغزوات والمعارك التي اكتنفتها بعض الظروف والملابسات كمعركة الأحزاب) بترك المدن والتصدي للأعداء خارجها. ثم يخلص الإمام ﷺ إلى هذه النتيجة «**فتواكلتم**[٢] **وتخاذلتم حتى شنت**[٣] **عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان**». التواكل يعني إيكال كل فرد عمله إلى آخر، بعبارة أُخرى هو تخلي الفرد عن مسؤوليته والقائها على عاتق الآخرين بحيث تخلو الساحة. والتخاذل يعني عدم مد يد العون إلى الآخرين، بما يؤدي في خاتمة المطاف إلى تصدع عرى الاتحاد، بحيث لا يشعر العدو بأي رادع أو مانع يحول دون شنه لهجماته، وهذه أحد أبشع الصفات التي تسود المجتمعات البشرية بحيث يتقاعس كل فرد عن مسؤوليته ويقلدها ربقة الآخرين وينهمك كل في شؤونه الشخصية دون أن يوفر الدعم والإسناد لأخيه إذا ما تعرض لحملات الأعداء المسعورة، فلا يؤدي ذلك سوى إلى تلك النتيجة التي خلص إليها الإمام ﷺ في أنّ العدو سيرى الميدان مفتوحاً أمامه فيشن حملاته ـ لتسقط المدينة تلو الأخرى دون أن يجابه بأدنى مقاومة. ثم يستشهد الإمام ﷺ بمثال حي متطرقاً إلى واقعة الغامدي فيقول: «**وهذا**

---

١. «عقر» على وزن ظُهر بمعنى أساس الشيء وأصله ومنه عقر الناقة، وذلك لزوال أساس الناقة بحيث تفقد توازنها وتقع على الأرض.

٢. «تواكلتم» من مادة «وكل»، وكل كل منكم الأمر إلى صاحبه، أي لم يتوله أحد منكم، بل أحاله كل على الآخر.

٣. «شنت» من مادة «شن»، وشنت الغارات مزقت عليكم من كل جانب كما يشن الماء متفرقاً دفعة بعد دفعة. والعبارة إشارة إلى الغارات المتوالية التي كان يشنها عليهم الشام.

أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار وقد قتل حسان بن حسان البكري وأزال خيلكم عن مسالحها». ويبدو أنّ الأنبار كانت منطقة حدودية عراقية متاخمة للشام، لأنّ مسالح جمع مسلحة تعني الحدود والثغور ـ وذلك لأنّ الأسلحة تجمع هناك لتستخدم في الدفاع عن الحدود ـ وقوله ﷺ: «**أزال خيلكم عن مسالحها**» تفيد اجتياز العدود لهذه الحدود دون مقاومة وقد مرّ علينا شرح ذلك. ثم أشار الإمام ﷺ إلى الجنايات التي ارتكبها الغامدي بحق أهل الأنبار من المسلمين والمجاهدين من أهل الكتاب الذين ينبغي الدفاع عنهم من قبل الدولة الإسلامية، فقال ﷺ: «**ولقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها[1] وقلبها[2] وقلائدها[3] ورعثها[4] ما تمتنع منه إلّا بالاسترجاع والاسترحام**». فالإمام ﷺ أشار بوضوح إلى أنّ أحداً من المسلمين لم يهب للدفاع عن هذه النسوة المسلمات أو تلك المعاهدات. أمّا الاسترجاع فقد فسرّه بعض شرّاح نهج البلاغة بالبكاء المصحوب بالعويل في حين فسره البعض الآخر بكلمة «**إنا لله وإنا إليه راجعون**» التي تقال عادة عند النوائب والشدائد التي يتعرض لها الإنسان. ثم قال ﷺ «**ثم انصرفوا وافرين مانال رجلاً منهم كلم ولا أريق لهم دم**» آنذاك يخلص ﷺ إلى هذه النتيجة «**فلو أن أمرأ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً**» فقد كشف الإمام ﷺ عن عمق اللوعة التي كانت تعتلج في صدره مستغرباً ما حدث، كيف يضعف المسلمون إلى هذه الدرجة ولا تهتز لهم قصبة تجاه هذه الحملات المروعة التي أهلكت الحرث والنسل وقد طالت الأموال والأنفس والأعراض، وقد رجع المهاجمون غانمين سالمين دون أن يتكبدوا أية خسارة! أجل لا يسع المسلم الغيور تحمل مثل هذه الحادثة المأساوية قط، بل لو مات كمداً من جرائها لما كانت عليه من لائمة. والجدير بالذكر أنّ الإمام ﷺ لم يفرق بين المرأة المسلمة والمعاهدة لما تعرضت له من انتهاك الحرمة والتطاول على حليها ووسائلها، كما يكشف عن مدى ضرورة التزام الدولة الإسلامية بالدفاع عن حقوق الأقليات الدينية التي

---

١. «حجل» على وزن فعل و«حجل» على وزن فصل بمعنى الخلخال التي تزين به النساء العربيات أرجلهن.
٢. «قلب» بضمتين جمع قلب بالضم فسكون بمعنى السوار المصمت وتعني في الأصل التغيير.
٣. «قلائد» جمع «قلادة» على وزن اجارة، تطلق على كل شيء يحيط بآخر.
٤. «رعث» بضم الراء والعين جمع «رعث» على وزن رأس ما تعلقه المرأة من الزينة في أذنها.

تعيش ضمن المجتمع الإسلامي، مع ذلك فان غرض الإمام عليه السلام كان يكمن في تصوير عمق الفاجعة المأساوية. وبالطبع فان هذا الكلام لا يختص بزمان دون آخر، كما لا يقتصر على هجوم جيش معاوية على الأنبار، بل يتضمن قاعدة كلية يجب أن تسود الحياة الإسلامية على الدوام. وكأنّي بالإمام عليه السلام قد خاطب بهذه العبارات كافة المسلمين الذين يتعرضون اليوم لأبشع هجمات الشرق والغرب التي تنوي السيطرة على أموالهم وثرواتهم ومسخ قيمهم وضرورة التصدي لهم والدفاع عن حياض بلدانهم، بحيث لو مات أحدهم غصة وكمداً لما يرتكبه العدو الطامع من جرائم وجنايات لما كان ملوماً بل كان جديراً.

تأمّلات

١ـ معادلات الهزيمة والانتصار

لقد أشار الإمام عليه السلام من خلال بصيرته الثاقبة وروحه السامية وخبرته الوافية في ميادين الحرب والقتال إلى العناصر المهمّة التي تقف وراء الهزيمة والانتصار والتي ينبغي أن يجعلها المسلمون نصب أعينهم من أجل دحر الأعداء والحفاظ على بيضة الإسلام. فقد تطرق الإمام عليه السلام إلى أخلاء الساحة أمام العدو ومنحه الفرصة بشن هجماته بفضلها تشكل أحد عوامل الفشل والانهزام؛ الأمر الذي لا يختلف عليه إثنان وقد خضنا في تفاصيله سابقاً.

العامل الآخر التواكل (بمعنى وكل كل الأمر إلى صاحبه، أي لم يتوله أحد بل أحاله كل على الآخر). فلو قام كل فرد في المجتمع بوظيفته ولم يحمل الآخرين مسؤولية أعماله لما كان هناك من مجال للفشل والهزيمة، بينما ليس هنالك من سبيل للهروب من الفشل والهزيمة المنكرة أمام العدو اذا ما تخلى كل فرد عن مسؤولياته ووظائفه وأوكلها إلى الآخرين من أفراد المجتمع.

العامل الثالث التخاذل بمعنى ترك الآخرين ومشاكلهم دون معونتهم ومساعدتهم، فاذا تعرضت منطقة إلى غارة أو غزوة لم تنجدها سائر المناطق. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في الخطبة ١٦٦ «**أيا الناس! لو لم تتخاذلوا عن نصرة الحق ولم تهنوا عن توهين الباطل لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقو من قوي عليكم**».

٢ ـ حماية الأقليات الدينية

لعل البعض يتصور أن قضية احترام الأقليات الدينية التي تعيش في كنف الإسلام وتكفل بحفظ أموالها وأرواحها إنّما هي شعار لا يرقى إلى العمل والتطبيق، إلّا أنّ أدنى نظرة إلى الفقه الإسلامي في كيفية تعامله مع أهل الذمة وكلمات المعصومين عليهم السلام بما فيها كلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبة، تكشف بجلاء أنّ الإسلام يرى نفسه السند والدعم الحقيقي لهم ما دامهم لم ينقضوا العهود ويشهروا السلاح ضد الإسلام والمسلمين، وعليه فأموالهم وأرواحهم محترمة ومحفوظة. فقد أعرب الإمام عليه السلام في هذه الخطبة عن بالغ حزنه وأسفه لما تعرضت له المرأة اليهودية أو النصرانية التي تعيش كمواطنة في المجتمع الإسلامي ولم يفرق بينها وبين المرأة المسلمة قط، ثم ذم أهل العراق ووبخهم على ما أبدوه من ضعف وعجز حيال العدو وعدم الدفاع عن هذه النساء.

٣ ـ الغيرة الدينية

المراد بالغيرة الدينية الحساسية تجاه أي خروج عن مسار الحق والعدل وتجاهل الأحكام الشرعية والتعامل بشدة وصرامة مع هذه الحالة بما يتناسب وحجمها والابتعاد عن اللامبالاة، ويفتقر لهذه الغيرة كل من تعامل ببرود مع هذه الأمور ولم يبد أية حساسية تجاهها. وقد صرح القرآن الكريم بخصوص بعض المقاتلين المؤمنين الذين لا يمتلكون المعدات التي تؤهلهم للاشتراك في المعارك قائلاً **﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ﴾**[١].

فالآية تشير إلى مسألة تجعل الأفراد الذين لا يمتلكون الوسائل المطلوبة في القتال وتحول دون التحاقهم بصفوف المقاتلين يتحولون إلى دموع غزيرة؛ القضية لا يمكن تفسيرها سوى بالغيرة الدينية. وقد أشارت الخطبة إلى أحد مظاهر هذه الغيرة، حين قال عليه السلام: «**فلو أن امرأ مسلما مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً**». فالغيرة تشكل

---

١. سورة التوبة / ٩٢.

أحد العوامل المهمّة من أجل الدفاع عن حريم القوانين الإسلامية وإحياء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عن بعض أصحابه قال: إنّ الله بعث ملكين إلى أهل المدينة ليقلباها على أهلها فلما انتهيا إلى المدينة وجدا رجلاً يدعو الله ويتضرع إليه، فقال أحدهما للآخر: أماترى هذا الداعي فقال: قد رأيته ولكن أمضي لما أمرني به ربي فقال: ولكني لا أحدث شيئاً حتى أرجع إلى ربّي، فعاد إلى الله تبارك وتعالى فقال: يا ربّ إني إنتهيت إلى المدينة فوجدت عبدك فلاناً يدعوك ويتضرع إليك فقال: إمض لما أمرتك فان ذلك رجل لم يتغيّر وجهه غضباً لي قط.[1]

٨٠٥

١. بحار الأنوار ٩٧ / ٦٤ ح ٦٠.

القسم الثالث

«فَيا عَجَباً! عَجَباً ـ وَاللّٰهِ ـ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِماعِ هَـؤُلاءِ الْقَوْمِ عَلَى باطِلِهِمْ، وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ! فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً، حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى: يُغارُ عَلَيْكُمْ وَلا تُغِيرُونَ وَتُغْزَوْنَ، وَلا تَغْزُونَ وَيُعْصَى اللّٰهُ وَتَرْضَوْنَ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هَذِهِ حَمارَّةُ الْقَيْظِ؛ أَمْهِلْنا يُسَبَّخْ عَنّا الْحَرُّ. وَإِذا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتاءِ، قُلْتُمْ: «هَـذِهِ صَبارَّةُ الْقُرِّ أَمْهِلْنا يَنْسَلِخْ عَنّا الْبَرْدُ! كُلُّ هَذا فِراراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ فَإِذا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ؛ فَأَنْتُمْ ـ وَاللّٰهِ ـ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ!».

الشرح والتفسير

الاجتماع على الباطل والفرقة عن الحق

يتناول الإمام ﷺ بالتحليل العوامل الأُخرى لتقهقر أهل الكوفة وتراجعهم إلى جانب ذمهم ولومهم، بما يوقظ ضمائرهم ويدفع بهم باتجاه الصمود بوجه العدو والحؤول دون تسلله إلى البلاد، فقد قال ﷺ **«فيا عجباً[1] عجباً ـ والله ـ يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم»**. إنّما يكون التعجب والاندهاش حيث الأُمور التي تخرج عن المسار الطبيعي أو تكتنفها العوامل المجهولة أو غير المألوفة؛ الأمر الذي يطالب أنصار الحق ويوازع من إيمانهم القوي بالدفاع والصمود والمقاومة، بينما يقف أتباع الباطل

---

١. يا عجباً عجباً، قال بعض شرّاح نهج البلاغة أن العبارة «فيا عجباً عجباً» أصلها «عجبت عجباً...»؛ أي منصوبة على أنها مفعول مطلق. كما احتمل أن تكون عجباً الأولى من قبيل المفعول المطلق والثانية للتكرار والتأكيد (شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٢ / ٣٦) وقال البعض تقديرها «يا عجبي احضر» (شرح نهج البلاغة للعلامة الخوئي ٣ / ٣٩٢) ويبدو هنا التفسير أنسب لأن تكون «عجباً» منادى.

مكتوفي الأيدي وعدم الدفاع عن الحق لافتقارهم للدوافع التي تؤدي إلى ذلك الدفاع، ومن هنا فاذا شوهد أصحاب الحق يعيشون الفرقة والاختلاف وضعف الإرادة، بينما تحكم الوحدة والأخاء أتباع الباطل، فان ذلك مدعاة للذهول والعجب. فإمام أهل العراق هو علي بن أبي طالب ﷺ الذي نص رسول الله ﷺ على ولايته إلى جانب مبايعته من قبل أهل المدينة ومكة من المهاجرين والأنصار وسائر المسلمين من المناطق الإسلامية، كما كانت دلائل أحقيته من زهد وعلم وفضيلة وعدالة واضحة للجميع، بينما كان إمام الشام معاوية المعروف بطغواه وحبه للجاه والمنصب وسوابقه المشينة في الإسلام والجاهلية والتي لم تكن خافية على أحد، أفليس من العجب أن يهب أهل الشام لنصرة باطلهم ويقفون بوجه الحق، وينفرج أهل الحق عن الإمام ﷺ فينقضون ميثاقهم وينكثون بيعتهم؟! ومن هنا اشتد استياء الإمام ﷺ عليهم فجعل يذمهم ويلومهم، بعد أن جعلوا أنفسهم في هذه الحالة المزرية «**فقبحاً لكم وترحاً**[١] **حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويعصى الله وترضون**». فالواقع يوجز الإمام ﷺ ما يدعوه لذمهم في أمر واحد يكمن في الضعف والتواكل والخذلان إلى الحد الذي يمنح الأعداء الجرأة في شن الحملات تلو الحملات والغارات تلو الغارات فيسفكون دماء الأبرياء، وليس لهؤلاء من ردود فعل سوى الصمت والسكوت تجاه هذه المجازر المروعة!

ثم يتطرق الإمام ﷺ إلى دليل آخر دعاه لذم هؤلاء والذي أدى بهم إلى ذلك الضعف والذي يكمن في التعلل بحر الجو وبرودته التي لا تلعب دوراً في القتال، فقال ﷺ: «**فاذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم هذه حمارة**[٢] **القيظ**[٣]**؛ أمهلنا يسبخ**[٤] **عنا الحر. وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء، قلتم: هذه صبارة**[٥] **القر، أمهلنا ينسلخ**[٦] **عنا البرد؛ كل**

١. «ترحاً» تعني الحزن والغم فقد دعا عليهم الإمام ﷺ بهذه العبارة بالحزن والهم.

٢. «حمارة» من مادة «حمر» بمعنى اللون الأحمر، ويطلق على شدة حرارة الصيف المحرقة، وكأن شدة الحرارة كحمرة النار.

٣. «قيظ» على وزن فيض بمعنى الحرارة الشديدة للصيف، وعليه فاضافة حمارة إلى قيظ تأكيد للحرارة.

٤. «يسبخ» من مادة «سبخ» بمعنى التخفيف والتسكين.

٥. «صبارة» من مادة «صبر» بمعنى حبس الشيء وحفظه، وتطلق الصبارة على شدة البرودة.

٦. «ينسلخ» من مادة «سلخ» بمعنى إزالة القشر ومن هنا يطلق السلاخ على من يزيل جلد الحيوان، ثم اطلقت على كل فصل وإزالة.

هذا فراراً من الحر والقر[١]، فاذا كنتم من الحر تفرون، فأنتم ـ والله ـ من السيف أفر!».

وكأنّ الميدان لا يصلح للقتال إلّا في أيّام الربيع وفي ظل الأرض المخضرة والحشائش النظرة والطيور المغردة والمياه المتدفقة، فيدحر الجند أعدائهم بعصا سحرية دون الحاجة إلى العدة والعدد.

وكأن هؤلاء الجهال قد تناسوا تأريخ الإسلام رغم عدم مرور فترة عليه بحيث زحف النبي ﷺ بصحبه من المدينة إلى تبوك بعد أن قطعوا تلك المسافة الشاسعة خلال الصحراء الجرداء وفي ظل حرارة الشمس المحرقة على تلك الرمضاء ولم يكن لديهم ما يكفي من الماء والغذاء، وهكذا تحملوا سائر الصعاب والمعضلات في الحروب والغزوات ليقفوا كالليوث أمام الأعداء من خصوم الدعوة، ولو كانوا يأتون ما أتى جيش الكوفة ويتعللون بما تعللوا به لما نمت شجرة الإسلام ولا اخضر لها عوداً، بل لم يكتب النصر لأي جيش في العالم حين يعيش الجنود حالة من الضعف والوهن والجبن، ولم يكن نصيبهم سوى الفشل والهزيمة والذلة والهوان. والواقع أنّ كلام هؤلاء ليشبه ما قاله الكفار والمنافقون من قبل في صدر الإسلام «**لا تنفروا في الحر**» فرد عليهم القرآن بالقول **﴿قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ﴾**[٢]. فأهل الكوفة كانوا يريدون بهذه الأعذار الواهية التهرب من مواجهة العدو وقتاله، حيث تسرب إليهم النفاق بفعل ضعف ايمانهم بمبادئ الإسلام وإمامهم علي بن أبي طالب ؑ.

على كل حال فانّ المجاهدين الحقيقيين الذين يقتحمون الميدان ويخوضون غمار الجهاد ويسطرون الانتصارات إنّما هم أُولئك الذين لا يبالون بمصاعب الطقس والمناخ ولا يكترثون إلى مشاكل الطريق وتحمل العناء في هذا المجال، وممّا لاشك فيه ان العدو اذا شعر بأنّ خصمه يتحفظ عن القتال بسبب بعض المشاكل الطبيعية من قبيل حرارة الجو وبرودته فانّه سيستغل هذا الأمر كنقطة ضعف ويوظفها لصالحه بشن الحرب أملاً بتحقيق الانتصار.

---

١. قر له معنيان ؛ الأول البرد والثاني الاستقرار في مكان، ولا يبعد أن يعود المعنى الأول إلى الثاني، لأنّ البرد الشديد يصد الإنسان عن العمل.
٢. سورة التوبة / ٨١.

تأمّل: علة هذا الذم

إنّ أدنى نظرة إلى كلام أمير المؤمنين علي ﷺ في هذه الخطبة تثير السؤال التالي: لم كل هذا الذم من الإمام ﷺ لأهل الكوفة حتى خاطبهم لاحقاً «**لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة والله جرت ندماً وأعقبت سدماً، قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً وجر عتموني نغب التهام أنفاساً، وأفسدتم علي رأيي...**». ولعل أدنى نظرة إلى تأريخ الكوفة وأهلها ونقض المواثيق ونكث البيعة والنفاق والضعف والوهن الذي سادها تفسر لنا فلسفة هذا الذم القاسي والشديد. وكأنّ الإمام ﷺ سلك السبيل الأخير الذي من شأنه علاج مرضهم العضال حيث لم تعد لهم حساسية تجاه أي شيء، فقد لجأ الإمام ﷺ إلى هذا الاسلوب لعله يثير ما تبقى لديهم من مشاعر وأحاسيس تجاه عدوهم، وقد أثبتت الدراسات أنّ هذا الأُسلوب عملي جداً تجاه بعض الأفراد من الناحية النفسية. فهذه الكلمات في الواقع تشير إلى مدى اليأس من تلك العناصر الضعيفة الهزيلة التي لم تجد معها النصائح والمواعظ أية فائدة. بل الأعجب من ذلك أنّ كل هذه الكلمات اللاذعة لم تتمكن من إثارة يقظة وجدانهم، بحيث لم يلتحق به إلّا النفر القليل حين تجهز للقاء الأعداء، ممّا اضطره إلى دعوة أُولئك الأفراد الذين كانوا يقطنون القرى والمناطق المتاخمة لأطراف الفرات ويعبئها للقاء العدو. ولعل حالة أهل الكوفة تشبه إلى حد بعيد تلك الحالة التي سادت بني اسرائيل حين حرضهم نبيّهم موسى ﷺ على قتال عدوهم وتحرير بيت المقدس، فقد ردوا عليه بالقول: **﴿قالُوا يا مُوسىٰ إِنَّ فِيها قَوْماً جَبّارِينَ وَإِنّا لَنْ نَدْخُلَها حَتّىٰ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنّا داخِلُونَ... فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنّا هـٰهُنا قاعِدُونَ﴾**[1]

٭٭٭

١. سورة المائدة / ٢٢ ـ ٢٤.

القسم الرابع

«يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلاَ رِجَالَ! حُلُومُ الْأَطْفَالِ، وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ! لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً -وَاللّٰهِ- جَرَّتْ نَدَماً، وَأَعْقَبَتْ سَدَماً. قَاتَلَكُمُ اللّٰهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً، وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلاَنِ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَكِنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ. لِلّٰهِ أَبُوهُمْ! وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاساً، وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي؟ لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ، وَهَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ وَلَكِنْ لاَ رَأْيَ لِمَنْ لاَ يُطَاعُ!».

الشرح والتفسير

إدماء القلب

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بصب جام غضبه على أولئك الأفراد الضعاف الذين تواكلوا وتقاعسوا عن إداء وظائفهم عله يثير حفيظتهم فيلتفتوا إلى عظم المخاطر التي كانت تتربص بهم، ولاسيما أهل الشام الذين كانوا يشنون عليهم الغارات تلو الغارات دون أن يتورعوا عن سفك دمائهم وانتهاك حرماتهم وسلب أموالهم، حيث بالغ عليه السلام هذه المرة في ذمهم فخاطبهم قائلاً: «**يا أشباه الرجال ولا رجال**» يامن يعيشون آمال الأطفال فيسرع فيهم الخداع «**حلوم**[1] **الأطفال**» ويامن يحملون عقول ربات الحجال من العرائس اللائي لا يفكرن سوى برغد العيش ووسائل الزينة «**وعقول ربات**[2] **الحجال**[3]» فقد وبخهم الإمام عليه السلام في العبارة

---

١. «حلوم» من مادة «حلم» بمعنى ضبط النفس وقد وردت هنا بمعنى الآمال الفارغة الشبيهة بأحلام الأطفال.

٢. «ربات» جمع «ربة» صاحب الشيء ومالكه، واستناداً إلى تاء التأنيث فانّها تستعمل في المؤنث.

٣. «حجال» جمع «حجلة» وصحيحه حجلة على وزن عجلة وهي القبة، موضع يزين بالستور، والمراد بربات الحجال النساء.

الأولى بعدم امتلاكهم الشجاعة والحمية والغيرة والمروءة والرجولة التي كانوا يتمتعون بها ظاهرياً ولم يكن لهم من معانيها شيئاً على مستوى العمل. ثم اندفع في ذمهم أكثر ليخاطبهم بقوله: «**لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم معرفة ـ والله ـ جرت ندماً وأعقبت سدماً**». فالتأريخ يشهد بأنّ ثمرة علاقة أهل الكوفة والعراق بالإمام عليه السلام طيلة فترة خلافته لم تكن سوى الهم والغم الذي تمخض عن ضعفهم ونقضهم العهود وتفرقهم عن الحق وتلبسهم بالنفاق والرياء، فكان من الطبيعي أن يتمنى الإمام عليه السلام عدم رؤيتهم والتعرف عليهم، حتى دعا عليهم «**قاتلكم الله**[1] **فقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً وقد جرعتموني الهموم غصة بعد غصة، فجعلتموني غرضاً لسهام الأعداء، حتى ذهبت بهم المذاهب أني رجل شجاع، بينما ليست لي من دراية بالحرب «قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً وجرعتموني نغب**[2] **التهمام**[3] **أنفاساً، وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب**».

عادة ما تعزى الأُمم والشعوب ضعفها وتخلفها وفشلها إلى قلّة تدبير زعمائها، بينما قد تكون القضية بالعكس؛ أي أنّ الزعيم شخصية كفوءة بينما تعيش الأمّة حالة من التخلف الفكري والثقافي والاجتماعي؛ الأمر الذي يعتبر مأساة حقيقية بالنسبة للزعيم والقائد الناجح الذي يبتلى بمثل هذه الجماعة المسلوبة الإرادة، وممّا يؤسف له أنّ مسؤولية النتائج المريرة التي تفرزها طبيعة هذه المسيرة قد يلقيها الناس على عاتق ذلك الزعيم.

ثم يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالرد على قريش التي تخرصت بعدم علم الإمام عليه السلام بفنون القتال والحرب رغم شجاعته وبسالته:

«**لله**[4] **أبوهم وهل أحد منهم أشد لها مراساً**[5] **وأقدم فيها مقاماً مني**». فقد اقتحمت

---

١. لابدّ من الالتفات هنا إلى أنّ التعبير بقاتلكم إلى أنّهم كانوا في مقام محاربة الله وأحكامه، وأنّهم لا محالة ملعونين مطرودين من رحمة الله ـ ومن هنا فان أغلب المفسرين ذهبوا إلى أنّ الآية ٣٠ من سورة التوبة ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ تعني الطرد من رحمة الله (انظر المفردات للراغب ونشر طوبى للمرحوم العلّامة الشعراني).

٢. «نغب» جمع «نغبة» على وزن لقمة بمعنى شربة الماء، كجرعة وجرع وقد شبّه هنا الحزن بالماء المرّ الذي شربه الإمام جرعة جرعة.

٣. «التهمام» من مادة «همم» بمعنى الهم، ويستعمل هذا الوزن عادة بمعنى المصدر مثل تكرار وتذكار.

٤. «لله أبوهم» تقال هذه العبارة للمدح، كما تطلق في بعض الأحيان للتعجب، ومفهومها رحم الله والديهم.

ميادين الحرب وأنا ابن العشرين وها أنا ذا أخوض غمارها وقد ناهزت الستين من عمري (وعليه فقد مارست تجربة ضخمة في الحروب كقائد لمدّة أربعين سنة) ولكن ماذا عساني أن أفعل وليس هنالك من يطيع «**لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت**[٦] **على الستين! ولكن لا رأي لمن لا يطاع**».

تأمّلات

١ ـ الاتباع الطلحاء، والقادة الأكفاء

لاشك أنّ معادلات الهزيمة والانتصار ليست عبثية، وأنّ اولئك الذين ينسبون النصر أو الهزيمة إلى بعض الأسباب المجهولة والعوامل الغامضة من قبيل المصادفة والحظ إنّما يسعون للفرار من الحقائق المريرة والابتعاد عن تحليلها والوقوف على كنهها. وعادة ما تذهب التحليلات إلى أنّ العامل الأصلي الذي يكمن وراء النصر والهزيمة إنّما يتمثل بقدرة القيادة وحكمتها في إدارة شؤون الأمّة، بينما تكون القضية معكوسة في بعض الحالات، فقد تتحلى القيادة بالقوة والاقتدار وارتفاع المعنوية والاحاطة بفنون الإدارة والتعامل مع الاحداث؛ الأمر الذي يفيد بما لا يقبل الشك أنّ العنصر الذي يقف وراء الهزيمة إنّما يتمثل بالاتباع الضعفاء الذين لا يتحلون بالارادة إلى جانب سذاجتهم وقلّة تجربتهم بما يجعل من المتعذر عليهم مواكبة قيادتهم في ادراك الأهداف فضلاً عن تطبيقها في الواقع، وهنا تتلاشى قدرة الزعيم الكفوء في ظل فساد وانحراف مثل هؤلاء الأتباع؛ الأمر الذي يؤرق فكر القائد ويقض مضجعه. وهذا هو السر في تلك الكلمات الشديدة التي أطلقها الإمام ﷺ بحق أهل الكوفة، فقد بلغت الفرقة والشقاق والنفاق حداً جعل حتى أصحاب الإمام ﷺ ـ فضلاً عن أعدائه ـ من أُولئك الذين شهدوا بطولات الإمام ﷺ وصولاته في الغزوات الإسلامية يتهمونه بعدم العلم بفنون القتال! فما كان منه ﷺ إلّا أن ذكرهم بتأريخه المشرق ومواقفه المشهورة التي تنكفي فيها الأبطال؛ لقد نهضت بأمر القتال ولم أبلغ العشرين وقد ذرفت الآن على الستين، فكيف أُتهم

---

٥. «مراساً» و«ممارسة» بمعنى واحد، أي عالجه وزاوله وعاناه.

٦. «ذرفت» من مادة «ذرف» بمعنى سيل الدمع، وقد وردت هنا بمعنى زدت على الستين.

بعدم العلم بالحرب؟ نعم قد بليت باتباع بعيدين عن الانضباط من أهل الهوى والطيش الذين يتصرفون على ضوء ما تمليه عليهم أهوائهم، وعليه فليست هنالك من نتيجة سوى الهزيمة والفشل. وأفضل شاهد على ذلك النتيجة المريرة لمعركة صفين والخدعة التي عمد إليها معاوية وعمرو بن العاص في حمل المصاحف على أسنة الرماح، والأنكى من كل ذلك قضية التحكيم وترشيح أبي موسى الأشعري وفرضه على الإمام ﷺ. فيكاد يجمع الجميع اليوم بما فيهم المحققون وغيرهم أنّ النصر أصبح قاب قوسين أو أدنى في صفين لولا حالة النفاق والفرقة والعصيان التي دبت في جيش الإمام ﷺ ولما وقعت تلك الأحداث التي سود بها الأمويون وجه التأريخ ومن هنا تعتبر موقعة صفين من أقسى الأحداث التي شهدها التأريخ الإسلامي وبالذات سيرة الإمام علي ﷺ. وليت ذلك الأمر اقتصر على زمان علي ﷺ، بل مازال هنالك اليوم الكثير من الجهال الذين يشككون في السياسة الحربية لأمير المؤمنين ﷺ وكيفية إدارة شؤون البلاد، وما هذا إلّا دليل صارخ على عمق مظلومية الإمام ﷺ، الإمام ﷺ الذي جعل التأريخ يدين بالفضل لذلك العهد العظيم الذي عهده لعامله على مصر مالك الأشتر في كيفية إدارة شؤون البلاد، فما زالت مبادئه وأسسه قائمة فاعلة رغم مرور أربعة عشر قرناً عليه، ليكون ذلك العهد مصداقاً لقوله سبحانه ﴿**كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾[1]. فقد أذعن العدو والصديق لعمق الأصول والتعاليم التي أوردها الإمام ﷺ في نهج البلاغة والتي تمثل عمق سياسة الإمام ﷺ، مع ذلك ينبري هذا وذاك من الحين إلى الآخر لاتهام الإمام ﷺ. وقد أشار الإمام ﷺ في عدة مواضع إلى هذه الحقيقة المريرة المتمثلة بالغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق. فقد خطبهم ﷺ بعد حادثة الأنبار وغارت أهل الشام قائلاً: «**والله ما تكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم إن كانت الرعايا قبلي لتشكوا حيف رعاتها وانني اليوم لأشكو حيف رعيتي كأنني المقود وهم القادة أو الموزوع وهم الوزعة**»[2]. كما قال ﷺ في موضع آخر: «**أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي**»، ثم شكاهم ﷺ بالقول: «**اللّهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوي وكلت النزعة بأشطان**

١. سورة ابراهيم / ٢٤ ـ ٢٥.
٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار / ٢٦١.

الركي! أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه وقرأوا القرآن فأحكموه وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها»[١].

٢ ـ الإجابة على سؤال

لقد أثار بعض شرّاح نهج البلاغة سؤالاً وهو: هل كانت تلك السياسة التي انتهجها الإمام ﷺ ازاء الأمّة (بتلك الشدة والحدة من الذم واللوم) صائبة؟ ألم تكن تدعو تلك الكلمات الأفراد إلى النفرة والشعور بالغربة والعزلة؟ ويبدو هذا الإشكال أعمق وأرسخ إذا أخذنا بنظر الاعتبار مدى صبر الإمام ﷺ وحلمه وعفوه وصفحه، فكيف ارتضى الإمام ﷺ مخاطبتهم بتلك الكلمات؟ ويتضح الجواب على هذا السؤال من خلال ما ذكرناه سابقاً من أن ذلك الاسلوب كان يمثل الوسيلة الأخيرة التي من شأنها إثارة عواطف الأمّة وتفعيل حركتها ونشاطها واخراجها من حالة الضعف والوهن التي كانت تسيطر عليها، ولعل ذلك الأُسلوب يشبه ما تعارف لدى عوام الناس حين تعجز عن اصلاح أحدهم فتقول لابدّ من العمل بما يثير غيرته ويوقظ ضميره. وعليه فان تلك الكلمات تكشف بدورها عن بلاغة الإمام ﷺ في ايراده الكلام الذي ينطبق ومقتضى الحال. وهنا لا ينبغي أن ننسى بأنّ الإمام ﷺ عمد إلى ذلك الاسلوب بعد أن مارس كافة الطرق من قبيل حثهم على الجهاد وتذكيرهم بالقيم والمبادئ، واطرائهم والثناء عليهم ـ وعليه يبدو من المستبعد رأي بعض شرّاح نهج البلاغة[٢]، من أن الإمام ﷺ أورد ذلك الكلام على ضوء «**لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة ولا تفرقهم عني وحشة**»؛ لأنّ الكثرة المقتدرة في الحروب والمعارك مطلوبة ولا يسع أحد بمفرده أن يهب القتال جيش جرار طمعاً بتحقيق النصر.

٣ ـ سؤال آخر

لقد قال الإمام ﷺ في الخطبة المذكورة «**لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا**

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٢١.
٢. في ظلال نهج البلاغة ١ / ١٩٢.

قد ذرفت على الستين» فيقتدح إلى الذهن هذا السؤال: كان لعلي ﷺ على الأقل ثلاث وعشرين عاماً حين الهجرة، واننا لنعلم بأنّ المعارك الإسلامية وقعت بعد الهجرة، فكيف ينسجم هذا الأمر وما ذكره الإمام ﷺ ونقول في الجواب صحيح أنّ الحروب والمعارك وقعت فعلياً بعد الهجرة، إلّا أنّ السنوات الأخيرة من الدعوة في مكة قد شهدت تصعيداً في مجابهة النبي ﷺ بما لا يقل شيئاً عن إعلان حالة الحرب. وغموذج ذلك محاصرة بيت النبي ﷺ من قبل كافة رجالات قريش حين بات الإمام ﷺ على فراشه لينجو رسول الله ﷺ بنفسه، كما صرحت بعض التواريخ بأنّ المشركين كانوا قد أعدوا قبل ذلك بعض الخطط لقتل النبي ﷺ؛ الأمر الذي كان يثير قلق أبي طالب. حتى أورد صاحب البحار أنّ صبية المشركين كانوا يرمون رسول الله ﷺ بالحجارة حين يخرج من بيته في مكة، فكان علي ﷺ يدافع عنه وينقض عليهم فيولون هاربين[1].

فالواقع تشير مثل هذه الأحداث وما شابهها أنّ العهد المكي كان يعيش حالة الحرب رغم عدم نشوبها بصورة فعلية حيث كان المسلمون يشهدون أذى الكفار باستمرار، الأمر الذي كان يتطلب بعض التدبير والتفكير من أجل كسب المعركة.

ولعل قوله ﷺ: **«نهضت فيها وما بلغت العشرين»** ـ الذي ورد في الخطبة ـ إشارة إلى التأهب للحرب لا لنشوب الحرب.

٤ ـ الخاتمة المريرة للواقعة

ذكر بعض شراح نهج البلاغة أن علياً ﷺ حين أُخبر عن غارة أهل الشام وقتلهم لعامله فخطب الناس.

ثم سكت عنهم رَجَاء أن يجيبوه أو يتكلم منهم متكلم، فلم ينبِس أحدٌ منهم بكلمة. فلما رأى صُمّتَهم نزل، وخرج يمشي راجلاً حتى أتى النُّخَيْلة، والناس يمشون خَلْفَه حتى أحاط به قوم من أشرافهم، فقالوا: ارجع يا أميرَالمؤمنين ونحن نكفيك، فقال: ما تَكْفونني ولا تَكْفُون

١. بحار الأنوار ٤١ / ٦٢.

أنفسكم. فلم يزالوا به حتى صرفوه إلى منزله، فرجع وهو اجم كئيب، ودعا سعيدبن قيس الهمْداني، فبعثه من النُخَيلة في ثمانية آلاف، وذلك أنّه أخبر أنّ القوم جاءوا في جمع كثيف.

فخرج سعيدبن قيس على شاطئ الفُرات في طلب سفيان‌بن عوف؛ حتى إذا بلغ. عانات، سرّح أمامه هانئ‌بن الخطاب الهْمدانيّ، فاتبع آثارهم حتى دخل أدانِيَ أرض قِنّسرين وقد فاتوه، فانصرف.

وأتاه قوم يعتذرون، فقام حُجْربن عديّ الكنديّ وسعيدبن قيس الهَمْدَانيّ، فقالا: لا يسوءك الله.يا أميرالمؤمنين، مُرْنَا بأمرك نتبعه، فوالله ما نَعظم جَزَعاً على أموالنا إن نفدت، ولا على عشائرنا إن قُتِلتْ في طاعتك. فقال: تجهّزوا للمسير إلى عدوّنا.

فلما دخل منزله ودخل عليه وجوه أصحابه، قال لهم: أشيروا عليّ برجل صَلِيب ناصح، يحشر الناس من السواد. فقال له: سعيدبن قيس: يا أميرالمؤمنين، أشير عليك بالناصح الأريب الشجاع الصليب، معقِل‌بن قيس التميمي، قال: نعم.

ثم دعاه فوجهه، فسار فلم يقدم حتى أصيب أميرالمؤمنين عليه‌السلام[1].

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/ ٨٨ـ٩٠.

الخطبة[1] ٢٨

ومن خطبة له ﷺ

وهو فصل من الخطبة التى «الحمد لله غير مقنوط من رحمة»

وفيه احد عشر تنبيها

نظرة إلى الخطبة

هذه من الخطب المعروفة لأمير المؤمنين علي ﷺ، وهى كما ذهب الشيخ المفيد في الإرشاد من خطبه الخالدة التي حفظها أرباب الفهم والعقل، أو كما قال السيد الرضي: إنّه لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة، لكان هذا الكلام وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال وقادحاً زناد الاتعاظ والازدجار. فقد أشار الإمام ﷺ في هذه الخطبة القصيرة ـ والتي يراها بعض المحققين جزءاً من الخطبة الخامسة والعشرين ـ إلى عشرة جوانب مهمّة بشأن الآخرة والزهد في الدنيا وعدم الاغترار بنعم الدنيا وزبرجها والاستعداد والتأهب للدار الآخرة، والتحذير من الأخطار التي تهدد سعادة الإنسان ـ فالحق أنّ الخطبة من الخطب العظيمة التي تسوق الإنسان إلى الزهد في الدنيا وعدم الإكتراث لزخرفها والانتباه إلى الآخرة، وقد انطوت على عبارات واضحة صريحة توقظ الإنسان من غفلته ورقدته.

---

١. تعتبر هذه الخطبة من الخطب المهمة لأمير المؤمنين علي ﷺ التي رواها كبار علماء الفريقين في كتبهم ومؤلفاتهم، ومنهم ١ ـ الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ١ / ١٧١؛ ٢ ـ الباقلاني في كتاب إعجاز القرآن / ٢٢٢؛ ٣ ـ الحسن بن علي بن شعبة في تحف العقول؛ ٤ ـ ابن عبد ربة في العقد الفريد ٢ / ٣٦٥؛ ٥ ـ ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢ ـ ٢٣٥؛ ٦ ـ المسعودي في مروج الذهب ٣ / ٣٦٥؛ كما رواها المرحوم العلّامة المجلسي في البحار عن كتاب مطالب السئول لمحمد بن طلحة الشافعي وكتاب الإرشاد للمفيد مع بعض الاختلاف.

القسم الأول

«أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا أَدْبَرَتْ، وَآذَنَتْ بِوَدَاعٍ وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَأَشْرَفَتْ بِاطِّلَاعٍ، أَلَا وَإِنَّ الْيَوْمَ الْمِضْمَارَ وَغَداً السِّبَاقَ وَالسَّبَقَةُ الْجَنَّةُ وَالْغَايَةُ النَّارُ؛ أَفَلَا تَائِبٌ مِنْ خَطِيئَتِهِ قَبْلَ مَنِيَّتِهِ أَلَا عَامِلٌ لِنَفْسِهِ قَبْلَ يَوْمِ بُؤْسِهِ! أَلَا وَإِنَّكُمْ فِي أَيَّامِ أَمَلٍ مِنْ وَرَائِهِ أَجَلٌ، فَمَنْ عَمِلَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ. فَقَدْ نَفَعَهُ عَمَلُهُ وَلَمْ يَضْرُرْهُ أَجَلُهُ. وَمَنْ قَصَّرَ فِي أَيَّامِ أَمَلِهِ قَبْلَ حُضُورِ أَجَلِهِ فَقَدْ خَسِرَ عَمَلُهُ وَضَرَّهُ أَجَلُهُ».

الشرح والتفسير

الدنيا والآخرة عند الإمام علي عليه السلام

أشرنا سابقاً إلى أنّ الإمام عليه السلام تطرق إلى عشرة أُمور مهمّة في هذه الخطبة الغـرّاء لدفـع الناس باتجاه الزهد وعدم الاغترار بزخارف الدنيا؛ فقد ورد في الأخبار ـ كما أثبتت ذلك التجربة طيلة التأريخ ـ أنّ حبّ الدنيا رأس كل خطيئة، وعليه فانّ عدم الإكتراث لهذه الدنيا والزهد فيها يمثل الخطوة الاولى المهمة لإصلاح النفوس ومواجهة الفساد الفردي والاجتماعي.

فقد استهل الإمام عليه السلام كلامه بتصدر الدنيا ووداعها لأهلها «**أما بعد فان الدنيا قد أدبرت، وآذنت**[1] **بوداع**». وهنا يطرح هذا السؤال: كيف آذنت الدنيا بالأدبار والوداع؟ هناك الشواهد والأدلة الحيّة على هذا الأمر ومن ذلك قبور الماضين التي تضم بقايا رفات وعظام الملوك والسلاطين والحكام والأمراء والكهول والفتيان والصبيان، والأظهر المحدودبة للكهول

1. «آذنت» من مادة «اذن» بمعنى الاعلان، ومنه الاذان الذي يعلن وقت دخول الصلاة.

واشتعال الرأس شيباً والأمراض الفتاكة التي تودي بحياة الأفراد، حقاً لقد أصيبت الدنيا بالصمت والسكوت، إلّا أنّه مازالت تتحدث بلسان العبرة! وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في احدى خطبه «**فكفى واعظاً بموتى عاينتموهم، حملوا إلى قبورهم غير راكبين وانزلوا فيها غير نازلين، فكأنهم لم يكونوا للدنيا عماراً وكأن الآخرة لم تزل لهم داراً**».[1]

ثم أشار عليه السلام في النقطة الثانية إلى موضوع إقبال الآخرة «**وإن الآخرة قد أقبلت، وأشرفت باطلاع**»[2]. إنّ الموت يعد المنزل الأول من منازل الآخرة والذي يبتلع أبناء الدنيا، وهذا بدوره من علامات إقبال الآخرة. ومن هنا فقد أوصى الإمام عليه السلام الجميع بالاستعداد إلى الآخرة ومغادرة الدنيا والتزود لتلك الدار المحفوفة بالخطر قبل فوات الأوان. وذكر عليه السلام في النقطة الثالثة بالرابطة القائمة بين داري الدنيا والآخرة فقال «**ألا وإن اليوم المضمار**[3] **وغدا السباق**[4] **والسبقة الجنّة والغاية النار**» فقد شبه عليه السلام بهذه العبارة الرائعة الإنسان بالخيال الذي يخوض السباق، فمن الواضح أنّ مثل هذا الإنسان وعلى غرار الخيال يحتاج إلى التمارين والتدريبات المسبقة، حيث تصطلح العرب بالمضار على الموضع أو الزمان الذي يضمر فيه الحيوان، بل يطلق على الحيوان الذي ينحف إثر التمارين لا على كل حيوان كما صرح الراغب في المفردات. آنذاك يبدأ السباق الذي يتضمن الفوز والخسارة وتسلم الجوائز من قبل الفائزين. فالإمام عليه السلام يرى الدنيا ميدان التأهب والاستعداد والآخرة ميدان السباق والجوائز، وسوف تكون جائزة الفائزين الجنّة ونصيب الخاسرين النار. ومن البديهي أنّ أحداً لا يسعه التمرين في ميدان السباق، بل عليه أن يتمرن ويعد نفسه قبل السباق؛ وهكذا الحال في المحشر،

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٨.

٢. «اطلاع» من مادة «طلع» بمعنى الظهور، وطلوع الشمس بمعنى ظهورها، ويرى البعض أنّها تطلق على العلم المفاجئ، وأشرفت باطلاع، أقبلت بغتة.

٣. «المضمار»: الموضع والزمن الذي تضمر فيه الخيل، وتضمير الخيل أن تربط ويكثر علقها وماؤها حتى تسمن، ثم يقلل علفها وماؤها وتجري في الميدان حتى تهزل، ثم ترد إلى القوت، والمدة أربعون يوماً، وقد يطلق التضمير على العمل الأول أو الثاني، واطلاقه على الأول لأنّه مقدمة للثاني وإلّا فحقيقة التضمير احداث الضمور وهو الهزل وخفة اللحم، وإنّما يفعل ذلك بالخيل لتخف في الجري يوم السباق.

٤. «السباق» من مادة «سبق» ومسابقة من باب مفاعلة ولسباق نفس المعنى. وسبقة بمعنى الهدف المطلوب الذي يتسابق من أجله أو بمعنى الجائزة.

فليس هنالك من مجال للحسنات والتوبة من السيئات وتهذيب النفوس وتطهيرها، ولابدّ من إعداد هذه الأمور في الحياة الدنيا. وعليه فلا ينبغي أن ينسى الأفراد هذه الحقيقة وهي إن عدم التزود في الدار الدنيا والتأهب الروحي والمعنوي فانّ النتيجة النهائية للسباق في الآخرة لن تكون سوى الفشل والخيبة والخسران التي تعني هناك نار جهنم. والجدير بالذكر هنا أنّ الفائزين هناك يتفاوتون في الدرجات، فهناك الفائز الأول والثاني والثالث وهكذا؛ الأمر الذي يتجسد بوضوح في عالم الآخرة ودرجاتها. فيتضح ممّا تقدم أنّ السباق بمعنى المسابقة والسبقة بمعنى الهدف والغاية التي ينبغي للمتسابق أن يصل إليها، والسبقة على وزن لقمة بمعنى الجائزة وقد علق المرحوم السيد الرضي(ره) ـ في ذيل هذه الخطبة كما سيأتي ـ على تعبير الإمام عليه السلام: «**والسبقة الجنّة والغاية النار**» فقال: لم يقل عليه السلام السبقة النار كما قال السبقة الجنّة؛ لأنّ الاستباق إنّما يكون إلى أمر محبوب، وغرض مطلوب، وهذه صفة الجنّة وليس هذا العنى موجوداً في النار، فخالف الإمام عليه السلام بين اللفظين لاختلاف المعنيين. ولا يبدو هنالك من تعارض بين كلامه عليه السلام والآية الشريفة ﴿**سابِقُوا إِلىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ**﴾[1]؛ لأنّ «**سابقوا**» لا تعني السباق في هذا العالم، بل تعني التأهب من أجل سباق الآخرة، والدليل على ذلك أنّها جعلت الجنّة هي الهدف النهائي لهذه المسابقة، بعبارة أُخرى فان السباق هنا نحو الخيرات والصالحات، أمّا السباق هناك نحو الجنّة التي تمثل حصيلة الأعمال. ثم أشار عليه السلام في النقطة الرابعة إلى واحدة من أهم أمتعة السفر الأخروي الخطير وهي التوبة فقال: «**أفلا تائب من خطيئته قبل منيّته**[2]، **ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه**» فهذه التعبيرات ـ التي تهدف إلى إثارة العارفين والعمل على تشجيعهم إلى جانب تنبيه الغافلين وإيقاظهم ـ هي في الواقع تمثل النتيجة المنطقية للعبارات السابقة، وذلك إذا كانت الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وإنّ اليوم المضمار وغداً السباق والسبقة الجنّة والغاية النار فلم لا يتوب أهل الحجى والعقل وينيبوا إلى

١. سورة الحديد / ٢١.
٢. «منية» من مادة «مني» على وزن نقي، قال صاحب مقاييس اللغة بمعنى تقدير الشيء، ثم أطلقت على الموت والأجل، لأنّ الموت أمر مقدر، وتطلق المنى على الأماني التي تدور في خلد الإنسان.

الله ويغتنموا الفرصة بالأعمال الصالحة ويستعدوا لسفر الآخرة؟ ولعل هذا هو الذي أشار له الإمام ﷺ في خطبة أُخرى «**فاعملوا وأنتم في نفس البقاء، والصحف منشورة والتوبة مبسوطة**»[١].

أما تعبيره ﷺ عن يوم القيامة بيوم البؤس فلما يكتنفه من أحداث مهولة وعذاب شديد وهلع وخوف عظيم. وقد أشارت أغب الآيات القرآنية لذلك العذاب لتحذر الإنسان وتحثه على اغتنام الفرصة والتزود لذلك اليوم العصيب المليء بالمخاطر التي لا ينجي منها سوى العمل الصالح. أمّا في النقطة الخامسة فقد أشار ﷺ إلى الفرص التي تمر مرّ السحاب والتي يقود عدم اغتنامها إلى الندم «**ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن عمل في أيّام أمله قبل حضور أجله فقد نفعه عمله ولم يضرره أجله**» ويخسر بالمقابل من يقصر في العمل، كما أنّ أجله يصبح عليه وبال «**ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضرّه أجله**». وتعبيره عن الحياة الدنيا بأيّام الأمل هو تعبير لطيف يشير إلى قصر وإيجابية عالم الدنيا؛ لأنّ دقائق عمر الإنسان تمثل أعظم فرصة من أجل بلوغ السعادة والفوز بالفلاح الأُخروي الخالد.

فلعل التوبة في لحظة من اللحظات تطفئ بحاراً من نيران جهنم كانت تتربص بهذا الإنسان، ولعل العمل الصالح الخالص في ساعة من عمره ينتهي به إلى جنان الخلود والرضوان.

تأمّلات

١ ـ الدنيا والآخرة في الأحاديث

يرى الدين الإسلامي الحنيف وجميع الأديان السماوية أنّ الدنيا دار طارئة متبدلة جعلت ليتزود منها الإنسان ويكسب فيها السمو والكمال والمعرفة التي تحلق بها إلى عالم الخلود، ومن هنا فإنّ الله يبتلي العباد فيها بأنواع البلاء والامتحان من خلال العبادات والطاعات وترك الشهوات وتحمل المصائب والمشكلات التي من شأنها تربية الإنسان وصقل شخصيته

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٧.

وتهيئته لعالم الآخرة المفعم بالخير والبركة. وقد تظافرت الروايات التي تعرضت لبيان حقيقة الدنيا بعدة تعبيرات مختلفة رائعة، ومن ذلك الخطبة التي نحن بصددها والتي شبّه فيها الإمام عليه السلام الدنيا بالدورة التدريبية التي يستعد فيها الإنسان لسباق الآخرة، الذي يحصل فيه الغالب على الجنّة والخاسر النار. وقد جاء في الحديث أن «**الدنيا مزرعة الآخرة**»[1] ومن الواضح أنّ المزرعة ليست مكاناً للحياة والاستقرار بل هي مكان للتزود من أجل مكان آخر، وقد عبّر عنها بالمتجر ودار الموعظة والمصلى، كما أورد ذلك الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة فقال «**إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها... ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباء الله ومصلى ملائكة الله ومهبط وحي الله ومتجر أولياء الله**»[2]. وروي عن الإمام السجاد عليه السلام أنّ المسيح عليه السلام قال للحواريين: «**إنّما الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها**»[3]. كما عبر عنها الإمام علي عليه السلام بأنّها «**دار ممر**»[4] و«**دار مجاز**»[5]. وأخيراً فقد وصفها الإمام الهادي عليه السلام بالسوق الذي يتضمن الربح والخسارة «**الدنيا سوق ربح فيها قوم وخسر آخرون**»[6]. والخلاصة فانّ كل هذه العبارة ترشد إلى عدم النظر إلى الدنيا على أنّها هي الهدف النهائي، بل هي وسيلة لادخار العمل الصالح وكسب المعارف من أجل الظفر بالدار الآخرة. ولعل البعض يرى أنّ هذا الموضوع ساذج، إلّا أنّ الواقع هو أنّ أهم مسألة مصيرية في حياة الإنسان في أنّه كيف يتعامل مع الإمكانات المادية التي زود بها في هذه الحياة وكيف ينظر إلى هذه الدار، هل يراها وسيلة وأداة من أجل الوصول إلى هدف معيّن، أم يراها هي الهدف النهائي وليس وراءها شيء. والواقع أنّ تأكيد الإمام عليه السلام في بداية الخطبة على أن الدنيا ميدان الإستعداد لسباق الآخرة إنما يشكل الدعامة الأساسية الراسخة لسائر المواعظ المهمة التي وردت في هذه الخطبة.

---

١. ورد هذا الحديث النبوي في غوالي اللئالي ١ / ٢٦٧.
٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار / ١٣١.
٣. بحار الأنوار ١٤ / ٣١٩ح ٢١.
٤. نهج البلاغة، الكلمات القصار / ١٣٣.
٥. نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٣.
٦. بحار الأنوار ٧٥ / ٣٦٦، مواعظ الإمام الهادي عليه السلام

٢ ـ الخسارة العظمى

النقطة التي تعرضت لها الخطبة والتي ينبغي الالتفات إليها، إنّما تكمن في عدم إمكانية تدارك الخسران الذي يطيل الإنسان في هذه الحياة وفقدانه للفرص التي كان من شأنها أن تجعله يفوز بالدار الآخرة، والواقع إنّ السباق الذي ينتظر الإنسان إنّما يقام لمرة واحدة فقط، فهناك ميدان للتمرين وآخر للسباق ليس للتكرار إليه من سبيل، ومن خسر فليس أمامه من فرصة لتدارك خسارته، ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «**ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله**». أمّا الندم فلا يداوي جرحاً ولا يصلح فاسداً هناك فليصرخ الصارخون: ﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ**﴾[1] فيأتي الجواب ﴿**كَلّا**﴾.

---

١. سورة المؤمنون / ١٠٠.

القسم الثاني

«أَلاٰ فاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَمٰا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ! أَلاٰ وَإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نٰامَ طٰالِبُهٰا، وَلاٰ كَالنّٰارِ نٰامَ هٰارِبُهٰا، أَلاٰ وَإِنَّهُ مَنْ لاٰ يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبٰاطِلُ، وَمَنْ لاٰ يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى، يَجُرُّ بِهِ الضَّلاٰلُ إِلَى الرَّدَى. أَلاٰ وَإِنَّكُمْ قَدْ أُمِرْتُمْ بِالظَّعْنِ وَدُلِلْتُمْ عَلَى الزّٰادِ وَإِنَّ أَخْوَفَ مٰا أَخٰافُ عَلَيْكُمُ اثْنَتٰانِ: اتِّبٰاعُ الْهَوَى، وَطُولُ الْأَمَلِ، فَتَزَوَّدُوا فِي الدُّنْيٰا مِنَ الدُّنْيٰا مٰا تَحْرُزُونَ بِهِ أَنْفُسَكُمْ غَداً».

الشرح والتفسير

الرحيل الوشيك

أشار الإمام ﵇ إلى مسألة مهمّة ربّما غفل عنها أغلب الناس: «**ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة**» فعبادة الله وطاعته لا تعني الفزع إليه في الشدة والبلاء والتولي عنه في اليسر والرخاء؛ ولو كان الأمر كذلك لكان مشركوا الجاهلية من خلص العباد، فقد وصفهم القرآن الكريم بالقول: **﴿فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمّا نَجّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾**[1] ثم خاطبهم في آية أُخرى **﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلّا إِيّاهُ فَلَمّا نَجّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً﴾**[2]. والواقع أنّ العبرة ليست في الاقبال على الله عند الفزع، بل العبرة أن يقبل العبد عليه حين الرخاء والرفاه والشعور بالقوة والاقتدار، فما كان مع الله في هذه الظروف كان الله معه في الظروف العصيبة. فعلامة الإيمان الخالص أن يتوجه العبد إلى الله ويذكره على كل حال في العافية والسقم والفتوة

---

١. سورة العنكبوت / ٦٥.
٢. سورة الاسراء / ٦٧.

والكهولة والفقر والغنى والهزيمة والانتصار والحرية والسجن وما إلى ذلك. ومن هنا نرى الأنبياء والأوصياء والأولياء لا ينفكون في حال من الأحوال عن التضرع إلى الله والتوجه إليه. فالمتتبع لسيرة الإمام علي عليه السلام لا يرى في عبادته من تفاوت بين جلوسه في البيت حين زحزحت عنه الخلافة ونهوضه بالأمر وإدارته لشؤون البلاد الإسلامية. فالزهد والتهجد وإعانة الضعفاء والفقراء وطلاق الدنيا إلى غير رجعة كان من المعاني الواضحة في عبادة الإمام عليه السلام: ثم قال عليه السلام: «**ألا وإنّي لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها**». لقد رأينا عدّة أفراد من الذين يعيشون الأرق ليالي حين يهمون ببعض الأسفار القريبة التي تدر عليهم بعض الأرباح والفوائد، فكيف ينام طالب الجنّة الباقية ـ النعمة التي لا تفوقها نعمة أو الخائف من نار جهنم التي لا يتصور عذابها وأن رؤيته غير سماعه ـ ولا يكترث لهذه الأُمور؟! ولعل ذلك يعزى إلى ضعف ايمان الفرد بالعالم الآخر، أو إلى سكر النعم والمنافع التي يتمتع بها في حياته، ومهما كان السبب فانّ الغفلة عن الآخرة لمن الظواهر المأساوية الاليمة التي ينبغي للإنسان التوقف عندها ومعالجتها. ولاشك أنّ من وظائف أئمة الدين وزعماء المسلمين ايقاظ الناس من غفلتهم وترسيخ دعائم ايمانهم ولفت أنظارهم إلى الدار الآخرة وتحذيرهم من الاغترار بالدنيا والذوبان فيها. وفي النقطة الثامنة يشير الإمام عليه السلام إلى مسألة ذات صلة بهذا الموضوع فيقول: «**ألا وإنّه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجر به الضلال إلى الردى**». طبعاً لا يتضح عمق هذا الكلام مالم نقف على التعريف الصحيح للحق والباطل. فالحق عبارة عن الواقعيات، سواء كان هذا الحق تكوينياً أم تشريعياً. ويراد بالحق التكويني واقعيات عالم الوجود، ويقابل ذلك الباطل المتمثل بالخيال والسراب الذي لا واقع له ولا وجود سوى في عالم التصور والوهم. أما الحق التشريعي فيتمثل بالقوانين والتعاليم الإلهية التي شرعت من أجل الفرد أو مجموعة الأفراد على ضوء المصالح والكفاءات الذاتية أو الاكتسابية، ويقابله الباطل الذي يتجسد بعرقلة القوانين والتمرد عليها باسم القانون وتضييع العدالة وسلب الحريات وذبحها بمرأىً ومسمع من الناس. ومن البديهي أنّ من يولي ظهره للحق سواء على مستوى التشريع أو التكوين فانّه يقع في حبائل الباطل من قبل الوهم والخيال والسراب الذي يحسبه الظمآن ماء؛ الأمر الذي لا يرتقي بالإنسان إلى الشيء،

والواقعيات هي التي تبلغ بالإنسان الهدف لا الوهم والخيال الذي لا يجر على الإنسان سوى الخذلان والخسران. ولعل الإنسان يستطيع عن طريق الباطل اغفال الآخرين مدّة من الزمان، إلّا أنّ مصيره المحتوم إنّما يؤول إلى البؤس والشقاء لا محالة في خاتمة المطاف وعليه فان قوله ﷺ: «**ألا وإنّه من لا ينفعه الحق، يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى، يجر به الضلال إلى الردى**» إنّما يمثل حقيقة واقعية واضحة. طبعاً صحيح أن الاقرار بالحق واقتفاء آثاره إنّما يقترن غالباً بتحمل الشدائد المريرة، إلّا أنّ هذه المرارة تبدو كمرارة الدواء التي تجعل السقيم يتماثل للشفاء، ولا يجني من تلك المرارة سوى السلامة والصحة والعافية من المرض الذي ربّما يؤدي بصاحبه إلى الموت. ويتضح ممّا تقدم أنّ الحق والباطل ليسا من قبيل الوجودات الاصطناعية والأمور الاعتبارية؛ فالحق في عالم التكوين هو ذلك الوجود العيني وفي عالم التشريع هو عبارة عن الواجبات والمحظورات التي تستند إلى المصالح والمفاسد والتي تمثل بدورها واقعيات عينية، وسنتناول هذا الموضوع بالشرح في الأبحاث القادمة.

على كل حال فانّ الإمام ﷺ هدف بهذه العبارة إلى إفهام الآخرين ـ علاوة على تنبيههم إلى أصل كلي له بالغ الأثر في مصير الناس ـ بأنّهم اذا لم يلتزموا بوصاياه المنسجمة والحق والعدل فانّهم سيقعون في مخالب الظلم والجور والاضطهاد وإن أضرار الباطل ستجتاح حياتهم؛ الأمر الذي شهدوه في حياتهم ومسيرتهم. ثم تعرض الإمام ﷺ ـ في النقطة التاسعة ـ إلى موضوع مهم يحكم حياة البشرية شاءت أم أبت «**ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن**[1] **ودللتم على الزاد**». والأمر بالظعن هو قانون الموت الذي يحكم حياة الناس، فالأطفال يسيرون نحو الشباب، والشباب يتجهون نحو الكهولة وهذه الأخيرة إنّما تنتهي بالموت. فهو قانون شامل جاري لا يعرف الاستثناء والشواذ، كما أنّه قانون لا يقوى أحد على تجاوزه مهما كانت قوته وقدرته وعلمه ومعرفته فهو القانون الذي شرعته يد القدرة الإلهية لسمو الإنسانية وتكاملها وقد تعرضت أغلب آيات كتاب التشريع.

---

١. «ظعن» على وزن «طعن» بمعنى الرحيل من مكان إلى آخر ومن هنا اطلقت الظعينة على الهودج لأنّه من وسائل السفر، وتستخدم أحياناً كناية عن النساء، لأنّهم غالباً مايركبن الهودج.

هٰذا الأمر التكويني كالآية: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ**﴾[١] والآية: ﴿**أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**﴾[٢]. وقد خوطب بهذا الأمر رسول الله ﷺ الذي يمثل أشرف كائنات عالم الخلقة ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**﴾[٣] والآية: ﴿**كُلُّ شَيءٍ هالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ**﴾[٤].

كما يحتمل أن يكون المراد بقوله ﷺ «**أمرتم بالظعن**» الأمر بالاستعداد للرحيل من الدنيا، كما ورد ذلك في الخطبة ٢٠٤ «**تجهزوا رحمكم الله فقد نودي فيكم بالرحيل**»[٥]. وأمّا الأمر بالتجهز والتزود فانّه يمثل رسالة جميع الأنبياء إلى البشرية وتنبيهها إلى الطريق الخطير الذي ينتظرها؛ وهو طريق طويل يشمل الفاصلة بين الدنيا والآخرة ولا يمكن السير عليه دون حمل الزاد، ولا معنى للزاد هنا سوى الإيمان والتقوى والورع والعمل الصالح ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوىٰ**﴾[٦] ولا ينفع في الآخرة سوى القلب السليم المفعم بالإيمان وحبّ الله ﴿**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ * إِلّا مَنْ أَتىٰ اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[٧].

وعليه فلا ينبغي أن يلتفت سالكوا هذا الطريق إلى الدنيا وما فيها وينخدعوا بزخارفها، بل عليهم الهم بالعمل الصالح الذي لا يبلغ بهم الهدف المنشود سواه ﴿**المالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَياةِ الدُّنْيا وَالباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾[٨].

وأخيراً بعد أن لفت انتباه الأمة إلى الآخرة وزهدها في الدنيا وأوصاها بالتزود لتلك الدار وحذرها من ذلك الطريق الخطير الذي ينتهي سالكه إلى السعادة والقرب الإلهي إذا سار عليه بعمله الصالح وورعه وتقواه، عاد ﷺ ليحذر من عقبتين خطيرتين تصدان الإنسان عن

---

١. سورة آل عمران / ١٨٥.
٢. سورة النساء / ٧٨.
٣. سورة الزمر / ٣٠.
٤. سورة القصص / ٨٨.
٥. على ضوء المعنى الأول فانّ الأمر في قوله «أمرتم بالظعن» هو أمر تكويني وأجل الهي ولكن ليس في الجملة من تقدير، وهو أمر تشريعي على ضوء المعنى الثاني وفي العبارة تقدير هو التجهز والاستعداد، أو الظعن بالمعنى المجازي.
٦. سورة البقرة / ١٩٧.
٧. سورة الشعراء / ٨٨ـ٨٩.
٨. سورة الكهف / ٤٦.

السعادة والفلاح **«وإن أخوف ما أخاف عليكم إثنتان: إتباع الهوى، وطول الأمل»** وهو المعنى الذي ورد في الخطبة ٤٢ بعد أن تناوله الإمام ﷺ بشيء من التوضيح فقال: **«أيها الناس وإن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: إتباع الهوى وطول الأمل، فأما إتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»**. وتفيد الإحاديث النبوية والأخبار والروايات أنّ هذه التعاليم قد احتذاها أمير المؤمنين ﷺ من معلمه الأول الأكرم ﷺ؛ فقد وردت هذه المعاني في بحار الأنوار نقلاً عن النبي ﷺ[1].

والواقع هو أنّ هذين المرضين يعدان من أعظم عوامل الذنوب والمعاصي، لأنّ اتباع الهوى لا يعرف معنى للحدود والقيود، فاذا سيطر على الإنسان أعمى بصره وبصيرته وأصم سمعه بحيث لا يطيق سماع الحق من النبي ﷺ والإمام المعصوم ﷺ ولا تعد لديه القدرة على رؤية الحقائق التي تحيط به، وعليه فهو يعيش حياته الدنيا كالصم البكم العمي الذين لا يفقهون؛ الأمر الذي يجعله عرضة للسقوط في الهاوية. أمّا طول الأمل فانّه يزين الدنيا بما ينسي الآخرة ويقتصر بهمة الإنسان على الدنيا التي يرى فيها مقامه الأخير وهدفه النهائي. ثم يختتم الإمام ﷺ خطبته بقوله **«تزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون[2] به أنفسكم غداً»** نعم فهناك سفر طويل على الأبواب، سفر يتطلب المتاع والزاد الكثير، وعليه فينبغي للعاقل أن يلتفت إلى نفسه ويجهزها بما يجعلها تجتاز ذلك السفر الطويل قبل فوات الأوان، ويبتعد عن الأخطار والمطبات التي يمكنها عرقلة هذه السفر، فيطويه بكل إيمان وثبات ليصل إلى هدفه المنشود.

تأمّلان

١ ـ خير الزاد

لا نرانا نبالغ إذا شبهنا الناس بالمسافرين الذين يغادرون منطقة صغيرة ملوثة نحو عالم

---

١. بحار الأنوار ٧٠ / ٩١. فقد روى هذه الحديث جابر بن عبدالله الأنصاري عن رسول الله ﷺ في باب حب الدنيا.

٢. «تحرزون» من مادة «حرز» بمعنى الحفظ، و«الحرز» على وزن الحرص بمعنى الموضع الآمن لحفظ الأشياء.

كبير مفعم بالطهر والخير والعطاء، بل هذا هو السفر الواقعي والحقيقي الذي ينقل الإنسان من هذا العالم السفلي والمتهافت للدنيا إلى عالم الآخرة العلوي والسامي الخالد، كما أنّ لوازم السفر التي يهيئها المسافر، هى الأخرى لابدّ أن توفر في هذا السفر الشاق من قبيل الزاد والمتاع والمركب ومعرفة نقطة الانطلاق والغاية ومطبات الطريق والمخاطر التي تعترض السبيل والتي ينبغي دراسة كل واحة منها بصورة مستقلة ـ فقد صرح القرآن الكريم بأنّ زاد هذا السفر إنّما يكمن في الورع والتقوى في اجتناب المعاصي وطاعة أوامر الله والإتيان بالأعمال الصالحة. وهو المعنى الذي أكده أمير المؤمنين علي عليه السلام كراراً في نهج البلاغة، ومن ذلك ماورد في الخطبة ١٨٣ حيث قال عليه السلام : «**وأنتم بنو سبيل على سفر من دار ليست بداركم وقد أُوذنتم منها بالارتحال وأُمرتم فيها بالزاد**» وهن يبرز هذا السؤال: إنّما يستفاد من الزاد والمتاع طيلة السفر لا في المقصد والغاية، والحال إنّ الورع والتقوى تستفاد في الآخرة وتشكل مفتاح أبواب الجنان، فكيف اعتبرت التقوى هى الزاد والمتاع؟ وللإجابة على هذا السؤال لابدّ من القول بأنّ مبدأ هذا السفر طويل يبتدأ من لحظة الموت وسكراته ويستمر حتى عالم البرزخ وما يتخلله من مواقف القيامة ومنازل السؤال والحساب والصراط ـ والتي تتسم بتعددها وهول مطلعها ـ حتى تنتهي بالجنان. وممّا لاشك فيه أنّ التقوى هى زاد في عالم البرزخ كما أنّها الزاد والمتاع في مواقف القيامة ومنازلها قبل الدخول إلى الجنّة ـ نعم فانّ زاد التقوى هو الذي يجعل الإنسان يجتاز هذه المنازل الخطيرة بسلام ويقوده إلى منزله الأخير المتمثل بالجنة.

جدير بالذكر أنّ الآية الشريفة ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ جعلت التقوى هى المعيار الرئيسي لكرامة الإنسان وقيمته؛ الأمر الذي يؤكد المعنى المذكور في أنّ السبيل الوحيد للنجاة غداً إنّما يكمن في التقوى والتي عبّر عنه أحياناً بالزاد وأحياناً أُخرى بصفتها تمثل ملاك الكرامة الإنسانية. وهذا ما وضحته بعض العبارات الواردة في الخطبة ٢٠٤ من نهج البلاغة «**وانقلبوا بصالح ما بحضرتكم من الزاد فانّ أمامكم عقبة كؤودا ومنازل مخوفة مهولة لابدّ من الورود عليها والوقوف عندها**». نسأل الله سبحانه أن يوفقنا لتوفير هذا الزاد القيم قبل فوات الأوان، فلا نرد ذلك السفر بأيدي خالية، والحق أنّها خالية مقارنة بما عليه تلك الدار.

٢ ـ اتباع الهوى وطول الأمل من أعدى أعداء الإنسان

لابدّ من التعامل بصورة جادة مع التحذير الذي اُختتمت به الخطبة بشأن الأخطار الكبرى التي يفرزها إتباع الهوى وطول الأمل؛ فهما مكمن الخطر والمأساة التي تصيب الإنسان. فاتباع الهوى يعد أعظم عقبة تعترض سبيل سعادة الإنسان. فالاستسلام المطلق للشهوات والأهواء النفسية يعد العدو اللدود لسعادة البشرية. القرآن الكريم من جانبه حذر حتى الأنبياء من هذا العدو الفتاك، ومنهم نبي الله داود ﷺ الذي قال بشأنه **﴿وَلا تَتَّبِعِ الهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللّٰهِ﴾**[1] كما صور هوى النفس في موضع آخر بالصنم الذي يعبد من دون الله **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلىٰ بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّٰهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾**[2]. والحق أن إتباع الهوى ليعمي البصيرة ويصم السمع ويختم على العقل والفكر ويحول دون الإنسان وتمييز بديهيات الحياة، فهل هنالك من خطر أعظم وأفدح منه ؟! ومن هنا اقتصر القرآن بوعده الجنّة لأُولئك الذين يخشون الله ويسيطرون على أهوائهم **﴿وَأَمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوىٰ * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوىٰ﴾**[3].

طول الأمل هو الآخر من أسوأ وأخطر العقبات التي تعترض سبيل السعادة الإنسانية؛ فقد دلت التجارب على مدى التأريخ أنّ آمال الإنسان الخيالية لا تقف عند حدود، فلا يزداد نحوها إلّا تعطشاً. ومن الطبيعي أنّ مثل هذه الآمال تشل حركة الإنسان وتسلبه جميع طاقاته الفكرية والبدنية ولا تبق له شيئاً يشده نحو الآخرة. فاننا نعرف بعض الأفراد الذين عاشوا هذه الآمال الكاذبة حتى اللحظات الأخيرة من حياتهم دون أن يلتفتوا حتى لتربية فلذات أكبادهم. ومن عجائب هذه الآمال، أنّ الإنسان كلما تقدم أكثر كانت هذه الآمال أكذب بحيث تضاعف غرور الإنسان وتصده عن الواقع. وهذا هو الوضع السائد لدى الكفّار والذي أشار إليه القرآن في خطابه لرسول الله ﷺ **﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ**

---

١. سورة ص / ٢٦.

٢. سورة الجاثية / ٢٣.

٣. سورة النازعات / ٤٠ ـ ٤١.

﴿يَعْلَمُونَ﴾[١]. المعنى الذي أشار إليه الإمام ﷺ في قصار كلماته في نهج البلاغة «**من أطال الأمل أساء العمل**»[٢].

ويبدو أن تلك الآمال متعذرة النيل من خلال الأسباب المشروعة، وهي لا تتيسر إلّا من خلال خلط الحلال بالحرام وهضم حقوق الآخرين ونسيان الله والآخرة. ومن هنا حذر الإمام ﷺ في الخطبة ٨٦ من نهج البلاغة أولئك الذين ينشدون السعادة بالقول «**واعلموا أنّ الأمل يسهي العقل وينسي الذكر فأكذبوا الأمل فانه غرور وصاحبه مغرور**» ويبدو قصر الأمل على درجة من الأهمية بحيث اعتبره الإمام ﷺ الركن الأصلي للزهد، وهذا ما أورده في الخطبة ٨١ من نهج البلاغة «**أيها الناس، الزهادة قصر الأمل والشكر عند المنعم والتورع عند المحارم**». وآمال الإنسان كانت ومازالت أبعد وأطول من عمر الإنسان وإمكاناته وقدراته؛ الأمر الذي لا يجعل أهل الهوى وطلاب الدنيا يحققون تلك الآمال ويظفروا بها أبداً، وغالباً ما يودعون الدنيا بمنتهى الانزجار والاستياء في لحظات نزع أرواحهم. وبالطبع لا ينبغي الغفلة عن الأمل بشكل الدافع الأساس لسعي الإنسان وجهده وانطلاقته في هذه الحياة، وعليه فالأمل حسن وليس بقبيح ولا يمكن مواصلة الحياة من دونه، إلّا أنّ المذموم إساءته وطوله وبعده عن الواقع واستناده إلى الوهم والخيال. ومن هنا ورد في الحديث «**الأمل رحمة لامتي ولولا الأمل ما رضعت والدة ولدها ولا غرس غارس شجراً**»[٣].

وبناءً على ما تقدم فان وظيفة أساتذة الأخلاق خطيرة ثقيلة؛ وذلك لأنّهم لابدّ أن يضيئوا نور الأمل في قلوب الناس من جهة ومن جهة أُخرى ينبغي أن يبقوا عليه متوازناً بعيداً عن الإفراط. والآمال المنطقية هي تلك التي تنسجم ومتطلبات الإنسان وقدراته الواقعية بحيث لا تبعده عن هدفه المنشود. وبالطبع فانّ الإسلام لا يعارض التخطيط والبرمجة من أجل المستقبل والتطلع إلى الغد ولا سيما بالنسبة للأنشطة الاجتماعية التي تعود بالنفع على المجتمع الإسلامي وتضع حداً للتبعية لأعداء الإسلام، فانّ مثل هذه الأنشطة ليست مذمومة فحسب،

---

١. سورة الحجر / ٣.
٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار / ٣٦.
٣. بحار الأنوار ٧٤ / ١٧٣.

بل تعتبر عبادة والمذموم في الإسلام أنّ الإنسان يغرق في هالة من الآمال الفارغة التي تنسي الآخرة، وبالتالي لا يظفر الإنسان بها مهما جند طاقته وإمكاناته.

وفي الحياة الفردية مطلوب هو التفكير في العاقبة والذي إصطلحت عليه الروايات بالحزم. والمذموم في الإسلام أن يغرق الإنسان في الأمل حتى ينسى الآخرة، ويفنى كل طاقته وقواه في ذلك الأمل الذي لن يبلغه قط.

تكملة

قال السيد الشرف(رض) وأقول: إنه لو كان كلام يأخذ بالاعناق إلى الزهد في الدنيا ويضطر إلى عمل الآخرة، لكان هذا الكلام وكفى به قاطعاً لعلائق الآمال وقادحاً زناد الاتعاظ والازدجار ومن أعجبه قولهﷺ: «ألا وإنَّ الْيوم المضمار وغداً السِّباق، والسّبقة الجنّة والغاية النّار»، فإن فيه ـ مع فخامةِ اللفظ وعظم قدر المعنى وصادق التمثيل، وواقع التشبيه ـ سرّاً عجيباً ومعنى لطيفاً، وهو قولهﷺ: «والسّبقة الجنّة، والغاية النّار» فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين ولم يقل: «السّبقة النّار». كما قال، «السّبقة الجنّة»؛ لأن الاستباق انما يكون إلى امر محبوبٍ وغرض مطلوبٍ وهذه صفة الجنّة وليس هذا المعنى موجوداً في النار، نعوذ باللّه منها...!

الخطبة[1] ٢٩

ومن خطبة له ﷺ

بعد غارة الضحاك بين قيس ـ صاحب معاوية ـ على الحاج بعد قصة الحكمين، وفيها يستنهض أصحابه لما حدث في الأطراف.

نظرة إلى الخطبة

كما ورد في أسناد الخطبة فان بعض المحققين يرون أن هذه الخطبة جزء من الخطبة السابعة والعشرين؛ ويبدو أنّها كذلك، لأنّ مضامينها واحدة تفيد مدى ضعف أهل الكوفة والعراق تجاه حملات معاوية وأهل الشام، وكأنّهم لم يشعروا بما كان يدور حولهم والجرائم البشعة التي كان يرتكبها الشاميون. فقد جعل الإمام ﷺ يطرهم بوابل الذم والتشنيع لعلهم يفيقون إلى أنفسهم وينتبهوا إلى الأخطار التي كانت محدقة بهم. فقد قال ابن أبي الحديد:

---

١. قال صاحب مصادر نهج البلاغة هذه من الخطب المعروفة التي رواها أغلب العلماء والمحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضي(ره) ومنهم:
١ ـ الجاحظ في البيان والتبيين ١ / ١٧٠.
٢ ـ ابن قتيبة الدينوري في الإمامة والسياسة ١ / ١٥٠.
٣ ـ ابن عبد ربة في العقد الفريد ٤ / ٧١.
٤ ـ البلاذري في كتاب أنساب الأشراف (في شرح سيرة علي ﷺ) / ٣٨٠.
٥ ـ القاضي نعمان المصري في دعائم الإسلام ١ / ٣٩١ (مع اختلاف وما ورد في النهج وقال الشارح الخوئي يستفاد من بحار الأنوار والاحتجاج والإرشاد أنّ هذه الخطبة جزء من الخطبة ٢٧ (شرح نهج البلاغة، الخوئي ٤ / ٢١).

كانت غارة الضّحاك بن قيس بعد الحكَمَيْن، قبل قتال النّهْرَوَان، وذلك أنّ معاويةَ لمّا بلغه أنّ عليّاً عليه‌السلام بعد واقعة الحكمين تحمّل إليه مُقبلاً، هاله ذلك، فخرَج من دِمَشْق معسكراً، وبعث إلى كُور الشام، فصاح بها: إنّ عليّاً قد سار إليكم. وكتب إليهم نسخة واحدة، فقرِئَتْ على الناس:

۞

فعند ذلك دعا معاوية الضحّاك بن قيس الفِهْريّ، وقال له: سرْ حتى تمرَّ بناحية الكوفة وترتفعَ عنها ما استطعت، فمَنْ وجدْتَه من الأعراب في طاعة عليّ عليه‌السلام فَأغِرْ عليه، وإن وجدتَ له مَسْلَحَةً أو خيلاً فأغِرْ عليها، وإذا أصبحتَ في بلدة فأمْسِ في أُخرى، ولا تُقيمنّ لخيلٍ بلغك أنّها فقد سُرِّحت إليك لتلْقاها فتقاتلها. فسرّحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف.

فأقبلَ الضّحاك، فنهب الأموال وقتل مَنْ لِقيَ من الأعراب، حتى مر بالثّعْلَبيّة فأغار على الحاجّ، فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقيَ عمرو بن عُمَيس بن مسعود الذُّهْليّ، وهو ابن أخ عبدالله بن مسعود، صاحب رسول‌الله صلى الله عليه وآله، فقتله في طريق الحاجّ عند القُطْقُطَانة. وقتلَ معه ناساً من أصحابه.

استصرخ أميرالمؤمنين عليه‌السلام الناسَ عُقيبَ غارة الضحك بن قيس الفهريّ على أطراف أعماله، فتقاعدُوا عنه، فخطبهم.[1]

۞

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣ / ١١٧.

القسم الأول

«أَيُّهَا النَّاسُ الْمُجْتَمِعَةُ أَبْدَانُهُمْ، الْمُخْتَلِفَةُ أَهْوَاؤُهُمْ! كَلَامُكُمْ يُوهِي الصُّمَّ الصِّلَابَ، وَفِعْلُكُمْ يُطْمِعُ فِيكُمُ الْأَعْدَاءَ! تَقُولُونَ فِي الْمَجَالِسِ: كَيْتَ وَكَيْتَ، فَإِذَا جَاءَ الْقِتَالُ قُلْتُمْ: حِيدِي حَيَادِ! مَا عَزَّتْ دَعْوَةُ مَنْ دَعَاكُمْ، وَلَا اسْتَرَاحَ قَلْبُ مَنْ قَاسَاكُمْ، أَعَالِيلُ بِأَضَالِيلَ وَسَأَلْتُمُونِي التَّطْوِيلَ، دِفَاعَ ذِي الدَّيْنِ الْمَطُولِ».

الشرح والتفسير

ذكرنا سابقاً أنّ الخطبة اُلقيت في ظروف عصيبة جدّاً، حيث شنت الغارات تلو الغارات على أهل العراق، جعلت الإمام ﷺ يسعى جاهداً لا عداد الناس، إلّا أنّ الضعف والوهن كان قد بلغ مبلغه منهم بحيث لم تعد لهم من قوة تذكر، فلم يكن أمام الإمام ﷺ من سبيل سوى اللجوء إلى آخر حربة من أجل تعبئتهم واستنفار طاقاتهم وهي توبيخهم وذمهم علهم يلتفتون إلى أنفسهم ويبصروا الأخطار التي كانت تتربص بهم.

فقد استهل الإمام ﷺ خطبته بالتعرض إلى العامل الرئيسي الذي يقف وراء ذلك الضعف والذلة والهوان والذي يعزى إلى عدم الانسجام بين الأقوال والأفعال الذي يستند إلى ضعف الاعتقاد الباطني بالأهداف المقدسة النبيلة فقال ﷺ: «**أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم**»، أمّا كلامهم فقد كان شديد يخترق الصخور، أمّا أعمالهم فقد كانت هزيلة لا تنسجم وذلك الكلام «**كلامكم يوهي**[1] **الصم**[2] **الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء**».

---

١. «يوهي» من مادة «وهي»، عناها صاحب المقاييس بالضعف ومن هنا يصطلح على الكلام الضعيف بالواهي. فالعبارة تعني أن كلامكم يضعف ويفتت.

أجل إنّ ذلكم وهوانكم إنّما أفرزه شقاقكم وفرقتكم. إنّكم متحدون ظاهراً، مختلفون باطناً، وهذا ما أدى بكم إلى الاكتفاء بالأقوال الطنانة الرنانة بدلاً من الأفعال والأعمال؛ الأمر الذي يؤدي إلى تآكل المجتمعات وانهيارها إذا ما عاشت هذه الحالة «**تقولون في المجالس: كيت وكيت**[١]، **فاذا جاء القتال قلتم: حيدي حياد**[٢]».

فالواقع هذه بعض الصفات البارزة للمنافقين والأفراد الضعاف النفس المسلوبي الإرادة الذين يكثرون الحديث في المجالس الخاصة والعامة ويستعرضون معاني الشجاعة والبسالة والعزم والإرادة الراسخة، وكأن قدرة هؤلاء لا تتجاوز هذه الأحاديث، فاذا وردوا ميدان القتال استحوذ عليهم الخوف والهلع وكأنّهم يصرخون، إليك عنّا أيّها القتال فارقنا وابتعد، بل هم مرعبون من ميدان الحرب والقتال ويختلقون مختلف الأعذار للفرار من الميدان. والعبارة «**حيدي حياد**» من مادة حيد بمعنى الميل والانحراف عن الشيء وتقابلها العبارة «**فيحي فياح**» بمعنى الرغبة في الشيء. ولعل المخاطب بالعبارة «**حيدي حياد**» الجنود والمقاتلون الذين تدعوهم عناصر النفاق والانهزام إلى اعتزال الميدان، وعلى العكس من ذلك دعوة عناصر القوة والاقتدار إلى القتال بقولها «**فيحي فياح**». كما يحتمل أن يكون المراد قولهم للمعركة ابتعدي عنا؛ الأمر الذي يكشف عمق خوفهم من قتال العدو، كما يمكن أن يكون المراد أنّهم كانوا يخاطبون أنفسهم بهذه العبارة بغية الاسراع في الابتعاد والاعتزال. وما أشبه هذه الطائفة المنافقة بمنافقي عصر الرسالة الذين صورتهم سورة الأحزاب: ﴿**قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ**

---

٢. «الصم» جمع «أصم» وهو من الحجارة الصلب المصمت، و«الصلاب» جمع صليب، والصليب الشديد.

١. «كيت وكيت» من مادة «تكييت» بمعنى اعداد جهاز الناقة أو ملأ ظرف الماء، إلّا أنّ العبارة كيت وكيت تستعمل حيث يريد الفرد عمل كل شيء عن طريق الكلام، وهما كلمتان لا تستعملان إلّا مكررتين ككناية عن الحديث.

٢. «حيدي حياد»: صيغة فعل أمر من مادة «حيود» كنزال بمعنى أنزل، وهي كلمة يقولها الهارب عند الفرار والكتمان تأكيد لاحداهما الأخرى حيث تعني الميل والانحراف عن الشيء.

أعْمالَهُمْ وَكانَ ذٰلِكَ عَلىَ اللّٰهِ يَسِيراً﴾[١]. لقد كانت هناك عدّة معدودة على هذه الشاكلة على عهد النبي ﷺ، غير أنّه من المؤسف أنّ الأكثرية الساحقة لأهل الكوفة ـ التي كانت تمثل جيش الإمام ﷺ ـ كانت كذلك. ثم قال ﷺ: «**ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم**» يبدون أنّ هذه العبارة تشكل رداً على أولئك الذين يشكلون على مثل هذه الخطب في أنّ الإمام ﷺ لم يكتف بالموعظة ولا يمارس الضغوط من أجل حشدهم للجهاد؛ الأمر المتعارف لدى الحكام في كافة أرجاء المعمورة؟ فالإمام ﷺ يقول: لو تركتكم وحالكم أحراراً ودعوتكم للجهاد لم تلبوا دعوتي، ولو شددت عليكم في هذه الدعوة فأنتم كذلك، وما ذلك منكم بعجيب فأنتم أفراد ضعاف النفس والإرادة ولستم إلّا إلباً لأعدائكم على أوليائكم. وقد أثبت التأريخ أن هؤلاء الأفراد أصبحوا جنوداً مجندة لبني أمية ومن كان على شاكلة ابن زياد والحجاج إثر خشيتهم من التهديدات التي تطيل أمواهم وأعراضهم، ولكن ليس لحكام العدل ولا سيما علي ﷺ من اتباع هذا الاسلوب في تعبئة الأفراد. ثم قال ﷺ «**أعاليل بأضاليل**[٢]» كل ذلك قعوداً عن الجهاد ودفعاً بي إلى تأخيره، كالمدين الذي يناشد الدائن تمديد الأجل «**وسألتموني التطويل دفاع ذي الدين المطول**» نعم هذا هو حال الأفراد الضعاف من أهل المزاعم والإدعاءات دون الأفعال، ليس لهم من هم سوى خلق الأعذار والتشبث بالذرائع من أجل التهرب من المسؤولية، القرآن من جانبه صور حالة المنافقين على عهد النبي ﷺ الذين كانوا يحاولون بشتى الطرق التملص من خوض القتال فعزى ذلك إلى حبهم للدنيا وإيثارها على الآخرة **﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللّٰهِ اثّاقَلْتُمْ إِلىَ الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الآخِرَةِ فَما مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا فِي الآخِرَةِ إِلّا قَلِيلٌ﴾**.[٣]

---

١. سورة الاحزاب / ٢٨.
٢. «أعاليل» جمع اعلولة، ما يتعلل به و«أضاليل» جمع اضلولة بمعنى أسباب الضلالة، أي انكم تتشبثون بأسباب واهية من أجل إضلال أنفسكم والآخرين.
٣. سورة التوبة / ٣٨.

عوامل ضعف أهل الكوفة

هنالك سؤال يطرح نفسه وهو: لم كل هذا الضعف الذي ساد أهل الكوفة مع وجود ذلك الإمام العادل والحكيم المعروف والمجرب في ساحات الوغى، في حين كان أهل الشام أكثر قوة وفاعلية منهم والحال كان حاكمهم معاوية؟ ويبدو أنّ الجواب على هذا السؤال كما أشرنا سابقاً يكمن في الآلية الاجتماعية التي كانت عليها الناس آنذاك. فالكوفة لم تكن تتمتع بسابقة تأريخية تذكر، بل كانت منطقة حديثة ضمت أقواماً مختلفة ذات ثقافات متنوعة، عاشت حالة من التنافس الظاهري والباطني، خلافاً لأهل الشام الذين كانوا يتمتعون بالوحدة واللحمة. أضف إلى ذلك فانّ أغلب خصوم الدعوة من منافقي المدينة وسائر المناطق كانوا قد اتجهوا صوب الكوفة وأخذوا يمارسون دعاياتهم المغرضة التي تهدف إلى شق الصفوف وزرع بذور الفرقة والاختلاف في صفوف أهل الكوفة، إلى جانب العمل على إضعافهم في مجابهة العدو. من جانب آخر فان الفتوحات الإسلامية آنذاك قد جرت ثروات طائلة، ولا يخفى أن طبيعة الثروة إنّما تختزن الدعة والرفاه والعافية؛ الطبيعة التي لا تنسجم وروح القتال والجهاد.

ومن هنا كان أهل الكوفة يقتنصون الأعذار التي تمكنهم من أداء وظيفتهم الجهادية حتى في أحلك الظروف التي شنت عليهم الغارات وجرعوا فيها غصص الذل والهوان من قبل بني أمية وجيوش الشام. نعم إنّ الأمّة كانت تلهث وراء الحكام الذين عبثوا ببيت المال وأغدقوا مافيه على الرعية، ولم يكن أمير المؤمنين ﷺ مستعداً للتفريط بصاع من بيت مال المسلمين لأقرب المقربين كائناً من كان. وهذه هي العلة الأُخرى التي ساقها أمير المؤمنين في كشفه النقاب عن روحية الأمّة **«وإنّي لعالم بما يصلحكم ويقيم أودكم ولكني لا أرى صلاحكم بافساد نفسي»**[1].

٭٭٭

١. نهج البلاغة، الخطبة ٦٩.

القسم الثاني

«لا يَمْنَعُ الضَّيْمَ الذَّلِيلُ وَلا يُدْرَكُ الْحَقُّ إِلاَّ بِالْجِدِّ! أَيَّ دارٍ بَعْدَ دارِكُمْ تَمْنَعُونَ، وَمَعَ أَيِّ إِمامٍ بَعْدِي تُقاتِلُونَ؟ الْمَغْرُورُ -وَاللّهِ- مَنْ غَرَرْتُمُوهُ، وَمَنْ فازَ بِكُمْ، فَقَدْ فازَ -وَاللّهِ- بِالسَّهْمِ الأَخْيَبِ، وَمَنْ رَمَى بِكُمْ فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقَ ناصِلٍ».

الشرح والتفسير

أشار الإمام ﷺ إلى ركن مهم في الحياة الإنسانية فقال «**لا يمنع الضيم**[1] **الذليل، ولا يدرك الحق إلّا بالجد**» ما أجدر أن تكتب هذه العبارة بماء الذهب وتتلى صباح مساء في أفنية مستضعفي العالم حتى تصبح جزءاً من ثقافتهم وتترسخ في أعماقهم. نعم إن الطغاة جرعوا الأذلاء والعجزة صنوف العذاب والظلم والاضطهاد ولم ينصفوهم ويمنحوهم حقوقهم، فالحق يؤخذ بالقوة إستناداً لمعاني العمل والسعي الدؤوب والاثرة وحمل السلاح وخوض غمار القتال، فالطغاة الجبابرة لا يفهمون سوى لغة الحديد والنار ولابدّ من مجابهتهم بالقوة. ويبدو أنّ طبيعة العالم كذلك في أن سبيل بلوغ الأهداف العليا المادية والمعنوية إنّما عبد بالمطبات والعقبات الكؤود، ولا يظفر بهذه الأهداف من لم يقاوم هذه العقبات. ثم يقطع الإمام ﷺ كافة الأعذار على هؤلاء فيخاطبهم ماذا تنتظرون، وعن أي دار تدافعون، ومع من تقاتلون وأنا بين أظهركم «**أي دار بعد داركم تمنعون ومع أي إمام بعدي تقاتلون؟**». نعم لن يسعكم الدفاع عن أي دار طالما تخاذلتم في الدفاع عن داركم بصفتها دار الإسلام، وإذا لم تلتحقوا بي في القتال

---

١. «الضيم» يعني الظلم والاضطهاد.

فلن يسعكم القتال مع أي أحد بعدي. وعليه فليس أمامكم سوى الأسر والعبودية للعدو فيسلبوكم الإرادة والاختيار ـ فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام أراد حثهم على القتال من خلال بعض المعاني التي تثير في نفوسهم الحمية والغيرة، فالوطن لا يسلم دون الدفاع عنه، وإن كانت لهم أدنى رابطة بإمامهم فهم مطالبون بالقتال فما عسى أن يكون الإمام من بعده والذي يسعهم القتال معه. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلى عدم إمكانية خوض القتال بمثل هذه العناصر الضعيفة الهزيلة التي فقدت مقومات المقاومة والثبات «**المغرور ـ والله ـ من غررتموه**»[1].

فالمحتال الخادع قد يتلاعب ببعض ممتلكات الناس ويمدّ يده إلى بعض حاجاتهم، أما أنتم فقد سلبتموني كل شيء وقد وليتم ظهوركم للعدل والطهر والتقوى والعزة والرفعة فضيعتم حقوق المسلمين ولاسيما المستضعفين والمحرومين. ثم قال عليه السلام: «**ومن فاز بكم، فقد فاز ـ والله ـ بالسهم الأخيب**»[2]. إشارة إلى أنّ مساعدتكم ونصرتكم ليست بشيء، ومن يعتمد عليكم كمن يشترك في اقتراح لا تنطوي نتيجته سوى على الخسران.

فالإمام عليه السلام يرى في نصرة أهل الكوفة الهزيمة الفشل وقد شبهها تشبيه رائع في أنّ الفوز بهم كالفوز بالسهم الأخيب الخاسر. ثم أورد شبهاً آخر فقال عليه السلام: «**ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل**» في إشارة إلى أنّ أهل الكوفة فاقدون لكافة مقومات الهجوم على العدو من قبيل قوة الإيمان التقوى والشجاعة، وقد فقدوا كافة القيم إثر تعلقهم بالحياة الدنيا والاغترار بزخارفها وزبرجها.

تأمّلان

١ ـ الحق يؤخذ ولا يُعطى

ما نفهمه من قوله عليه السلام «**لا يدرك الحق إلّا بالجد**» أنّ الحق يؤخذ ولا يعطى؛ أي لا يمكن التطلع إلى الحصول على الحق في ظل الحكومات الغاشمة التي تعتمد اسلوب القوة وتمارس الظلم والاضطهاد بحق الطبقات المحرومة والمستضعفة؛ ولا غرو فأساس قوتهم وقدرتهم إنّما

---

١. ان تقديم المغمور ـ الخبر للمبتدأ ـ يفيد الحصر، أي المغرور الواقعي هو هذا الفرد.
٢. «أخيب» من مادة «خيب» بمعنى فقدان الشيء.

تكمن في غصبهم لحقوق الآخرين، وعليه فلا تعني إعادة هذه الحقوق المغتصبة سوى تجريدهم من هذه القوة؛ الأمر الذي لن يحدث قط. وهنا يحث الإمام عليه السلام كافة المحرومين والمستضعفين على الوحدة ورص الصفوف لاستعادة حقوقهم السليبة من الظلمة والطواغيت وأنّهم غالبون لا محالة، فالطغاة ليسوا مستعدين للتضحية، بينما يضحي المستضعفون بالغالي والنفيس من أجل إحقاق حقوقهم. طبعاً ملئت الدنيا اليوم بالشعارات التي تتبنى حقوق الإنسان وتطالب بإعادة حقوق المحرومين، غير أنّ التجربة أثبتت بالأدلة القاطعة أن هذه الشعارات لاتعد كونها مصائد تهدف اغفال الطبقات المسحوقة والمعدمة والاستسلام إلى ارادة الأقوياء؛ الأمر الذي يثبت أنّ الحق يؤخذ ولا يعطى. فالمؤمنون لا يسعهم الوقوف مكتوفي الأيدي حيال الظالمين الذين يتلاعبون بمقدراتهم. وعليهم أن يتعلموا الدروس والعبر التي لقّنها الإمام الحسين عليه السلام البشرية جمعاء في الصبر والتضحية والفداء، فما زالت صرخاته تدوي في الاسماع «**ألا وإنّ الدعي ابن الدعي قد تركني بين السلة والذلة! وهيهات له ذلك! هيهات مني الذلة! أبي الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحدود طهرت وحجور طابت، أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام**»[1]. كما أكد القرآن الكريم على جانب الصبر والصمود والمقاومة لدى المؤمنين، ومن ذلك الآية ٢١٤ من سورة البقرة ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ البَأْساءُ وَالضَّرّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتىٰ نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ**﴾. وهي الحقيقة التي نلمسها بوضوح في كافة الغزوات الإسلامية من قبيل بدر وأحد والأحزاب وتبوك وحنين، التي كان ينتصر فيها المسلمون بسلاح الإيمان والصبر، صحيح أنّ النصر من عند الله، إلّا أنّ الامداد الغيبي والعناية الإلهية كانت مكملة للأسباب الظاهرية والعدة والعدد التي كان عليها المسلمون. فهذا أحد القوانين التأريخية الثابتة، فلا يقتصر على صحب النبي صلى الله عليه وآله والإمام الحسين عليه السلام، كما لا يرتبط بالأمس واليوم، بل يشمل المستقبل كالماضي على حد سواء.

---

١. بحار الأنوار ٤٥/ ٨٣.

٢ ـ الدفاع عن الوطن

لقد لجأ الإمام علي عليه السلام إلى مختلف الأساليب من أجل إثارة مشاعر أهل الكوفة وتعبئتهم لقتال العدو، ومن ذلك تأكيده على مسألة الدفاع عن الوطن «**أي دار بعد داركم تمنعون**»؟ في إشارة واضحة إلى علاقة كل فرد بوطنه وأنّه يهب للدفاع عن هذا الوطن إذا تعرض للخطر مهما كانت المدرسة والفكرة التي يؤمن بها وينتمي إليها، إلّا أنّ المؤسف له أنّ هذه الروح هي الاخرى قد ماتت فيهم. وهنا يبرز هذا السؤال: هل حرمة الوطن في الإسلام بصفته يمثل دار الإسلام أم هناك شيء آخر؟ أي البلد الإسلامي يكتسب حرمته كونه بلداً إسلامياً، أم هناك حرمة ذاتية لكل بلد بحيث تتضاعف هذه الحرمة لو أصبح جزءاً من دار الإسلام؟ يمكن العثور على أجوبة هذه الاسئلة في الآيات القرآنية والروايات الإسلامية؛ الأمر الذي يؤكده العقل أيضاً. فقد توالت الآيات التي ذهبت إلى أنّ الاخراج من الوطن إنّما يضاد القيم الإنسانية؛ الأمر الذي يعني حرمة الوطن الذاتية، وهذا ما نلمسه بوضوح في الآيات القرآنية الثامنة والتاسعة من سورة الممتحنة **﴿لا يَنْهاكُمُ اللّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّما يَنْهاكُمُ اللّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَظاهَرُوا عَلىٰ إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولـٰئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ﴾** فقد اعتبرت الآيتين الكريمتين الاخراج من الوطن بمثابة المقاتلة في الدين، الأمر الذي يؤكد قيمة الوطن كما صرحت بذلك الآية ٢٤٦ من سورة البقرة على لسان بني اسرائيل **﴿قالُوا وَما لَنا أَلّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَأَبْنائِنا﴾** فهي تدل على أنّ دافعهم الجهادي إلى جانب حفظ الدين ينطوي على انقاذ الوطن، وقد أقر نبيّهم هذا الدافع دون أن يعترض عليه، ونوكل الحديث في الآيات الأُخرى الواردة بهذا المجال إلى محلها.

رسول الله صلى الله عليه وآله كان شديد التأثر اثر هجرته من مكة، طبعاً صحيح أنّ مكة كانت تمثل قيمة دينية كبيرة، إلّا أنّها كانت تعني إلى جانب ذلك بالنسبة للنبي صلى الله عليه وآله وطنه ومسقط رأسه، ومن هنا خفف عنه القرآن بقوله **﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلىٰ مَعادٍ﴾**[1].

---

١. سورة القصص / ٨٥.

وورد في الحديث عن علي ﷺ: «**عمرت البلدان بحب الاوطان**» [١] وقال أيضاً «**من كرم المرء بكائه على ما مضى من زمانه وحنينه إلى أوطانه**» [٢].

وجاء في الحديث المعروف «**حبّ الوطن من الإيمان**» [٣].

فالذي نخلص إليه أنّ حبّ الوطن والتعلق به يستند إلى جذور قرآنية ونبوية إلى جانب تأييد العقل والمنطق. الا ان هذا لا يعني تعلق الفرد بوطنه بصورة مطلقة بحيث لا يتركه طلب العلم والتكامل ونيل المنافع المعنوية والقيم الإلهية ومن هنا ورد الحديث عن علي ﷺ: «**ليس بلد بأحق بك من بلد، خير البلاد ما حملك**» [٤]. وأخيراً فان الوطن يكتسب قيمة مضاعفة إذا ما انضمت إليه الجوانب المعنوية علاوة على الجوانب المادية، فيصبح دار الإسلام، فيهب الفرد بكل ما أوتي من قوة للدفاع عنه والذود عن كيانه.

---

١. بحار الأنوار ٧٥ / ٤٥.
٢. بحار الأنوار ٧ / ٢٦٤.
٣. سفينة البحار، مادة وطن.
٤. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٤٤٢.

القسم الثالث

«أَصْبَحْتُ وَاللّٰهِ لاٰ أُصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلاٰ أَطْمَعُ فِي نَصْرِكُمْ، وَلاٰ أُوعِدُ الْـعَدُوَّ بِكُمْ. مٰا بٰالُكُمْ؟ مٰا دَوٰاؤُكُمْ؟ مٰا طِبُّكُمْ؟ الْقَوْمُ رِجٰالٌ أَمْثٰالُكُمْ أَقَوْلاً بِـغَيْرِ عِـلْمٍ؟ وَغَفْلَةً مِنْ غَيْرِ وَرَعٍ؟! وَطَمَعاً فِي غَيْرِ حَقٍّ؟»

الشرح والتفسير

اليأس من القوم

يختتم الإمام عليه السلام هذه الخطبة ـ التي تعدّ من الخطب الأليمة للإمام عليه السلام بمعاودة ذم أُولئك القوم الذين ماتت أرواحهم علهم يفيقون قليلاً فيعبئوا أنفسهم ويستغلوا إمكاناتهم ويهبوا للـقاء عدّوهم فيريحوا الأُمّة الإسلامية من شر أهل الشام الذين يمثلون حثالات زمان الجـاهلية، فقد قال عليه السلام: **«اَصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع في نصركم، ولا أوعد العدو بكم»**.

نعم إنّ الإدارة الناجعة تتطلب ثقة متبادلة بين الأُمّة والقائد، وإنّ ثقة القائد بالأُمّة والعمل علىٰ تشجيعها وغض الطرف عن أخطائها وتذكيرها بنقاط قوتها من شأنه أن امـال القـائد وأحلامه قد تتبدد من جراد الأُمّة التي تعيش الخواء الروحي والضعف والتشـتت والتمـزق والجهل بحيث لا يعد للتشجيع والثقة من دور في إثاوتها وحشد طـاقاتها، بحـيث يسـتفعل مرضها بما يجعل من الصعقة الاسلوب الامثل للشقاء.

ـ فالعبارة وإن كانت تصور الأوضاع المزرية لأهل الكوفة، إلّا أنّها تشير إلىٰ مدىٰ عمق المشاكل التي إستنزفت أميرالمؤمنين علي عليه السلام في ذلك الزمان، فقد كان محقاً في اعـلانه عـدم الوثوق بهم، فقد خالفوا كراراً وعودهم ونقضوا محارم عهودهم ونكثوا بيعتهم.

لم يكونوا يحسنون سـوىٰ الكـلام في المجـالس وإطـلاق الشـعارات الرنـانة والكـلمات

الحساسة، فاذا دقت ساعة القتال ولوا زحفاً إلىٰ مخادعهم وهربروا هرب الشاة من الذئب.

ثم قالﷺ: «**ما بالكم؟ مادواؤكم؟ ماطبكم؟ القوم رجال أمثالكم**».

أو تعتقدون أنّ أهل الشام خلقوا من غير طينتكم، أم لهم بقية جسمية وروحية تختلف عنكم؟ كلا.

اللّهم الافارق واحد بينكما هو الاخلاق والمعنويات.

فهم يعملون ماذا يلزمهم من أجل القتال، إلّا أنكم لستم كذلك رعتم النعمة العظيمة التي من الله بها عليكم بان جعل لكم إماماً عادلاً مقتدراً... لقد أرعبتكم إمكاناتهم حتى انتهى بكم ذلك إلىٰ الذل والهوان.

يا للاسف أن يبتلى زعيم مثلي برعية مثلكم.

نعم دواؤهم كان فيهم كما ورد ذلك في الشعر الذي يتسب إلىٰ الإمامﷺ:

دواؤك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر

ثم يختتم ﷺ خطبته بالقول «**أقولاً بغير علم؟ وغفلة من غير ورع؟ وطمعا في غير حق؟**».

أجل هذه هي العناصر التي تقف وراء بؤسكم وتعاستكم، فأنتم ترسلون الكلام على عواهنه دون أن تستندوا إلىٰ علم أو معرفته، ثم وليتم ظهوركم للورع والتقوى وانهمكتم في الدنيا وغفلتم عن الآخرة، وأخيرا فانّكم تحلمون بالنصر دون أن تعدوا له عدّته.

هذه هي العوامل الثلاث (القول دون العمل والجهل المشوب بعدم التقوىٰ والأمل بالنصر دون إعداد مقدماته) التي تهدد بالفشل والهزيمة كل أمّة وقوم.

أسباب الهزيمة والفشل

لاشك أن جيش الإمام ﷺ وبفضل زعيمه الرباني المعروف بالجهاد والشجاعة في ميدان الحرب كان يمتلك كافة أسباب الانتصار على العدو من جميع النواحي، إلّا أنّه وللأسف قد شهد حالة من الضعف سلبته زمام المبادرة وزعزعت عوامل النصر، والمفروغ منه ان ذلك الضعف والوهن إذا دبّ في أمّة فانّها لن تنتظر مصيراً أحسن من ذلك المصير الذي ساد جيش الكوفة.

وقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة التي نحن بصددها إلىٰ عناصر هذا الضعف والتي كان في مقدمتها تركهم للعمل وتمسكهم بالقول.

فقد كانت مجالسهم عامرة بالكلام ولا سيما عن القتال والحرب دون أن يعدوا العدة اللازمة و يأخذوا للحرب اهبتها، يكثرون من الكلام خلف الجبهات دون أن يجرأ أحدهم علىٰ الاقتراب من الخطوط الأمامية.

وكأنّ قدرة الأفراد الضعاف العجزة تتركز عادة في الأقوال والمزاعم، ولعل الإمام عليه السلام أشار إلىٰ هذا المعنى بقوله: «**أقوالاً بغير علم؟**» سواء كان هذا العلم يعني المعرفة أو الاعتقاد أو العمل، فالنتيجة واحدة لكل من هذه التفاسير الثلاثة، لأنّ المعرفة بالشيء والاعتقاد به تدعو إلىٰ العمل، أما ضعف العمل فانما يستند إلىٰ عدم المعرفة والاعتقاد، الأمر الذي صرح به الإمام عليه السلام بقوله «**العلم مقرون بالعمل، فمن علم عمل**»[1]

العامل الآخر هو الغفلة وفقدان الورع، وبعبارة أُخرى فانّ عدم الالتفات إلىٰ الحقائق والواقعيات ـ الذي تفرزه حالة عدم التقوى.

إنّما يؤدي إلىٰ إختراق الصفوف من قبل العدو، في حين لا تصيب سهام هذا العدو اذا ما تحلت الأمّة بالفطنة والذكاء المشوب بالتقوىٰ بدلاً من الغفلة والتحلل من الورع والتقوى.

والعامل الاخير هو الطمع في ما لا يستحقون، أو بعبارة أُخرى الطمع في الشيء دون توفير أسبابه.

فاننا نعلم بأنّ هنالك الأسباب التي ينبغي توفرها لتحقيق بعض الأهداف.

فقانون العلة والمعلول إلىٰ جانب الإرادة الإلهية هى التي تحكم الوجود برمته، وإن ظن بعض الجهال ببعض الاوهام والخيالات والمعادلات الساذجة كمقدمة لتحقيق الاهداف.

وقوله عليه السلام «**طمعاً في غير حق**» يمكن أن يكون إشارة إلىٰ هذا المعنى، فانّهم كانوا يطمعون في شئ لايستحقونه، إلّا أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة ذهبوا إلىٰ أنّ المراد بهذه العبارة أنّهم كانوا يطمعون بالمزيد من عطائهم في بيت المال، ويتمنون علىٰ الإمام عليه السلام أن يعطيهم من بيت

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٣٦٦

المال أكثر من إستحقاقهم، فلما لم يلب الإمام ﷺ طلبهم غير المشروع صابهم الضعف والوهن في القتال.

ومن الطبيعي أن يكون هذا التفكير المادي أينما كان عاملاً من عوامل الفشل والهزيمة، كما فشل الجيش الإسلامي في معركة أُحد إثر انهماك الجنود في جمع الغنائم واهتمامهم بالجوانب المادية في ذلك الميدان الجهادي العظيم.

على كل حال فانّ هذه العوامل التي تؤدي إلىٰ الهزيمة والفشل لاتقتصر علىٰ جيش الكوفة فحسب، بل تهدد بالفشل كافة الجيوش على مدىٰ الدهور والعصور وأخيراً فالخطبة تصور مدىٰ لوعة الإمامﷺ.

وذروة إستيائه، وهى كافية في توضيح عمق الظروف العصيبة التي عاشها الإمامﷺ.

ജ

الخطبة[1] ٣٠

ومن كلام له عليه السلام

في معنى قتل عثمان وهو حكم له علىٰ عثمان وعليه وعلى الناس بما فعلوا وبراءة له من دمه.

نظرة إلىٰ الخطبة

نعلم بأنّ الآراء قد اختلفت في قتل عثمان، فهناك من ذهب إلىٰ تقصير عثمان وأنّه كان مستحقاً للقتل؛ فقد سلط بطانته على بيت المال وأغدق عليهم المناصب الحساسة في الحكومة، حتى قام الناس ضده دون أن يهب أحد من المسلمين لنجدته فكان الجميع راضياً بقتله.

بينما هناك من يعتقد بعدم صوابية قتله وكان ينبغي أن يمنح فرصة التوبة ليتدارك بعدها ما فرط منه، وإن كان ولابدّ يخلعونه من الخلافة. أمّا قتله بتلك الصورة العلنية إنّما هو بدعة، أضف إلىٰ ذلك فانّ قتله أصبح ذريعة للمنافقين من أجل بث الفرقة والشقاق في صفوف المسلمين.

و أخيراً هناك طائفة ضيقة النظر ممن لا تكلف نفسها عناء التحقيق والتفكير في سيرة

---

١. جاء في مصادر نهج البلاغه أن هذه الخطبة جزء من رسالة كتبها الإمام عليه السلام حين خلافته، ثم ضمنها الحوادث التي أعقبت وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أمر عليه السلام بقراءتها على الناس من أجل وحدة الرأي العام بهذا الشأن، كما احتمل أن تكون الخطب ٢٦، ٥٤، ٧٨ هى الأخرى جزء من هذه الرسالة.
ثم صرح بانّ هذه الخطبة وردت مع بعض التغييرات في كتاب أنساب الاشراف (مصادر نهج البلاغه، ١ / ٤٠٨).

الخليفة الثالث تراه الخليفة المظلوم الذي قتل شهيداً، كما تنزه ساحته من كل نقص وعيب.

الإمام عليه السلام من جانبه وفي خضم هذه الآراء المتضاربة يكشف النقاب عن الحقيقة ويعرض بالتحليل للمسائل المرتبطة بقتل عثمان.

«لَوْ أَمَرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قاتِلاً أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، لَكُنْتُ ناصِراً، غَيْرَ أَنَّ مَنْ نَصَرَهُ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: «خَذَلَهُ مَنْ أَنا خَيْرٌ مِنْهُ» وَمَنْ خَذَلَهُ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ: «نَصَرَهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي» وَأَنا جامِعٌ لَكُمْ أَمْرَهُ، اسْتَأْثَرَ فَأَساءَ الْأَثَرَةَ، وَجَزِعْتُمْ فَأَسَأْتُمُ الْجَزَعَ وَلِلَّهِ حُكْمٌ واقِعٌ فِي الْمُسْتَأْثِرِ وَالْجازِعِ».

الشرح والتفسير

عوامل قتل عثمان

كما ذكر في بداية الخطبة فانّها تعالج قضية قتل عثمان والتعرض إلىٰ العوامل التي دفعت إلىٰ هذا القتل. فكلنا نعلم بان لقتل عثمان جذور معلومة نابعة من طبيعة أعماله وأفعاله. فقد أجمع المحققون علىٰ أنّ سوء تدبير عثمان في ادارة دفة الحكم وتبديل الحكومة بموروث قبلي والتطاول على بيت المال والظلم والاضطهاد الذي مارسه أقربائه وبطانته بحق الناس قد أدىٰ إلىٰ غضب عام حتى انبرت طائفة مؤلفة من بضعة مئات لتحاصره في داره وتهجم عليه وتقتله، وقد وقف ذلك الجيش الجرار الذي فتح مصر وبلاد الروم متفرجاً دون أن يحرك ساكنا؛ فقد كان ذلك الجيش ساخطاً عليه ويرى ضرورة قتله، غير أنّ الناس إنقسموا طائفتين بعد قتله:

طائفة ـ لعلها كانت تشكل الاكثرية ـ كانت راضية بهذا القتل أو علىٰ الأقل غير مكترثة له بينما ترىٰ الطائفة الثانية أنّه قتل مظلوماً.

وفي ظل هذه الظروف إنتهز المنافقون الفرصة لبث بذور الفرقة في صفوف المسلمين وحرف مسير الخلافة عن محورها الأصيل أمير المؤمنين علي عليه السلام ـ والذي كان يحظى بتاييد كافة أفراد الأمّة ـ واستغلوا قضية قتل عثمان كذريعة لتحقيق أطماعهم ومآربهم، وبعبارة أُخرى فانّهم أحالوا قميص عثمان إلىٰ مناورة سياسية هدفها إغفال الأمّة وصدها عن الحق.

وبالطبع فانّ أفراد من كلا الطائفتين كانوا من ضمن صحب الإمام ﷺ واتباعه، وإن كانت الطائفة الثانية وعلىٰ ضوء تصريحات بعضى المؤرخين تشكل الأقلية، وعليه فمن الطبيعي أن تكثر هذه الطائفة من سواها لعلي ﷺ عن قتل عثمان، فلم يكن أمام الإمام ﷺ من بد سوى الاجابة التي تتضمن عكس الحقائق التأريخية من جانبه وعدم منح هذا وذاك الفرصة بغية إستغلالها ضد الدين.

فالخطبة رد علىٰ مثل هذه الاسئلة الذي يتطرق فيه الإمام ﷺ إلىٰ بيان الحقائق التأريخية دون منح العناصر الفاسدة الحجج والذرائع فقد قال ﷺ: «**لو أمرت به، لكنت قاتلاً، أو نهيت عنه، لكنت ناصراً**».

فمفهوم هذه العبارة هى أني كنت محايداً فلم ألطخ يدي بدمه ولم أدافع عن زلاته، فالأمران ينطويان علىٰ محاذير.

و هنا يبرز هذا السؤال: كيف يمكن التوفيق بين مضمون هذه العبارة والوقائع التأريخية؟

لاننّا نعلم جميعا (و قد ذكر ذلك أغلب المؤرخين) أنّ الإمام ﷺ نهى الناس عن قتل عثمان و قد بعث بالحسن والحسين ﷺ إلىٰ دار عثمان ليحولا دون زحف المعترضين، بل دخل عليه الإمام ﷺ بالماء حين منعوه منه. وقد أورد الشرّاح جوابين علىٰ السؤال المذكور:

فقال البعض المراد من عدم النهي هو النهي العملي؛ أي أنني لم أشهر السيف عملياً ولم أقتحم الميدان دفاعاً عنه، وهذا لايتنافى ونهيه اللفظى ﷺ وبعثه بالحسنين ﷺ هناك.

بينما يرى البعض لاخر أنّ هذا الكلام يفيد أن الإمام ﷺ لم يأمر قط بقتل عثمان، وإن كان يراه مستحقاً للعقاب علىٰ أعماله، وعليه وبغية عدم تردي الاوضاع لأسوأ ممّا كانت عليه فقد دعا الناس إلىٰ ضبط النفس والتخلي عن العنف، إلّا أنّه لم يفعل ما من شأنه توفير الدعم الصريح لعثمان وأعماله وما يدر منه؛ وذلك لأنّه كما أن سفك دمه يخلق بعض المشاكل في المجتمع الإسلامي، فانّ توفير الدعم له والدفاع عن أعماله هو الآخر يسبب مشاكل لاتقل عن سابقتها، وعليه فانّ الإمام ﷺ لم ير في أي من الأمرين (الأمر بالقتل والنهي عنه) ممّا تمليه عليه وظيفته الإسلامية.

و قد أراد الإمام ﷺ أن يعلن موقفه الصريح ويحول دون تفاقم الخلافات بشأن قتل عثمان من قبل الطائفتين التي تذهب إحداهما لضرورة قتله وتلك التي لاتراه مستحقاً للقتل.

ثم قال ﷺ: **«غير أن من نصره، لايستطيع أن يقول خذله من أنا خير منه، ومن خذله لايستطيع أن يقول نصره من هو خير منّي»**،

فالعبارتان تبينان موضوعاً واحداً وهو إتفاق الجميع علىٰ أن حماة عثمان آنذاك كانوا من طلحاء الأمّة، بينما كان الأفراد الذين لم يعدوا له يد العون من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار.

فالشواهد التأريخية تفيد تواجد كبار صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار حين هجم الناس علىٰ بيت عثمان، ولو كانوا يرتضون عثمان وأعماله لحالوا دون وصول الناس إليه، الأمر الذي يدل علىٰ تخليهم عنه وعدم تقديم أي دعم أو إسناد له.

أمّا الأفراد الذين هبوا للدفاع عن عثمان آنذاك فقد كانوا يمثلون أراذل المجتمع الإسلامي، و ما ذلك الدفاع إلّا لمنافعهم اللامشروعة التي كانوا يحظون بها آنذاك.

وعليه فقد كانت هذه المسألة واضحة في أنّ حماة عثمان من أمثال مروان لم يجرأوا علىٰ الزعم أنّهم خير من المهاجرين والأنصار الذين لم يدعموا عثمان.

ومن المسلم به أن أولئك الذين تخلوا عن دعم عثمان لم يكونوا يرووا أن حاشية عثمان وبطانته أفضل منهم، ومن هنا فقد إتفقت الآراء على أن حماة عثمان لم يكونوا من أخيار الأمّة.

فالعبارة غاية في الروعة وقد أماطت اللثام عن أعمال عثمان بالشكل الذي أثار حفيظة كافة المسلمين.

ومن ذلك توزيعه أموال بيت المال علىٰ قرابته وبطانته وتسليطهم على رقاب الناس إلىٰ جانب الظلم والجور والاضطهاد وتضييع العدل والقسط.

وقد صرح بعض شرّاح نهج البلاغة[1] بان الكلام هو ردّ الإمام ﷺ على من قال بحضرته أنّ الفتنة من أُولئك الذين لم ينصروا عثمان، فلو نصره كبار الصحابة لما إجترأ جهال الأمّة على سفك دمه، ولو رأىٰ كبار الصحابة وجوب قتله لكان عليهم إعلان ذلك وإزالة الشبهات عن أذهان الأمّة.

فعلم الإمام ﷺ أنه المقصور بذلك الكلام، فاورد هذه الكلمات.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٥٧/٢.

على كل حال فانّ الخطبة تبين أنّ الإمام ﷺ إذا لم ينصر عثمان فانه لم يكن وحيداً في هذا الأمر، بل كان هذا موقف كبار الصحابة، فلم الإشكال على الإمامﷺ؟ ثم إختتم الإمام ﷺ خطبته بتحليل دقيق عن قتل عثمان، فقال ﷺ: «**و أنا جامع لكم أمره، استأثر**[1] **فأساء الاثرة، و جزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكم واقع في المستأثر والجازع**».

لقد صرح أحد الادباء العرب المشهورين بأنّ عبارات الإمامﷺ إتصفت بقلة الألفاظ وسعة المعاني، فالعبارة علىٰ قلّة لفظها جامعة شاملة حيث أوضح الإمامﷺ فيها أنّ عثمان إرتكب خطأً جسيماً وأنتم كذلك.

فقد انتهج اسلوب الاستبداد والحكم الفردي وسلط بني أُمية علىٰ رقاب الناس وأغدق عليهم بيت المال فلما تعالت أصوات المعارضة وقام المسلمون لم يعرهم آذانا صاغية، فحاصروه وهجموا عليه فتركه كبار الصحابة من الأنصار والمهاجرون، من جانب آخر فانّ الناس لم يكتفوا بهدا الحد، وبدلاً من خلعه من الخلافة وطرد أزلامه من مواقع الحكومة عمدوا إلىٰ اراقة دمه فخلقوا فتنة إمتدت لسنوات في التأريخ الإسلامي، إلىٰ جانب استغلالها من جانب المنافقين الذين تذرعوا بالمطالبة بدم عثمان ليسفكوا كثيرا من الدماء.

وبناءاً على ما تقدم فانّ الفريقين قد سلكوا الافراط، وعليه فانّ الله جازى كل منها بأعماله.

لقد كثر الكلام بشأن خلافة عثمان وآثارها: إلّا أنّ كلام الإمام ﷺ ورغم قصر عباراته إلّا أنه أوجز كبد الحقيقة إلىٰ جانب اصداره الحكم العادل بشأنه وشأن الجماهير التي قتلته.

كما يستفاد من العبارة أن الاستبداد ـ رغم إنّه سيئ مهما كان ـ على أنواع بعضها أسوأ من البعض الآخر، واستبداد عثمان كان من النوع الاخير.

كما أنّ التعبير بالجزع عن الناس يشير إلىٰ مدىٰ الغضب والاستياء الذي سيطر علىٰ الناس إثر الأعمال الشائنة لعثمان وبطانته.

৪০৫৪

1. «إستأثر» من مادة «اثر»، بمعنى الاستبداد كما صرح بذلك القاموس ومنه الحكومة الاستبدادية لأنّها حكومة فردية، يستعبد فيها الفرد سائر الناس.

الخطبة[1] ٣١

ومن كلام له عليه السلام

لما أنفذ عبد الله بن عباس إلىٰ الزبير يستفيئه إلىٰ طاعته قبل حرب الجمل.

«لاٰ تَلْقَيَنَّ طَلْحَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ تَلْقَهُ تَجِدْهُ كَالثَّوْرِ عَاقِصاً قَرْنَهُ، يَرْكَبُ الصَّعْبَ وَيَقُولُ «هُوَ الذَّلُولُ» وَلَكِنِ الْقَ الزُّبَيْرَ فَإِنَّهُ أَلْيَنُ عَرِيكَةً فَقُلْ لَهُ: «يَقُولُ لَكَ ابْنُ خَالِكَ: عَرَفْتَنِي بِالْحِجَازِ وَأَنْكَرْتَنِي بِالْعِرَاقِ فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا»».

الشرح والتفسير

السعي لانقاذ الخاطئين

نعلم أنّ المعركة الاولىٰ التي فرضت على أمير المؤمنين عليه السلام كانت معركة الجمل، حيث إتحد أنصار عثمان ومعارضيه بعد أن إصطحبوا معهم زوج رسول الله صلى الله عليه وآله عائشة فنقضوا البيعة واشعلوا فتيل واقعة الجمل طمعاً في الخلافة.

ثم انتهت المعركة بهزيمتهم وقتل مؤججي تلك النار طلحة والزبير.

وتفيد كافة الشواهد التاريخيه أنّ الإمام عليه السلام كان حريصاً علىٰ عدم وقوع القتال ليس في

---

١. قال صاحب مصادر نهج البلاغة نقل هذا الكلام طائفة من العلماء ممن سبقوا المرحوم السيد الرضي،منهم الزبير بن بكار (طبق نقل ابن أبي الحديد والجاحظ...) وابن قتيبة في عيون الأخبار وابن عبد ربّه في العقد الفريد.

والطريف، نقله حتى إبن خلكان في وفيات الأعيان وشهد بصحته وهو من رفع راية مخالفة نهج البلاغة. مصادر نهج البلاغة ١ /٤١٨.

الجمل فحسب، بل في صفين والنهروان، وكان يسعى جاهدا لاطفاء نار الحرب.

والخطبة التي نحن بصددها تعد أحد تلك الشواهد، فقد بعث الإمام ﷺ قبل نشوب القتال برسوله عبد الله بن عباس إلى الزبير بهذه الكلمات، فأثرت عليه وانسحب من المعركة، حتى أدركه إبن جرموز في صحراء البصرة فقتله.

فقد خاطب الإمام ﷺ ابن عباس قائلاً:«**لاتلقين طلحة فانك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً[1] قرنه، يركب الصعب ويقول:هو الذلول**».

تشبيهه لطلحة بالثور الذي يعقص قرنه إما أن يكون أراد به طغيانه وسوء خلقه، أو عدم سماعه للحق بفعل طاعته لهوى نفسه.

فالواقع أنّ العبارة تفيد تحليله لنفسية طلحة ويأسه من تأثير الكلام فيه بشأن الكف عن القتال وإلّا فانسعاب من المعركة، إلّا أنّه لم يقطع أمله من الزبير (و قد دلت الحوادث اللاحقة أنّ الإمام ﷺ كان محقا في أمله) فأضاف ﷺ قائلاً:«**ولكن الق الزبير فانّه ألين عريكة**».[2]

فالعبارة:«**ألين عريكة**» واستنادا إلىٰ «**عريكة**» التي تعني الطبيعة، تفيد تسليم الزبير للحق إذا سمعه، ولا سيما إذاكان قد صدر من رسول الله ﷺ، على العكس من طلحة الذي كان يتصف بالأنانية واللجاجة والطغوى وحبّ الجاه والمقام الذي أعمى بصره وبصيرته وأصم سمعه عن سماع الحق.

ومن هنا ذكر المؤرخون أنّ الزبير أخذته رعدة شديدة حين دخل البصرة وعلم أنّ عمار في جيش الإمام ﷺ حيث تذكر حديث رسول الله ﷺ لعمار:

«**و يحك يابن سمية تقتلك الفئة الباغية**».

فخشي أن يقتل عمار في المعركة، فيكون هو جزءاً من الفئة الباغية.

على كل حال قال الإمام ﷺ لابن عباس: «**فقل له يقول لك ابن خالك: عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق؟ فما عدا ممّا بدأ؟**».

---

١. «عاقصا» من مادة «عقص» بمعنى التوى قرناه على أذنيه

٢. «عريكة» من مادة «عرك» بمعنى الطبيعة، ولين العريكة بمعنى السلس، كما تأتي بمعنى إشتباك الشئ ومن هنا إطلقت المعركة على إشتباك الأفراد.

فالعبارة إشارة إلىٰ التأريخ الجهادي العظيم للإمام علي عليه السلام على عهد النبي صلى الله عليه وآله والذي لم يكن خافياً على أحد بما فيهم الزبير الذي كان يقاتل إلىٰ جانب رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقد ورد في الاخبار أنّ علياً عليه السلام برز بين الصفين حاسراً، وقال: ليبرز اليّ الزبير، فبرز إليه مدججاً، فقيل لعائشة: قد برز الزبير إلى علي عليه السلام، فصاحت: وزبيراه!

فقيل لها: لا بأس عليه منه، إنّه حاسر والزبير دارع.

فقال له عليه السلام: ما حملك يا أبا عبدالله على ما صنعت؟ قال: أطلب بدم عثمان، قال: أنت وطلحة وليتماه، وإنّما نوبتك من ذلك أن تقيد به نفسك وتسلمها إلىٰ ورثته، ثم قال له: نشدتك الله أتذكر يوم مررت بي ورسول الله صلى الله عليه وآله متكي على يدك، وهو جاء من بني عمرو بن عوف، فسلم عليَّ وضحك في وجهي، فضحكت إليه، لم أزده على ذلك، فقلت: لا يترك ابن أبي طالب يا رسول الله زهوه!

فقال لك «**مه إنه ليس بذي زهو، أما إنّك ستقاتله وأنت له ظالم**»

فقال الزبير: إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد كان كذلك، ولكن الدهر أنسانيه، ولانصرفن عنك. فانصرف من المعركة[1].

فالعبارة السابقة قد تكون إشارة إلىٰ هذا الأمر. جدير بالذكر أن الزبير كان من محبي علي عليه السلام وقد هب للدفاع عنه حتى في حادثة السقيفة وشهر سيفه، فقام له القوم وكسروا سيفه، إلىٰ جانب ذلك فقد منح رأيه لعلي عليه السلام في الشورىٰ التي شكلها عمر لانتخاب الخليفة من بعده.

على كل حال فان هذه العبارة أثرت في الزبير وكان شكه يتزايد يوماً بعد آخر.

بمشروعية الطريق الذي سلكه حتى إتخذ قراره باعتزال القتال فاتجة الصحراء ليكمن له أحد الظلمة ـ ابن جرموز ـ فارداه قتيلاً ولم يسعه تدارك ما فرط منه.

أمّا قوله عليه السلام: «**ابن خالك**» فهو تعبير لطيف جدا، وهو من باب الاستمالة والاذكار بالنسب والرحم، فقد كان الزبير ابن صفية أخت أبي طالب، وعليه فالزبير ابن عمة علي عليه السلام وعلي عليه السلام ابن خاله.

---

1. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ١٦٧.

والعبارة تهدف إلىٰ بيان كافة الأُمور التي سمعها الزبير من رسول الله ﷺ بشأن علي ﵇ ومن هنا فقد كان شديد الحب لعلي، إلّا أنّ حب الجاه ـ الذي كان الدافع الرئيسي لحرب الجمل ـ كالحجاب الذي حال دون رويته لتلك الحقائق، فكان لهذه العبارة فعلها في نفسه حيث أزالت عنه ذلك الحجاب وجعلته يعود إلىٰ الحق.

قال المرحوم السيد الرضي في ذيل هذه الخطبة: «**وهو عليه السلام أول من سمعت منه هذه الثلمة؛ أعني فما عدا ممّا بدا**».

وهي عبارة بعيدة المعنى، تشير إلىٰ مسألة وهي: ما الذي صرفك عن الحق بعد أن اتضح لديك إلىٰ الباطل[1]. والعبارة من الروعة واللطافة بحيث أصبحت مثلاً في الادب العربي.

تأمّلات

١ـ رد فعل الزبير تجاه رسالة الإمام ﵇

ورد في بعض الروايات أنّ ابن عباس قال: حين أبلغت الزبير رسالة الإمام ﵇ أجابني: قل لعلي ﵇ إني أُريد ما تريد.[2]

أي إنّك تبتغي الحكومة، فلم لا أطلبها أنا. فقد بلغ به الطمع وحبّ الجاه درجة جعلته يعتقد بأنّ علياً ﵇ إنّما نهض بالأمر طلباً للحكومة ـ ولكن وكما أوردنا سابقاً فانّ الزبير لم يستطع الوقوف بوجه الحق، فما كان منه إلّا أنّ إعتزل القتال وانصرف وإن كانت خطوته متأخرة.

٢ـ قطوف من سيرة طلحة والزبير

طلحة من قريش وأبوه عبدالله بن عثمان من السابقين في الإسلام وقد شهد غزوات رسول الله ﷺ، ولم يشهد بدرا حيث وجهه رسول الله ﷺ حينها إلىٰ الشام فلما عاد طالب بسهمه من الغنائم.

---

١. «عدا» به معنى الصرف والاعادة، وفاعله ضمير مستتر يعود إلىٰ ما، ويحتمل أن تكون من في ممّا بمعنى عن، و بدا من مادة بدو بمعنى الظهور.

٢. مصادر نهج البلاغة ١ / ٤١١.

فقال له رسول الله ﷺ: لك سهمك وأجرك. وقيل آخى رسول الله ﷺ في مكة بين طلحة و الزبير، وآخى بين طلحه وأبي أيوب في المدينة. وروي عن طلحة أنّ النبي ﷺ أسماه يوم أحد طلحة الخير. أمّا قتاله مع رسول الله ﷺ في حروبه فما لا شك فيه مع ذلك فقد كان محباً للجاه و المقام حتى تغيير نهجه بعد وفاة رسول الله ﷺ، كما كانت تسمع منه بعض الكلمات ومن ذلك قوله أنّ رسول الله ﷺ يأمر بنات أعمامنا بالاحتجاب منا، ويتزوج بنسائنا بعد إنفصالهن عنا: فما الذي يغنيه حجابهن اليوم وسيموت غدا فننكحهن، وهنا نزلت آية التحريم بالزواج من نساء النبي ﷺ[1] فقد ذكر الفخر الرازي في سبب نزول الآية أن طلحة قال: «**سأتزوج من عائشة إذا مات رسول الله ﷺ**». فنزلت آية تحريم الزواج من نساء النبي ﷺ بعد وفاته.[2]

وورد في قصة الشورىٰ التي شكلها عمر أنه أقبل علىٰ طلحة وقال: أقول أم أسكت؟ فقال طلحة: قل، فانّك لا تقول من الخير شيئاً. فقال عمر: لقد مات رسول الله ﷺ ساخطاً عليك بالكلمة التي قلتها يوم أُنزلت آية الحجاب.[3]

على كل حال كان من أشد الناقمين على عثمان، ومن هنا كان يراه مروان من قتلة عثمان، وقد رماه بسهم في الجمل فقتله، وقال: الآن أدركت دم عثمان من طلحة. وقد دفعه حبّ الجاه لاشعال فتيل الجمل وسفك دماء المسلمين ولم يظفر بالخلافة حتى قتل في معركة الجمل. وذكر البعض أنّ الإمام ﷺ حدثه ببعض الكلمات عى غرار الزبير فندم وانصرف من المعركة فرماه مروان بسهم فقتله. إلّا أنّ الخطبة تفند هذا الكلام، فهي تفيد يأس الإمام ﷺ من هدايته وعودته إلىٰ الحق. وفي رواية أنّ أمير المؤمنين ﷺ مر يقتلى الجمل فقال بشأنِ طلحة هذا من نكث بيعتي و أشعل نار الفتنة وألب الناس علىٰ قتلي وأهل بيتي» ثم خاطبه ﷺ: يا طلحة إنّي وجدت ما وعدني ربّي حقاً فهل وجدت ما وعد ربك حقاً، ثم انصرف. فقال له بعض أصحابه: أتكلمه بعد الموت يا أميرالمؤمنين. فقال ﷺ والله لقد سمعني كما سمع الكفّار كلام رسول الله ﷺ وهم قتلى في قليب يدر[4].

---

١. سورة الاحزاب / ٥٣؛ الدر المنثور ٥ / ٢١٤.
٢. تفسير الفخر الرازي ٢٥ / ٢٢٥.
٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ١٨٤.
٤. الاحتجاج للطبرسي، نقلا عن سفينة البحار، مادة (طلح).

وهنا يبرز هذا السؤال وهو أنّ النبي ﷺ كان يثني أحيانا على طلحة، حتى ذهب البعض إلىٰ أنّه من العشرة المبشرة بالجنّة، فكيف يصح هذا الثناء؟ ونقول في الجواب على فرض أنّ هذا الكلام صحيح، فانّ الإنسان يعيش بعض المراحل المتألقة في سني حياته بحيث يكون يوماً إلىٰ جانب الحق ويستحق الجنّة، ويوماً يخرج من هذا الحق ويلتحق في صفوف الباطل فيستحق غضب الله وسخطه. فالتأريخ الإسلامي حافل بالأفراد الذين كانوا علىٰ الحق وهجروه إلىٰ الباطل أو بالعكس، وإلّا فمن يسعه القول بأحقية من أجج نار الحرب ضد إمام زمانه وسفك كل هذه الدماء؟ فهل من انسجام بين هذا الكلام والمنطق؟ والشاهد على ما قلنا ما صرح به القرآن الكريم بشأن السابقين في الإسلام من المهاجرين والأنصار والتابعين، الذين وعدهم بالجنّة **﴿وَالسّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهاجِرِينَ وَالأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي تَحْتَها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذٰلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾**.[1]

فالآية تشمل جميع المهاجرين والأنصار، بينما نعلم هنالك من انحرف منهم عن الحق كعبد الله بن أبي سرح[2] وثعلبة ابن حاطب الأنصاري[3] فاستحقوا غضب الله وسخطه، وقد كانوا من المهاجرين والأنصار الذين وقفوا إلىٰ جانب رسول الله ﷺ؟ كما نعلم أن بعض المنافقين الذين ذمّهم القرآن بشدّة كانوا من صحابة رسول الله ﷺ. وعلىٰ هذا الضوء فلابدّ من تقييم أصحاب رسول الله ﷺ علىٰ ضوء أعمالهم حتى آخر أعمارهم، وإلّا شهدنا حالة من التناقض لا يمكن الخروج منها بتبرير وأما الزبير فهو الزبير بن العوام وأُمّه صفية عمة رسول الله ﷺ اسلم في الخامسة عشرة من عمره وهو رابع أو خامس من أسلم، هاجر إلىٰ الحبشة ثم قدم المدينة، وقد أخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبدالله بن مسعود. شهد غزوات رسول الله ﷺ

---

١. سورة التوبة / ١٠٠.

٢. ورد ذمه في تفسير الآية ٩٣ من سورة الانعام في الدر المنثور (الدر المنثور ٣ / ٣٠) وذكر صاحب أسد الغابة أنه كان من كتاب الوحي ثم ارتد فأمر رسول الله ﷺ بقتله (اسد الغابة، شرح أخبار عبدالله بن سعد بن أبي سرح).

٣. جاء في أسد الغاية في معرفة الصحابة في أخبار هذا الرجل أن النبي ﷺ طرده، كما طردهالخلفاء الثلاثة (ابوبكر وعمر وعثمان) ولم يقبلوا زكاته، رغم قوله أنه من أصحاب رسول الله ﷺ حتى توفي في خلافة عثمان.

في بدر وأحد والخندق وحنين وقد أبلى فيها بلاءً حسناً حتى أثنى عليه رسول الله ﷺ. وكان أحد أعضاء الشورى الذي بايع علياً ﷺ ولم يبايعه طلحة. وللاسف فانّ حب الجاه وتأثير طلحة قد دفعه للانحراف عن الحق فاشترك مع طلحة في تأجيج نار الجمل التي فرقت صفوف المسلمين وأراقت دمائهم بعد أن نقض البيعة. وقد ذكر المؤرخون انه إستمع لمواعظ علي ﷺ قبل بدء المعركة فعاد إلىٰ الحق وانسحب من الميدان فاتجه صوب صحراء تعرف باسم **«وادي السباع»** فلما وقف للصلاة تقدم نحوه ابن جرموز فقتله حين الصلاة وانتزع خاتمه وسيفه فاتى بهما إلىٰ الإمام ﷺ.

فاستاء الإمام ﷺ وقال: **«هذا السيف طالما فرج الكرب عن وجه رسول الله»** وقيل إنّ الإمام ﷺ لم يأذن لابن جرموز بالدخول عليه وقال: **«بشر قاتل ابن صفية بالنار»** وقال البعض أنّ ابن جرموزغضب غضباً شديداً فقتل نفسه. وقد صرحت بعض المصادرالتأريخية أن معاوية هو الذي شجع طلحة والزبير علىٰ نقض البيعة والقيام ضد علي ﷺ [1].

لا شك إنّ قضية طلحة والزبير ينبغي أن تكون لنا درساً وعبرة فلا نغر بأعمالنا، وكيف أنّ الإنسان يعيش مع الحق ويجاهد في سبيله ثم يستلل حب الدنيا والحياه إلىٰ قلبه فيقوده إلىٰ الباطل اللّهم إجعل عاقبة أمرنا خيراً.

٣ـ شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد تضمنت رسالة الإمام ﷺ الإشارة إلىٰ أحد الشروط المهمّة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ألا وهو إحتمال التأثير.

فقد قال ﷺ: **«لا تلقين طلحة فانك إن تلقه تجده كالثور عاقصاً قرنه، ولكن إلق الزبير فانه ألين عريكة»** فمن الطبيعي أنّ طاقة الإنسان وقدرته محدودة ولابدّ له من استهلاكها في محلها الذي يتوقع فيه التأثير.

فاذا أحتمل عدم التأثير فلا ينبغي له أن يصرف جهده عبثاً، وبالطبع فقد قلنا احتمال التأثير وليس اليقين فيتعلل بعدم الأمر لعدم وجود اليقين في التأثير! كلا إلىٰ جانب ذلك

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٢٣١.

ينبغي معرفة المعروف والمنكر وعدم وجود الخطر آنذاك تبرز وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويفهم من رسالة الإمام ﷺ أنّ لبعض الناس طباع كطباع الحيوانات فالبعض كالثعلب أو الذئب وبعضهم شجاع كالأسد وآخر من أهل الشهوات كالخنزير وبعضهم جاهل كالبقر و... و قد شبه الإمام ﷺ طلحة بالبقر العاقص القرن حيث يستكبر في التسليم إلىٰ الحق ويخطى في إدراك الواقع وتمييزه، وإذا اتجه صوب الأعمال العصية ظنها سهلة حتى تؤدى به إلىٰ الفشل.

ﷻ

الخطبة[1] ٣٢

ومن خطبة له ﷺ

وفيها يصف زمانه بالجور، ويقسم الناس فيه خمسة أصناف، ثم يزهد في الدنيا.

نظرة إلىٰ الخطبة

تتألف الخطبة من أربعة أقسام:

القسم الأول يتحدث عن الوضع المأساوي للمجتمع على عهد الإمام ﷺ والمشاكل التي كانت تعترض سبيل الصلحاء والأتقياء. ويصنف الإمام ﷺ الناس في القسم الثاني آنذاك (ولعله في كل عصر ومصر) إلىٰ أربعة أصناف:

أ ـ الصنف الأول من يقعد به عن طلب الإمرة قلّة ماله، وحقارته في نفسه. فهو مغتم في الواقع لعدم إمتلاكه الامكانات.

ب ـ الصنف الثاني من يشمر ويطلب الامارة ويفسد في الأرض ويكاشف

ج ـ الصنف الثالث من يتظاهر بالدين ويطلب به الدنيا لا الآخرة

د ـ الصنف الرابع من لامال له أصلاً، ولا يكاشف، ويطلب الملك ولا يطلب الدنيا بالرياء والناموس، بل تنقطع أسبابه كلها فيخلد إلىٰ القناعة، ويتحلى بحلية الزهادة في اللذات الدنيوية، لاطلباً للدنيا، بل عجزاً عن الحركة فيها، وليس بزاهد على الحقيقة.

---

١. نقل هذه الخطبة محمد بن طلحة الشافعي في كتاب مطالب السئول وأضاف أنّ الإمام ﷺ خطبها في مسجد الكوفة، ويتضح من هذا أنّ له سند غير نهج البلاغة، لأنّ نهج البلاغة لم يشر إلىٰ موضع الخطبة. كما رواها الجاحظ في البيان والتبيين، وأنّ أخطأ في البداية حيث نسبها إلىٰ معاوية إلّا أنّه يعترف أخيراً بأنها لاتشبه كلام معاوية وهي من كلمات علي بن أبي طالب. مصادر نهج البلاغة ١ / ٤١٧.

ثم يتطرق الإمام ﷺ إلىٰ بيان خصائص كل صنف من هذه الأصناف الأربعة ـ التي تعيش في كل مجتمع، ويتحدث القسم الثالث عن صنف آخر ذكره الإمام ﷺ بصورة مستقلة وهم الأبرار الأتقياء الذين أراق دموعهم خوف الآخرة.

ثم يقسمهم الإمام ﷺ إلىٰ عدّة أقسام ويذكر صفات كل قسم منهم، أمّا القسم الرابع والأخير من الخطبة فيدعو فيه الإمام ﷺ الناس إلىٰ الزهد وعدم الاغترار بالدنيا الذي يقود إلىٰ الذنوب والمعاصي. وقد بين حق الكلام بعبارات قصيرة.

❧

القسم الأول

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ، يُعَدُّ فِيهِ الْمُحْسِنُ مُسِيئاً وَيَزْدَادُ الظَّالِمُ فِيهِ عُتُوّاً. لاَ نَنْتَفِعُ بِمَا عَلِمْنَا، وَلاَ نَسْأَلُ عَمَّا جَهِلْنَا وَلاَ نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا».

୭୦୧୪

الشرح والتفسير

الدهر وضياع القيم

إستهل الإمام عليه السلام الكلام بخطاب عامة الناس ثم أشار الإمام عليه السلام في الخطبة إلى الزمن الذي كان عليه الناس فقال:

«أيّها الناس أنا قد أصبحنا في دهر عنود، وزمن كنود».

طبعا ليس المراد بالزمن الأيام والليالي والشهور والسنين بحيث توصف بالقبح والحسن والبغض والتنكر، بل أهل العصر والزمان الذين يتصفون بهذه الصفات، فاذا ما ذكر الزمان بالحسن والقبح فالمراد الناس، وإلّا فليس هنالك من تغيير في شروق الشمس أو القمر ولا في حركة القمر حول نفسه أو حول الشمس.

فالشمس تشرق والمطر ينزل والأرض تخرج بركاتها للبشر ولا من تغيير، إلّا أنّ الناس هم الذين يوصفون بسوء الأعمال وحسنها.

فقد عاش الإمام عليه السلام في عصر لم يسع أغلب أفراده ـ سوى النزر اليسير ـ إدراك عظمة روحه وسعة فكره والاحاطة بفضائله ومناقبه، وقد أدت بهم الثروات العظيمة التي أفرزتها الفتوحات الإسلامية واتساع رقعة البلاد إلى التكالب على الدنيا والتهافت على زينتها والحرص على جمع الأموال وحب الجاه والمقام وتناسي القيم والمبادئ.

ثم تناول الإمام عليه السلام بعض خصائص الزمان آنذاك والذي يتصف بعناد الناس وجحودهم ليصفه في خمس عبارات فقال: «**يعد فيه المحسن مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتوا**» أو يمكن أن يتهم المحسن بالاثم ويثنى على الظالم؟ بلى إذا تغيّرت قيم المجتمع عد المحسن مسيئاً والمسيىء محسناً.

فإذا كان المال والثراء والقوة هى القيم ومعايير الشخصية، فستكون الصدارة في ذلك المجتمع للظلمة والطغاة والجبابرة، بينما تميع فى هذا المجتمع شخصية المحسنين الذين يمدون يد العون إلى الفقراء والضعفاء وينفقون عليهم الأموال وينعتونهم بالحماقة والبلاهة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض نماذج الفساد الذي طال المجتمعات البشرية بفعل فساد التعامل مع القيم والتنكر لها ومن ذلك ما أورده بشأن قوم لوط الذين عزموا على إخراج نبيّهم ومن معه من المؤمنين الصالحين ولا ذنب لهم سوى الطهر والعفاف ﴿**وَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾[1].

كما اعتبر الظلمة من قوم نوح تلك الثلة الخيرة التي آمنت بالله والنبي بأنّها من أراذل القوم والسذج الذين ليس لهم من مزية على من سواهم ﴿«**مانَراكَ إِلّا بَشَراً مِثْلَنا وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَما نَرىٰ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ**﴾[2]

نعم إذا فسد الناس وازداد حجم الظلم والاضطهاد تغير وجه المجتمع وغيبت فيه القيم، وازداد الظالم طغياناً وتجبرا وعدّ المحسن مجرما فيقصى من ذلك المجتمع.

وليس هنالك من نتيجة سوى ما أشار إليها الإمام عليه السلام: «**لاننتفع بما علمنا، ولا نسأل عمّا جهلنا**».

والواقع أنّ هذه أسوأ حالة يعيشها الفرد أو المجتمع، أي أنّه لايستثمر علومه ومعارفه في حل مشاكله ولايهم بالقضاء على الجهل و الاقبال على العلم، وليس هنالك من نتيجة لهذين الأمرين سوى العوم في بحر الجهل والجريمة، وهذا هو حال كافة الأفراد الذين يغضون الطرف عن مفاسد المجتمع ولايرون لأنفسهم من مسؤولية في ردعها سواء من خلال اليأس من

---

١. سورة النمل / ٥٦.
٢. سورة هود / ٢٧.

الإصلاح أو التعود على هذا الفساد والتكيف معه.

ثم قال: «**ولا نتخوف قارعة حتى تحل بنا.**» الجدير بالذكر أنّ الإمام ﷺ أورد العبارات الأخيرة بصيغة التكلم مع الغير وينسبها إلى نفسه ومن حوله؛ مع القطع بأنّه مبرأ من ذلك بفضل عصمته وورعه وتقواه، ولعل العبارة تهدف عدم جرح مشاعرهم وإثارة حفيظتهم فيجعل نفسه كأحدهم في مثل هذه الأمور.

تأمّلان

١ـ ما مفهوم فساد الزمان؟

ذكرنا آنفا أنّ الزمان لايراد به هنا المّدة الزمنية لحركة الشمس والقمر (أو دوران الأرض حول نفسها والشمس) فالأزمنة متشابهة ذاتاً، والأشخاص هم الذين يتغيرون والحوادث والواقائع التي تجعل العصر والحياة حلوة أو مرة.

و عليه فاذا قيل بفساد الزمان فالمراد فساد الناس.

ويصدق هذا الأمر على المكان أيضاً، فاذا قيل أنّ المنطقة الفلانية أو البلد الفلاني فاسد فالمقصود فساد أهل تلك المنطقة أو ذلك البلد.

وبالطبع فان هنالك من يحاول استغلال هذه العبارات ليجعل من فساد الزمان أو المكان ذريعة لفساده وانحطاطه.

فاذا سئل عن سبب فساده وانحرافه، إنبرى للجواب: وماذا أفعل فقد فسد العصر أو البيئة التي أعيش فيها، والحال هو ومن حوله مصدر الفساد. ولعلنا نلمس هذا المعنى في الاشعار التي تنسب إلى عبدالمطلب جد النبي ﷺ حيث أنشد قائلاً:

و يعيب الناس كلهم زمانا	وما لزماننا عيب سوانا
نعيب زماننا والعيب فينا	ولو نطق الزمان بنا هجانا
وان الذئب يترك لحم ذئب	ويأكل بعضنا بعضا عيانا[1]

---

١. عيون أخبار الرضا (نقلا عن بحار الانوار ٤٩ / ١١١).

و من البديهي أنّ زوال فساد الزمان مرهون بتغيير الناس فيشملوا بلطف الله وعنايته ﴿إِنَّ اللّٰهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّىٰ يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1]. وبذلك فالإنسان هو المقصر الأصلي على كل حال.

٢ـ التنكر للقيم

المسألة التي تلعب دوراً مهما في مصير المجتمعات البشرية والتي قد يغفل عنها الأعم الأغلب من الناس إنّما تتمثل بنظام القيم والمبادى التي تسود المجتمع.

فالمجتمع إنّما ينطلق في مسيرته نحو المثل والقيم التي يلهمها لأفراده والمقرة من قبلهم، وعليه فالمجتمع يتجه نحو التأكل والزوال إذا ما شهد تغييب القيم والمبادئ.

ونقصد بالمجتمع حركة جميع أفراده ولايقتصر ذلك على بعض الأفراد الذين يتحلون بالايمان والتقوىٰ فيقفون دائما ضد حالات الفساد والانحراف.

وبناءاً على ما تقدم فانّ القيم المقرة في المجتمع إذا كانت تتجسد في المال والثروة فانّ كافة الأفراد سيتجهون نحو الثراء كهدف دون الإكتراث لمسائل الحلال والحرام.

والإنسان يتجه بوحي من طبعه إلىٰ صنع الشخصية ولا يأل جهدا في السعي لتحقيق هذا الأمر، فاذا كانت القيم السائدة تتمثل بالشخصية الكاذبة فان الأفراد سيتحركون لامحالة لمثل هذه الشخصية.

والشباب عادة يلهثون خلف السمعة والشهرة ويعشقون الابطال، و عليه فلا يبدو غريباً تقليد الشباب لهؤلاء الابطال حتى في الثياب واسلوب المشي، ولو كان هؤلاء الابطال هم العلماء والمفكرين فمن الطبيعي أن ينطلق الشباب نحو العلم والمعرفة.

بالمناسبة هنالك قصة طريفة مشهورة بشأن العلّامة الكبير الشيخ البهائي، حيث قرر الشاه عباس الصفوي مكافئة جهوده العلمية وخدماته العمرانية بتقديم هدية تليق بشأنه، فطلب الشيخ أن يستقل مركبه الخاص ويمشي الشاه خلفه لمسافة معينة في الشوارع والازمة

١. سورة الرعد / ١١.

ـ فالواقع أراد الشيخ بهذا العمل أن يثبت بأنّ القيم والمثل التي تسود المجتمع ينبغي أن تتمحور حول العلم والمعرفة.

و قد قيل أنّ إقبالاً منقطع النظير قد حدث للعلم بما لم يشهده أبداً في السابق. جدير بالذكر أنّ القيم والمثل التي كانت تحكم المجتمع الجاهلي قبل الإسلام مصداقاً لقوله ﷺ: «**بأرض عالمها ملجم وجاهلها مكرم**».[١]

حيث أبطالها هم أبوسفيان وأبوجهل وأمثالهما، حتى انبثق الإسلام ليرفع شعار التقوى «**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّٰهِ أَتْقاكُمْ**» فيقضي علىٰ اولئك الابطال الكاذبين ويستبدلها بالابطال من قبل أبي ذر وأمثاله. وممّا يؤسف له أن هناك بعض الأعمال الخاطئة التي وقعت في عصر الخلافة الراشدة فادت إلىٰ تغييب تلك القيم الإسلامية المثلى لتعود النعرة الجاهلية من جديد فتصدر المجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الاشعري بدلاً من مالك الاشتر وأبي ذر وعمار بن ياسر؛ الأمر الذي كان يدمي قلب الإمام ﷺ، وأدنى ذلك ما أورده ﷺ بقوله «يعد فيه المحسن، مسيئا ويزداد الظالم فيه عتواً».

ومن هنا كان هدف الإمام ﷺ في أغلب خطبه في نهج البلاغة يكمن في إحياء القيم والمثل التي كانت سائدة في صدر الإسلام.

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ١٣٦.

القسم الثانى

«فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لاَ يَمْنَعُهُ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَهَانَةُ نَفْسِهِ، وَكَلاَلَةُ حَدِّهِ، وَنَضِيضُ وَفْرِهِ. وَمِنْهُمْ الْمُصْلِتُ لِسَيْفِهِ، وَالْمُعْلِنُ بِشَرِّهِ، وَالْمُجْلِبُ بِخَيْلِهِ وَرَجِلِهِ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ لِحُطَامٍ يَنْتَهِزُهُ، أَوْ مِقْنَبٍ يَقُودُهُ، أَوْ مِنْبَرٍ يَفْرَعُهُ. وَلَبِئْسَ الْمَتْجَرُ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَناً، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللّهِ عِوَضاً!

وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَلاَ يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ وَشَمَّرَ مِنْ ثَوْبِهِ، وَزَخْرَفَ مِنْ نَفْسِهِ لِلْأَمَانَةِ، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللّهِ ذَرِيعَةً إِلَى الْمَعْصِيَةِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَبْعَدَهُ عَنْ طَلَبِ الْمُلْكِ ضُئُولَةُ نَفْسِهِ، وَانْقِطَاعُ سَبَبِهِ فَقَصَرَتْهُ الْحَالُ عَلَى حَالِهِ، فَتَحَلَّى بِاسْمِ الْقَنَاعَةِ، وَتَزَيَّنَ بِلِبَاسِ أَهْلِ الزَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَاحٍ وَلاَ مَغْدًى».

الشرح والتفسير

الناس أربعة أصناف

يعرض الإمام ﷺ ـ في هذا القسم من الخطبة ـ بالتحليل لطلاب الدنيا الذين يصنفهم في أربعة أصناف وبالطبع فانّ هذه الأصناف لا تختص بمجتمع دون آخر ولا زمان دون آخر بل هى عامة شاملة فقال ﷺ:

«فالناس على أربعة أصناف، منهم من لا يمنعه الفساد في الأرض إلّا مهانة نفسه،

وكلالة[١] **حده ونضيض**[٢] **وفره».**

فالمشكلة في عدم وجود الماء والا فهم سباحون ماهرون، فباطنهم مفعم بالشر والفساد الا أنهم يفتقرون للالة التي يمارسون بها الظلم والفساد، ومن الطبيعي أن مثل هولاء الأفراد إنّما يتربصون بظاهرهم الوديع الذي لايشوبه أذى.

كما يتوجب علىٰ قادة المجتمع إذا ما تعرفوا على هولاء الأفراد الحذار من تزويدهم بالا مكانات فيعيثوا في الأرض فسادا، وقد أشار القرآن إلى ذلك **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلىٰ ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصامِ * وَإِذا تَوَلّىٰ سَعىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لا يُحِبُّ الفَسادَ﴾**[٣]

ثم تطرقﷺ إلىٰ الصنف الثاني «**و منهم المصلت**[٤] **لسيفه والمعلن بشره والمجلب بخيله ورجله**» فقد أعد هذا الصنف من الناس باطنه للظلم والفساد ومحق دينه «**قد أشرط**[٥] **نفسه وأوبق**[٦] **دينه**».

ولكن ما هدف هولاء؟ لا شك أن هدفهم ما أشار إليه الإمامﷺ وليس ذاك سوىٰ الحصول علىٰ شيئ من متاع الدنيا أو الأمرة علىٰ بعض الأفراد او إرتقاء المنبر ليظهر نفسه للناس بمظهر الخطيب الواعظ «**لحطام**[٧] **ينتهزه**[٨]**، أو مقتب**[٩] **يقوده، أو منبر يفرعه**[١٠]».

---

١. «كلالة» على وزن ضلالة بمعنى ضعف السلاح عن القطع فيقال كل السيف إذا لم يقطع.

٢. «نضيض» بمعنى قليل، والنضيض وفره، بمعنى القليل ماله.

٣. سورة البقرة / ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

٤. «مصلت» من مادة «صلت» بمعنى الاظهار والسيف الصلت بمعنى السيف المشهور المصقول، ويقال المصلت لمن شهر سيفه

٥.) أشرط من مادة شرط بمعنى العلامة، ومعنى العبارة أنه أعد نفسه للفساد والاهلاك، وكانه ميز نفسه بهذا الامر.

٦. «أوبق» من مادة «وبق» بمعنى الهلاك، أي أهلك نفسه.

٧. «الحطام» علىٰ وزن الغلام بمعنى المتكسر الذي لا قيمة له، ومن هنا يطلق علىٰ المال حطام الدنيا لزهادة قيمته.

٨ «ينتهزه» من مادة «نهز» بمعنى الحركة من أجل القيام بعمل،كما وردت بمعنى الحركة من أجل نيل غنيمة، وعليه ينتهزه بمعنى يغتنمه.

٩. «مقتب» على وزن محور تعني طائفة من الخيل، وقد وردت في العبارة بمعنى طائفة من الناس، ولعل العبارة أشارة لجهلهم وعدم علمهم.

١٠. «يفرع» من مادة «فرع» أعلى الشيُ وقد وردت هنا بمعنى علا المنبر وارتقاه.

فالعبارة رغم قصرها فقد أشارت إلى أعمالهم الظاهرية إلى جانب فسادهم الباطني واهدافهم الرخيصة، فهؤلاء الأفراد يستفرغون ما في وسعهم ليصبحوا على غرار فرعون أو قارون أو السامري. وما أولئك الذين أججوا نيران الجمل وصفين إلّا مصاديق بارزة لذلك الصنف من الأفراد، فالبعض اندفع من أجل المال وآخر من أجل المقام والمنصب والآخر من أجل الخلافة. ثم تطرق عليه‌السلام إلى نتيجة أعمال هؤلاء فقال «**و لبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنا، ومما لك عند الله عوضا**»، ومن الطبيعي أنّ هذا الصنف من الناس الفاسد والشرير ـ الذي يخبط خبطا عشواء من أجل الظفر بالمال والمقام ـ لا يقيم لأحكام الله وزنا ولا يصغي لصوت الضمير والوجدان ولا ينقاد لدليل العقل، فقد باع هذا الخزين الثمين بذلك الثمن البخس، باع الدين بالدنيا ﴿**أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدىٰ فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ**﴾[1].

بينما تظافرت الروايات التي تؤكد على قيمة الإنسان وأنّه لا ينبغي له بيع نفسه إلّا بثمنها وثمنها الجنّة. كما صرحت الآيه القرآنية بأن بيع النفس بغير الجنّة ورضى الله لا يستبطن سوى الخسران المبين ﴿**وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللّٰهِ وَاللّٰهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبادِ**﴾[2].

فالآية تفيد أنّ بعض الناس (كعلي عليه‌السلام الذي نام على فراش رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله ليلة الهجرة) يبيعون أنفسهم من أجل رضى الله سبحانه. وقد ورد عن الإمام علي عليه‌السلام أنّه قال: «**إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلّا الجنّة فلا تبيعوها إلّا بها**»[3].

ثم تعرض عليه‌السلام للصنف الثالث الذي يتصف بالتزوير ـ وأوضح صفاته «**و منهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا**».

فهدف هذا الصنف هو ذات الهدف الذي ينشده الصنف الثاني المذكور مع فارق بسيط هو أنّ أولئك يجنون حطام الدنيا من خلال المنطق الغاشم والظالم والجور، بينما يعتمد هؤلاء على التزوير والخداع والغرور.

---

١. سورة البقرة / ١٦.
٢. سورة البقرة / ٢٠٧.
٣. نهج البلاغة، الكلمات القصار ٤٥٦.

فالصنفان وإن كانا ضالين ظالمين وخاطئين، إلّا أنّ حال هذا الصنف أسوأ من الصنف الذي سبقة؛ وذلك لأنّه جعل دين الله جسراً لدنياه، وعليه فقد أهلكوا دنيا الآخرين إلىٰ جانب إهلاك دينهم.

آنذاك خاض الإمام عليه السلام في صفات هذا الصنف «**قد طامن[١] من شخصه، وقارب من خطوه، وشمر[٢] من ثوبه، وزخرف من نفسه للامانة، واتخذ ستر الله ذريعة إلىٰ المعصية.**»

فالعبارة تشير إلىٰ ظاهر متواضع وسكين ووقار وعدم إلتفات إلىٰ الدنيا وحطامها والتزين بشعار الصالحين واستغلال ستر الله سبحانه للعيوب في حين هنالك حركة نحو الذنب والمعصية.

وقد يؤمن هذا الصنف بالله واليوم الآخر على مستوى الظاهر، إلّا أنّ هذا الإيمان يقتصر على الظاهر ولم يخترق قلوبهم أبداً، وإلّا فكيف إرتضوا لأنفسهم هذه المعاملة المجحفة بحيث باعوا آخرتهم بدنياهم ومن هنا وردت الروايات التي تصرح بأنّ هؤلاء الخاسرين يوم القيامة ـ حين تطرح الحجب وتتضح حقيقة كل فرد كما هي ـ ينادون يا كافر!

يا فاجر! يا غادر! يا خاسر! وينادون «**حبط عملك وبطل أجرك فلا خلاص لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له**»[٣].

ومّما لاشك فيه أن هذا الصنف ـ كسائر الأصناف الأربعة ـ لايقتصر في وجوده علىٰ عصر الإمام عليه السلام، بل هو موجود في كل عصر و مصر وأنّه لأعظم خطراً من سائر الأصناف علىٰ دين المجتمع ودنياه.

وعليه فلابدّ لاتباع الحق من مراقبة هؤلاء والحذار من الوقوع في فخهم ولحسن الحظ فانّ أغلب هولاء الأفراد يفتضحون عملياً فاذا بلغوا مفترق طرق بين الدين والدنيا ولوا ظهورهم للدين وتهافتوا علىٰ الدنيا وآثروا سخط الله علىٰ رضى خلقه طمعاً في الدنيا

---

١. «طامن» و«اطمينان» من مادة واحدة بمعنى السكينة والهدوء، وهى تشير في العبارة إلىٰ الوقار والتواضع الصوري والظاهري.

٢. «شمر» من مادة «شمر» بمعنى الترتيب والاعداد.

٣. وسائل الشيعة ١ / ٥١.

وحطامها، فأفكارهم منحطة وهمتهم وضيعة وروحهم ملوثة وباطنهم قبيح والازدواج هو الغالب علىٰ شخصيتهم.

وأخيرا يتعرض الإمام ﷺ للصنف الرابع ـ أهل التقى الكاذب والزهد الفارغ ـ فيقول «**ومنهم من أقعده عن طلب الملك ضؤولة**[1] **نفسه، وإنقطاع سببه فقصرته الحال على حاله، فتحلى باسم القناعة، وتزين بلباس أهل الزهادة وليس من ذلك في مراح**[2] **ولا مغدي**».[3]

فهم أفراد ضعفاء عجزة لا كفاءة لهم يحاولون التستر بالزهد للتغطية على عجزهم وانعدام جدارتهم والتظاهر بالقوة لاخفاء ضعفهم، والحال ليس لديهم شمة من الزهد والقناعة باطنهم وهم على قسمين: فمنهم من يتستر لخداع النفس ومنهم يخدع نفسه محاولاً إقناع نفسه بأنّه من أهل الزهد والتقوى لا الضعف والعجز يدفعه للتظاهر بذلك. أمّا المراح والمغدي فقد ذهب أغلب أرباب اللغة وشرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّها اسم مكان لاستقرار الماشية في الصباح والمساء بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّها اسم زمان بمعنى الذهاب والاياب ليل نهار.

كيفما كان فان المفردتين تعبران عن حماقة هؤلاء الأفراد وبلاهتهم التى تجعلهم بهيئة الزهد والقناعة. هناك كلام كثير بين بين المفسرين بشأن فارق الصنف الرابع والأول من جهة والصنف الرابع والثالث من جهة أُخرى.

ويبدو أنّ الصنف الأول الذي ينشد الدنيا قد قبع فى زاوية إثر ضعفه وعجزه ولم ينطلق نحو المال والحياه والمقام، وهو لا يصر على ابراز ضعفه وعجزه على أنّه قوة وإقتدار، فى حين يحاول الصنف الرابع أستغلال ضعفه وعجزه بغية الظفر بمكانته فى المجتمع على أنّ ذلك الضعف زهد وقناعة. أمّا فارق الصنف الرابع مع الصنف الثالث هو أنّ الصنف الثالث يعتمد النفاق والتزوير لتحقيق أطماعه ومآربه، بعبارة أُخرى ما يجنيه الظلمة من حطام الدنيا بواسطة الظلم والجور يحصل عليه هؤلاء من خلال الرياء وخداع الناس.

---

١. «ضوولة» بمعنى الضعف و العجز.
٢. «مراح» من مادة «روح» مصدر ميمي من راح إذا ذهب في العشي
٣. «مغدى» من مادة «غدو» مصدر ميمي من غدا إذا ذهب في الصباح، وقيل مكان الحيوانات في النهار في مقابل المراح في الليل.

فهم يبيعون دينهم بدنياهم ويحصلون على الدنيا ومتاعها من خلال الدين، أمّا الصنف الرابع فهو لا يحصل علىٰ جاه ومقام، ويكتفي بأن المجتمع ينظر إليه كزاهد قانع.

وأخيراً يشترك الصنف الأول والرابع في أنّه ليس أقل تكالباً من الصنفين الآخرين إذا ما توفرت الأرضية الخصبة أمامهما للظلم والفساد.

الأصناف الأربعة في كل مجتمع.

لقد أماط اللثام عن حقيقة هذه الأصناف الأربعة ولفت إنتباه المجتمع إلىٰ الأخطار التي تفرزها حركتها في المجتمع بفعل فسادها وظلمها وريائها وزهدها الكاذب، ثم خاض ﷺ في صفات كل صنف ليتعرف عليه أفراد المجتمع فلا يقعوا في شباكهم.

وتشترك هذه الأصناف جميعاً في الفساد العقائدي والتعلق بالدنيا والجاه والمقام، إلّا أنّها تختلف في إعداد الأسباب والمقدمات التي تمكنها من الوصول إلىٰ أهدافها، وبعبارة أُخرى فانّ الأصناف الأربعة يمكن تقسيمها إلىٰ طائفتين:

طائفة تحقق أهدافها الرخيصة عن طريق الرياء والتزوير: وطائفة لا تحقق أهدافها إلّا أنّها تخفي هذا الفشل في الزهد والقناعة. ولو تأملنا التأريخ لرأينا هذه الأصناف في كل عصر ومصر.

وممّا يؤسف له اليوم أنّ المجتمعات الإسلامية هي الأُخرى تشهد تغلغل هذه الأصناف؛ الأمر الذي جر عليها الويلات والمصائب. والحق ليس هنالك من وسيلة للحد من أخطار هذه النماذج سوى في اتباع كلام الإمام ﷺ وتشخيص هولاء الأفراد وفضح مخططاتهم ومؤامراتهم وتحذير الأُمّة من الوقوع في شباكهم أو الاغترار بزهدهم الكاذب.

ﮰﮯ

القسم الثالث

«وَبَقِيَ رِجَالٌ غَضَّ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ وَأَرَاقَ دُمُوعَهُمْ خَوْفُ الْمَحْشَرِ، فَهُمْ بَيْنَ شَرِيدٍ نَادٍّ، وَخَائِفٍ مَقْمُوعٍ وَسَاكِتٍ مَكْعُومٍ وَدَاعٍ مُخْلِصٍ وَثَكْلَانَ مُوجَعٍ قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ وَشَمِلَتْهُمُ الذِّلَّةُ فَهُمْ فِي بَحْرٍ أُجَاجٍ أَفْوَاهُهُمْ ضَامِزَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، قَدْ وَعَظُوا حَتَّى مَلُّوا وَقُهِرُوا حَتَّى ذَلُّوا، وَقُتِلُوا حَتَّى قَلُّوا».

٨٠٣

الشرح والتفسير

الصنف الخامس: أولياء الله

بعد أن فرغ الإمام ﷺ من ذكر الأصناف الأربعة، تطرق إلىٰ الصنف الخامس، وهم أولياء الله وجنود الحق وأخيار الأُمّة الذين اقصوا عن المجتمع وعادوا غرباء فيه بفعل تسلم زمام الأُمور من قبل الأصناف الأربعة المذكورة.

وقد لفت الانتباه إلىٰ عظمتهم بالتعبير عنهم بالرجال، بينما عبر عن الأصناف الأربعة بالناس.

والحق أنّ الإمام ﷺ يرى الصنف الخامس هو محور المجتمع ويحث أتباعه لان يكونوا ضمن هذا الصنف. فقد قال ﷺ: «**وبقي رجال غض أبصارهم ذكر المرجع وأراق دموعهم خوف المحشر**».

وقوله: «**غض أبصارهم**» لايراد به إغماض العين، بل النظرة الشمولية والشعور بمسؤوليتهم تجاه الله سبحانه ويوم القيامة، الشعور الذي إرعش قلوبهم وأراق دموعهم. فليس هنالك أكثر خشية من ذلك اليوم لمن آمن بالله واليوم الآخر ومحكمة العدل الإلهي،

كيف لا وهو اليوم الذي تطرح فيه الحجب وتبلى فيه السرائر وتتمثل الأعمال التي صدرت من الإنسان طيلة عمره فتنتظر الحساب والجزاء.

ويرىٰ بعض شرّاح نهج البلاغة[١] أنّ المرجع في العبارة المذكورة بمعنى القبر والمحشر القيامة، ولكن بالاستناد إلىٰ التعبيرات القرآنية فان المفردتين وردتا بمعنى واحد، وعليه فيبدو الفارق في عدم تكرار اللفظ لا المعنى.

والواقع أنّ هذه التعبيرات قد اُقتبست من الآية القرآنية الشريفة **﴿رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصار﴾**.[٢]

ثم تطرق ﷺ إلىٰ مصير هذا الصنف في المجتمعات التي تسودها الأصناف الأربعة، بحيث لاينجو كل فرد فيه من خمس: النزوح من البلد والتشريد والتغريب، الخوف واللواذ في زاوية، السكوت والصمت، الاشتباك بفعل عدم إعارتهم الاذان الصاغية وسماع كلماتهم الحق أو الدعوة إلىٰ الله باخلاص بعيون باكية وقلوب حرى أملا في التأثير «**فهم بين شريد**[٣] **ناد**[٤] **وخائف مقموع**[٥] **وساكت مكعوم**[٦] **وداع مخلص وثكلان**[٧] **موجع**».

وبالالتفات إلىٰ «**شريد**» وناد من مادة فد بمعنى المنفرد الهارب من الجماعة إلىٰ الوحدة[٨] فانّ العبارات المذكورة إشارة إلىٰ أنّ هولاء الأفراد ليسوا مع بعضهم حتى في المنفى، وكل واحد منهم قد قذف في بقعة؛ فالطغاة يخشون حتى اجتماعهم في المهجر والعبارة «**خائف مقموع**» إشارة إلىٰ أنّ الطغاة لايكتفون بتهديد هؤلاء الأفراد وإرعابهم، بل لايتورعون عن التضييق

---

١. في ظلال نهج البلاغة، الخطبة المذكورة.

٢. سورة النور / ٣٧.

٣. «شريد» من مادة «شرد» بمعنى هروب الناقة، ثم اطلقت على كل من يهرب من قومه.

٤. «ناد» من مادة «ند» بمعنى المنفرد الهارب من الجماعة إلىٰ الوحدة.

٥. «مقموع» من مادة «قمع» بمعنى المقهور والمغلوب، وتعني الاقتلاع أيضاً.

٦. «مكعوم» من مادة «كعم»، كعم البعير بمعنى شد فاه، ثم اتسعت لتطلق علىٰ كل فم يشد.

٧. «ثكلان» من مادة «ثكل» بمعنى فقد الاحبة، كما وردت بالنسبة للإنسان الذي يعيش العزاء بمعنى الشخص الباكي الحزين.

٨. شرح نهج البلاغة محمد عبده والعلامة الخوئي وابن أبي الحديد.

عليهم واستئصال شأفتهم واجتثاث جذورهم.

والعبارة «**ساكت مكعوم**» أنّ الظلمة لايقتنعون بصمت هؤلاء الأفراد وسكوتهم، بل يسعون دائمًا لكم أفواههم دون أن ينبسوا ببنت شفة.

والعبارة «**داع مخلص**» لا تفيد دعوة الناس من أجل نيل المقام والثروة أو ليست هي دعوة دنيوية، بل الدافع من هذه الدعوة هو رضى الله وقيل بل المراد بالعبارة والداعي المخلص من يدعو الناس إلىٰ الله والارتقاء بالمجتمع.

وأخيراً تشير العبارة «**ثكلان موجع**» إلىٰ أنّ الحزن والآسىٰ، يخترق ظاهرهم ليعيشوه في قلوبهم وأرواحهم. ثم عرض ﷺ إلىٰ سائر صفاتهم بعبارات قصيرة بعيدة المعاني يتخللها الاسىٰ والأسف فقال ﷺ: «**قد أخملتهم**[1] **التقية**».

فهؤلاء وإن كانوا مجاهدين أشداء، ولكن لما كان جهادهم لاينطوي سوىٰ على أبادتهم فلم يعد أمامهم من سبيل سوىٰ اللجوء إلىٰ التقية؛ التقية التي تؤدي بهم في خاتمة المطاف إلىٰ العزلة والانطواء ليراهم الأعداء علىٰ أنهم أفراد جبناء، كما يراهم الأصدقاء خاملين ليسوا بذات قيمة، والحال أنّ الظروف تجعل من تقيتهم جهاداً ونهوضاً بالوظيفة «**وشملتهم الذلة**» هم **أعزة عند الله وفي أنفسهم إلّا أنّ غياب القيم والمثل في المجتمع جعله يراهم ضعفاء أذلة** «**فهم في بحر أجاج**».[2]

كيف لايعومون في بحر مالح لايسعهم شرب ماء والأُمّة لم تقف إلىٰ جانبهم وتدعم نهضتهم «**أفواههم ضامزة**[3]**، وقلوبهم قرحة**».

ليس هنالك من قلق لدىٰ الأفراد الذين يعيشون اللاأبالية في مثل هذه المجتمعات، ولايقلقهم سوى منافعهم الشخصية، أمّا المجاهدون الذين تكف أفواههم بالقوة، إنّما يتحرقون ألماً وقلوبهم تشعر عمق الفاجعة ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة[4] إلىٰ أنّ المراد بقلوبهم قرحة أنّها تخاف الله، بينما تشير قرينة الكلام إلىٰ أنّ قروح قلوبهم إنّما تعزىٰ الىٰ الفساد الذي

---

١. «أخمل» من مادة «خمل» بمعنى أسقط ذكره حتى لم يعد له بين الناس نباهة.

٢. «اجاج» من مادة «أجج» بمعنى الملوحة والمرارة.

٣. «ضامزة» من مادة «ضمز» بمعنى السكوت والتحفظ عن الكلام

٤. شرح نهج البلاغة لابن ميثم، والعلامة الخوئي وفي ظلال نهج البلاغة لمحمد عبده.

لايستطيعون القضاء عليه ولعل هناك من ينسب هذه المفردات من قبيل الضعف والعجز والسكوت والتقية إليهم كنتيجة لأعمالهم وعدم قيامهم في الوقت المطلوب، ومن هنا نبه الإمام عليه السلام إلىٰ إزالة هذا الظن فقال عليه السلام: «**قد وعظوا حتى ملوا، وقهروا حتى ذلوا، وقتلوا حتى قلّوا**».

فقد خاضوا الجهاد على كافة المستويات وبشتى الطرق والاساليب، من خلال الوعظ باللسان إلىٰ جانب النهضة المسلحة وتقديم الضحايا حتى كثر القتل في صفوفهم فقل عددهم، وذلك لأنّه لم يكن لهم نصير و لم يكن هنالك من توازن في القوىٰ مع أعدائهم الذين يفوقونهم عددا وعدة. فقد قاتلوا على أمل تحقيق النصر وإجتثاث جذور الفساد ولم تبق منهم إلّا قلّة لم يكن أمامها سوى التقية حفظا لنفسها ودينها.

والعبارة «**قتلوا حتى قلوا**» لا تعني أنّهم وتروا ولم يبق منهم إلّا القليل، بل تعني أستشهد فريق منهم وبقي فريق آخر، والعبارة من قبيل إسناد أوصاف الجزء إلىٰ الكل.

وهنا يطرح هذا السؤال: الاستضعاف المذكور يتعلق بأي زمان، والإمام عليه السلام كان هو الذي يحكم المجتمع؟ وتأمل تأريخ عصر الإمام عليه السلام يوضح الاجابة علىٰ هذا السؤال، كما ورد ذلك في بعض كلماته من أنّ الفساد الاجتماعي كلمة في عصره بلغ درجة بحيث خفت شعاع شمس حكومة الإمام عليه السلام في الكوفة وأطرافها، وقد اجتمعت لكمة سائر المناطق من قبيل الشام ومصر التي عاشت ذروة الشر والفساد والانحراف على إقصاء الصالحين عن مرح الأحداث.

القسم الرابع

«فَلْتَكُنِ الدُّنْيا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثالَةِ الْقَرَظِ وَقُراضَةِ الْجَلَمِ وَاتَّعِظُوا بِمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَارْفُضُوها ذَمِيمَةً، فَإِنَّها قَدْ رَفَضَتْ مَنْ كانَ أَشْغَفَ بِها مِنْكُمْ».

الشرح والتفسير

الاتعاظ بالماضين

يدعو الإمام عليه السلام الناس في ختام هذه الخطبة بعبارات مقتضبة بعيده المعاني إلىٰ الزهد في الدنيا بصفته مفتاح سعادة الإنسان بعد أن ذكر صفات الأصناف الأربعة الأثيمة والصنف الخامس الذي يمثل الاتقياء من أولياء الله، مؤكدا علىٰ أن البؤس والشقاء الذي طال الأصناف الأربعة إنّما يستند إلىٰ حب الدنيا والتعلق بزخارفها.

فقال عليه السلام: «**فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة**[1] **القرظ وقراضة**[2] **الجلم**[3]».

والتشبيهات رائعة غاية في الدقة، فالقرظ (على وزن مرض) بمعنى ورق الأشجار الذي يستفاد منه لدبغ الجلود حتى يشدها ويجعلها أكثر فائدة، وبالطبع فإن الحثالة التي تطرح بعد الاستفادة تكون قذرة ومتعفنة ومدعاة للنفرة، وكذلك حين تقص أصواف الحيوانات تطرح بعض القطعات الصغيرة منه على الأرض دون أن يكون لها أدنى فائدة. فالتشبيه الأول

1. «حثالة» بالضم: القشاوة وما لاخير فيه، وأصله ما يسقط من كل ذي قشر، ومن هنا تطلق الحثالة علىٰ حثاشة الدهن المتساقطة.
2. «قراضة» من مادة «قرض» بمعنى قطف الشيء وتطلق علىٰ القطع الصغيرة المتناثرة من المقراض ومن هنا يطلق المقراض علىٰ المقص.
3. «جلم» علىٰ وزن قلم بمعنى المقراض.

استبطن النفرة والثاني التفاهة وعدم القيمة والاعتبار، والإمام ﷺ يوصي بأن تكون الدنيا أهون من هذا في الأعين، الدنيا التي أدىٰ عشق أموالها إلىٰ ظهور القوارين، وعشق مناصبها إلىٰ ظهور الفراعنة والطواغيت الظلمة، وأنّ حبّها رأس كل خطيئة.

من جانب آخر فقد أشار ﷺ إلىٰ قصر مدة الدنيا وضرورة الاتعاظ بها «**واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم**».

لقد جمعوا لها وجهدوا من أجلها وانصرفوا، ولم تعد قصورهم الخاوية وتيجانهم البالية وقدراتهم الجوفاء التي خلفوها هنا وهناك سوىٰ عبرة لمن اعتبر. فان اعتبر بها فهو المطلوب، وإلّا ستكونون أنتم عبرة يعتبر بكم من يأتي بعدكم.

القرآن الكريم من جانبه لم ينفك عن دعوةالناس للاعتبار بالماضين، فقد أورد عبارات توقظ الضمير وتهز الاعماق بشأن الفراعنة وضرورة الاتعاظ بهم **﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ * كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ * فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ﴾**[1]

غير أنّه من المؤسف أن بني إسرائيل لم يعتبروا بهذه الدروس حتى أصبح مصيرهم عبرة لغيرهم.

ثم قال ﷺ: وارفضوها ذميمة، فانّها قد رفضت من كان أشغف[2] بها منكم».

ومن الطبيعي أن يكون مراد الإمام ﷺ بهذه الدنيا المذمومة هي الدنيا التي تقود صاحبها إلىٰ الظلم والطغيان والهوىٰ والفساد لا الدنيا التي تشكل الجسر لعبور أولياء الله إلىٰ الآخرة.

كلام السيد الرضي

قال الشريف الرضي: وهذه الخطبة ربما نسبها من لاعلم له إلىٰ معاوية، وهي كلام أميرالمؤمنين ﷺ الذي لايشك فيه، وأين الذهب من الرغام، وأين العذب من الاجاج! وقد دل علىٰ ذلك الدليل الخريت ونقده الناقد الباصر عمرو بن بحر الجاحظ، فانّه ذكر هذه الخطبة

---

١. سورة الدخان / ٢٥ ـ ٢٩.

٢. «أشغف» من مادة «شغف» بمعنى أكثر تعلق بالدنيا و حبالها. وقد أخذت في الأصل من شغاف وهو الغلاف الذي يضم القلب، كما تستعمل في العشق الشديد الذي يجتاح القلب وينفذ إلى أعماقه.

في كتاب البيان والتبيين وذكر من نسبها إلىٰ معاوية، ثم تكلم من بعدها بكلام في معناها، جملته أنّه قال: وهذا الكلام بكلام علي عليه السلام أشبه، وبمذهبه في تصنيف الناس، وفي الأخبار عما هم عليه من القهر والاذلال، ومن التقية والخوف، أليق. قال: ومتى وجدنا معاوية في حال من الأحوال يسلك في كلامه مسلك الزهاد ومذهب العباد.

الدنيا في عين أولياء الله.

ماورد في الخطبة بشأن الأصناف الخمسة في عصر الإمام ﷺ (من يقعد به عن طلب الإمرة قلّة ماله، ومن يطلب الامارة ويفسد في الأرض، ومن يظهر ناموس الدين ويطلب به الدنيا، ومن لامال له أصلاً ويطلب الملك ولايطلب الدنيا، وأولياء الله الاتقياء الأبرار) لا يقتصر علىٰ عصر الإمام ﷺ وزمانه، وهم متواجدون في كافة المجتمعات الماضية والمعاصرة والآتية، وإنّ كافة المشاكل التي تعاني منها المجتمعات إنّما تنشا من الأصناف الأربعة المذكورة، التي سفكت الدماء وأحرقت الاخضر واليابس وجرعت اتباع الحق صنفوف الأذىٰ والعذاب.

مع ذلك فان الدنيا لم تف لهم وقد أتت عليهم حتى آخرهم ليكونوا عبرة لمن بعدهم.

أما العبارات التي أوردها الإمام ﷺ بشأن كل صنف وعلاماته وصفاته جعلت من اليسير التعرف عليهم.

ولما كان حبّ الدنيا والتعلق بحطامها هو مصدر الشر والفساد الذي سلكته هذه الأصناف، فانّ الإمام ﷺ إختتم خطبته بتصوير حقيقته الدنيا بما يجعل العاقل لا يعيرها أدنى أهمية، فقد وصفها باديٰ ذي بدء بانها اتفه من حثالة القرظ (وهو ما يسقط من ورق السلم أو ثمر السط يدبغ به ممّا لاخير فيه ولا قيمته له)، ثم أشار إلىٰ تقلب حال الدنيا وعدم دوامها وكيف قضت علىٰ الماضين وجعلتهم عبرة للآخرين.

فقد ورد في حديث أن رسول الله ﷺ مر بجثة حيوان متعفنة ملقاة علىٰ الطريق فأومأ إليها قائلاً: أترون هذه هنية علىٰ أهلها؟ فو الله الدنيا أهون علىٰ الله من هذه على أهلها» ثم واصل ﷺ حديثه عن الدنيا قائلاً: الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له وشهواتها يطلب من لافهم له وعليها يعادي من لا علم له وعليها يحسد من لا فقه له ولها يسعى من لايقين له»[1].

---

١. بحار الانوار ٧٠/ ١٢٢.

وجاء في حديث أن الدنيا مثلت للمسيح عليه السلام كعجوز شمطاء فسألها: كم تزوجت.

قالت: كثير. كلهم طلقت. قالت: بل كلهم قتلت. قال عليه السلام: يا ويح أزواجك الباقين، ألا يتعظون بازواجك الماضين[1]».

٭٭٭

١. منهاج البراعة ٤ / ٥٨؛ بحار الانوار ١٤ / ٣٢٨.

الخطبة[1] ٣٣

ومن خطبة له ﷺ

عند خروجه لقتال أهل البصرة، وفيها حكمة مبعث الرسل، ثم يذكر فضله ويذم الخارجين.

قال عبد الله بن عباس: دخلت على أمير المؤمنين ﷺ بذي قار وهو يخصف[2] نعله فقال لي: **«ما قيمة هذا النعل؟»**.

فقلت: **«لا قيمة لها!»** فقال ﷺ: **«و الله لهي أحب إليّ من أمرتكم[3] إلّا أنت أقيم حقا أو أدفع باطلاً»**. ثم خرج فخطب الناس.

نظرة إلى الخطبة.

أورد الإمام ﷺ هذه الخطبة في ظل ظروف دعا فيها أصحابه للتعبئة وإطفاء نار الفتنة التي

---

١. روى السيد الرضي (ره) هذه الخطبة في مرضعين من نهج البلاغة: مرة هنا و أخرى في الخطبة ١٠٤ حيث قال هناك: وقد مر جانب من هذه الخطبة (إشارة إلى هذه الخطبة ٣٣) وقد ذكرتها ثانية بسبب إختلاف بعض العبارات. قال صاحب مصادر نهج البلاغة: ومن هنا يتضح مدى إحتياط السيد الرضي في نقل كلمات أمير المؤمنين ﷺ. ثم قال: يفهم من رواية الشيخ المفيد في الإرشاد أنّ الإمام ﷺ خطبها في الربذة حيث توقف هناك جمع من حجاج بيت الله وقد تجمعوا حين سمعوا بالإمام ﷺ ليصغوا إلى كلامه ولم يكن الإمام ﷺ قد خرج من خيمته. قال إبن عباس دخلت الخيمة فرأيت الإمام ﷺ يخصف نعله. فقال: يابن عباس: ما قيمة هذا النعل؟ فقلت: لا قيمة لها. قال: قل. قلت: أقلّ من درهم. قال: والله، لهي أحب إليّ من إمرتكم، إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا. فقلت: لقد إجتمع حجاج بيت الله ليسمعوا ما تقول. هلا أذنت لي أن أخطبهم؟ قال ﷺ: لا أنا أحدّثهم. فخرج من الخيمة فخطب بهذه الخطبة (مصادر نهج البلاغة، ١/ ٤٢١ ـ ٤٢٢).
قال صاحب المستدرك ومدارك نهج البلاغة رواها الشيخ المفيد في كتاب الإرشاد، المستدرك، ص ٢٤٢.

٢. «يخصف» من مادة «خصف» بمعنى وصل الأشياء ورقعها.

٣. «إمرة» على وزن فطرة بمعنى الحكومة.

أشعلها طلحة والزبير في البصرة.

وقد أطلق الإمام عليه السلام ـ قبل إيراد الخطبة ـ تلك العبارات التاريخية الخالده لابن عباس؛ العبارات التي تتحدث عن سمو روح الإمام عليه السلام ومقامه الشامخ ومدىٰ معرفته بالله سبحانه، فقد قال عليه السلام «**والله لهي ـ النعل ـ أحب إلي من إمرتكم الا أن أُقيم حقا أو أدفع باطلاً**».

هذه هى أهداف الإمام عليه السلام من الامرة والخلافة. ثم ينتقل الإمام عليه السلام إلىٰ بيان خصائص العصر الجاهلي وانبثاق الدعوة الإسلامية، في اشارة إلىٰ بروز مبادئ العصر الجاهلي ثانية وانه لابدّ أن يقتفي آثار رسول الله صلى الله عليه وآله ويقتدي بهديه فيقبر الفتن ويبقر الباطل ليخرج منه الحق.

ثم إختتم عليه السلام الخطبة بذم طائفة من قريش ممن أشعلوا نار الجمل ولم تكن دوافعهم من تلك المعركة سوىٰ الحسد والبغض وحب الدنيا.

القسم الأول

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّداًﷺ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَاباً وَلاَ يَدَّعِي نُبُوَّةً فَسَاقَ النَّاسَ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ وَبَلَّغَهُمْ مَنْجَاتَهُمْ فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ وَاطْمَأَنَّتْ صَفَاتُهُمْ ـأَمَا وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَفِي سَاقَتِهَا حَتَّى تَوَلَّتْ بِحَذَافِيرِهَا مَا عَجَزْتُ وَلاَ جَبُنْتُ وَإِنَّ مَسِيرِي هَذَا لِمِثْلِهَا: فَلَأَنْقُبَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى يَخْرُجَ الْحَقُّ مِنْ جَنْبِهِ».

الشرح والتفسير

دحر الباطل

أشار الإمام ﷺ ـكما ذكرنا ـإلىٰ بعثة النبي الإكرم ﷺ وظهور الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية وكيف كانت حياة الناس في العصر الجاهلي وكيف أصبحت إبان انطلاقه الدعوة، ومدىٰ السعادة التي ظفروا بها، فقال ﷺ:«**إنّ الله بعثت محمداً ﷺ وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة**».

أثار بعض شرّاح نهج البلاغة هذا السؤال: كيف يقال لم يكن لاحد من العرب كتاباً سماوياً ولم يكونوا يتبعون نبياً من الأنبياء، والحال كانت طائفة من اليهود والنصارى تعيش هناك ولديها التوراة و الانجيل؟ ثم أجابوا علىٰ السؤال من خلال الاشارة إلىٰ تحريف التوراة والانجيل، وعليه فلم يكن لديهم كتاباً بالحق، كما أن اليهود والنصارى كانوا أتباعاً كاذبين، ثم إستدلوا على ذلك بالاية الكريمة **﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسىٰ نُوراً وَهُدىً لِلنّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾**[1]

---

١. سورة الانعام / ٩١.

كما إحتمل البعض أن يكون المراد بذلك العرب الذين كانوا يشكلون الأكثرية وكانوا علىٰ الشرك والوثنية.

الإجابة الأُخرىٰ التي يمكن الرد بها على ذلك السؤال أنّ اليهود لم يكونوا من سكنة الجزيرة العربية بمعنىٰ المواطنة، بل تفيد السير التأريخية أنّهم حين قرأوا في كتابهم البشارة بظهور نبي الإسلام وأنّ ظهوره بات وشيكا قدموا هناك لدركه، وإن شعروا في ما بعد بالخطر علىٰ مصالحهم فسلكوا سبيل النفاق وعادوا النبي ﷺ. النصارى أيضاً كانوا من المهاجرين ويشكلون الاقلية هناك.

على كل حال فانّ الإمام ﷺ أشار إلىٰ إبتعاد الأقوام الجاهلية عن أجواء الوحي والنبوة، الأمر الذي يصور مدىٰ غرقهم في وحل الشرك والفساد.

ثم تطرق ﷺ إلىٰ الأوضاع التي بلغوها في ظل إنبثاق الدعوة والاستضاءة بنور الوحي وبزوغ شمس الإسلام «**فساق الناس حتى بوأهم محلتهم وبلغهم منجاتهم**»[١] فهو لم يخلصهم من الشرك والكفر و الانحراف العقائدي وينقذهم من الفساد الأخلاقي والظلم والجور وسوء العدل فحسب، بل أخذ بيدهم إلىٰ حيث القوة والعزة والحكومة والحضارة والمدنية، ومن هنا قال ﷺ «**فاستقامت قناتهم**[٢] **واطمأنت صفاتهم**[٣]».

وعليه فقد ظفروا بالنصر المعنوي إلىٰ جانب شمولهم بالنعم المادية و ما ذلك إلّا ببركة النبي ﷺ ونزول القرآن الكريم والتعبير بمحلتهم إشارة إلىٰ المنزلة الراقية التي ينبغي أن يبلغها الإنسان الفاضل، ومنجاتهم إشارة إلىٰ نقطة النجاة التي ليس معها خوف وخشية ولا قستبطن سوىٰ الفلاح والصلاح.

والعبارة «**إستقات قناتهم**» وعلى اضواء الاستقامة التي تعني الاستواء والثبات والقناة بمعنى الرمح تعني القوة والقدرة والانتصار علىٰ العدو.

---

١. «بوأ» من مادة «بوء» بمعنى تعبيد المكان ضد النبوة بمعنى المرتفع وغير المعبد، وقد وردت هنا بمعنى تنظيم وترتيب موقع الاستقرار.

٢. «قنات» من مادة «قنو» بمعنى جذع الشجرة، كما تغني العود والرمح، والمراد بها هنا القوة والغلبة والدولة، وقوله إستقامت قناتهم تمثيل لاستقامة أحوالهم.

٣. «صفات»، حجر مستوي وكبير ومحكم وواسع.

أمّا بعض شرّاح نهج البلاغة فقد ذهب إلىٰ أنّ الاستقامة هنا تشير إلىٰ الرمح كناية عن أنتظام الأُمور ونظم الحكومة والدولة والمجتمع والقوة والمنعة، ولكن لما كان الرمح عادة مستقيم وإذا إعوج كسر ولا يمكن تسويته (لأنّه يصنع عادة من الخشب لا الفزات)، فانّ العبارة يمكن أن تكون إشارة إلىٰ اطمينان البال واستقرار الذهن؛ لانّ الجنود يغرسون حرابهم في الأرض وتبقى مستوية مستقيمة حين الهدوء والاستقرار؛ الأمر الذي يفيد أنّهم كانوا آمنين من حملات العدو.

أمّا العبارة «**إطمأنت صفاتهم**» فهي تشير إلىٰ إستحكام منزلتهم في ظل ظهور الإسلام ونهضة رسول الله ﷺ بحيث إستقرت حياتهم الفردية والاجتماعية.

فالصحارى التي كانت تردد عليها العرب، كانت مليئة بالرمال والحصى المتحركة بحيث يصعب إجتيازها، بينما تسهل حركته وذهابه وايابه وجلوسه إذا إستقر علىٰ حجر كبير واسع ومحكم ومستقيم.

ثم قال ﷺ: «**أمّا والله إن كنت لفي ساقتها[1] حتى تولت بحذا فيرها[2]**».

ففي الاوضاع التي يكون فيها الجيش مستجد أو العدو قوي بحيث يحتمل التقهقر والانسحاب، فان آمر الجيش يجعل بعض مساعديه الشجعان في المؤخرة ليسوقوا الجيش إلىٰ الإمام ويحثونهم على التقدم كما يحولوا دون تراجعهم.

وكأنّ الإمام ﷺ أشار إلىٰ هذه المسألة في أن النبي ﷺ قلدني مسؤولية في سوق الجيش إلىٰ الإمام وتجاوز المخاطر والمشاكل التي تواجهه، أو المراد أنّي والنبي ﷺ في موخرة هذا الجيش ونسوقه إلىٰ الإمام وقرينة ذلك قوله فساق الناس» على كل حال فانّ كل هذه إشارات إلىٰ عصر نهضة النبي الإكرم ﷺ والدور الهام الذي لعبه الإمام علي ﷺ في إنتصار الجيش الإسلامي علىٰ معسكر الكفر والشرك.

---

١. «ساقه» من مادة «سوق» جمع سائق، واصلها سوقه واصحب ساق بيت الاعلال.
٢. «حذا فير» جمع حذ فور بمعنى الشريف والجمع الكثير، وقد جاءت هنا بمعنى جميع جوانب الموضوع. وهنا ينبغي الالتفات إلىٰ أن. ضمير الهاء في ساقتها يعود إلىٰ الناس في عصر الجاهلية الذين إعتنقوا الإسلام، ويمكن أن يكون الضمير في تولت وحذا فيرها عائدا إلىٰ أعداء الإسلام الذين تقهقروا ابان نصر الإسلام، كما يمكن أن يعود إلىٰ أهل الجاهلية الذين أقبلوا علىٰ الإسلام.

وفي إشارة إلىٰ قيامه بوظيفته على أحسن وجه وبلائه الحسن قال **«ما عجزت ولاجبنت»** فمن البديهي أنّ الانسحاب إنّما يستند إلىٰ الضعف والعجز أو الخوف والرعب، فقوله ﷺ **«ما عجزت ولا جبنت»** يتضمن نفيه لعوامل الضعف والتقهقر.

ثم يربط ﷺ هذه المقدمة بذي المقدمة فالإمام ﷺ أشار إلىٰ نقطة مهمّة وهي أنّ الأُمّة الإسلامية آنذاك بدأت تعود إلى الافكار والسنن الجاهلية وهي تبتعد كل يوم أكثر من ذي قبل عن مسيرة النبي ﷺ والقرآن والإسلام، ونموذج ذلك الحركة الظالمة لمشعلي نار الجمل من أجل الحصول علىٰ المناصب من خلال نكث البيعة وسفك دماء المسلمين.

فقد أراد الإمام ﷺ الوقوف بوجه هذه العودة إلىٰ الجاهلية وتجديد رسالته ووظيفته التاريخية في الحفاظ علىٰ المسيرة الإسلامية.

ومن هنا قال «**فلا نقبن**[1] **الباطل حتى يخرج الحق من جنبه.**» وبالالتفات إلىٰ أن «**أنقبن**» من مادة «**نقب**» بمعنى ثقب الشيئ وشقه، فانّ العبارة تشير إلىٰ حقيقة هي أنّ الحق لايظهر ما لم تتبدد حجب الباطل، بعبارة أُخرىٰ فانّ الباطل يسعى على الدوام ليغطي علىٰ الحق ويكتمه، فاذا شقت حجب الباطل، تنفس نور الحق واتضح عياناً للجميع. ويمكن أن تكون العبارة إشارة الىٰ قيام أساس العالم على الحق، وإنّ الحق كامن في باطن كل موجود، ولاسيما في الفطرة البشرية، بينما الباطل أمر عارض طارىء علىٰ الإنسان.

فاذا زال هذا العارض ظهر الحق من باطن الأشياء. وقد ورد مثل هذا المعنى في الخطبة ١٠٤ **«وآيم الله لابقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته»**.

تأمّلات

١ـ من أخبار يوم ذي قار

كما ورد في شرح الخطبة فان «ذي قار» موضع بين البصرة والكوفة شهد معركة قبل

---

١. «أنقبن» من مادة «نقب» بمعنى الثقب والشق ويطلق النقب على الآبار تحت الأرض وذلك لأنها تنقب الأرض ـ ومنه البحث والتنقيب حين تأمل المطالب وإظهار الحقائق والنقيب العالم بحال القوم.

الإسلام بين العرب والجيش الساساني الذي هزم في المعركة وانتصر فيها العرب.[١] وقيل في تسميته أنه كان فيها بئراً ماؤه أسود كالقير.

عن ابن عباس، قال: لما نزلنا مع عليّ عليه‌السلام ذا قار، قلتُ: يا أميرالمؤمنين، ما أقلّ مَنْ يأتيك من أهل الكوفة فيما أظنّ! فقال: واللّه لَيأتيَنّي منهم ستة آلاف وخمسمائةٍ وستون رجلاً؛ لا يزيدون ولا ينقصون.

قال ابن عباس: فدخلَني واللّه من ذلك شكٌّ شديد في قوله، وقلت في نفسي: واللّه إن قدِمُوا لأعَدّنّهم.

ثم نفَر إلى عليّ عليه السلام إلى ذِى قار من الكوفة في البحر والبرّ ستةُ آلاف وخمسمائة وستون رجلاً. أقام عليّ بذى قار خمسة عشر يوماً، حتى سمع صهيل الخيل وشحيج البغال حوله. قال: فلما سار بهم منقلة، قال ابنُ عباس: واللّهِ لأعُدّنّهم، فإن كانوا كما قال، وإلّا أتممتُهم من غيرهم؛ فإنّ النّاس قد كانوا سمعوا قوله. قال: فعرضتُهم فو اللّه ما وجدتُهم يزيدون رجلاً، ولا ينقصون رجلاً، فقلت: اللّه أكبر! صدق اللّه ورسوله! ثم سرنا.

لعلَ كلام إبن عباس إشارة إلى أن الإمامﷺ سمع هذه الأمور من رسول اللهﷺ ثم أخبر بها.

قال ابن أبي الحديد بعد ذلك: فلما قدم أهلُ الكوفة على عليّ عليه السلام، سلّما عليه، وقالوا: الحمدُللّه يا أميرالمؤمنين، الّذى اختصّنَا بموازرتك، وأكرَمنا بُنصرتك؛ قد أجبناك طائعين غيرَ مكرهين، فمُرنا بأمرك.

قال: فقام فحمداللّه وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال:

مرحباً بأهل الكوفة، بيوتاتِ العرب ووجُوهها، وأهل الفضل وفرسانها، وأشدّ العرب مودّة لرسول اللّه صلى اللّه عليه ولأهل بيته.[٢]

٢ـ جاهلية العرب

مهما قيل ويقال بشأن عظمة الإسلام وانبثاقه وسط أمّة متخلفة ومتعصبة فهو قليل. فقد

---

١. الكامل لابن أثير ٤٨٢/١.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨٧/٢ ـ ١٨٨ (بتصرف).

إنطوت الأُمّة في العصر الجاهلي علىٰ سلسلة من الانحرافات والصفات الرذيلة، ونكتفي هنا بالاشارة فقط إلىٰ التعصب الذي كان سائدا آنذاك والذي لم يكن يسمح لأفكار الآخرين باختراقه.

ويعتقد أحد المحققين المسيحيين بالارتباط الوثيق بين التعصب الجاهلي ومناخ الحجاز، فيقول: «**تتصف تلك المنطقة بالجفاف، فكانت طبيعة الناس هي الاخرىٰ الصلابة والشدة، وكان من الاعجاز تسلل الأفكار الإسلامية إليه**».

وإذا أضفنا إلىٰ ذلك الجهل والابتعاد عن العلم وهبوط المستوى الفكري والضحالة الثقافية والتلوث بأنواع الخرافات التي تدعو إلىٰ التعصب والعناد لأدركنا حجم الاعجاز في هدايتهم وانتشالهم من تلك الدوامة.

وقد تعرض القرآن الكريم إلى جانب من تلك العصبية، ومن ذلك قوله ﴿**سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ**﴾[1] وقوله ﴿**وَإِذ قالُوا اللّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً...**﴾.[2]

وتشير أسباب نزول مثل هذه الآيات إلىٰ عمق التعصب الذي كان يحكمهم بحيث كانوا مستعدين للتضحية بانفسهم تعصبا حقا إن هداية مثل هذه الاقوام تبدو من المعاجز الكبرى؛ الأمر الذي أشير له في الخطبة المذكورة، وإن عادت تلك الأُمّة للأسف بعد رحيل النبي الإكرمﷺ بمدّة قصيرة إلىٰ جاهليتها الاولىٰ وتسلمت بعض المناصب الحساسة في الحكومة الإسلامية لتذهب جهود النبيﷺ أدارج الرياح، ومن هنا فقد سعى الإمامؑ جاهداً لاعادة الأُمّة إلىٰ عصر الرسالة.

٣ـ حديث خاصف النعل

لقد ورد في بداية الخطبة عبارة «**يخصف نعله**» التي تذكرنا بحديث النبيﷺ بشأن فضائل عليؑ خاصف النعل. حيث جاء في سنن الترمذي أنّ رسول اللهﷺ كان يكلم

---

١. سورة المعارج / ١.
٢. سورة الانفال / ٣.

مشركي قريش فخاطبهم قائلاً: «**لتنتهن أو ليبعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين قد إمتحن الله قلبه للايمان**» فسأله من حضر: ومن ذاك؟ وسأله أبوبكر: من هو؟ وسأله عمر: ومن هو؟ فقال ﷺ: هو خاصف النعل: حيث كان علي عليه السلام يخصف نعلي رسول الله ﷺ... ثم نقل الترمذي عن أبي عيسى أنّه حديث صحيح.[1]

ومن الطبيعي أنّ ذلك العمل الذي صدر من الإمام عليه السلام على عهده وعهد النبي ﷺ إنّما يفيد تواضع الإمام عليه السلام للناس وانصرافه عن الدنيا.

۞

١. صحيح الترمذي ٦٣٤/٥ (طبعة دار إحياء التراث العربي) كما ورد هذا الحديث في كتاب ينابيع المودة/٥٩. وورد في كتب أعلام الشيعة ومنها بحار الانوار، ٣٠٠/٣٢ وإحقاق الحق، ٤٢٥/٦.

القسم الثاني

«مَا لِي وَلِقُرَيْشٍ؟ وَاللّٰهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ! وَاللّٰهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّ اللّٰهَ اخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ، فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا فَكَانُوا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:

أَدَمْتَ لَعَمْرِي شُرْبَكَ الْمَحْضَ صَابِحاً وَأَكْلَكَ بِالزُّبْدِ الْمُقَشَّرَةَ الْبُجْرَا
وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ الْعَلَاءَ وَلَمْ تَكُنْ عَلِيّاً وَحُطْنَا حَوْلَكَ الْجُرْدَ وَالسُّمْرَا».

الشرح والتفسير

مالي ولقريش؟

يشير الإمام عليه السلام هنا إلىٰ طبيعة علاقته في السابق والحاضر بقريش، لأنّه أورد هذه الخطبة علىٰ هامش موقعة الجمل: حيث نعلم بأنّ مؤججي نار الجمل هم طلحة والزبير وسائر الأفراد من قريش الذين خططوا لهذه المعركة بدافع من أحقادهم تجاه الإمام عليه السلام. فقد كانوا يديرون هذه المعركة علانية أو خفية ومن هنا فانّ كلمات الإمام عليه السلام تضمنت تحذير الأُمّة من عدم الوقوع في شباكهم إلىٰ جانب تنبيهها إلىٰ الدوافع الأصلية لهذه المعركة. فاستهل عليه السلام كلامه قائلاً: «**مالي ولقريش؟ والله لقد قاتلتهم كافرين ولا قاتلتنهم مفتونين**[1]» نعم فهؤلاء كانوا علىٰ الشرك، وقد التحقوا بالمسلمين بسيف علي عليه السلام ودعوة النبي صلى الله عليه وآله، إلّا أنّهم وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وبدافع من حب الجاه قد إبتعدوا عن الحق حتى هبوا لقتال وصي رسول الله صلى الله عليه وآله بعد أن بايعوه طواعية.

---

1. «مفتونين» من مادة «فتنة» بمعنى الامتحان والابتلاء /كما جاءت بمعنى العذاب والخداع والضلال، وقد وردت هنا بمعنى الضلال.

القسم الثاني

«مَا لِي وَلِقُرَيْشٍ؟ وَاللّٰهِ لَقَدْ قَاتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ وَلَأُقَاتِلَنَّهُمْ مَفْتُونِينَ وَإِنِّي لَصَاحِبُهُمْ بِالْأَمْسِ كَمَا أَنَا صَاحِبُهُمُ الْيَوْمَ! وَاللّٰهِ مَا تَنْقِمُ مِنَّا قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَنَا عَلَيْهِمْ، فَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي حَيِّزِنَا فَكَانُوا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ:

أَدَمْتَ لَعَمْرِي شُرْبَكَ الْمَحْضَ صَابِحاً ... وَأَكْلَكَ بِالزُّبْدِ الْمُقَشَّرَةَ الْبُجْرَا
وَنَحْنُ وَهَبْنَاكَ الْعَلَاءَ وَلَمْ تَكُنْ ... عَلِيّاً وَحُطْنَا حَوْلَكَ الْجُرْدَ وَالسُّمْرَا».

الشرح والتفسير

مالي ولقريش؟

يشير الإمام‌ﷺ هنا إلىٰ طبيعة علاقته في السابق والحاضر بقريش، لأنّه أورد هذه الخطبة علىٰ هامش موقعة الجمل: حيث نعلم بأنّ مؤججي نار الجمل هم طلحة والزبير وسائر الأفراد من قريش الذين خططوا لهذه المعركة بدافع من أحقادهم تجاه الإمام‌ﷺ. فقد كانوا يديرون هذه المعركة علانية أو خفية ومن هنا فانّ كلمات الإمام‌ﷺ تضمنت تحذير الأُمّة من عدم الوقوع في شباكهم إلىٰ جانب تنبيهها إلىٰ الدوافع الأصلية لهذه المعركة، فاستهل‌ﷺ كلامه قائلاً: «**مالي ولقريش؟ والله لقد قاتلتهم كافرين ولا قاتلتنهم مفتونين**[1]» نعم فهؤلاء كانوا علىٰ الشرك، وقد التحقوا بالمسلمين بسيف علي‌ﷺ ودعوة النبي‌ﷺ، إلّا أنّهم وبعد وفاة النبي‌ﷺ وبدافع من حب الجاه قد إبتعدوا عن الحق حتى هبوا لقتال وصي رسول الله‌ﷺ بعد أن بايعوه طواعية.

---

1. «مفتونين» من مادة «فتنة» بمعنى الامتحان والابتلاء /كما جاءت بمعنى العذاب والخداع والضلال، وقد وردت هنا بمعنى الضلال.

مفتون من مادة فتن بمعنى الانحراف كما تأتي بمعنى الشرك والكفر، ولعلها تشير في العبارة إلىٰ انحرافهم عن الإسلام نحو الكفر وقد ورد في الرواية عن رسول اللهﷺ أنّه قال لعليعليه السلام: «**يا علي حربك حربي وسلمك سلمي**»[١]. وعلىٰ ضوء هذا الحديث فقد خرج من ربقة الإسلام من قاتل علياً عليه السلام في الجمل وصفين ونهروان؛ لأن ممّا لاشك فيه هو كفر من قاتل النبيﷺ. وهنا يمكن أن يطرح هذا السؤال: لو كان الأمر كذلك لوجب علىٰ جيش علي عليه السلام في الجمل أن يأسر من هب لقتاله ويستولي علىٰ أموالهم كغنائم، بينما لم يعاملهم الإمامعليه السلام كذلك؟ قيل في الجواب لقد كان للاماماًعليه السلام الحق في أن يفعل هكذا، إلّا أنّ بعض الأُمور من قبيل شرائط الزمان والمكان جعلته ينصرف عن هذا الأمر. أضف إلىٰ ذلك فانّه ليس هنالك من ضرورة في تكافؤ أحكام جميع الكفار، فممكن أن يستثنى من حكم الأسر ومصادرة الأموال كغنائم حربية هذه الطائفة من المسلمين التي خرجت على إمام زمانها ودخلت الكفر. فقد جاء في بعض الروايات أن مروان بن الحكم.

قال: إنّ علياًعليه السلام أعاد الأموال إلىٰ أهلها لما غلبنا في البصرة، فكان يعيد أموال كل من أقام البينة أو يأتي بالشهود، ويحلف من ليس له بينة. ولما سئل عن توزيع الغنائم سكت ثم قال: أيّكم يأخذ أُمّه في سهمه[٢].

وتفيد بعض الروايات أنّه عفى عن أهل البصرة كما فعل رسول الله ﷺ حين فتح مكة. كما يستفاد أنّه لم يرد أن تكون هذه المسئلة سنة، لأنه كان يعلم بان شيعته ستخضع لضغوط الظلمة ولعلها تعاملهم بهذه المعاملة[٣].

---

١. رواها إبن المغازلي الشافعي في كتاب مناقب أمير المؤمنين وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة والمحقق الكركي في نفحات اللاهوت لاحقاق الحق (٦ / ٤٤٠). وقد قال ابن أبي الحديد في شرحه للرسالة ٦٥ من نهج البلاغة لو فرضنا أن النبي ﷺ لم يوص بعلي عليه السلام ـ كما تقول الإمامية ـ ولكن ألا يعلم معاوية وغيره من الصحابة أنّ رسول الله ﷺ قال ألف مرة في علي عليه السلام: «أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت» وقال «اللّهم عاد من عاداه ووال من والاه» وقال «أنت مع الحق والحق معك» (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٨ / ٢٤).

٢. وسائل الشيعة ١١ / الباب ٢٥ من أبواب جهاد العدو، ح ٧، وللوقوف بصورة أعمق راجع كتاب أنوار الفقاهة، كتاب الخمس والانفال / ٧٠.

٣. للوقوف أكثر علىٰ هذه الروايات راجع أنوار الفقاهة (كتاب الخمس والانفال) / ٧٥.

على كل حال فان مراد الإمام ﷺ من هذه العبارة أنّه لا يكن أي بغض أوعداء لقريش، أما بذور حسدهم للإمام ﷺ فسببها وقوف الإمام ﷺ بوجههم في ميادين صراع الحق ضد الباطل إبان إنبثاق الدعوة الإسلامية، ولم يكن ذلك سوىٰ إمتثالا لأوامر الله. ثم قال ﷺ:

«وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم» فما زال السيف الذي جندلت به الابطال في بدر وأحد والاحزاب بيدي، فالوا قع هذا تهديد صريح لمؤججي نار الجمل. وتساءل البعض أن مثل هذا الكلام يصدق على معاوية و عمرو بن العاص ومروان وأمثالهم الذين هبوا لقتال رسول الله ﷺ، إلّا أنّه لا يصدق علىٰ طلحة والزبير، فقد وقفا إلىٰ جانب رسول الله ﷺ في معاركه. وقد أجيب علىٰ هذا السؤال بأن الإمام ﷺ لم يرد شخصاً معيناً، إلّا أنّ الهدف بيان حقيقة أنّه كان يقاتل في سبيل الحق ضد الباطل علىٰ عهد رسول الله ﷺ ومازال بعد النبي ﷺ يقاتل في هذا السبيل (ونعلم أن قريشاً كانت تقاتل آنذاك ضد المسلمين). أضف إلىٰ ذلك صحيح أنّ طلحة والزبير كانا مع رسول الله ﷺ، إلّا أنّ أغلب أصحابه الجمل ومنهم مروان كانوا من قريش. ثم أشار ﷺ إلىٰ أحد دوافع أصحاب الجمل فقال **«والله ما تنقم منا قريش إلّا أنّ الله إختارنا عليهم، فأدخلناهم في حيزنا»** ثم وصفهم بأنّهم أصبحوا كما قال الشاعر[1].

أدمت لعمري شربك المحض[2] صابحا — وأكلك بالزبد[3] المقشرة[4] البجرا[5]

ونحن وهبناك العلاء ولم تكن — عليا وحطنا حولك الجرد[6] والسمرا[7]

نعم فهؤلاء يحسدوننا ويبغون علينا، إلّا أنّ إرادة الله هي التي إختارتنا للنبوة والإمامة.

---

١. لم يرد في شروح نهج البلاغة شئ بشأن الأول هل يقابل الثاني، أم أنّها إشارة إلىٰ أحد الشعراء الأوائل، أم المراد به اسم شاعر غير معروف. ويبدو الإحتمال الأول أنسب.

٢. «المحض» بمعنى اللبن الخالص بلا رغوة الذي لم يخالطه ماء، ثم إطلق علىٰ كل شئ خالص.

٣. «زبد» من مادة «زبد» بمعنى استخراج شئ من آخر، ومن هنا يطلق الزبد على ما يستخرج من الحليب.

٤. «مقشرة» من مادة «قشر» وتطلق علىٰ التمرة بعد نزع نواتها.

٥. «بجر» علىٰ وزن برج من مادة «بجر» بمعنى ظهور السرة، كما وردت بمعنى النهم في الأكل، ويطلق الأبجر علىٰ صاحب البطن والحريص.

٦. «جرد» من مادة «جرد» بمعنى الخيول الصغيرة قليلة الشعر

٧. «سمراء» من مادة «سمر» بمعنى السهرة والسامر تقال لمن يقضي الليل صاحيا لسهرة أو حراسة أو هدف آخر.

مع ذلك لم نعاملهم بالمثل فقد عفونا عن أخطائهم وحفظنا هم من الاعداء، إلّا أنّهم لم يتنكروا لهذه النعمة فحسب، بل شهروا سيوفهم علينا وهبوا لقتالنا، فقد قطعوا الرحم وقابلوا الاحسان بالجحود وأشعلوا نار حرب الجمل فسفكوا الدماء وزرعوا الفرقة في صفوف المسلمين.

فقريش تشبه بعملها هذا ذلك الحسود الذي يعترض علىٰ حكمة الله، فقد قال سبحانه ﴿اللّٰهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾[١].

وقال ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلىٰ ما آتاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾[٢].

وقال ﴿قُلِ اللّٰهُمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾[٣].

ومن الطبيعي أنّ الإنسان المؤمن بالمفاهيم القرآنية والاصول الإسلامية لا يشعر بالحسد تجاه من يشمله الله علىٰ ضوء حكمته بالنبوة والإمامة، فلا يرىٰ نفسه سوىٰ مسلهم لهذه الحكمة.

الحسد مصدر الاضطراب الاجتماعي

قلما نجد صفة رذيلة كالحسد كانت السبب وراء هذه الأحداث الأليمة والفجائع المأساوية التي شهدتها المجتمعات البشرية طيلة التأريخ. فأغلب الناس إثر قلّة العلم وهبوط المستوى الثقا في وضعف الإيمان وعدم الثقة بالنفس ما إن يرىٰ بعض النجاحات التي يحققها أقرانه أو أمثاله حتى تشتعل في قلبه فتائل الحسد فلا يهم سوىٰ في كيفية تحطيم نفسية المقابل عن طريق الاتهام والتحقير والذم ومحاولة الانتقاص أو إيجاد بعض الموانع والمعوقات في طريقه، بدلاً من الشعور بالفرح والسرور والاحتذاء به من أجل تحقيق النجاح والتغلب علىٰ الصعاب

١. سورة الانعام / ١٢٤.
٢. سورة النساء / ٥٤.
٣. سورة آل عمران / ٢٦.

والانفتاح علىٰ تجاربه وارشاداته. وقد يشتد هذا الحسد حتى يبلغ درجة تدعو إلىٰ إراقة دم المحسود من قبل الحاسد. ولا ننسى هنا أنّ أول دم إريق كان سببه الحسد، الذي دفع بقابيل لقتل أخيه هابيل حيث قبل قربان الثاني ولم يقبل قربان الأول، الأمر الذي تكرر كثيرا في التأريخ حتى قتل الأخ أخاه والابن أباه وبالعكس.

وهكذا تعود أغلب الحوادث الأليمة التي وقعت في صدر الإسلام ولا سيا في عصر خلافة أمير المؤمنين علي عليه السلام إلىٰ الحسد؛ الأمر الذي أشار إليه الإمام عليه السلام في هذه الخطبة. وقد تعرضت أغلب الروايات إلىٰ ذم هذه الرذيلة التي لا تجر سوىٰ الفساد علىٰ المجتمع، فقد قال علي عليه السلام: «**إذا أمطر التحاسد نبت التفاسد**»[1]. أما النقطة المهمة التي أرشدت إليها الخطبة فتكمن في ضرورة عدم مقابلة المحسود للحاسد بالمثل، بل يسعى جاهدا لاطفاء نار الحسد من قلبه من خلال شكر النعمة ومداراة الحاسد وإطفاء حسده بمعاملته بالحب والإحسان، وما أحسن ما قال الشاعر:

إصبر علىٰ حسد الحسود فان صبرك قاتله النار تاكل نفسها إن لم تجد ما تأكله[2].

---

١. غرر الحكم، الرقم ٥٢٤٢

٢. بحار الانوار ٧٠ / ٢٥٨.

الخطبة[1] ٣٤

ومن خطبة له ﷺ

في إستنفار الناس الىٰ أهل الشام بعد فراغه من أمر الخوارج. وفيها يتأفف بـالناس، وينصح لهم بطريق السداد.

مناسبة الخطبة

خطب الإمامﷺ هذه الخطبة كما ورد آنفا بعد فراغه من معركة النهروان. ويستفاد من ظاهر كلام ابن أبي الحديد أن الإمامﷺ خطبها في النهروان، بينما نقل عن نصر بن مزاحم أنّها أول خطبة خطبها بعد قدومه من النهروان لما كره القوم المسير إلىٰ الشام عقيب واقعة النهروان، وأقبلوا يتسللون ويدخلون الكوفة، فلما رأىٰ ذلك دخل الكوفة فخطبهم[2].

وصرح البعض من شرّاح نهج البلاغة أن الإمامﷺ كان حريص في النهروان علىٰ الحركة إلىٰ الشام دون ضياع الفرصة، لأنّه كان يرى أنّ العودة إلىٰ الكوفة تعني إسترخاء الجيش وصعوبة تجهزه ثانية، إلّا أنّهم كانوا يتعللون ببرودة الجو ووجود الجرحىٰ وعدم كفاية الأسلحة فلم يطيعوا أوامر الإمامﷺ. فاضطر الإمامﷺ إلىٰ دخول الكوفة ليجهزهم للقاء

١. رواها الطبري في تأريخه ٦ / ٥١ وابن قتيبة في الإمامة والسياسة ١ / ١٥٠ والبلاذري في أنساب الاشراف / ٣٨٠، وكذلك المرحوم الشيخ المفيد في الامالي (المجلس ١٨) بصورة أكثر إختصارا ممّا وردت في نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة ١ / ٤٢٥) ورواها المرحوم العلامة المجلسي في بحار الانوار عن مطالب السئول محمد بن طلحة الشافعي (بحار الانوار ٧٤ / ٣٣٣).

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ١٩٢.

العدو، ولكن (وكما تكهن سابقاً) تشبثوا بالحجج، فتأثر الإمام﵇ وخطب الناس بهذه الخطبة[1].

نظرة إلى الخطبة

تعالج هذه الخطبة ثلاثة مواضيع وهي:

١ـ التأكيد علىٰ جهاد العدو والعواقب الوخيمة لترك الجهاد. والذي يمثل أطول جانب من الخطبة فالإمام ﵇ يعرض باللوم لأهل الكوفة ـ في هذا القسم من الخطبة الذي يشكل معظمها ـ ويذمهم بمختلف العبارات الشديدة القسوة. وبالطبع فانّ ذلك جاء بعد عدم جدوى كافة الأساليب عن طريق الاستدلال والبرهان والمنطق والمحبة لتعبئتهم للجهاد ومواجهة العدو، فلم يكن أمامه سوىٰ هذا الاسلوب، فقد كان يشبههم أحياناً بالمجانين الذين فقدوا شعورهم وأحاسيسهم فلم يعودوا يدركوا ما يضرهم وينفعهم، وأحياناً أُخرى يشبههم بالابل التي ضل رعاتها، ثم يسعى لتعبئتهم من خلال تنبيههم إلىٰ قسوة عدوهم.

٢ـ عزمه الراسخ في مجابهة العدو سواء كان هناك من يهب لنصرته أم لم يكن.

٣ـ الحقوق المتبادلة بين الإمام والأُمّة، فيعرض باديء ذي بدء إلىٰ حقوق الأُمّة على الإمام، فيلخصها في أربع عبارات، ثم يبين باربع عبارات أُخرىٰ حقوق الإمام على الأُمّة. وكأن الإمام﵇ أراد أن يختتم الخطبة بما يحيل مرارة ذمه حلاوة عل ذلك يجدي نفعاً في علاج ضعفهم وتقاعسهم.

ﮩﮨﮧ

---

١. شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني ٢ / ٧٧ والعلّامة الخوئي ٤ / ٧٢.

القسم الأول

«أُفٍّ لَكُمْ لَقَدْ سَئِمْتُ عِتٰابَكُمْ! أَرَضِيتُمْ بِالْحَيٰاةِ الدُّنْيٰا مِنَ الْآخِرَةِ عِـوَضاً وَبِالذُّلِّ مِنَ الْعِزِّ خَلَفاً؟ إِذٰا دَعَوْتُكُمْ إِلَى جِهٰادِ عَدُوِّكُمْ دٰارَتْ أَعْيُنُكُمْ، كَأَنَّكُمْ مِنَ الْمَوْتِ فِي غَمْرَةٍ وَمِنَ الذُّهُولِ فِي سَكْرَةٍ يُرْتَجُ عَلَيْكُمْ حَـوَارِي فَـتَعْمَهُونَ، وَكَأَنَّ قُلُوبَكُمْ مَأْلُوسَةٌ فَأَنْتُمْ لاٰ تَعْقِلُونَ! مٰا أَنْتُمْ لِي بِثِقَةٍ سَجِيسَ اللَّـيٰالِي، وَمٰا أَنْتُمْ بِرُكْنٍ يُمٰالُ بِكُمْ، وَلاٰ زَوٰافِرُ عِزٍّ يُفْتَقَرُ إِلَيْكُمْ».

࿇

الشرح والتفسير

لم الخشية من الشهادة؟

يستهل الإمامعليه السلام خطبته بامطار أهل الكوفه بوابل عتابه ولومه وذمه لتجاهلهم المخاطر التي كانت تهدد البلد الإسلامي وعدم إكترائهم لها، لعل قصبتهم تهتز فيحولوا دون تفاقم تلك المخاطر. فقد كان أهل الشام يشنون الغارة تلو الغارة على مختلف المناطق الإسلامية ويسفكون دماء المسلمين وينهبون أموالهم وثرواتهم. فقد قال الإمام عليه السلام **«أف لكم[1] لقد سئمت[2] عتابكم»** ودليل ذلك واضح، فالعتاب ولاسيا من شخص كعلي عليه السلام لابدّ أن يكون له تأثيراً واضحاً في نفس المعاتبين ودفعهم لاعادة النظر في أعمالهم الطالحة، إمّا إذا لم يحصل هذا

---

١. قال الراغب في المفردت «أف» في الأصل تعني كل شئ قذر وهي كلمة تضجر تطلق للمهانة والاستحقار، فمثلاً يقال «أففت بكذا» أي تضجرت منه واستقذرته. وقال البعض «أف» تعني مايجتمع من الأوساخ تحت الأظافر وقال البعض أن التراب والغبار إذا علق ببدن الإنسان فان نفخه يشبه القول«اوف» أو «اف» ثم استخدمت هذه المفردة بمعنى اظهار التضجر والنفرة ولا سيما من الاشياء الصغيرة. ونخلص ممّا ذكر ومن بعض القرائن إلى أن هذه المفردة كانت في الاصل إسم صوت.

٢. «سئمت» من مادة «سئم» بمعنى الملل، التي تتعدى أحيانا بحرف من وأحيانا أخرى بدونها، وسئمته وسئمت منه. بمعنى واحد، وعليه سئمت عتابكم بمعنى سئمت من عتابكم.

التأثير بسبب غفلة المقابل فان تكراره لا ينطوي سوىٰ علىٰ الملل والتعب. ثم قال عليه السلام: «**أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا؟ وبالذل من العز خلفا؟**» إنّ هذا سكوتكم المميت وفراركم من الجهاد يدل على أنكم أوبقتم آخر تكم واستبدلتموها ببضعة أيام من الدنيا من جانب، ومن جانب آخر فقد أفريتم دنياكم، وذلك لانكم استبدلتم العزة والرفعة بالذلة والضعة؟ والحال إن موتاً بعزة أشرف بكثيرمن حياة بذلة؛ الرسالة التي لقنها أولياء الله والزعماء الربانيين أتباعهم على مدىٰ العصور والدهور. فقد قال علي عليه السلام في نهج البلاغة «**فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين**»[1] وقال سيد الشهداء «**ألا وإنّ الدعي بن الدعي قد ركزني بين إثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة**» ثم خاطب جيش الكوفة «**إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخشون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم**» فالواقع أنّ عبارات الإمام عليه السلام كانت تمثل دليل سئمه عتابهم وكأنّهم عقدوا العزم علىٰ إيثار الذلة والحقارة وغضب الله على العزة والشرف ورضى الله، ومن هنا لم يعد للعتاب من أثر عليهم، حتى سئم الإمام عليه السلام عتابهم. أمّا في العبارة اللاحقة فيشير الإمام عليه السلام إلىٰ ضعفهم ليلتفتوا إلى أنفسهم فيزيلوا ذلك الضعف فقال عليه السلام: «**إذا دعوتكم إلىٰ جهاد عدوكم دارت أعينكم، فأنّكم من الموت في غمرة**[2] **ومن الذهول في سكرة. يرتج عليكم حواري**[3] **فتعمهون**[4]».

قوله عليه السلام «**يرتج عليكم حواري**» ـ بالنظر إلىٰ الحوار الذي يعني الكلام المكرر ويرتج من مادة (رت ج) بمعنى يغلق ـ له معنيان: الأول ما ذكر سابقاً، أي أنّ كلامي المكرر لا يؤثر فيكم فأنكم لا تدركوه، لأنّ باب الفهم أغلق بوجوهكم. والثاني أنّ لسانكم عقد عن جوابي، وذلك لأنّكم لا تمتلكون الرد المنطقي على كلامي ـ على كل حال فانّ نتيجة المعنيين واحدة تضمنتها العبارة اللاحقة وهى حيرتهم وضلالهم «**وكأن قلوبكم مألوسة**[5] **فانتم لا تعقلون**».

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٥١.

٢. «غمرة» الواحدة من غمر وهو الستر، وغمرة الموت الشدة التي ينتهي إليها المحتضر، وهى الحالة التي كان يعيشها جيش الكوفة.

٣. «حوار» من مادة «حور» بمعنى الرجوع وتطلق علىٰ المحادثة بين الأفراد والتي يصطلح عليها بالمحاورة، وقد وردت بهذا المعنى في العبارة.

٤. «تعمهون» من مادة «عمه» بمعنى تتحيرون وتترددون.

٥. «المألوسة» من مادة «ألس» تعني فقدان العقل، ومن هنا تستعمل حيث الخدعة التي تسلب عقل المقابل، وهى تعني المخلوطة بمس الجنون.

ثم يخلص الإمام ﷺ إلىٰ هذه النتيجة «**ما أنتم لي بثقة سجيس[1] الليالي**». وبالنظر إلىٰ أن سجيس الليالي»

تعني ظلمة الليل فانّ معنى العبارة مادامت الليالي بظلامها فليس لي من ثقة بكم، وهي كناية عن الأبدية والخلود، لأن الظلمة لا تفارق الليل أبداً. أما اختيار ظلمة الليل فينطوي علىٰ منتهى البلاغة إستنادا إلىٰ أفكار أهل الكوفة وأعمالهم السوداء المظلمة. ثم أكد ذلك بقوله «**وما أنتم بركن يمال بكم ولا زوافر[2] عز يفتقر إليكم**» وهكذا أعلن الإمام ﷺ بهذه العبارات عدم ثقته واعتماده علىٰ هذه العناصر الضعيفة بعد أن تطرق لنقاط ضعفهم، أملا في إثارتهم وتعبئتهم لتوحيد الصف ومجابهة العدو، ودخولهم الميدان بكل قوة وشجاعة.

جدوىٰ الذم واللوم

نرى أنفسنا مضطرين مرة أُخرى لملاحقة هذا السؤال: لم كل هذا العتاب واللوم من قبل الإمام ﷺ ـ وهو ما هو عليه من العلم والحكمة في إدارة شؤون الناس ـ لأهل الكوفة وامطارهم بوابل من الكلمات القاسية العنيفة؟ أفلا يؤدي هذا الكلام الذي ينطوي علىٰ العتاب والذم وانعدام الثقة إلىٰ نفرتهم وشدة تعصبّهم وابتعادهم عن الحق؟ ولابدّ من القول في الجواب أنّ الإمام ﷺ قد خبر نفسية وروحية أهل الكوفة، وقد أثبت التأريخ أن اهل الكوفة لم يكونوا يتحركون إلّا إذا داهمهم الخطر وعرضهم للزوال بالمرة، بعبارة أُخرى فانّ العتاب لايجدي معهم نفعا ما لم يجرح مشاعرهم ويثير أحاسيسهم.

ويبدو أنّ المجتمعات البشرية إنّما تشتمل دائما علىٰ طائفة ـ وإن كانت ضئيلة ـ لا تفيق إلىٰ نفسها ما لم تتلق ضربات موجعة متتالية.

ولا يفهم من كلام الإمام ﷺ إننا ينبغي أن نعتمد هذا الاسلوب تجاه من عاش الغفلة وتخلى عن وظيفته ومسؤوليته؛ لأنّ الأفراد على أنواع: بعضهم يعود إلىٰ نفسه بأدنى إشارة فيستقيم

---

١. «سجيس» من مادة «سجس» بمعنى تغيير لون الماء وتكدره، ومن هنا إطلقت «سجيس الليالي» علىٰ ظلمة الليل وكأنّ أصل الاستعمال ما دامت الليالي بظلامها، وهكذا وردت في العبارة.

٢. «زوافر» جمع زافرة من مادة «زفر» بمعنى التنهد وهو التنفس بصوت. كما يطلق الزفير علىٰ صوت النار، والزافرة بمعنى الأنصار والأقوام والعشيرة.

التأثير بسبب غفلة المقابل فان تكراره لا ينطوي سوى على الملل والتعب. ثم قال‌ﷺ: «**أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضا؟ وبالذل من العز خلفا؟**» إنّ هذا سكوتكم المميت وفراركم من الجهاد يدل على أنكم أوبقتم آخر تكم واستبدلتموها ببضعة أيام من الدنيا من جانب، ومن جانب آخر فقد أفريتم دنياكم، وذلك لانكم استبدلتم العزة والرفعة بالذلة والضعة؟ والحال إن موتاً بعزة أشرف بكثير من حياة بذلة؛ الرسالة التي لقنها أولياء الله والزعماء الربانيين أتباعهم على مدى العصور والدهور. فقد قال علي ﷺ في نهج البلاغة «**فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين**»[١] وقال سيد الشهداء «**ألا وإنّ الدعي بن الدعي قد ركزني بين إثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة**» ثم خاطب جيش الكوفة «**إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخشون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم**» فالواقع أنّ عبارات الإمام‌ﷺ كانت تمثل دليل سئمه عتابهم وكأنّهم عقدوا العزم على إيثار الذلة والحقارة وغضب الله على العزة والشرف ورضى الله، ومن هنا لم يعد للعتاب من أثر عليهم، حتى سئم الإمام‌ﷺ عتابهم. أمّا في العبارة اللاحقة فيشير الإمام‌ﷺ إلى ضعفهم ليلتفتوا إلى أنفسهم فيزيلوا ذلك الضعف فقال ﷺ: «**إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم، فأنكم من الموت في غمرة[٢] ومن الذهول في سكرة. يرتج عليكم حواري[٣] فتعمهون[٤]**».

قوله‌ﷺ «**يرتج عليكم حواري**» ـ بالنظر إلى الحوار الذي يعني الكلام المكرر ويرتج من مادة (رت ج) بمعنى يغلق ـ له معنيان: الأول ما ذكر سابقاً، أي أنّ كلامي المكرر لا يؤثر فيكم فأنكم لا تدركوه، لأنّ باب الفهم أغلق بوجوهكم. والثاني أنّ لسانكم عقد عن جوابي، وذلك لأنّكم لا تمتلكون الرد المنطقي على كلامي ـ على كل حال فانّ نتيجة المعنيين واحدة تضمنتها العبارة اللاحقة وهى حيرتهم وضلالهم «**وكأن قلوبكم مألوسة[٥] فانتم لا تعقلون**».

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٥١.

٢. «غمرة» الواحدة من غمر وهو الستر، وغمرة الموت الشدة التي ينتهي إليها المحتضر، وهى الحالة التي كان يعيشها جيش الكوفة.

٣. «حوار» من مادة «حور» بمعنى الرجوع وتطلق على المحادثة بين الأفراد والتي يصطلح عليها بالمحاورة، وقد وردت بهذا المعنى في العبارة.

٤. «تعمهون» من مادة «عمه» بمعنى تتحيرون وترددون.

٥. «المألوسة» من مادة «ألس» تعني فقدان العقل، ومن هنا تستعمل حيث الخدعة التي تسلب عقل المقابل، وهى تعني المخلوطة بمس الجنون.

ثم يخلص الإمام ﷺ إلىٰ هذه النتيجة «**ما أنتم لي بثقة سجيس[1] الليالي**». وبالنظر إلىٰ أن سجيس الليالي»

تعني ظلمة الليل فانّ معنى العبارة مادامت الليالي بظلامها فليس لي من ثقة بكم، وهي كناية عن الأبدية والخلود، لأن الظلمة لا تفارق الليل أبداً. أما اختيار ظلمة الليل فينطوي علىٰ منتهى البلاغة إستنادا إلىٰ أفكار أهل الكوفة وأعمالهم السوداء المظلمة. ثم أكد ذلك بقوله «**وما أنتم بركن يمال بكم ولا زوافر[2] عز يفتقر إليكم**» وهكذا أعلن الإمام ﷺ بهذه العبارات عدم ثقته واعتماده علىٰ هذه العناصر الضعيفة بعد أن تطرق لنقاط ضعفهم، أملا في إثارتهم وتعبئتهم لتوحيد الصف ومجابهة العدو. ودخولهم الميدان بكل قوة وشجاعة.

جدوىٰ الذم واللوم

نرى أنفسنا مضطرين مرة أُخرى لملاحقة هذا السؤال: لم كل هذا العتاب واللوم من قبل الإمام ﷺ ـ وهو ما هو عليه من العلم والحكمة في إدارة شؤون الناس ـ لأهل الكوفة وامطارهم بوابل من الكلمات القاسية العنيفة؟ أفلا يؤدي هذا الكلام الذي ينطوي علىٰ العتاب والذم وانعدام الثقة إلىٰ نفرتهم وشدة تعصبّهم وابتعادهم عن الحق؟ ولابدّ من القول في الجواب أنّ الإمام ﷺ قد خبر نفسية وروحية أهل الكوفة، وقد أثبت التأريخ أن اهل الكوفة لم يكونوا يتحركون إلّا إذا داهمهم الخطر وعرضهم للزوال بالمرة، بعبارة أُخرى فانّ العتاب لايجدي معهم نفعا ما لم يجرح مشاعرهم ويثير أحاسيسهم.

ويبدو أنّ المجتمعات البشرية إنّما تشتمل دائمًا علىٰ طائفة ـ وإن كانت ضئيلة ـ لا تفيق إلىٰ نفسها ما لم تتلق ضربات موجعة متتالية.

ولا يفهم من كلام الإمام ﷺ إننا ينبغي أن نعتمد هذا الاسلوب تجاه من عاش الغفلة وتخلى عن وظيفته ومسؤوليته؛ لأنّ الأفراد على أنواع: بعضهم يعود إلىٰ نفسه بأدنى إشارة فيستقيم

---

١. «سجيس» من مادة «سجس» بمعنى تغيير لون الماء وتكدره، ومن هنا إطلقت «سجيس الليالي» علىٰ ظلمة الليل وكأنّ أصل الاستعمال ما دامت الليالي بظلامها، وهكذا وردت في العبارة.

٢. «زوافر» جمع زافرة من مادة «زفر» بمعنى التنهد وهو التنفس بصوت. كما يطلق الزفير علىٰ صوت النار، والزافرة بمعنى الأنصار والأقوام والعشيرة.

علىٰ الطريق، وبعضهم لايتحرك ما لم توخزه بابرة.

وبناءاً علىٰ هذا فان ذلك الاسلوب إنّما يختص بتلك الجماعة بفضله العلاج الأخير لدائهم.

وقد أثبت التاريخ أن ذلك الاسلوب كان قد أثر في أغلب أهل الكوفة فاندفعوا إلىٰ النخيلة وتأهبوا لقتال أهل الشام، غير أنّ شهادة أميرالمؤمنين عليه السلام على يد عبدالرحمن بن ملجم أشق الآخرين حالت دون ذلك.

والشاهد الآخر علىٰ ذلك أنّ الإمام عليه السلام كان كثيراً ما يثني على أهل الكوفة أوائل حكومته[1]، إلّا أنّهم حين ضعفوا واستقوىٰ عليهم أهل الشام فكانوا يهجمون كل يوم علىٰ منطقة من مناطق البلاد الإسلامية، لم ير عليه السلام بداً من مخاطبتهم بهذا الاسلوب.

---

١. على سبيل المثال راجع نهج البلاغة، الخطبة ١٠٧و١١٨

القسم الثاني

«ما أَنْتُمْ إِلاَّ كَإِبِلٍ ضَلَّ رُعَاتُهَا فَكُلَّمَا جُمِعَتْ مِنْ جَانِبٍ انْتَشَرَتْ مِنْ آخَرَ لَبِئْسَ لَعَمْرُ اللّٰهِ سُعْرُ نَارِ الْحَرْبِ أَنْتُمْ! تُكَادُونَ وَلاَ تَكِيدُونَ وَتُنْتَقَصُ أَطْرَافُكُمْ فَلاَ تَمْتَعِضُونَ!

لاَ يُنَامُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ سَاهُونَ، غُلِبَ وَاللّٰهِ الْمُتَخَاذِلُونَ! وَايْمُ اللّٰهِ إِنِّي لَأَظُنُّ بِكُمْ أَنْ لَوْ حَمِسَ الْوَغَى، وَاسْتَحَرَّ الْمَوْتُ، قَدِ انْفَرَجْتُمْ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ انْفِرَاجَ الرَّأْسِ».

࿇

الشرح والتفسير

يقظة العدو وسبات النصير

يواصل الإمام ﷺ عتابه وذمه لعسكر الكوفة **«ما أنتم إلّا كابل ضل رعاتها فكلما جمعت من جانب إنتشرت من آخر»** فالمراد أنّ إرادتكم ضعيفة وأفكاركم مشتتة ولا تميزون مصالحكم، فقد شبههم ﷺ بالابل لضيق أفقهم وضحالة أفكارهم، وقوله «ضل رعاتها» اشارة إلىٰ عدم طاعتهم لائمتهم وأوليائهم.

ومن البديهي أن هؤلاء الأفراد لايسعهم أن يكونوا قوة أمام العدو ولذلك قال ﷺ: **«لبئس لعمر[1] الله سعر[2] نار الحرب أنتم»**.

فالحرب ظاهرة ممجوجة غير محببة وآثارها خراب البلدان وقتل الإنسان والفقر والجهل

---

١. لعمر الله، مفهوم هذه العلمة القسم بالعمر ومدة الحياة، ولما لم يكن للعمر من معنى بالنسبة لله فانّ المعنى هنا «قسماً بالله» وقد تقدم شرح هذه العبارة في الخطبة الرابعة والعشرين.

٢. «سعر» جمع ساعر من مادة «سعر» بمعنى أوقد النار وسعر بمعنى شعلة النار، والمراد ليئس موقدو الحرب أنتم.

والبؤس والشقاء والتخلف، إلّا أنّ نفس ظاهرة اللوم هذه قد تكون دواءاً حيوياً للمجتمع وذلك حين ينهض العدو ليهضم حقوق الأمّة وينشر في ربوعها الذعر والفساد والانحراف.

فلا يمكن إعادة الأمن والسلام والعدل إلىٰ المجتمع إلّا من خلال الحرب. ومن هنا صرح القرآن الكريم قائلا: **﴿أُذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله علىٰ نصرهم لقدير﴾**[1] وقال في موضع آخر **﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**[2].

وعليه فانّ الإمام ﷺ إذا أشار إلىٰ الحرب، فانّما ذلك لتكرر إعتداءات وحملات أهل الشام وسفكهم للدماء ونهبهم للأموال بل هبوا في الواقع لمحاربة وصي رسول الله ﷺ من بايعته الأمّة برمتها.

ومن هنا خاطبهم «**تكادون ولاتكيدون، وتنتقض أطرافكم فلا تمتعضون،**[3] **لا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون**».

ومن الواضح أنّ من لايستعد لمواجهة العدو ويتأهب لخططه التدميرية فانّ قراه ومدنه الحدودية إنّما تكون علىٰ الدوام مسرحاً لعمليات العدو ليمارس بحق أهلها القتل والدمار ونهب خيراتهم وثرواتهم، وليس هنالك من مصير بافضل من هذا المصير ينتظر أُولئك الذين يعيشون الغفلة عن عدوهم.

وما أعظم قساوة إصدار الأحكام بشأن الإمام علي ﷺ واتهامه بالضعف وقلّة التدبير في الحروب إذا لم يحط بحقيقة أهل الكوفة والضعف والوهن الذي كان سائدا لديهم إلىٰ جانب عدم الطاعة والتمرد الذي طبعت عليه سجيتهم.

بعد ذلك يخلص الإمام ﷺ إلىٰ نتيجة أعمالهم فيقول «**غلب والله المتخاذلون**»نعم فالفشل والهزيمة لا تقتصر علىٰ هولاء الذين تصدعت وحدتهم وتخلوا عن مجابهة العدو، بل الهزيمة من القوانين الثابتة التي يمنى بها كل من يعيش هذه المفردات من قبيل الفرقة والنفاق والضعف والوهن وعدم الطاعة.

---

١. سورة الحج / ٣٩.
٢. سورة البقرة / ١٩٠.
٣. «تمتعضون» من مادة معنى «معض» الابتئاس والغضب.

ثم قال ﷺ: «**وآيم الله[1] اني لاظن بكم أن لو حمس[2] الوغىٰ[3] واستحر[4] الموت، قد انفرجتم عن إبن أبي طالب إنفراج الرأس**».

فقد أشار الإمام ﷺ إلىٰ عدّة اُمور بهذا التشبيه: الأول إنّ مكانته وإن كانت بمثابة الرأس من الجسد، ولكن هل للرأس ـ الذي يعتبر مركز الفكر ويضم العين والاذن واللسان ـ أن يفعل شيئا دون سائر الاعضاء؟ والثاني: هل من حياة ووجود لهذا الجسد إن فصل عنه الرأس، وإن كان فيه فهل له فعل شيءٌ دون معونة العقل والفكر والسمع والبصر.

وأخيرا يتعذر التئام الرأس بالجسد إذا ما فصل عنه، بينما ليست هنالك مثل هذه الصعوبة في إلتئام سائر أعضاء البدن.

وعليه فان مراد الإمام ﷺ هو أنكم تنفرجون عني وليس لكم العودة إلي اذا حمي الوطيس وأخذكم الخوف فهربتم مني كما احتمل بعض الشرّاح أنّ المراد بقوله: «**أنفراج الرأس**» هو فلق الرأس بضربة السيف التي تأبى الالتئام.[5]

عوامل أخرى للضعف والهزيمة

يتطرق الإمام ﷺ بفضله زعيماً إنسانياً وسياسياً وعسكرياً ـ في هذا القسم من الخطبة ـ إلىٰ العوامل التي تقف وراء الضعف والفشل والهزيمة، فيجملها بعبارات قصيرة بعيدة المعاني وفي مقدمتها التشتت والفرقة وعدم إمتلاك الزعيم الأوحد، الأمر الذي يشاهد بوضوح اليوم في

---

١. أوردنا شرحاً وافياً في المجلد الأول ذيل الخطبة رقم ١٠ لعبارة «وآيم الله» التي تفيد مفهوم القسم.

٢. «حمس» من مادة (ح م س) بمعنى إشتد وصلب، والحماسة والتحمس بمعنى التشديد والتشدد ولاسيما في الحرب ويقال الاحمس للرجل الشجاع الذي يقف بصلابة بوجه العدو.

٣. «الوغى» بمعنى الضجيج والصوت والجلبة في ميدان القتال، كما يقال لنفس الحرب الوغى، وهكذا وردت في العبارة.

٤. «إستحر» من مادة «حرر» بمعنى اشتداد الحر، وهو إشارة لايثار الفرار على الثبات في المعركة إذا إشتد القتال وبلغ حدته.

٥. يبدو هذا الاحتمال مستبعدا لوجود التقدير في الجملة، لان العبارة «قد إنفرجتم عن ابن أبي طالب» تتطلب أن يكون تقدير العبارة «إنفراج الرأس» هو «إنفراج الرأس عن الجسد» أو «إنفراج الجسد عن الرأس» كما ورد مثل هذا التعبير في الخطبة ٩٧ «انفرجتم عن علي بن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها».
والعجيب ما اورده شرّاح نهج البلاغة من تفاسير غريبة لهذه العبارة، حتى ذكروا ثمانية وجوه أو أكثر لانرىٰ ضرورة للخوض فيها.

البلدان الإسلامية، حيث تؤدي الفرقة والانفسام إلىٰ هذه الفوضى والانـفلات في صـفوف الأمّة.

والطريف في الأمر أن الجميع يتحدث عن الوحدة، بينما يسهم كل حسب قدرته بتأجيج نيران الفرقة والاختلاف.

والثاني عدم وجود الخطط والمشاريع الصحيحة التي يمكنها مـواجـهة مخـططات العـدو الخبيثة والتي أشير إليها بالعبارة «**تكادون ولا تكـيدون**». الثالثالاستهانة بـبعض الحـوادث الصغيرة ـ وهي كبيرة في الواقع ـ والتي تعرض لها الإمامعليه السلام بقوله«**وتنتقص أطرافكـم فـلا تمتعضون**» فاغلب الحوادث الصغيرة تكشف عن عمق بعض المسائل المهمة الخفية، فتغيير بسيط في البدن قد يعكس حالة مستعصية في باطنه، وهذا ما عليه الحال بـالنسبة للـقضايا الاجتماعية والسياسية والعسكرية.

فاذا رأينا العدو قد هجم علىٰ منطقة حدودية صغيرة، أو إغتال شخصية من البلد، لابدّ أن نعلم بأنّه إنّما يعدّ نفسه لمعركة أكبر وأعنف، وإلّا لما تجاسر وارتكب ذلك العمل.

وعليه لابدّ من الالتفات إلىٰ الأعمال في بدياتها وعدم الغفلة عن القـضايا العـضال التي تستبطنها وتختزنها. الرابع يقظة العدو وغفلتنا، فالعدو منهمك عـلى الدوام في إعـداد العِـدة والعُدة، بينما ننظر بكل سذاجة إلىٰ الاوضاع القائمة على أنها تمثل السلام العادل والمشرف، فاذا قدر لنا أن نفيق من غفلتنا، رأينا زمام المبادرة قد سلبت من أيدينا. الخامس خوف المـوت والفرار من الشهادة في سبيل الله والتي أشار إليها الإمامعليه السلام بقوله «**وآيم الله! انى لأظن...**». والواقع إن الانسان ليغفل عن حقيقة مفادها أن خشية المـوت سـبب المـوت: والاسـتعداد للتضحية والفداء يعد من أسباب حفظ النفس.

كانت هذه بعض النقاط المهمة المرتبطة بالضعف والهزيمة التي أوردها الإمامعليه السلام في هـذه الخطبة وسنتابع تفاصيل هذه المسألة في الابحاث القادمة ذات الصلة. فقد تطرق الإمامعليه السلام في الخطبة الخامسة والعشرين إلىٰ سائر عوامل الضعف والفشل والهزيمة.

٭٭٭

القسم الثالث

«وَاللّٰهِ إِنَّ امْرَأً يُمَكِّنُ عَدُوَّهُ مِنْ نَفْسِهِ يَعْرُقُ لَحْمَهُ وَيَهْشِمُ عَظْمَهُ وَيَفْرِي جِلْدَهُ لَعَظِيمٌ عَجْزُهُ، ضَعِيفٌ مَا ضُمَّتْ عَلَيْهِ جَوَانِحُ صَدْرِهِ.

أَنْتَ فَكُنْ ذَاكَ إِنْ شِئْتَ فَأَمَّا أَنَا، فَوَاللّٰهِ دُونَ أَنْ أُعْطِيَ ذَلِكَ ضَرْبٌ بِالْمَشْرَفِيَّةِ تَطِيرُ مِنْهُ فَرَاشُ الْهَامِ، وَتَطِيحُ السَّوَاعِدُ وَالْأَقْدَامُ، وَيَفْعَلُ اللّٰهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يَشَاءُ».

الشرح والتفسير

الانفراد في مجابهة العدو

يتحدث الإمامعليه السلام عن العناصر الضعيفة والهزيلة التي تمكن عدوها من نفسها فيقول **«والله إن إمرء يمكن عدوه من نفسه يعرق[1] لحمه ويهشم[2] عظمه و يفري[3] جلده لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه جوانح[4] صدره»**

فالعبارة تبين بصراحة أنّ الضعف والوهن بلغ ذروته في جيش الكوفة بحيث اندفع العدو بكل ما أُوتي من قوة ليسدد له الضربات التي تحز اللحم وتطحن العظام، وهي أروع عبارة تجسد تسلط العدو وتحكمه في مصير الضعفاء العجزة، كما تضمنت قمة الفصاحة

١. «يعرق» من مادة «عرق» بمعنى فصل اللحم عن العظم، كما ورد بمعنى فصل اللحم عن العظم بالأسنان وأكله.

٢. «يهشم» من مادة «هشم» بمعنى كسر الشئ اليابس كما ورد بمعنى كسر مطلق العظام، أو عظام الرأس و الوجه.

٣. «يفري» من مادة «فرى» بمعنيشق الشئ و تمزيقه.

٤. «جوانح» جمع «جانحة»، و هى الضلوع تحت الترائب، اصلها من مادة «جنح» بمعنى الميل و الانحراف، و قد اطلقت على الاضلاع لأنّها ليست بشكل مستقيم.

والبلاغة بحيث تكفي لا ثارة من بقي لديه ثمة إحساس وشعور.

نعم هكذا كانت سيطرة أهل الشام ومعاملتهم لأهل العراق، لم يرعوا إلّا ولا ذمة في أحد، فكانوا يقتلون الأبرياء ولا يرحمون الضعفاء وينهبون الأموال والثروات ويخربون البيوت. فالواقع عمل هؤلاء أشبه بفعل القصابِ بالذبيحة يسلخ جلدها ويجز لحمها عن عظمها ويعدها لقمة سائغة للأكل. أمّا بعض المفسرين فقد ذهبوا إلىٰ أنّ كل عبارة من هذه الجمل الثلاث مستقلة، فقوله «**يعرق لحمه**» تعني نهب الأموال و«**يهشم عظمه**» قتل الناس و«**يفري جلده**» إشارة إلىٰ الاخلال بنظام المجتمع[1]، وبالطبع ليست هنالك من قرينة واضحة علىٰ هذا التفسير. أمّا الشيخ المرحوم مغنية قد علق في شرحه علىٰ هذه العبارة في أننا سمعنا كثيراً عن المقاومة السلبية تجاه الطواغيت والظلمة كأن ينتحر الفرد أو يحرق نفسه إلّا اننا لم نسمع من يستسلم للعدو إلىٰ الحد الذي يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفري جلده دون أن يدافع عن نفسه، فليس هنالك أرعب وأشنع من هذا الخوف بحيث يلقي الجبان الضعيف بنفسه إلىٰ قصابي البشرية ليذبحوه بهذه الطريقة ويجعلوه لقمة سائغة لهم[2].

كما يحتمل إلّا تكون العبارات الثلاث المذكورة بشأن فرد واحد، بل يفعل العدو هذه الأمور بشأن عدة أفراد كأن يعرق لحم البعض ويهشم عظم الآخر ويفري جلد الثالث وعلىٰ ضوى هذا التفسير يمكن حل السؤال الوارد بشأن ترتيب العبارات في أنّ الإمام ﷺ لم جعل فري اللحم في آخر العبارة. فكأنّ جواب الإمامﷺ أنّ جنايات العدو تجاهكم في مرحلة هى فصل اللحم عن العظم، ثم يتقدم في مرحلة أُخرى ليهشم العظم وأخيراً لا يبقى أمامه سوىٰ فري جلد البدن. وذهب بعض المفسرين إلىٰ أنّ هذه العبارات إشارات إلىٰ بعض الحوادث التي وقعت بعد شهادته ﷺ وسيطرة معاوية وأهل الشام على العراق ولم يرحموا صغيراً ولا كبيراً ولا صحيحاً ولا مريضاً ولا فقيراً ولا غنياً ولا رجالاً ولا نساءاً[3]. ولكن يبدو أنّها ليست مختصة بذلك الزمان، وإن كانت أشد وأقسى آنذاك.

---

١. شرح نهج البلاغة ابن ميثم البحراني ٢ / ٨١.
٢. في ظلال نهج البلاغة / ٢٢٨.
٣. مفتاح السعادة ٦ / ٨٢.

أمّا العبارة «**ما ضمت عليه جوانح صدره**» ـ بالالتفات إلىٰ أن الجوانح جمع جانحة بمعنى الاضلاع ـ فالمراد بها القلب، وهدف الإمام من قوله «**ما ضمت عليه جوانح صدره**» بيان روحية جيش الكوفة ومدىٰ عجزه. ثم يتطرق الإمام عليه السلام إلىٰ نقطة مهمّة وأساسية يكشف فيها عن إتخاذه القرار الحاسم بشأن المستقبل وما يحمله من أحداث «**أنت فكن ذاك إن شئت فأمّا أنا فوالله دون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفية تطير منه قراش[1] الهام، وتطيح[2] السواعد والأقدام، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء**».

وأمّا من المخاطب بقوله عليه السلام أنت فكن ذاك؟ هنالك احتمالان: الأول أن إنّما خاطب من يمكن عدود من نفسه كائنا من كان، غير معين ولا مخصص، والاحتمال الاخر أنّه خاطب بذلك الأشعث بن قيس، فانّه روى أنّه عليه السلام قال وهو يخطب ويلوم الناس على تثبيطهم وتقاعدهم:

هلاّ فعلت فعل ابن عفان! فقال له: «**إن امرأ مكن عدوه من نفسه، يعرق لحمه ويهشم عظمه ويفري جلده. أنت فكن ذاك...**» فالواقع هو أنّ الإمام عليه السلام فصل نفسه عنهم بعد أن يأس منهم، فافهمهم أنكم إن آثرتم الاستسلام للعدو فسبيلي غير سبيلكم وليس للعدو عندي إلّا السيف وسأقاتله بمفردي، فلكل وظيفة وليس أنا من يتقاعس عن إداء وظيفته. فان تخليتم عن وظيفتكم ورضيتم لأنفسكم الذل والهوان والاستسلام للعدو وعرضتم البلد الإسلامي للدمار والابتزاز وخليتم وأهل الشام لينهبوا الأموال ويعتدوا علىٰ الاعراض، فليس لي إلّا أن أقاتلهم وحدي وأنا مستعد للشهادة التي لا أوثر عليها شيئاً ولن أشعر بالضعف أبداً. وكأنّ الإمام عليه السلام أراد أن بهذه الكلمات أن يشد أزر ذلك النزر اليسير من الأفراد الشجعان الذين لا يخلو منهم جيش الكوفة، كما يزيل الشك عن قلوب بعض المترددين ليلتحقوا به، ويرشد التأريخ إلىٰ مدىٰ الأثر الذي لعبه كلام الإمام عليه السلام فيهم. فقد شعروا بقوتهم من جديد وتأهبوا لمنازلة العدو.

١. «قراش» جمع «قراشه» بمعنى العظام الرقيقة التي تلي القحف أو عظام الجبهة والرأس، وهام جمع هامة بمعنى الرأس كما تطلق علىٰ زعيم القبيلة.
٢. «تطيح» من مادة «طرح» بمعنى الهلاك أو الاشراف على الهلاك. ولما كان فصل اليد والرجل يشكل القضاء عليهم فقد أطلقت بهذا المعنى في العبارة المذكورة.

العزم النهائي للزعيم الشجاع

قد تشهد الحياة الاجتماعية والسياسية بعض اللحظات الحساسة التي تجعل الزعماء في موضع لا يحسدون عليه، وتتفعل هذه اللحظات حين يشتد الضعف والخلاف والترديد في إتخاذ القرار؛ الأمر الذي يمنح العدو بعض عناصر القوة في المباغتة.

وهنا لابدّ أن ينبري الزعيم الشجاع ليعلن قراره الحاسم بهذا الشأن ليفهم الجميع بأنّه مستعد للقتال وخوض غمار الحرب بمفرده سواءاًكان هناك من يقف إلىٰ جانبه أم لا، فليس هنالك سوىٰ الشهادة التي تأبى المقارنة بالخضوع والاستسلام. وهذا ما أشار إليه الإمام عليه السلام في الخطبة، وقد وقفنا على مثيله من أبي الضيم والأحرار الإمام الحسين عليه السلام. فقد إتفقت كلمة الأصحاب ليلة عاشوراء في مواكبة إمامهم عليه السلام ولا سيما حين رفع الإمام عليه السلام بيعته عن الجميع وأذن لهم بالانصراف، حيث انصرف أغلب الضعفاء والعجزة وانفرجوا عن الإمام عليه السلام وهربوا من خوض الجهاد، ولم يبق معه إلّا قلّة قليلة، لينهض كل واحد منها ويعبر عن موقفه ومساندته للإمام عليه السلام وان قتل سبعين قتله، وآخر قال لو أُقتل وأُحرق ثم أُقتل ويفعل بي ذلك سبعين مرة لما تركتك، وما شابه ذلك من المواقف التي عبر عنها صحبه الاوفياء[1].

وقد أشار أمير المؤمنين علي عليه السلام ـ في الرسالة ٣٦ من رسائله في نهج البلاغة ـ إلىٰ هذا المعنى، حيث قال لأخيه عقيل«**وأما ما سألت عنه من رأيي في القتال: فان رأيي قتال المحلين حتى ألقى الله لا يزيدني كثرة الناس حولي عزة ولا تفرقهم عني وحشة ولا تحسبن ابن أبيك ـ ولو أسلمه الناس ـ متضرعاً متخشعاً ولا مقراً للضيم واهناً**». كما نصطدم في قصة موسى عليه السلام بقومه الذين أعربوا عن خوفهم من مجابهة العمالقة لما بلغوا بوابة بيت المقدس فضعفت إرادتهم وترددوا في إتخاذ القرار، حتى تمردوا علىٰ نبيّهم موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام واعلنوا موقفهم.

المخزي بكل صراحة **﴿قالُوا يا مُوسىٰ إِنّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إِنّا هٰهُنا قاعِدُونَ﴾**[2].

---

١. للوقوف علىٰ خطبة الإمام عليه السلام ليلة عاشوراء وما قاله صحبه الاوفياء راجع بحار الانوار ٤٤ / ٣٩٢.

٢. سورة المائدة / ٢٤.

فما كان من موسىعليه السلام إلّا أن أعلن موقفه منهم وانفصاله عنهم ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ﴾[1].

وهذا هو موقف نبي الله نوحعليه السلام ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ﴾[2].

ولا شك إنّ لهذا الموقف الصادم الذي يتخذه الزعيم أثره الكبير في نفوس أتباعه، حيث يشعر الأفراد بارتفاع معنوياتهم وقوة شوكتهم إلى جانب عودة الضعفاء إلى الحق والشعور بالقوة والاقتدار ويضطرها لاتخاذ ذات الموقف.

وأدنى معطيات ذلك الموقف أنه يشكل وثيقة تأريخية حية في سيرة هؤلاء الزعماء الابطال والذي يلهم الأجيال العزم والإرادة والقوة، وهذا ما نلمسه بوضوح في الملحمة الحسينية في كربلاء والتي مازالت تلهم الامم والشعوب كل عناصر القوة والاقتدار في مواجهة الظلم والاضطهاد والطغيان.

---

١. سورة المائدة / ٢٥.

٢. سورة يونس / ٧١.

القسم الرابع

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ لِي عَلَيْكُمْ حَقّاً وَلَكُمْ عَلَيَّ حَقٌّ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَيَّ: فَالنَّصِيحَةُ لَكُمْ، وَتَوْفِيرُ فَيْئِكُمْ عَلَيْكُمْ وَتَعْلِيمُكُمْ كَيْلاَ تَجْهَلُوا، وَتَأْدِيبُكُمْ كَيْمَا تَعْلَمُوا وَأَمَّا حَقِّي عَلَيْكُمْ: فَالْوَفَاءُ بِالْبَيْعَةِ وَالنَّصِيحَةُ فِي الْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ، وَالْإِجَابَةُ حِينَ أَدْعُوكُمْ وَالطَّاعَةُ حِينَ آمُرُكُمْ».

الشرح والتفسير

حقي عليكم وحقكم علي

يختتم الإمام ﷺ خطبته بالتعرض لاهم القضايا المرتبطة بالحكومة والتي تكمن في حق الإمام على الأُمّة وحق الأُمّة على الإمام، فيوجزها بعبارات مقتضية عظيمة المعاني، حيث يشير إلى أربعة متبادلة لكل منهما. فقد تحدث بادى زي بدء عن حقوق الأُمّة، ومن شأن تقديم حقوق الأُمّة على الإمام على العكس، أنّه مدعاة للتأثير في نفوس السامعين، إلى جانب كشفه عن البعد الشعبي والجماهيري للحكومة الإسلامية، كما يفيد عمق فارق هذه الحكومة مع الحكومات المستبدة الغاشمة والحكام الطغاة الذين يرون أنفسهم ما لكي رقاب الأُمّة فيعاملونها معاملة المالك والمملوك أو الاقطاع والمزارع.

فقد قال ﷺ: «**أيها الناس إنّ لي عليكم حقاً، ولكم علي حق**».

والحق وإن ذكر بصورة مفردة إلّا أنّه يفيد معنى جنس الحق الذي ينطوي على مفهوم عام، أما تنكيره فيشير إلى عظمة هذه الحقوق، لأنّ الاتيان بالنكرة قد يفيد التعظيم أحياناً.

فيتطرق الإمام ﷺ إلى الحق الأول للأُمّة فيقول «**فأمّا حقكم على: فالنصحية لكم**».

النصيحية تعني الخلوص ومن هنا يصطلح على العسل الخالص بالناصح.

كما وردت بمعنى الخياطة، ولذلك يطلق الناصح على الخياط، ثم اطلقت على كل عمل خير خالص خال من الغل والغش.

وتستعمل هذه المفردة بشأن الله والنبي والقرآن وأفراد الأمّة والإمام والأمّة، حيث تتمتع بالإشارة إلى أحد مصاديقها الواسعة حسب مقتضى الحال ومورد الاستعمال.

وقد ورد في بعض المصادر اللغوية أنّ النصيحة تشتمل على معان متفرقة، فمثلاً النصيحة لله تعني الاعتقاد بوحدانيته واخلاص النيّة له في العبادة ونصرة الحق، والنصحية للقرآن تعني التصديق به والعمل بأحكامه والدفاع عن آياته، تجاه تأويل الجهلاء وتحريف الغلاة، والنصحية للنبي هى التصديق بنبوته ورسالته وطاعة أوامره.

ومن هنا يبدو أنّ المراد بالنصيحة في العبارة العمل من أجل الارتقاء بالجوانب المادية والمعنوية للأمّة من خلال البراج والمشاريع الصحيحية، حيث تشكل هذه المشاريع الخطوة الاولى لتحقيق خير الأمّة، وعليه فلابدّ أن يكون للإمام والولي والزعيم مشروعاً صحيحاً وجامعاً يتضمن تأمين المصالح المادية والمعنوية لأفراد الأمّة ويأخذ بايديهم إلى الكمال المنشود.

والحق إن هذه المسألة لمن المسائد الحيوية المهمّة في عالمنا المعاصر والتي تحظى بأهمية فائقة، حيث يعتقد أغلب العلماء والمنكرين أن العراقيل التي تنطوي عليها المسيرة الاجتماعية إنّما أفرزتها بالدرجة الأساس مشكلة عدم وجود المشاريع والخطط الصحيحة.

ثم يشير ﷺ إلى الحق الثاني ـ ذات الصلة بالجانب الاقتصادي ـ فيقول «**وتوفير فيئكم عليكم.**»

فالعدالة الاجتماعية في المجال الاقتصادي تعد من أهم مشاكل المجتمعات البشرية، فأغلب الحروب والنزاعات الدموية ومعظم المفاسد الاجتماعية إنّما تعزى إلى تغييب العدالة الاجتماعية.

ومن هنا فانّ إعادة الأمن والسلام والنظام والاستقرار والوقوف بوجه المفاسد الاخلاقية ومختلف الانحرافات إنّما تتطلب بادىء ذي بدء إحياء العدالة الاجتماعية وتفعيلها في المجتمع.

وإستناد إلى أنّ المفردة «فيء» حسب أرباب اللغة أنّها العودة والرجوع إلى حالة الخير

والاحسان، فانّها تطلق إيضاً علىٰ الظل حين يرجع من طرف الغرب إلىٰ الشرق.

وتطلق هذه المفردة في الآيات القرآنية والاحاديث النبوية علىٰ الأموال التي تصل المسلمين من الكفار، فقد تطلق على الأموال التي تصل دون القتال، وحتى على مثل هذه الأموال والانفال التي تعني الثروات الطبيعية للحكومة الإسلامية التي ليست لها ملكية شخصية.

والفيئ في العبارات المذكورة تعني جميع أموال بيت المال، فقوله ﷺ توفير فيئكم تعني أنّ وظيفة الحاكم الإسلامي تعني إداء الأموال العامة إلىٰ المحتاجين والمعوزين وأصحاب الحق، أي تنظيم الأُمور الاقتصادية والمعاشية للأُمّة أما الحق الثالث الذي أشار إليه الإمام ﷺ فيرتبط بالتعليم والشؤون الثقافية «**وتعليمكم كيلا تجهلوا**».

نعم فالإمام لابدّ أن يعتمد الاسلوب التعليمي الصحيح ويهب لمكافحة الجهل والأُمية ويرفع المستوىٰ الثقافي لدىٰ الناس ويستأصل جذور الجهل التي تقود الأُمّة إلىٰ التخلف والانحطاط. وأمّا الحق الرابع والأخير فهو «**وتأديبكم كيما تعلموا**».

فالواقع أنّ الإمام ﷺ أوجز الحقوق المهمّة للأمة في أربع هي:

١ـ المشاريع والخطط الصحيحة

٢ـ العدالة الاجتماعية في المجال الاقتصادي

٣ـ التعليم

٤ـ التربية والتهذيب والقضاء علىٰ الفساد الاخلاقي

جدير بالذكر أنّ الإمام عبر عن الحق الثالث بقوله «**وتعليمكم كيلا تجهلوا» والحق الرابع «وتأديبكم كيما تعلموا**».

والحال أنّ نتيجة التعليم هي العلم والمعرفة، بينما يقود التأديب إلىٰ تربية الخصال الأخلاقية لا العلم والمعرفة، إلّا أنّ مراد الإمام ﷺ:

لابدّ أن تقفوا علىٰ آثار الفضائل وأضرار الرذائل، لتتحلوا بالاولى وتواجهوا الثانية ـ فالحق الثالث يشير في الواقع إلىٰ العقل النظري بينما يشير الحق الرابع إلىٰ العقل العملي ثم تطرق الإمام ﷺ إلىٰ حقوق الإمام علىٰ الأمّة الإسلامية وأوجزها هي الأُخرى في أربع

فقال عليه السلام: «**وأما حقي عليكم: فالوفاء بالبيعة**».

والبيعة هي العهد بين الأمّة والإمام؛ العهد الموثق الذي يجب العمل به، وعلىٰ ضوء هذا العهد فانّ الإمام والحاكم لابدّ أن يأخذ بنظر الاعتبار مصالحة الأُمّة ويرسى دعائم الأمن والاستقرار ويقاتل العدو ويمهد السبيل أمام الأُمّة للسمو والتكامل، كما يجب على الأُمّة أن تشد أزره وتقف إلىٰ جانبه وتتجنب كل ما من شأنه تشد أزره وتقف إلى جانبه وتتجنب كل ما من شأته المساس بهذا العهد والميثاق الحق الثاني الذي ذكره الإمام عليه السلام: «**والنصيحة في المشهد والمغيب**» فلا يكونوا منافقين يظهرون المحبّة والاخلاص في حضوره، فان غاب عاثوا الفساد وسلكوا الخيانة.

فقد لايكون الإمام حاضراً بينهم على الدوام، إلّا أنّ الله حاضرا لا يخفى عليه شئ ولا ينبغي أن يعيش المومن الغفلة عن هذا الأمر أمّا الحق الثالث الذي ذكره الإمام عليه السلام: «**والإجابة حين أدعوكم**» فلا ينبغي أن تتعللوا ببعض الذرائع فراراً من مواكبتي، لابدّ أن تطيعوا أوامري وتقتفوا أثري، والحق الرابع والاخير «**والطاعة حين آمركم**» فلعل البعض يلبي دعوة الإمام، إلّا أنّه لايطيع مايصدره من أوامر، وعليه فاجابة الدعوة لابدّ أن تكلل بطاعة الاوامر.

وبالطبع فانّ حقوق الإمام علىٰ الأُمّة إنّما تعود بالنفع مباشرة علىٰ الأُمّة، وعليه فلا ينبغي لهم أن يمنوا على الإمام، بل الإمام يمن على الأُمّة بانه يعتمد هذه الحقوق لاعادة الأمن والاستقرار إلىٰ الأُمّة واعمار بلادها. وقد صرح بعض شرّاح نهج البلاغة بأنّ هذه الحقوق المتبادلة إنّما تختص بالإمام العادل المنصوب من جانب الله سبحانه، لا لكل إمام صالح كان أم طالح، ومن هنا قال الإمام عليه السلام: «**إنّ لي عليكم حقاً**»[١].

لكن يبدو أنّ عبارة الإمام شاملة عامة وهذا ما يفهم من قوله عليه السلام «**لابدّ الناس من أمير بر أو فاجر**»[٢] فكل من تزعم أمور المجتمع وأراد أن ينهض بالأُمّة لابدّ أن يحترم الحقوق الأربع التي ينبغي أن تتمتع بها الأُمّة والتي أشار إليها الإمام عليه السلام ويبدو أن العقل والمنطق يرشد إلىٰ ما أورده الإمام عليه السلام في الخطبة.

---

١. مفتاح السعادة ٦ / ٨٤ـ ٨٥.
٢. نهج البلاغة، الخطبة ٤٠.

تأمّلات

١ـ الحقوق المتبادلة للإمام والأمّة

إنّ الحكومة رابطة بين الإمام والأُمّة على غرار رابطة الرأس بالجسد، حيث يتعذر القيام بالوظائف دون تظافر جميع الجهود، بعبارة أُخرى فانّ أولياء الله في الوقت الذي يكوتون فيه خلفاء الله في الخلق، فهم خلفاء الأمّة من أجل ضمان مصالحها، ومن هنا كانت الحقوق المتبادلة بين الإمام والأُمّة من أثقل الحقوق وأعظمها.

وقد وردت الأبحاث المسهبة في الروايات بشأن هذه الحقوق، والتي تفيد مدىٰ إهتمام الإسلام بهذا الموضوع الحيوي.

فقد افرد المرحوم الكليني باباً في المجلد الأول من كتابه أصول الكافي بهذا الخصوص وقد نقل أول حديث فيه عن أبي حمزة انه سأل الإمام الباقر عليه السلام: «**ما حق الإمام علىٰ الناس**»؟

قال عليه السلام: «**حقه عليهم أن يسمعوا له ويطيعوه**» قال فقلت له: «**وما حقهم عليه**».

قال: «**يقسم بينهم بالسوية ويعدل في الرعية**».

ولا يستبعد أن تكون الجملة الاولىٰ إشارة إلىٰ المسائل الاقتصادية والثانية إلىٰ القضايا الاجتماعية والسياسية. ثم قال عليه السلام آخر الحديث: «**فاذا كان ذاك في الناس فلا يبالي من أخذ هاهنا وهاهنا**»[1] في إشارة إلىٰ أنّ الناس علىٰ كل حال إنّما يحصلون علىٰ حقهم. سواء كان مصداقه هنا أم هناك.

حقاً أن سيرة أمير المؤمنين عليه السلام انموذج مهم لابدّ من اعتماده كقدوة في الحكومة الإسلامية. فقد كان عليه السلام شديداً في أمر العدالة حتى وقف نفسه وضحى بها من أجلها. قال ابن أبي الحديد:

روى علي بن محمد بن أبي يوسف المدائني عن فضيل بن الجَعْد، قال: آكدُ الأسباب في تقاعد العرب عن أميرالمؤمنين عليه‌السلام أمْر المال، فإنّه لم يكُنْ يُفَضِّلُ شريفاً على مشروف، ولا عربيّاً على عَجَميّ، ولا يُصانع الرؤساء وأمراء القبائل، كما يصنع الملوك، ولا يستميلُ أحداً إلى نفسه. وكان معاوية بخلاف ذلك، فترك الناس علياً والتحقوا بمعاوية؛ فشكى على

---

١. اصول الكافي ١ / ٤٠٥.

عليه السلام إلى الأشتر تخاذُلَ أصحابه، وفرار بعضهم إلى معاوية، فقال الأشتر: يا أميرالمؤمنين؛ إنا قاتلنا أهل البَصْرة بأهلِ البصرة وأهل الكوفة، ورأي الناس واحد، وقد اختلفوا بعد، و وضعفت النيّة، وقلّ العدد، وأنت تأخُذُهم بالعدل، وتعمل فيهم بالحق، وتُنْصِف الوضيع من الشريف؛ فليس للشريف عندك فَضْلُ منزلةٍ على الوضيع، فضجّت طائفة ممّن معك من الحقّ إذ عُمُّوا به، واغتمُّوا من العدل إذ صاروا فيه، ورأوا صنائعَ معاوية عند أهل الغَناء والشرف، فتاقَتْ أنفُس النّاس إلى الدنيا، وقلّ مَنْ ليس للدنيا بصاحب، وأكثرهم يَجْتوي الحقّ ويشتري الباطل، ويؤثر الدنيا، فإن تَبْذُلِ المال يا أميرَالمؤمنين تَمِلْ إليك أعناقُ الرجال، وتَصْفُ نصيحتُهم لك، وتَسْتَخْلِصْ وُدّهم؛ صنع اللّه لك يا أميرالمؤمنين! وكَبتَ أعداءك، وفضّ جمعهم، أوهن كيدَهم، وشَتّت أمورَهم، إنّه بما يعملون خبير.

فقال عليّ عليه السلام: أمّا ما ذكرت من عَمَلنا وسِيرتنا بالعَدْل؛ فإنّ اللّه عزّوجلّ يقول: **﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَما رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾**؛ وأنا من أن أكون مُقَصِّراً فيما ذكرتَ أخْوَفُ.

وأما ما ذكرت من أنّ الحق ثَقُل عليهم ففارقونا لذلك، فقد علم اللّه أنّهم لم يُفارقونا من جَوْر، ولا لجأوا إذ فارقونا إلى عَدْل، ولم يلتمسوا إلّا دنيا زائلة عنهم كان قد فارقوها؛ وَلَيُسْأَلُنّ يوم القيامة: أللدنيا أرادوا أم للّه عملوا؟

وأمّا مَا ذكرْتَ من بَذْل الأموال واصطناع الرجال؛ فإنّه لا يَسَعُنا أن نؤتيَ أمراً من الفيء أكثرَ من حقّه، وقد قال اللّه سبحانه وتعالى وقوله الحق: **﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصّابِرِينَ﴾**، وقد بعث اللّه محمّدا صلى اللّه عليه وحْدَه؛ فكثّره بعد القلة، وأعزّ فئته بعد الذِّلَّة؛ وإنْ يُرِدِ اللّه أنْ يولِيَنا هذا الأمرَ يذلّل لنا صَعْبَه، ويُسهّل لنا حَزْنه، ولْنا قابل من رأيك ما كان للّه عزّوجلّ رضاً؛ وأنت من آمن الناس عندي، وأنصحِهم لي، أوْثَقِهم في نفسي إنْ شاء اللّه.

٢- تعارض الحق والمصلحة!

عادة ما يحدث تعارض بين الحق والمصلحة ليكون أحدهما مقابل الآخر. وغالباً ما يميل

ساسة الدنيا في هذه الحالة إلى المصلحة ويقدمونها على الحق. والتأريخ مليىء بنماذج هذا التعارض وما أكثره في عصرنا الراهن حيث نشاهده كل يوم ـ أما أولياء الله والقادة الربانيين فهم لا يترددون في إيثار الحق. وفي مقدمتهم أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي سلك الحق مع أعدائه فضلاً عن أصحابه فقد قيل بأن العدل في تقسيم بيت المال حقاً لكنه لا يتفق مع المصلحة ولابد من تقديم الأشراف والأثرياء على غيرهم في مقابل الحد من سهم الضعفاء، بينما كان الإمام عليه السلام لا يتهاون في إجراء العدل وإن شقّ على صحبه وإنفرجوا عنه وإلتحقوا بعدوه، ولعلنا نلمس ذلك في هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة. ولعل أغلب هذه المشاكل لم تكن لتظهر على السطح لو تسلم الإمام عليه السلام ذمام الأمور بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله كما أمر الله ورسوله بذلك، إلا أن قضية التمييز في العطاء قد ظهرت على عهد الخلفاء وبلغت ذروتها على عهد عثمان الذي كان ينفق المال على بطانته وقرابته دون حساب، حتى طبعوا على هذه الإمتيازات فصعب إعادتهم إلى الحق وجادة الصواب. أضف إلى ذلك فإن إزدياد حجم الغنائم وكثرة أموال بيت المال هي الأخرى كانت سبباً لأن يضحي البعض كطلحة والزبير ـ وهما من السابقين إلى الإسلام وصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله ـ بالحق من أجل مصالحهم الشخصية، ومن هنا تعقدت المشاكل التي إعترضت حكومة الإمام عليه السلام ـ إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام ورغم علمه بظهور ما لا يحصى من المشاكل إن هو آثر الحق على المصلحة، لكنه لم يتخل عن سياسته المعهودة لعلمه بأن الهزيمة والخذلان تكمنان في إيثار المصلحة على الحق، ناهيك عن كون نفس هذا الإيثار يعني تعطيل أحد القيم الإسلامية، في حين إحياؤها ونقلها للأجيال المستقبلية يفوق أهمية تحقيق بعض الإنتصارات الوقتية ولعل هذا الأمر يشكل ردا على أكثر الأسئلة التي تطرح بشأن حكومة علي عليه السلام ـ وهذا ما سنتحدث عنه في حينه في الأبحاث القادمة إن شاء الله.

الخطبة[1] ٣٥

ومن خطبة له ﷺ

بعد التحكيم وما بلغه من أمر الحكمين وفيها حمد الله على بلائه، ثم بيان سبب البلوى.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْخَطْبِ الْفَادِحِ وَالْحَدَثِ الْجَلِيلِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالِمِ الْمُجَرِّبِ تُورِثُ الْحَسْرَةَ، وَتُعْقِبُ النَّدَامَةَ. وَقَدْ كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يُطَاعُ لِقَصِيرٍ أَمْرٌ!

فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُخَالِفِينَ الْجُفَاةِ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعُصَاةِ حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنُصْحِهِ، وَضَنَّ الزَّنْدُ بِقَدْحِهِ، فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هَوَازِنَ:

أَمَرْتُكُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى ... فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إِلاَّ ضُحَى الْغَدِ»

نظرة إلى الخطبة

كما ذكرنا سابقا فقد أورد الإمام ﷺ هذه الخطبة بعد إنتهاء قضية التحكيم. فقد كانت نتيجة

١. وردت هذه الخطبة مع اختلاف طفيف في مروج الذهب للمسعودي والكامل لابن أثير وأنساب الأشراف للبلاذري وتاريخ الطبري والإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري وصفين لنصر بن مزاحم، كما رواها البسط بن الجوزي في تذكرة الخواص وأبوالفرج الإصفهاني في الأغاني (مصادر نهج البلاغة، ١ / ٤٥٩).

التحكيم شاقة على العالم الإسلامي. وقد دلت على أن الإمامﷺ نهى عن التحكيم وحث على مواصلة القتال خشية تلك النتيجة ـ ومن هنا شدّد الإمامﷺ في ذمه لأهل الكوفة وحملهم مسؤولية تلك النتيجة بسبب تمردهم وعدم طاعتهم.

الشرح والتفسير

نتيجة العصيان

خطب الإمام ﷺ هذه الخطبة في ظل ظروف عصيبة ومأساة عظيمة، فقد أثمرت مؤامرة معاوية وعمرو بن العاص إثر استغلال جهل أبو موسى الأشعري ومن وقف إلىٰ جانبه، فقد تمكن ابن العاص من حسم التحكيم لصالحه، ظاناً أنّه عزل الإمام علي ﷺ عن الخلافة ونصب معاوية مكانه!

طبعاً الإمام ﷺ كان قد شعر ببالغ الآسىٰ والحزن لأنّه تكهن بهذه النتيجة وقد أطلع أهل الكوفة عليها، إلّا أنّ الجهل والعصبية والأنانية والتخاذل حال دون الاتعاظ بإرشادات الإمام ﷺ ومواعظه الحكيمة.

على كل حال إستهل الإمام ﷺ الخطبة ـ كما درج عليه في سائر الخطب ـ بحمد الله والثناء عليه، الحمد والثناء الذي يستبطن نكهة خاصة، فقد أورده الإمام ﷺ حتى في ظل هذه الحادثة الأليمة والبلاء العظيم «**الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب [1] الفادح [2] والحدث الجليل**».

فالطريف أنّ الإمام ﷺ أولاً يحمد الله علىٰ هذه الحادثة ليعلم أنّ حمد اللّه والثناء عليه لا يقتصر علىٰ الحوادث المسرة والتوفيقات والنجاحات والفيوضات المعنوية والمادية، بل يجب حمده على كل حال في السراء والضراء والعافية والبلاء والغلبة والفشل، حتى الحوادث المريرة تشتمل علىٰ فلسفة لو سبر غورها لتبيّن أنّها جزء من النعم الإلهية.

---

١. «خطب» علىٰ وزن ختم العمل المهم بين الإنسان والآخرين ومن هنا يصطلح بالمخاطبة علىٰ الحوار الذي يدور بين فرد وآخر.

٢. «فادح» بمعنى ثقيل ومن هنا يقال أفدحه الدين لمن أثقل كاهله.

ثانياً: أنّه ينسب هذه الحادثة المريرة إلىٰ الدهر، ونعلم أن الدهر لايعني سوى أهله، وإلّا فبزوغ الشمس والقمر وهطول المطر وهبوب الرياح وسائر الظواهر الطبيعية ليست علىٰ شيً حتى تخلق مثل هذه الحوادث فالناس وبفعل أعمالهم الشائنة هم الذين يكونون السبب لمثل هذه الحوادث!

ولا شك إنّ هذه الحادثة لم تكن لتقع لوطاع أهل العراق الإمام ﷺ والتفتوا إلىٰ تحذيراته واتعظوا بنصائحه. والمراد بالخطب الفادح قضية التحكيم التي جرت الويلات علىٰ العالم الإسلامي.

صحيح أنّ قضية التحكيم ـ كما سيمر علينا في البحث القادم ـ لم تغير من حقيقة الأمر شيئاً، الا أنّها كانت ذريعة كبرى لمعاوية ورهطه من أجل إغواء الجهال وتحريف الأفكار، كما أدت إلىٰ ظهور البدع في العالم الإسلامي.

وقوله ﷺ «**حدث جليل**» هو تأكيد آخر لاثار السوء لتلك البدعة المشؤومة.

ثم يردف ﷺ الحمد والثناء بالشهادة لله بالوحدانية ولمحمد ﷺ بالعبودية والنبوة «**وأشهد أن لا اله إلّا الله لا شريك له، ليس معه إله غيره، وأنّ محمّداً عبده ورسوله**» فالاتيان بالشهادتين في مطلع الخطبة وأن تضمن التأكيد من جديد علىٰ لزوم تقوية دعائم التكامل الإنساني وإحياء الاصول العقائدية الإسلامية، إلّا أن يشير إلى قضية الحكمين، وذلك أن الأُمّة قد جاوزت أصل التوحيد واتجهت صوب أفعال الشرك وتجاهلت التأسي برسول الله ﷺ فاستسلمت لاهوائها.

ثم تطرق ﷺ إلىٰ الهدف الأصلي من الخطبة «**أما بعد، فان معصية الناصح الشفيق العالم المجرب**[1] **تورث الحسرة وتعقب الندامة**». فالعبارة بمنزلة الكبرى وبيان قاعدة كلية في أنّ المستشار إذا تحلى بأربع صفات فانّ مخالفته توجب الندامة والحسرة لا محالة. الاولىٰ صفة النصح وارادة الخير ومقتضى ذلك السعي لاحقاق الحق.

الثانية القلب المفعم بالعطوفة والرأفة والحب وإرادة السعادة والخير النابعة من أعماق

---

١. «مجرب» على وزن محقق ممن يتمتع بمعرفة عظيمة بفعل كثرة التجارب إلّا أنّ العرب تلفظه مجرب بالفتح على وزن مقرب.

القلب لمن يطلب الاستشارة. الثالثة العلم والوقوف علىٰ كافة جوانب الأمر وتحليل جميع الملابسات ودراسة الحوادث والنتائج المتمخضة عنها الرابعة التجربة الكافية في القضايا الفردية والاجتماعية المهمة؛ أي التحلي بالعقل العملي إلىٰ جانب العقل النظري فاذا كان هنالك مثل هذا الفرد يتمتع بمثل هذه الصفات فانّه يبلغ بالإنسان واقع الأمر لا محالة، كما أنّ مخالفته لاتقود سوىٰ إلىٰ الحيرة والضلال والندم والخسران الذي يفرزه الجهل والغرور.

وما إنّ يفرغ الإمام عليه السلام من بيان الكبرى (القاعدة الكلية) حتى يتطرق إلىٰ الصغرىٰ والمصداق المطلوب فيقول «**وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري، ونخلت**[١] **لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمرا!**» فقد كشف الإمام عليه السلام عن مخالفته لاصل التحكيم فضلا عن كيفيته والطريقة التي تم فيها.

ولقد أخبرهم عن آثار هذه القضية المشؤومة، إلّا أنّ تعصبهم ولجاجتهم حالت دون سماعهم لرأى الإمام عليه السلام فاصروا على باطلهم والآن يجنون ثمار جهلهم والعبارة «**لو كان يطاع لقصير أمر**» مثل مشهور عند العرب، فهو قصير صاحب جذيمة، وحديثه مع جذيمة ومع الزباء مشهور فضرب المثل لكل ناصح يعصى بقصير، ويطلق علىٰ الأفراد الذين لايصغون إلىٰ الناصح المجرب الشفيق والذي لا يعقب سوىٰ الندم.

فالإمام عليه السلام يشبه نفسه بقصير وأهل الكوفة بجزيمة الجاهل ومستشاريه البلهاء، حتى وقعوا في شباك عمرو بن العاص ومعاوية. ثم قال عليه السلام: «**فأبيتم علي إباء المخالفين الجفاة والمنابذين**[٢] **العصاة، حتى إرتاب الناصح بنصحه، وضن**[٣] **الزند**[٤] **بقدحه**[٥]».

لقد حذرتكم من أنّ رفع المصاحف على الحراب مكر وخديعة، فقد بلغ القتال مرحلة

---

١. «نخلت» من مادة «نخل» بمعنى تنقية الشئ، واستعمال هذه المفردة في الخطبة تشير إلىٰ الرأي الصائب الذي طرحه الإمام عليه السلام على أصحابه بشأن التحكيم.

٢. «منابذين» من مادة «نبذ» بمعنى الابعاد، وتستعمل هذه المفردة في نقض العهد، وذلك لان ناقض العهد إنّما يطرح العهد بعيدا عنه.

٣. «ضن» من مادة «ضنن» بمعنى البخل والامساك.

٤. «زند» بمعنى الخشب الذي يشعلون به النار (حيث كانوا يولدون النار سابقا بضرب خشبتين ببعضهما، ثم اطلق علىٰ كل وسيلة لاشعال النار ومنه الزناد).

٥. «قدح» ومنه القداحة ما يخرج منه النار.

خطيرة وأو شك على نهايته وقد لاحت بوادر النصر، إلّا أنكم لم تسمعوا كلامي وتركتم القتال وإذ عنتم للتحكيم. وقد قلت لكم إن كان ولابدّ فابعثوا ابن عباس حكماً، فلم تقبلوا، ثم أشرت عليكم بما لك الأشتر فلم تستجيبوا وأبيتم إلّا أبي موسى الأشعري الاحمق الجاهل الذي لايقوى على ابن العاص فلم تكن النتيجة سوىٰ خيبتكم وخسرانكم وندمكم[١].

والعبارة «**المخالفين الجهاة**» ان مخالفتكم لي لم تقتصر علىٰ سوء تشخيصكم، بل كان ذلك بدافع من جفائكم وعصيانكم وطغيانكم. وقد أكد هذا المعنى بقوله «**المنابذين العصاة**».

وأمّا قوله «**ضمن الزند بقدحه**» فهو مثل أيضاً يقال لمن يكف عن الافصاح بالحقايق لعدم وجود من يسمع، فقد إراد ﷺ خالفتموني حتى ظننت أنّ النصح الذي نصحتكم به غير نصح، لا طباقكم واجماعكم على خلافي، وتعني العبارة الأخيرة أنّه لم يقدح لي بعد ذلك رأي صالح لشدة ما لقيت منكم من الاباء والخلاف والعصيان. ثم قال ﷺ فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن:

أمرتكم أمري بمنعرج اللوىٰ فلم تستبينوا النصح إلّا ضحى الغد

وأخو هوازن صاحب الشعر هو دريد بن الصمة، وأبياته مذكورة في الحماسة. وكان من خبر هذا الشعر أنّ عبدالله وهو اسم أخر لعارض وهو أخو دريد ـ كان أسود إخوته، فغزا ببني جشم وبني نصر إبني معاوية بن بكر بن هوازن؛ وغنم مالاً عظيماً بمنعرج اللوىٰ ؛ فمنعه دريد عن اللبث، وقال: إنّ غطفان ليست بغافلة عنا، فحلف أنّه لايريم حتى يقسم، وأوقعوا بعبدالله وقتلوه فهرب دريد بعد أن نجى منهم، فانشد هذا البيت الذي إستشهد به الإمام ﷺ في الخطبة[٢].

---

١. راجع مروج الذهب ٢ / ٢٩٠ وسترد بعض الايضاحات لهذه الخطبة لاحقاً.

٢. الاغاني لابى الفرج الاصفهانى ١٠ / ٣، شرح نهج البلاغة للعلّامة الخوئي ٤ /٨٨، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٢٠٥.

تأمّلان

١ـ قصة التحكيم

إن الذي دعا إليه طلب أهل الشام له وإعتصامهم به من سيوف أهل العراق، فـقد كـانت أمارات القهر والغلبة لاحت، ودلائل النصر والظفر وضحت. وفي هذه الأثناء رفع أهل الشام المصاحف على الرماح. فسأل مالك الإمامعليه السلام مواصلة القتال. فقام الأشعث بن قيس مغضباً فقال: يا أميرالمؤمنين أجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحق به منهم، وقد أحب الناس البقاء وكرهوا القتال ـ فقالعليه السلام: هذا أمر ينظر فيه.

فنادى الناس من كل جانب: الموادعة. فقالعليه السلام: أيها الناس إني أحق من أجاب إلى كتاب الله، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وصحبهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني أعـرف بهم منكم، صحبتهم صغاراً ورجالاً، فكانوا شر صغار وشر رجال، ويحكم إنها كـلمة حـق يراد بها باطل، إنهم ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها، ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة، أعيروني سواعدكم وجماجكم ساعة واحدة، فقد بلغ الحق مقطعه، ولم يبق إلا أن يقطع داير الذين ظلموا. فجاءه من أصحابه زهاء عشرين ألفا مقنعين في الحديد، شاكي سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود فنادوه باسمه لا بأمير المؤمنين: يا علي أجب القوم إلى كتاب الله إذا دعيت إليه، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم. فقال لهم: ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه. إني إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم، ونقضوا عهده، ونبذوا كتابه، ولكني أعلمتكم أنهم قد كادوكم، وإنهم ليس العمل بالقرآن يريدون. قالوا: فإبعث إلى الأشتر ليأتينك ـ فقال الأشتهر: قل لعليعليه السلام ليس هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني عن موقفي. فارتفع وهج القوم وعلت الأصوات وقالوا لعليعليه السلام: والله ما نراك أمرته إلا بالقتال، فابعث إليـه يأتـيك وإلا فـوالله إعتزلناك. فبعث له الإمامعليه السلام ثانية. فقال الأشتر: أبرفع هذه المـصاحف؟ قـال: نـعم. قـال: ألاترى إلى الفتح. ثم أقبل الأشتر حتى إنتهى إليهم فصاح فيهم أمـهلوني فـواقـا فـإني قـد أحسست بالفتح. فلم يجيبوه. فلما إنتهى الأمر إلى الحكمين قالعليه السلام هذا إبن عباس أوليّه ذلك فهو لابن العاص. فلم يوافق الأشعث ورهطه. فقالعليه السلام: فإني أجعل الأشتر. فقال الأشعث:

وهل سعرّ الأرض علينا إلا الأشتر. ثم إضطر الإمامﷺ لقبول أبوموسى. فاتفق معه عمرو بن العاص على أن يخلع كل صاحبه ويدعون الناس للشورى. فتقدم أبوموسى ثم قال: أيها الناس أجمع رأيي ورأي صاحبي على خلع عليّ ومعاوية ويكون الأمر شورى بين المسلمين. فقام عمرو بن العاص وقال: إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية في الخلافة، فإنه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه.[١]

٢ـ الاستفادة من آراء الآخرين

لاشك أنّ الشورى تشكل أحد أُسس التعاليم الإسلامية التي حظت بأهمية فائقة في الآيات القرآنية والروايات والأخبار. فالقرآن يرىٰ أنّ المشورة من علامات الإيمان، ويجعلها في مصاف الصلاة والزكاة ــ التي تعد من أركان الإسلام ــ ﴿**وَالَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾.[٢]

كما أمر الله سبحانه صراحة باستشارة المؤمنين في الأمور المهمة، رغم إتّصال رسول اللهﷺ بالوحي وكونه العقل الكامل ﴿**وَشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾[٣] والمهم في قضية المشورة إنتخاب المستشار الذي يتحلى ببعض خصائص الصفات التي وردت في الخطبة التي نحن بصددها: «**الناصح الشفيق العالم المجرب**» ، والحق أنّ مخالفة الفرد الذي يتصف بهذه الصفات لا تفضي سوىٰ إلىٰ الحسرة والندامة.

صحيح أنّ المتعصبين في صفين لم يستشيروا الإمام ﷺ إلّا أنّ الإمام ﷺ أبدىٰ رأيه الذي يمثل رأي الناصح الشفيق والعالم المجرب، إلّا أنّهم وللأسف الشديد لم يستجيبوا لرأى الإمامﷺ وهبوا لمجابهته وهددوه بالقتل، فلم تتمخض النتيجة سوىٰ عن ندمهم التاريخي الذي جر الويلات علىٰ العالم الإسلامي.

---

١. إقتباس وتلخيص لما ورد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/٢٠٦ ـ ٢٥٦.
٢. سورة الشورى / ٣٨
٣. سورة آل عمران / ١٥٩.

الخطبة[1] ٣٦

ومن خطبة له ﷺ

في تخويف أهل النهروان

«فَأَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ أَنْ تُصْبِحُوا صَرْعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا النَّهَرِ، وَبِأَهْضَامِ هَذَا الْغَائِطِ، عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَلاٰ سُلْطَانٍ مُبِينٍ مَعَكُمْ: قَدْ طَوَّحَتْ بِكُمُ الدَّارُ وَاحْتَبَلَكُمُ الْمِقْدَارُ. وَقَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُنَابِذِينَ، حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمْ وَأَنْتُمْ مَعَاشِرُ أَخِفَّاءُ الْهَامِ، سُفَهَاءُ الْأَحْلاٰمِ؛ وَلَمْ آتِ ـ لاٰ أَبَا لَكُمْ ـ بُجْراً وَلاٰ أَرَدْتُ لَكُمْ ضُرّاً».

نظرة إلى الخطبة

واضح أنّ الإمام ﷺ خطب هذه الخطبة في النهروان جنب النهر في يوم القتال عام ٣٧ هـ وقد أشار ﷺ ألى ثلاثة أمور:

١ـ عدم خوض القتال دون قيام الدليل الشرعي والبينة من الله، وإلّا فأنّهم يقضون على أنفسهم.

---

١. وردت هذه الخطبة أو بعضها مسندة أو مرسلة من قبل المؤرخين والمحدثين.
م ـ قال ابن أبي الحديد (٢٨٣/٢) نقلها ابن حبيب البغدادي (المتوفي عام ٢٥٤).
ب ـ ابن قتيبة الدينوري في الامامة والسياسة، ١٢٧/١.
ج ـ البلاذري في أنساب الأشراف، ٣٧١/٢.
ء ـ الطبري في تاريخ الرسل والملوك، ٣٣٧٧/٦.

٢ـ أنّ القوم تذرعوا بقضية التحكيم، والحال أنّ الإمام عليه السلام كان يرفضها منذ البداية.

٣ـ أنّهم يقاتلون الإمام عليه السلام دون أن يصدر عنه ما يدعو لذلك من معصية، فانّ كان هنالك من خلاف فقد صدر منهم ومن بعض الأفراد، ومن الجهل تحميل الإمام عليه السلام مسؤولية ذلك الخلاف، وهكذا أتم عليهم الإمام عليه السلام الحجة.

الشرح والتفسير

إتمام الحجة علىٰ الخوارج

كما أشرنا سابقاً فان الإمام عليه السلام خطبها قبل بدأ معركة النهروان التي أفرزتها قضية التحكيم. فقد خرجت تلك الطائفة الجاهلة علىٰ الإمام بعد التحكيم لتعتبره هو المسؤول عنه، في حين كان الإمام عليه السلام يعارض أصل التحكيم من الأساس إلىٰ جانب رفضه الحكم. فالواقع أنّ الخطبة إتمام الحجة عليهم. فقد إستهل خطبته بالقول «**نحن أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وعنصر الرحمة ومعدن العلم والحكمة ـ نحن أفق الحجاز، بنا يلحق البطيء وإلينا يرجع التائب**»[1] ثم خاطبهم قائلاً: «**فانا نذير لكم أن تصبحوا صرعىٰ**[2] **باثناء هذا النهر، وبأهضام**[3] **هذا الغائط**[4] **علىٰ غير بينة من ربكم، ولا سلطان مبين معكم**». فعبارة الإمام عليه السلام نبوءة صريحة بشأن عاقبة معركة النهروان حيث أخبرهم بأنّهم سيصرعون دون النهر، والافضع من ذلك موقفهم العسير يوم القيامة واسوداد وجوههم، حيث ليس لهم من دافع للقتال سوىٰ العصبية والجهل دون وجود أية بينة.

شرعية يمكنهم الاستناد إليها وعليه فهم يهلكون أنفسهم في الحياة الدنيا وليس لهم في الآخرة إلّا النار. ثم قال عليه السلام «**قد طوحت**[5] **بكم الدار وأحتبلكم**[6] **المقدار**» والمفردة (دار) إشارة

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٢٨٣.

٢. «صرعىٰ» جمع «صريع» من مادة «صرع» بمعنى طريح، و تعني الجنازة أو المقتول الملقى علىٰ الأرض؛ كما يطلق علىٰ من يسقط علىٰ الأرض في المصارعة، و من هنا يطلق مرض الصرع علىٰ من يغمى عليه و يقع علىٰ الأرض.

٣. «أهضام» جمع هضم وهو المطمئن من الوادي وتعني الكسر والضغط.

٤. الغائط ما سفل من الأرض والمراد هنا المنخفضات.

٥. «طوحت» من مادة «طرح» بمعنى السقوط والهلكة، وإذا ورد من باب التفعيل كما ورد في الخطبة فانّه بمعنى القذف في المتاهة والمضلة.

٦. «احتبل» من مادة «حبل»، أوقعكم في حباله، والمقدار القدر الإلهي.

إلىٰ دار الدنيا أو بعبارة أُخرى الاغترار بالدنيا والعبودية لها و«**احتيل**» من مادة حيل بمعنى الفخ، والمراد بالمقدار حسب بعض شرّاح نهج البلاغة الفكر الخاطيء والتحليل العبثي لمختلف الحوادث، وقال البعض الآخر تعني القدر الإلهي. وإذا تأملنا تأريخ الحادثة سيتضح لدينا الأثر البالغ الذي لعبه كلام الإمام ﷺ في هذه الطائفة، فقد كانت طائفة متعصبة لجوجة جاهلة هزيلة. ثم أشار ﷺ إلىٰ قضية التحكيم فقال «**وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة فابيتم علي إباء المخالفين المنابذين، حتى صرفت رأيي إلىٰ هواكم**»إنكم لتحملوني مسؤولية عمل أنتم إرتكبتموه، بل أبعد من ذلك جعلتم تهددوني بالقتل على قبوله، والآن بعد أن تبيّن لكم فداحة خطأ العمل تحاولون إلقاء تبعته عليّ «**وأنتم معاشر أخفاء الهام**[1] **سفهاء الأحلام**». يمكن أن تكون هذه العبارة تأكيد لسفاهة وبلاهة أصحاب النهروان.

كما يمكن أن تكون العبارد السابقة ـ كما ذكر ذلك بعض شرّاح نهج البلاغة ـ إشارة إلىٰ خفة أهل النهروان الذين تتغير أفكارهم وحركتهم لأدنى شيئ، فهم يتعصبون يوماً للتحكيم، وآخر يعادونه أشد العداء، أمّا العبارة الأخيرة فهي تشير إلىٰ ضحالة فكرهم، وذلك لأن مؤامرات العدو كانت تتكشف يوماً بعد آخر ولم تكن خافية علىٰ أهل البصائر إلّا أنّهم لم يكونوا يرونها أو يدركونها؛ الأمر الذي جعلهم يخدعون أكثر من مرة بحيل معاوية وبطانته، فيرتكبون ما يؤدي إلىٰ بؤسهم وشقائهم وجر الويلات والمصائب علىٰ المسلمين. ثم يختتم الإمامﷺ خطبته بالتأكيد علىٰ هذه الحقيقة بأنّ كل ما يصيبكم من بلاء ممّا إرتكبته أيديكم ولست طرفا فيه أبداً، بل خالفتموني وشهرتم سيوفكم لتهددوني بالقتل «**ولم آت ـ لا أبا لكم! ـ بجرا ولا أردت لكم ضراً**». العبارة لا أبا لكم يمكن أن تكون سباً ولعناً، تشير إلىٰ أنّكم لم تحظوا بتربية أسرية إسلامية صحيحة، ومن هنا فانّكم تفعلون الأفعال الشائنة وتنسبوها إلىٰ الآخرين، ويمكن أن تكون دعاءا عليهم؛ أي أمات الله آبائكم وهي في الواقع كناية عن ذلتهم وهوانهم؛ لأنّ فقدان الأب في ريعان الشباب تدعو إلىٰ الذلة والهوان.

---

١. «الهام» جمع هامة رأس الإنسان أو سائر الكائنات الحية، واخفاء الهام تعني ضعاف العقل.

قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج

ذكرنا حين شرحنا للخطبة الشقشقية في المجلد الأول أنّ الخوارج فئة متعصبة وجاهلة قد ظهرت من بطن صفين وقضية التحكيم. فقد أقرت مسألة التحكيم (عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري) وفرضوها على الإمامعليه السلام. ولم يصغوا إلى قول الإمامعليه السلام أنها خدعة ولم يبق إلا القليل على ختم فتنة أهل الشام وزعيمهم معاوية. لكنهم ندموا بعد نتيجة التحكيم وتابوا لكنهم أفرطوا هذه المرة حيث حكموا بكفر قبول التحكيم وشعارهم الحكم لله فلابد أن يتوب عليعليه السلام من هذه المعصيته. قال الإمامعليه السلام أن التحكيم ليس كفرا، فقد أشار القرآن إلىٰ هذه المسألة في حل الخلافات العائلية «فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها» وفي كفارة الإحرام «يحكم به ذوا عدل منكم» لكن التحكيم الذي أقررتموه كان خاطئا ـ على كل حال إقتنع هؤلاء ـ وكان من بينهم بعض المتظاهرين بالعبادة والإتيان بالمستحبات ـ بقشور الإسلام وتركوا جوهره فاجتمعوا ضد أميرالمؤمنينعليه السلام في منطقة قرب الكوفة تدعى الحروراء قرب النهروان. فبالغ الإمامعليه السلام في وعظهم ونصحهم حتى عاد أكثرهم إلى رشده بينما بقي أربعة آلاف منهم فلما تثبت المعركة صرعوا جنب النهر ولم ينج منهم إلا القليل كما أخبر الإمامعليه السلام.

وقد شهدت حياة الخوارج وسيرتهم العديد من التناقضات العجيبة ومن ذلك:

١ـ لقيهم عبدالله بن الخباب في عنقه مصحف، على حمار، ومعه إمرأته وهي حامل، فقالوا له: إن هذا الذي في عنقك ليأمرنا بقتلك، فقال لهم: ما أحياه القرآن فأحيوه،

وما أماته فأميتوه، فوثب رحيل منهم على رطبة سقطت من نخلة فوضعها في فيه، فصاحوا به، فلفظها تورعا. وعرض لرجل منهم خنزير فضربه فقتله، فقالوا: هذا فساد في الأرض، ثم قالوا لابن الخباب: حدثنا عن أبيك. فقال: إني سمعت أبي يقول: سمعت رسول اللهصلى الله عليه وآله يقول: ستكون بعدي فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، فكن عبدالله المقتول ولا تكن القاتل ـ قالوا: فما تقول في علي بعد التحكيم والحكومة؟ قال: إن عليا أعلم بالله وأشد توقيا على دينه وأنفذ بصيرة ـ فقالوا: إنك لست تتبع الهدى، ثم قربوه إلى شاطىء النهر فأضجعوه فذبحوه.[1]

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٨١/٢ و تأريخ الطبري ٦٠/٢ ـ ٦١، حوادث عام ٣٧.

٢ـ قال قيس بن سعد بن عبادة: إستنطقهم الإمامﷺ بقتل عبدالله بن الخباب فأقروا به، فقال: إنفردوا كتائب لأسمع قولكم كتيبة كتيبة. فأقرا جميعا بقتله. فقال عليﷺ: «والله لو أقر أهل الدنيا كلهم بقتله هكذا وأنا أقدر على قتلهم به لقتلتهم».[1]

٣ـ حين هجم الخوارج على جيش الإمامﷺ إلتفت إلى أصحابه فقال: والله لا ينجو منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة.

والعجيب أنه لم يقتل من أصحاب الإمامﷺ سوى تسعة ولم ينج من الخوارج إلا ثمانية.

٤ـ كانت قضية الخوارج قد فعلت فعلها في الإمامﷺ وقد إنعكست سلبا على الوسط الإسلامي، فكانﷺ لا ينفك عن التحدث عنها ليبين للناس كيفية إنحرافهم فيعتبروا بهم، ولا غرو فمثل هذا التفكير السطحي المشوب بالجهل والعناد لا يخلو منه عصر ومصر. والخطب التي تحدث فيها الإمامﷺ عن الخوارج هى الخطبة: ٤٠، ٥٩، ٦٠، ٦١، ١٢١، ١٢٢، ١٢٧، ١٨٤، والرسالة ٧٧، ٧٨ والتي سنعرض لشرحها جميعا إن شاء الله.

الجدير بالذكر أن خط الخوارج ـ كما ذكرنا ـ تيار يتواجد على مدى التأريخ ولا يقتصر على عهد عليﷺ ـ فهم فئة لا تعرف من الدين سوى ظاهره ولا تعتد إلا بأفعالها وأعمالها وترى إنحراف كل من سواها وقد ملئت سيرتها بالتناقضات، فهى بلاء وآفة تصيب المجتمع. والغريب في الأمر أن الإمامﷺ أشار إلى هذه الفئة كظاهرة فوصفهم في الخطبة ٦٠ قائلا: «كلا والله، إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارات النساء كلما نجم منهم قرن قطع حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين».

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/٢٧١ ـ ٢٨٢.

الخطبة[1] ٣٧

ومن كلام له ﷺ

يجري مَجرى الخطبة وفيه يذكر فضائله ﷺ قاله بعد وقعة النَّهروان.

نظرة إلىٰ الخطبة

بناءً علىٰ ما ذكره ابن أبي الحديد فانّ هذه الخطبة تشتمل علىٰ أربعة فصول لا يمتزج بعضها ببعض:

الفصل الأول: يشير فيه الإمام ﷺ إلىٰ خدماته الجليلة التي أسداها للإسلام إبان انبثاق الدعوة الإسلامية فقد أوجز ذلك بقوله: «**فقد قمت بالأمر حين فشلوا وتطلعت حين تقبعوا ونطقت حين تعتعوا ومضيت بنور الله حين وقفوا، كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف. لم يكن لأحد في مهمز ولا لقائل في مغمز**».

---

١. قال صاحب مصادر نهج البلاغة هذه من الخطب المعروفة التي رواها أغلب العلماء والمحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضي(ره) ومنهم:

١ـ الجاحظ في البيان والتبيين ١ / ١٧٠.

٢ـ ابن قتيبة الدينوري في الإمامة والسياسة ١ / ١٥٠.

٣ـ ابن عبد ربة في العقد الفريد ٤ / ٧١.

٤ـ البلاذري في كتاب أنساب الأشراف (في شرح سيرة علي ﷺ) / ٣٨٠.

٥ـ القاضي نعمان المصري في دعائم الإسلام ١ / ٣٩١ (مع اختلاف وما ورد في النهج وقال الشارح الخوئي يستفاد من بحار الأنوار والإحتجاج والإرشاد أنّ هذه الخطبة جزء من الخطبة ٢٧ (شرح نهج البلاغة، الخوئي ٤ / ٢١).

الفصل الثاني يشير إلىٰ وقوفه الصلب علىٰ الدوام بوجه الظلمة من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

الفصل الثالث يشير إلىٰ إستحالة الكذب عليه لأنه أول من صدق بالنبي ﷺ وعليه فلا ينبغي أن يستسرب الشك إلىٰ إخباره عن المغيبات التي أخبره بها رسول الله ﷺ.

الفصل الرابع يختتم الخطبة بعذره في البيعة لمن سبقه من الخلفاء، وأنّه فعل ذلك طاعة لرسول الله ﷺ وخشية الفرقة والتشتت في صفوف المسلمين واستغلال ذلك من قبل خصوم الدعوة الإسلامية.

القسم الأول

«فَقُمْتُ بِالْأَمْرِ حِينَ فَشِلُوا وَتَطَلَّعْتُ حِينَ تَقَبَّعُوا وَنَطَقْتُ حِينَ تَعْتَعُوا وَمَضَيْتُ بِنُورِ اللّٰهِ حِينَ وَقَفُوا ـ وَكُنْتُ أَخْفَضَهُمْ صَوْتاً وَأَعْلاٰهُمْ فَوْتاً فَطِرْتُ بِعِنٰانِهٰا وَاسْتَبْدَدْتُ بِرِهٰانِهٰا، كٰالْجَبَلِ لاٰ تُحَرِّكُهُ الْقَوٰاصِفُ وَلاٰ تُزِيلُهُ الْعَوٰاصِفُ. لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ فِيَّ مَهْمَزٌ وَلاٰ لِقٰائِلٍ فِيَّ مَغْمَزٌ».

80 03

الشرح والتفسير

الصمود أمام العواصف

ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ الفصل الأول من الخطبة يتضمن ذكر الإمام ﷺ لمقاماته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيام أحداث عثمان، وكون المهاجرين والأنصار كلهم لم ينكروا ولم يواجهوا عثمان بما كان يواجهه به وينهاه عنه إلّا أنّ سياق الكلام يشير إلىٰ الحوادث التي وقعت على عهد النبي ﷺ ولا سيما في بداية انطلاق الدعوة الإسلامية. فقال ﷺ **«فقمت بالأمر حين فشلوا وتطلعت[1] حين تقبعوا[2] ونطقت حين تعتعوا[3] ومضيت بنور الله حين وقفوا. وكنت أخفضهم صوتاً وأعلاهم فوتاً[4]»** ثم أضاف ﷺ أنّه تألق تلك المدة وحاز السبق علىٰ الآخرين **«فطرت بعنانها واستبددت برهانها[5]، كالجبل لا تحركه**

---

١. «تطلعت» من مادة «طلع» بمعنى مد العنق بحثا عن شيئ، وأصلها طلوع بمعنى الظهور والبروز.

٢. «تقبعوا» من مادة «قبع» بمعنى الاختباء، وأصله تقبع القنفذ إذا أدخل رأسه في جلده.

٣. «تعتعوا» من مادة «عتع» بمعنى تلعثم اللسان، والمراد ترددوا في كلامهم.

٤. فوت تعني فقدان الشيئ، وتطلق علىٰ التفاوت بين شيئين وابتعاد مما عن بعضهما بحيث لا يدرك أحد هما الآخر، ومن هنا تطلق هذه المفردة علىٰ من يسبق الآخرين، وهذا هو الذي اريد بها في العبارة.

٥. «الرهان» من مادة «رهن» بمعنى جعل الشيئ عند الاخر، ومن هنا يطلق الرهن علىٰ وثيقة الدين، كما يطلق الرهان علىٰ جوائز المسابقات، والمراد بقوله «استبددت برهانها» إنفردت بجائزة هذه المسابقة الإلهية.

القواصف ولا تزيله العواصف، لم يكن لأحد فيّ مهمز[1] ولا لقائل في مغمز[2]».

فقد أشار الإمام عليه السلام إلىٰ أربعة أُمور هي:ـ

الأول: أنّ الآخرين كانوا آنذاك يعانون من الضعف والعجز، وأنا الذي نهضت بالأمر وقمت بوظيفتي.

الثاني: أنّ الخوف دفع الآخرين آنذاك لأن يقبعوا في جحورهم وأنا الذي إنبريت للأمر وكنت أتطلع إلىٰ العدو.

الثالث: أنا الذي نطق لساني بالحق وبيان الحقائق الدينية والتعاليم الإسلامية حين عجز الآخرون عن الكلام.

الرابع: لم يعترني الشك آنذاك كما إعترىٰ الآخرين فواصلت سبيلي علىٰ هدي من ربي ونور إيماني ويقيني بالوحي.

ورغم كل ما تقدم لم أكن لأتفاخر على أحد «**كنت أخفضهم صوتاً**» ثم يخلص عليه السلام من كل ذلك إلىٰ نتيجة مؤداها «**فطرت بعنانها واستددت برهانها**». ثم يعود عليه السلام للتأكيد علىٰ ما مضى من حوادث وكيف واجهها فقال «**كالجبل لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف**» مع ذلك فقد خضت ما خضت و«**لم يكن لأحد فيّ مهمز ولا لقائل فيّ مغمز**».

كما أوردنا آنفا فانّ المراد بهذه العبارات ما حدث في بداية إنبثاق الدعوة الإسلامية؛ لأننا نعلم جميعاً بانّ علياً عليه السلام كان أول من أسلم حين كان الإسلام غريباً ولم يكن هناك من يهب للدفاع عن الإسلام والقرآن والنبي صلى الله عليه وآله ؛ المعنى الذي يلمس بوضوح في يوم الدار حين انطلقت الدعوة الإسلامية للعلن بعد ثلاث سنوات من الدعوة السرية.

ولم يجب النبي صلى الله عليه وآله ويعلن دعمه له ووقوفه إلىٰ جانبه سوى علي عليه السلام وفي ليلة المبيت نام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله لينجو من مؤامرة قريش التي استهدفت قتله. ناهيك عن فتح خيبر حين عجز الآخرون، وبروزه لعمرو بن عبدود العامري في الأحزاب حين لم يكن غيره من انبرى لقتاله.

---

١. لم يكن في مهمز من الهمز يعني لم يكن في عيب أعاب به.

٢. «الغمز» بمعنى الطعن والغماز من يبحث عن العيوب ويطعن بالناس، وهذا هو المراد بالعبارة.

كما يحتمل أن يكون المراد بالقيام بالأمر والجمل اللاحقة الدفاع عن الإسلام على عهد الخلفاء، لانّ أغلب المورخين المسلمين يقرون بان علياً عليه السلام كان المفزع في حل المشاكل والمعضلات التي تواجه المسلمين.

فقد وردت العبارة المعروفة عن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب «**اللّهم لا تبقني لمعضلة ليس لها أبو الحسن**»[١].

أو ما تناقلته كتب الفريقين والتي تؤكد هذا المعنى، حتى صرح بعض أرباب اللغة أنّ العبارة «**مشكلة ليس لها أبو الحسن**» أصبحت مثلاً لدىٰ العرب. وهنالك إحتمال ثالث في أن يكون المراد قيامه عليه السلام بأمر الخلافة بعد انهيار حكومة عثمان وإثر تلك العواصف التي عصفت بالمسلمين بعد مقتل الخليفة الثالث، فقد تصدعت آنذاك عرىٰ المجتمع الإسلامي، وقد تأهبت عناصر النفاق ومن تبقي من أسلاف الجاهلية ومشركي العرب، فلم يكن للأُمّة من أمل سوىٰ علي عليه السلام، أجل لقد نهض الإمام عليه السلام بالامر في ظل تلك الظروف وحفظ وحدة المسلمين.

أما قوله «**كنت أخفضهم صوتاً**» فلعله إشارة إلىٰ تواضع الإمام عليه السلام إلىٰ جانب كل تلك الانتصارات والنجاحات، أو إشارة إلىٰ أن الإمام عليه السلام لم يكن من أهل التظاهر وإثارة الصخب والضوضاء فهذه معاني الأفراد الضعفاء العجزة.

ومن هنا أردفها بقوله «**وأعلاهم فوتا**» التي تعني السبق علىٰ الآخرين، السبق في الإيمان والهجرة، والسبق بالجهاد والقتال، وأخيرا السبق في كافة الفضائل الأخلاقية.

وقوله عليه السلام «**فطرت بعنانها واستبددت برهانها**» هو الآخر تأكيد لهذا الأمر، ولا سيما أن فاء التفريع وردت في البداية كنتيجة للبرامج السابقة، أي أنّي ركبت مركب النصر وسبقت الآخرين، وذلك لانّي لم أشعر بالضعف طرفة عين ولم أهب الحوادث المرعية وأفقد الفرص المواتية، ومع ذلك لم أثير أية ضجة أو صخب وضوضاء.

ثم يشبه نفسه عليه السلام بالجبل العظيم الذي لا تحركه القواصف ولا تزيله العواصف. والطريف في الأمر أن الإمام عليه السلام ذكر القواصف ثم أردفها بالعواصف، وذلك لان القواصف تعني الرياح

---

١. ورد هذا الحديث بعدة تعبيرات في أغلب مصادر العامة، ومن أراد الوقوف علىٰ المزيد فليراجع الغدير ٩٧/٣.

العاتية الكاسرة، والعواصف الرياح السريعة الجارفة، في اشارة إلىٰ أنّ الحـادثة كـانت مـن الشدة بحيث تقضي علىٰ الإنسان في موضعه، وأحيانا تكون أكثر شدة فـتجرفه كـما تجـرف أوراق الشجر وتقذف به في مكان سحيق.

ثم قال ﷺ: «**ولم يكن لأحد في مهمز ولا لقائل في مغمز**». فالمعروف أنّ من يعمل يخطي ومن يرد الميدان الاجتماعي ويمارس الأنشطة والفعاليات فانّه يتعرض إلىٰ بعض الانتقادات من هنا وهناك. فما ظنك بالإمامﷺ الذي كان سباقاً في كل الميادين. وبالطبع فـانّ العـيوب والمطاعن في غيره لم تحص رغم ندرة إقتحامه للميدان الاجتماعي.[1]

٭٭٭

١. لقد أوردنا توضيحات مسهبة بهذا الشأن في شرح الخطبة الشقشقية.

القسم الثاني

«الذَّلِيلُ عِنْدِي عَزِيزٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ لَهُ وَالْقَوِيُّ عِنْدِي ضَعِيفٌ حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ، رَضِينَا عَنِ اللّٰهِ قَضَاءَهُ وَسَلَّمْنَا لِلّٰهِ أَمْرَهُ».

الشرح والتفسير

القوي عندي ضعيف

لما كانت عدالة الإمام ﷺ هى السبب الذي يقف وراء أغلب الحوادث الأليمة والحروب الدامية، واعتياد الناس لسنوات علىٰ الظلم والجور والاضطهاد علىٰ عهد الخلفاء الثلاث ولاسيما عصر عثمان، فانّهم لم يكونوا مستعدين بهذه السهولة لقبول منطق المساواة أمام القانون وفي العطاء من بيت المال.

فالإمام ﷺ يؤكد في هذه الخطبة أنّي سأواصل سيرتي في العدل وإحقاق الحق وانتزاعه من القوي، بل هذا هو هدفي من الحكومة، وبناءً عليه فالقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه والضعيف قوي حتى آخذ الحق له «**الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه**» ومن هنا كان لاينفك ﷺ عن تأكيده علىٰ الحديث المعروف عن رسول الله ﷺ والذي ضمنه عهده إلىٰ مالك بعد أن أوصاه قائلاً: واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه للّٰه الذي خلقك... فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول لن تقدس أمّة لا يؤخذ للضعيف فيها حقّه من القوي غير متتعتع».[1]

١. نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

كان الإمام عليه السلام شديد الحرص على العدالة لا يؤثر عليها أي شيً وقد وردت عدة أحاديث بهذا الشأن في أنّ الإمام عليه السلام كان يقسم عطاء بيت المال فقدم رجل من الأنصار فاعطاه ثلاثة دنانير، ثم دخل عليه عبد أسود فاعطاه ثلاثة أيضاً. فقال له الأنصاري، يا أمير المؤمنين سويت بيني وبين عبدى الذي عتقته بالأمس. فقال عليه السلام لم أرفي الكتاب فضلاً لولد اسماعيل على ولد اسحاق «**إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة إن الناس كلهم أحرار**»[١].

ثم قال عليه السلام: «**رضينا عن الله قضاءه وسلمنا له أمره**» تنطوي هذه العبارة على معنيين: الأول أنّ الله أمرنا بنصرة المظلوم ومقاتلة الظالم، وإنّي مسلم لهذا الأمر ولابدّ من التسليم والرضى قبل الاخرون شاءوا أم أبوا.

نصرة المظلوم ومجابهة الظالم

لقد شحن نهج البلاغة بوصاياه عليه السلام التي تؤكد على الحكومة الإسلامية في أن تكون للمظلوم عوناً وللظالم خصماً. ومن ذلك ماورد في خطبته المعروفة بالشقشقية من أنّ الحكومة وسيلة للانتصاف للمظلوم «**وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم**»، أما أخر وصية لولده الحسن عليه السلام والحسين عليه السلام «**كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً**».[٢]

وقال في موضع آخر من نهج البلاغة «**وآيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً**»[٣].

ولا غرابة فالقرآن الكريم قد أكد هذا الأمر ليحث المؤمنين على نصرة المظلومين ولو تطلب ذلك القتال ﴿**وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظّالِمِ أَهْلُها وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً**﴾[٤].

١. روضة الكافي / ٦٩ ح ٢٦.
٢. نهج البلاغة، الرسالة ٤٧.
٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٣٦.
٤. سورة النساء / ٧٥.

جدير بالذكر أنّ الفلسفة الأصلية لتشكيل الحكومة وتشريع القوانين(سواء القوانين الإلهية أو الوضعية التي تسنها الأنظمة البشرية)هو حفظ حقوق الضعفاء وتوفير الدعم والاسناد لهم، لأنّ الطغاة والجبابرة يعتمدون منطق القوة الغاشم من أجل هضم حقوق الآخرين، وعليه فلو تخلت الحكومة والقانون عن دعم المظلومين والمستضعفين فانّها ستفقد فلسفة وجودها لتتحول إلىٰ وسيلة بيد الظلمة لتبرير ظلمهم وجورهم. ومن هنا كان قبول الإمامعليه‌السلام للحكومة كما ذكر ذلك في خطبته الشقشقية يكمن في الوقوف إلىٰ جانب المظلوم ومجابهة الظالم.

ومن هنا أيضا فإن القانون يعطي نتيجة معكوسة في المجتمعات التي تغير مسار القانون بالرشوة، لأن الراشي هو الظالم لا المظلوم ـ وفي هذه المجتمعات يتحول القانون إلى مصدر دخل غير مشروع للظلمة وأداة لتوجيه ظلم الآخرين. لكن ينبغي العلم بأن تحمل العدل ومجابهة الظلم ودعم المظلوم إنما يشق علىٰ الأعم الأغلب. فمن الصعب قبول العدل من قبل من يرى مراعاته تشكل خطرا على مصالحه اللا مشروعة، أو الأسوأ من ذلك من يرى لنفسه إمتيازا في المجتمع ولا يمكنهم أن يتساوى مع الآخرين ويرىٰ أن من الإسادة إليه أن يتساوى معهم، فيعمد إلى عرقلة مسيرة الحكومة العادلة ولا يتورع عن ممارسة أبشع الأعمال. وهؤلاء هم الأفراد الذين وقفوا بوجه الإمامعليه‌السلام وأثاروا الفتن والإضطرابات وحرفوا الوسط الإسلامي.

وأخيرا فقد ورد أنّ سبب إنفراج العرب عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام إنّما يكمن في الأموال وكيفية توزيعها، فلم يكنعليه‌السلام يرىٰ من فضل لشريف علىٰ غير شريف أو عربي علىٰ أعجمي، كما لم يكن يستن بسنة السلاطين في معاملة زعماء القبائل، ولم يستميل أحدا عن طريق المال أبداً، بينما كان معاوية يمارس العكس تماماً.[١]

١. بحار الانوار ٤٢ / ١٣٣.

القسم الثالث

«أَ تَرَانِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللّٰهِﷺ؟ وَاللّٰهِ لَأَنَا أَوَّلُ مَنْ صَدَّقَهُ! فَلاَ أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ كَذَبَ عَلَيْهِ. فَنَظَرْتُ فِي أَمْرِي. فَإِذَا طَاعَتِي قَدْ سَبَقَتْ بَيْعَتِي وَإِذَا الْمِيثَاقُ فِي عُنُقِي لِغَيْرِي».

الشرح والتفسير

أول من أسلم

كما أشرنا سابقاً يبدو أنّ ما ورد في هذه الخطبة فصول مختلفة من خطبة طويلة فصلها السيد الرضي (ره) عن بعضها البعض، ولذلك قد لا يكون هناك من ترابط وثيق بين هذه الفصول. على كل حال فانّ هذا الفصل من الخطبة يتناول أمرين: الأول إخباره‌ؑ عن الحوادث الآتية مصرحاً بأنّ ذلك ممّا علمه إياه رسول اللّٰهﷺ، ومن ذلك إخباره عن وقائع الجمل وصفين والنهروان، أمّا بعض ضعاف الإيمان كانوا يشككون في أخبار الإمامؑ، فرد عليهم بالقول **«أتراني أكذب على رسول اللّٰهﷺ؟ واللّٰه لأنا أول من صدقه! فلا أكون أول من كذب عليه»**. لقد صدقته حين كذبه الناس، وكنت أول من صدق به فشمرت في الدفاع عنه، كنت أقيه بنفسي في الحروب والمواقف التي تنكص فيها الابطال، أفيمكن أن أنحرف عن طريقتي وأكذب عليه محال ذلك. الاحتمال الآخر في تفسير هذه العبارة أنّ الإمامؑ أراد أن يقول: بايعت من سبقني من الخلفاء لا لأنّهم أجدر بها مني، بل دفعاً للخلاف والفرقة في صفوف المسلمين طاعة لأمر رسول اللّٰهﷺ، أفترون أني أكذب على رسول اللّٰهﷺ بهذا الكلام، أم تعتقدون أنّي أنقض وصية النبيﷺ؟ وعليه فقد بايعت من بايعت وتنازلت عن

حق طاعة لرسول اللهﷺ. ويبدو أنّ هذا التفسير هو الأنسب لأنّه ينسجم والعبارت اللاحقة. ثم قالﷺ: «**فنظرت في أمري، فاذا طاعتي قد سبقت بيعتي وإذا الميثاق في عنقي لغيري**» والتفاسير وإن إختلفت بشأن هذه البعارة ـ التي تعد من عبارت نهج البلاغة المعقدة ـ إلّا أنّ التفسير الذي أوردناه آنفا هو الانسب من جميع التفاسير وكأنّ العبارة تجيب علىٰ سؤال قد يقتدح إلىٰ الأذهان في أنّ الإمامﷺ لم يبايع الخلفاء الثلاث وهو يرى أنه أجدر بالخلافة منهم وقد نص رسول اللهﷺ علىٰ إمامته؟ وجواب الإمامﷺ أن رسول اللهﷺ عهد إليّ السكوت حفظاً للإسلام إن خالفني القوم، ولابدّ لي من البيعة من أجل حفظ المصالح التي يجب عليّ مراعاتها. وعليه فقد جعلت طاعتي لرسول اللهﷺ أولىٰ من بيعتي، كانت عهداً من النبيﷺ في عنقي وليس أمامي سوى الوفاء بالعهد، كما ذهب بعض شرّاح نهج البلاغة، كما أوردنا سابقاً إلىٰ أنّ المراد أنّ طاعة النبيﷺ مقدمة لدي علىٰ بيعة الخلفاء، لقد عهد إليّ النبيﷺ بالسكوت في ظل مثل هذه الظروف، وذكر بعض الشرّاح إنّ المراد بقوله «**فنظرت في أمري..**» أنّ هذه الكلمات مقطوعة من كلام يذكر فيه حاله بعد وفاة رسول اللهﷺ وأنّه كان معهودا إليه ألا ينازع في الأمر، ولا يثير فتنة، بل يطلبه بالرفق، فان حصل له وإلّا أمسك، فالمراد: فنظرت فاذا طاعتي لرسول اللهﷺ؛ أي وجوب طاعتي، قد سبقت بيعتي للقوم، أي وجوب طاعة رسول اللهﷺ وامتثال أمره سابق علىٰ بيعتي للقوم، فلا سبيل إلىٰ الامتناع من البيعة لأنّهﷺ أمرني بها، «**وإذا الميثاق في عنقي لغيري**» أي رسول اللهﷺ أخذ عليّ الميثاق بترك الشقاق والمنازعة، فلم يحل لي أن أتعدى أمره، أو أخالف نهيه.[1] وقال البعض أنّ العبارة تنسجم وما قال الإمامﷺ في الخطبة الشقشقية «**أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر.. لألقيت حبلها علىٰ غاربها**». ويبدو أنّ هذا التفسير هو الآخر مستبعداً، لأنّ القوم تمردوا على طاعة الإمامﷺ قبل البيعة، واعلنوا بيعتهم فلم يكن هناك من ميثاق، إلّا أن نفسر الميثاق مجازياً.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٢٩٦؛ محمد عبده الشارح المعروف والعلّامة الخوئي إختاروا هذا المعنى أيضاً.

عهد رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلىٰ العهد الذي عهده إليه رسول الله صلى الله عليه وآله، ويفهم من العبارة أنّ النبي صلى الله عليه وآله عهد لعلي عليه السلام بمماشاة الخلفاء، وإن لم تستند حكومتهم إلىٰ الموازين الشرعية. وقد صرحت بعض الروايات بمضمون ذلك العهد، ومنها ما أورده المرحوم السيد ابن طاووس في كشف المحجة في رواية عن علي عليه السلام: «**وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلي عهداً، فقال: «يابن أبي طالب! لك ولاء أُمّتي. فان ولوك في عافية واجمعوا عليك بالرضا فقم بأمرهم وإن إختلفوا عليك فدعهم وما هم فيه فانّ الله سيجعل لك مخرجاً**». فالواقع أنّ الإنسان قد يقف أحياناً علىٰ مفترق طرق كلاهما مرير، إلّا أن أحدهما أمّر من الآخر. فالعقل في مثل هذه الحالة يحكم باجتناب الأمّر وتقبل المرير؛ القاعدة التي يصطلح عليها في الفقه بقاعدة الأهم والمهم، كما يعبر عنها أحياناً بدفع الأفسد بالفاسد، وهذا ما سلكه أميرَالمؤمنين عليه السلام بعيد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله. فقد كان أمامه عليه السلام سبيلان لاثالث لهما، إمّا إن يترك حقه المسلم في الخلافة حفظا للإسلام والمصالح الإسلامية، أو أن ينهض بالامر فيطالب بحقه، دون الإكتراث لوحدة المسلمين وتربص الاحزاب الجاهلية بالإسلام والفرصة التي كان ينتظرها المنافقون بفارغ الصبر أملا في إقتتال المسلمين وتسللهم إلىٰ الحكومة، الأمر الذي تكهن به رسول الله صلى الله عليه وآله فعهد لعلي عليه السلام ذلك العهد، ولم يكن من علي الذي أوقف نفسه للإسلام سوىٰ الالتزام بذلك العهد.

٭٭٭

الخطبة ٣٨

ومن كلام له ﷺ

وفيها علّةُ تسمية الشُّبهة شبهةً ثُمَّ بيانُ حال النّاسِ فيها.[1]

نظرة إلى الخطبة

إنّ أدنى تأمل للخطبة سيفيد أنّ هذا الكلام فصل من كلام طويل إختاره السيد الرضي (ره)، ومن هنا نرى الكلام عبارة عن فصلين، أحدهما غير منسجم مع الآخر، بل مبتور عنه. أمّا الفصل الأول فهو الكلام في الشبهة ولماذا سميت شبهة، وسبيل الخلاص من الشبهات. والفصل الثاني بيان حال الناس إزاء الموت، حيث لا ينجو منه من خافه، ولا يمنح البقاء من طلبه فكلاهما ميت. وتدل القرائن على أن الرضي (ره) كان يلتقط الكلام إلتقاطاً، ومراده أن يأتي بفصيح كلامه ﷺ وما يجري مجرى الخطابة والكتابة، ويؤيد هذا العبارة «من كلام له» و«من خطبة له» ونعرف أنّ من هنا تبعيضية، فلم يقل ومن خطبته أو ومن كلماته، فقد أراد أن ما ورد هنا جزء من خطبته ﷺ. على كل حال فانّ الخطبة ورغم قصرها تتناول موضوعين أحدهما؛ الشبهة والآخر الموت.

---

١. نقل هذه الخطبة الامدي في غررالحكم مع إختلاف طفيف وما ورد في نهج‌البلاغة، ويفهم من هذا أنّ الآمدي قد روى هذه الخطبة من مصدر آخر غير نهج‌البلاغة (مصادر نهج‌البلاغة ١ / ٤٣٥).

«وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الشُّبْهَةُ شُبْهَةً لِأَنَّهَا تُشْبِهُ الْحَقَّ: فَأَمَّا أَوْلِيَاءُ اللّٰهِ فَضِيَاؤُهُمْ فِيهَا الْيَقِينُ وَدَلِيلُهُمْ سَمْتُ الْهُدَى وَأَمَّا أَعْدَاءُ اللّٰهِ فَدُعَاؤُهُمْ فِيهَا الضَّلَالُ وَدَلِيلُهُمُ الْعَمَى، فَمَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ مَنْ خَافَهُ، وَلاَ يُعْطَى الْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ».

الشرح والتفسير

النجاة من الشبهة

يستفاد من بعض المصادر أنّ هذا الفصل من الخطبة يتعلق بقصة طلحة والزبير ومعركة الجمل؛ لأنّها خلقا شبهة لدى الناس ودعوهم لنكث البيعة والقيام ضد الحق. ومن عناصر تلك الشبهة زج زوج النبي‌ﷺ في تلك المعركة والمطالبة بدم عثمان وما شاكل ذلك. قد تحدث الإمام‌ؑ عن الشبهة قائلا: «**وإنّما سميت الشبهة شبهة لأنّها تشبه الحق**» ومن هنا كانت سببا لخداع السذج وذريعة بيد الشياطين للفرار من الحق. فالواقع أنّ الأُمور التي تواجه الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية لا تخرج عن ثلاث؛ فقد يكون الحق ظاهراً جلياً كأن نقول من يعمل الخير يحصد الخير ومن يعمل الشر يحصد الشر؛ أو يكون الباطل واضحاً، كأن نقول الفوضى وغياب القانون أفضل من النظام وسيادة القانون، فمن البداهة القول ببطلان هذا الأمر. غير أن هنالك بعض الحالات التي ليست من قبيل القسم الأول ولا الثاني، حيث يتلبس الباطل أحياناً بثوب الحق، أمر ظاهره حق وباطنه باطل، كتلك الأُمور الجوفاء التي تمسك بها أصحاب الجمل وصفين من أجل إشعال نيران تلك المعارك. ويبدو أنّ هذه هي مشكلة المجتمعات البشرية، وقد إتسعت في مجتمعاتنا المعاصرة، حيث نرىٰ أغلب الأهداف الباطلة والسلطة الخبيثة التي تلبست ثياب حقوق الإنسان والدفاع عن الحرية والديمقراطية وحفظ القانون وإعادة السلام والاستقرار إلىٰ المنطقة. ثم أشار‌ؑ إلىٰ طرق النجاة من

الشبهات التي يعتمدها أولياء اللّٰه «**فأما أولياء اللّٰه فضياؤهم فيها اليقين ودليلهم سمت**[١] **الهدى**». فالعبارة قد تكون إشارة لأحد أمرين: الأول أنّ أولياء اللّٰه الذين يؤمنون باللّٰه والغيب إنّما يلوذون بالقرآن وكلمات أئمة العصمة لمواجهة ظلم الشبهات والخلاص منها بدافع من يقينهم بالوحي، وعليه فاليقين في العبارة هو الإيمان باللّٰه ورسوله «وسمت الهدى» إشارة إلىٰ هدي الوحي، كما قال القرآن ﴿**ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾[٢]. وقيل المراد باليقين الاستفادة من المقدمات القطعية والأُمور اليقينية التي من شأنها إنارة الطريق والقضاء علىٰ الشبهة، وبعبارة أُخرى فانّ أولياء اللّٰه الذين لايكترثون للاهواء ويحكمون العقل إنّما يسعهم في ظل هذا لاعقل أن يجتازوا الشبهات ويهتدوا إلىٰ السبيل، ولو كان للأهواء من سبيل إلىٰ العقل لما وسع هذا الفرد تمييز الحق من الباطل إذا إلتبس عليه الأمر. والتفسيران لايتعارضان، ويمكن الجمع بينهما في مفهوم العبارة المذكورة. قد يقال أنّ بعض الآيات والروايات قد اشتملت على المشتبه الذي يتضمن مختلف التفاسير، فما العمل في هذا الحالة؟ لقد أجاب القرآن الكريم صراحة عن هذا السؤال وذلك بالرجوع إلىٰ الآيات المحكمة والروايات الصريحة التي تفسر تلك المتشابهة حتى يتمكن الفرد من إجتياز هذا الامتحان الإلهي بالآيات والروايات المتشابهة. والحياة الإنسانية علىٰ غرار الآيات القرآنية قد تنطوي علىٰ محكمات ومتشابهات، فقد ترىٰ مثلاً حركة مريبة من أحد الأصدقاء تحتمل الوجهين في التفسير، وقد أرشدت مختلف الحوادث إلىٰ نزاهته وعفته خلال كل هذه المسيرة، فلا شك أنّ حسن السيرة هذا من المحكمات وتلك الحركة المريبة من المتشابهات التي يمكن تفسيرها من خلال المحكمات. ثم تطرق الإمام عليه السلام لأعداء اللّٰه في كيفية التعامل مع الشبهات فقال: «**وأما أعداء اللّٰه فدعاؤهم فيها الضلال ودليلهم العمى**» فكل سبيل يتطلب دافعاً ودليلاً من أجل الحركة، وهنا يفترق الأفراد إلىٰ أولياء اللّٰه وأعدائه، فليس لأُولياء اللّٰه من دافع سوى اليقين باللّٰه واليوم الآخر ودليل سوى الوحي والنبوة، بينما دافع أعداء ودليلهم الضلال وهوى

---

١. سمت بمعنى الطريق أو الجادة، كما تطلق مشكل المحسنين، والتسميت هو الدعاء لمن يعطس حيث يسأل الله له السلامة، فالعطسة من علامات السلامة.

٢. سورة البقرة / ٢.

النفس ووساوس شياطين الانس والجن وعمىٰ البصر والبصيرة. ومن هنا فانّ الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة هي مصير الطائفة الأُولىٰ **﴿ألا إنّ أَوْلِياءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ... لَهُمُ الْبُشْرىٰ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ﴾**[1] بينما ليس لأعداء اللّٰه سوىٰ الظلمات **﴿أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللّٰهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ﴾**[2]. أمّا ما ورد في خطبة الإمام﴿ع﴾ فهو صادق على الحياة الفردية وكذلك الحياة الاجتماعية، بل إنّ أبعاده لأعظم وأخطر في الجانب الاجتماعي وقد تجسد النموذج الكامل لذلك في الطائفة الثانية (أعداء اللّٰه) من قبيل الفرق الثلاث التي خاضت معركة الجمل وصفين والنهروان من خلال الشبهات الواهية والادلة الجوفاء الأضعف من بيت العنكبوت لتهب لقتال الإمام﴿ع﴾ وتوجّه ضرباتها الماحقة لكيان الإسلام والمسلمين. جدير بالذكر ما أورده صحيح البخاري عن أبي بكرة ـ أحد صحابة رسول اللّٰه﴿ص﴾ ـ أنّه قال سمعت حديثاً عن رسول اللّٰه﴿ص﴾ نفعني أيام الجمل، فقد كدت أن ألتحق بعسكر أصحاب الجمل، حيث بلغ رسول اللّٰه﴿ص﴾ أنّ طائفة من الإيرانيين قد ولوا عليهم بنت كسرى فقال﴿ص﴾ **«لن يفلح قوم ولو أمرهم إمرأة»**.[3]

تأثير الشبهة في تحريف الحقائق

لو ظهر الباطل كما هو لما خفي على أحد، ولما قبله الوجدان والطبع السليم، ولا يستجيب له سوىٰ مرضى القلوب ومنحرفي الأفكار إلّا أنّ المشكلة تتعقد حين يتزين الباطل بلباس الحق، فيقبل عليه بعض طلاب الحق بعد أن يغترون بحسن ظاهره، وهذه في الواقع إحدىٰ شعب الشبهة. الشعبة الأُخرىٰ أن يمزج مقدار من الحق بمقدار من الباطل فتختفي صورة الباطل القبيحة في ظل الحق. وأخيراً فقد يزيف الباطل ويجمل حتى يبدو بصورة حق دون أن

---

١. سورة يونس / ٦٢ ـ ٦٤.
٢. سورة النور / ٤٠.
٣. صحيح البخاري ٦ / ١٠ باب كتاب النبي﴿ص﴾ إلىٰ كسرى وقيصر.

يمتزج به. وقد حفل تأريخ البشرية بما لا يحصى من الفتن والويلات التي طالته من خلال الشبهات والوساوس الشيطانية، حتى مارس الطغاة والمخادعون سلطتهم على الناس بواسطة تلك الشبهات. وأفضل نموذج على ذلك المعارك الثلاث المعروفة ـ الجمل وصفين والنهروان ـ التي أودت بحياة تلك الجماعة العظيمة من المسلمين وما ذلك إلّا من خلال الشبهات التي إعتمدها أصحاب الباطل من أجل تحقيق أطماعهم ومآربهم؛ فالبكاء ليل نهار على قتل الخليفة المظلوم (عثمان) والطواف بقميصه الملطخ بالدم من أجل تعبئة الناس، حتى من قبل أولئك الذين ساهموا في قتله وتلطخت أيديهم بدمه، ومن ثم الإتيان بأم المؤمنين وركوبها الجمل و... كلها نماذج حية من الشبهة. رفع المصاحف على أسنة الرماح وشعار التسليم الحكم القرآن والحيلولة دون إراقة دماء المسلمين هى الاخرى من شبهات معركة صفين. بل أبشع صورة للشبهة في محاولة تحميل الإمام علي‌عليه السلام مسؤولية قتل عمار بن ياسر في معركة صفين حيث إحتج الإمام‌عليه السلام بقول رسول الله‌صلى الله عليه وآله: «**يا عمار تقتلك الفئة الباغية**»، فاحتج عليه بأنّ الفئة الباغية من أتت بعمار إلى المعركة. أما أصحاب النهروان ممن كانوا يتظاهرون بصلاة الليل وقراءة القرآن التي لاتتجازو تراقيهم، فقد رفعوا شعارهم المعروف «**لا حكم إلّا اللّه**» وقد انطوت هذه الشبهة على فئة عظيمة من الناس والتي أدت في الختام إلى قتلهم وخلودهم في جهنم وبئس المصير. ويشهد عالمنا المعاصر اليوم أسوأ أنواع الشبهات، فما أكثر الشعارات البراقة الساحرة، من قبيل شعار الحرية والديمقراطية والمساواة وتفعيل حقوق الإنسان والحضارة والمدنية وتطوير البشرية والتي ترتكب باسمها أعتى الجنايات وأقبح الجرائم. وسنسلط مزيداً من الضوء على هذا الموضوع حين نصل إلى الخطبة الاربعين والخمسين الواردة بهذا الشأن، كما أشار الإمام‌عليه السلام إلى هذا الأمر في الحكمة ١٩٨ من قصار كلماته في نهج البلاغة.

عبثية الخوف من الموت

يرى أغلب شرّاح نهج البلاغة عدم وجود آية رابطة لقوله‌عليه السلام: «**فما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبه**» وما ورد في أول الخطبة، وأنّ السيد الرضي (ره) إنّما يلتقط

كلام الإمامعليه السلام من أكثر من خطبة. ولعلنا نستطيع تصور رابطة بين الفصلين من الخطبة وذلك أنّ الأفراد قد يستسلمون للشبهات خوفاً من الموت، فإشارعليه السلام إلىٰ أنّ خوف الموت لا ينجي من الموت أبداً. على كل حال فان هذا الفصل من الخطبة يشتمل علىٰ عبارتين تعالج كل منها قضية الموت. فقد قالعليه السلام «**فما ينجو من الموت من خافه**»، بل إنّ هذا الخوف قد يكون من العناصر المقربة للموت. فالموت هو القلادة التي خطت على جيد ابن آدم وسائر الكـائنات الحية والقانون الذي لايعرف الشواذ والاستثناء، فليس هنا لك من خلود سوى للّٰه سبحانه. فجميع الكائنات محدودة وأنّها ستنتهي لامحالة وتؤول إلىٰ الفناء. وليس من بقاء سوىٰ للذات الإلهية المقدسة، وعليه فخوف الموت لن يغير من حقيقته شيئاً، كما أن السعي من أجل البقاء والحياة الخالدة لن يكلل بالنجاح أبداً. ومن هنا قال الإمامعليه السلام في العبارة الثانية «**ولا يعطى البقاء من أحبه**». قد تطول مدة الحياة أو تقصر إلّا أنّها سائرة للزوال في خاتمة المطاف ومن الوهم الساذج والباطل التفكير بالبقاء والخلود. فقد صرح القرآن الكريم **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾** وقال **﴿كُلُّ شَيءٍ هالِكٌ إلّا وَجْهَهُ﴾**. والعبرة هنا في أن يستعد الإنسان للموت ويتزود له، فالموت لا يعني الفناء المطلق بقدر ما يعني الانتقال من دار صغيرة محدودة إلىٰ أخرىٰ كبيرة واسعة تشتمل علىٰ مختلف النعم واللذائذ، وإذا أصلحنا عملنا فليس هـنالك مـا يـدعو إلىٰ الخوف من الموت.

❧

الخطبة ٣٩ [1]

ومن خطبة له ﷺ

خطبها عند علمه بغزوة النعمان بن بشير، صاحب معاوية لعين التمر، وفيها يبدي عذره ويستنهض الناس لنصرته.

نظرة إلى الخطبة

أمر النعمان بن بشير مع عليّ ومالك بن كعب الأرحبيّ

وردت هذه الخطبة كما ذكرنا سابقا حين غزا النعمان بن بشير عين التمر الموضع المعروف في العراق.

وقد كان معاوية قال قبل ذلك بشهرين أو ثلاثة: أمّا من رجل أبعثُ به بجريدة خيل؛ حتى يُغِيرَ على شاطىء الفرات! فإنّ الله يُرعِبُ بها أهلَ العراق! فقال له النعمان: فابْعثْنِي؛ فإنّ لي في قتالهم نيّة وهوًى ـ وكان النعمان عثمانياً ـ قال: فانتدب على اسمِ الله. فانتدَبَ ونَدَب معه ألفَ رَجل، وأوصاه أن يتجنّب المدن والجماعات، وألاّ يُغير إلّا على مَسْلَحة، وأن يعجّل الرجوع.

فأقبلَ النعمانُ بن بشير؛ حتى دنا من عين التّمْر، وبها مالك بن كعب الأرحبيّ الذي جرى له معه ما جَرى، ومع مالك ألفُ رجل؛ وقد أذِن لهم، فرجعوا إلى الكوفة، فلم يبق معه إلّا مائة أو

---

١. وردت هذه الخطبة في ثلاثة مصادر على الأقل قبل السيد الرضي وهي: الغارات لابراهيم بن هلال الثقفي (٢٨٣) وأنساب الاشراف للبلاذري الذي أورد بعضها وتأريخ الطبري الذي روىٰ بعض أقسامها، وكذلك مصادر نهج البلاغة ١ / ٤٣٨.

نحوها، فكتب مالك إلى عليّ عليه‌السلام: أما بعد؛ فإنّ النعمان بن بشير، قد نـزَل بي في جمـع كَثِيف، فَرَ رأيَك، سدّدك اللّٰه تعالى وثبتك. والسلام. فوصل الكتابُ إلى عليّ عـليه‌السـلام؛ فصعد المنبر فحمداللّٰه وأثنى عليه، ثم قال:

اخرجُوا هداكم اللّٰه إلى مالك بن كعب أخيكم، فإنّ النعمان بن بشير قد نَزَل به في جمع من أهل الشام؛ ليس بالكثير، فانهضوا إلى إخوانكم، لعلّ اللّٰهَ يقطعُ بكم من الكـافرين طَـرَفاً. ثم نزل.

فلم يخرجوا، فأرسل إلى وُجُوهم وكُبَرائهم، فأمرَهم أن ينهضُوا ويحثّوا الناسَ على المسير، فلم يصنعوا شيئاً، واجتمع منهم نفر يسير نحو ثلثمائـة فـارس أوْ دونهـا، فـقامعليه‌السلام، فـخطب الخطبة.[1]

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤٣٧/١.

القسم الأول

«مُنِيتُ بِمَنْ لاٰ يُطِيعُ إِذٰا أَمَرْتُ وَلاٰ يُجِيبُ إِذٰا دَعَوْتُ، لاٰأَبٰالَكُمْ! مٰا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ رَبَّكُمْ؟ أَمٰا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ وَلاٰ حَمِيَّةَ تُحْمِشُكُمْ؟ أَقُومُ فِيكُمْ مُسْتَصْرِخاً وَأُنٰادِيكُمْ مُتَغَوِّثاً، فَلاٰ تَسْمَعُونَ لِي قَوْلاً، وَلاٰ تُطِيعُونَ لِي أَمْراً، حَتَّى تَكَشَّفَ الْأُمُورُ عَنْ عَوٰاقِبِ الْمَسٰاءَةِ، فَمٰا يُدْرَكُ بِكُمْ ثٰارٌ، وَلاٰ يُبْلَغُ بِكُمْ مَرٰامٌ».

الشرح والتفسير

سكوت الإمام عليه السلام

أشرنا سابقاً إلىٰ أن الإمام عليه السلام خطب هذه الخطبة حين بعث معاوية النعمان بن بشير ليرعب إحدى مناطق العراق ويضعف معنويات أهلها، فدعا الإمام عليه السلام الناس لقتالهم، غير أن عجز أهل العراق وضعفهم جعلهم يردون بالسلب علىٰ دعوة الإمام عليه السلام، فخطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة لغرضين: الأول: تحميل أهل العراق المسؤولية التامة للمصائب والويلات التي تتعرض لها البلاد بفعل هذا الضعف والذلة تجاه العدو، الثاني: لعل هذه الكلمات تؤثر في تلك الأرواح الهامدة فتلتفت إلىٰ عظم الأخطار التي كانت تتربص بها فتهم بمواجهتها. فقد قال عليه السلام: «**منيت بمن لا يطيع إذا أمرت ولا يجيب إذا دعوت**» فمن الطبيعي أنّ أعظم القادة والأمراء وأشجعهم لا يسعهم فعل شيء إذا ما ابتلوا بمثل هؤلاء الأفراد، وما من فشل أو هزيمة تصيبهم إلّا ويتحملون مسؤوليتها كاملة. ثم قال عليه السلام: «**لا أبا لكم: ما تنتظرون بنصركم ربكم**»؟ إنّ جميع الظروف متوفرة لديكم من أجل القتال، فعندكم العدّة والعدد، كما تعلمون مؤامرات عدوكم وقد أحدق الخطر بكم، فماذا تنتظرون؟ أتتطلعون لقتلكم بهذه الذلة والهوان؟ وقد

أشرنا سابقاً إلىٰ أن قوله ﷺ: «**لا أبا لكم**» إما يفيد عدم تربيتهم التربية الأُسرية الإسلامية الصحيحة بحيث يبدون كل هذا الضعف والعجز، أو أنّه دعاء عليهم بان يميت اللّه آبائهم، وهو الآخر كناية عن الذلة والهوان الذي يستشعره الإنسان لفقد والده. ثم قال ﷺ: «**أما دين يجمعكم ولا حمية تحمشكم**»[١]؟ فالواقع من شأن أي من هذين الأمرين دواء دائهم، فالدين حلقة إتصال يمكنها إستقطاب الفئات والطوائف المختلفة حول هدف مركزي واحد، فاذا غاب الدين الذي يجمعهم، فانّ الغيرة الاجتماعية وحبّ الاهل والوطن إنّما تسوقهم للاتحاد أمام العدو ومواجهته، غير أنّ المؤسف له هو أنّ أهل العراق آنذاك قد فقدوا هذين الدافعين، فلم يكن دينهم محكماً راسخاً، كما لم تكن لهم حمية تجعلهم يغضبون ويواجهون العدو. ولا شك أن مثل هؤلاء القوم يعتبرون عقبة كؤوداً في طريق الحاكم. ومن هنا خاطبهم الإمام ﷺ مصوراً حجم ضعفهم والذل الذي سيطر عليهم «**أريد أن اُداوي بكم وانتم دائي كناقش الشوكة بالشوكة**».[٢]

ومن هنا قال ﷺ: «**أقوم فيكم مستصرخاً**[٣] **وأناديكم متغوثاً**،[٤] **فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً، حتى تكشف الأمور عن عواقب المساءة**»[٥] فهل هناك أعظم من هذه المأساة، في أن يبتلى مثل هذا الإمام ﷺ الشجاع العالم العادل المجرب بمثل هؤلاء القوم الذين لايكترثون لصراخه ولا يطيعون أوامره. ويفيد التأريخ أنّ هذا الأمر لم يقتصر علىٰ أميرالمؤمنين ﷺ وقد مارست الأُمّة نفس هذا الموقف مع الإمام الحسن والحسين ﷺ فقد وقعت حادثة كربلاء ليقتل الإمام وصحبه بتلك الشاعة، آنذاك نَدَم أهل الكوفة وهبوا للمطالبة بدم الحسين ﷺ ولكن بعد أن وقع ما لم يكن ينبغي أن يقع، فقد تخلوا آنذاك عن دعم

---

١. «تحمش» من مادة «حمش»، قال صاحب المقاييس لها معنيين الغضب والنحافة، وقد وردت هنا بمعنى الغضب؛ أي أليس لكم حمية تغضبكم على عدوكم.
٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٢١.
٣. «مستصرخ» من مادة «صرخ»، الصراخ حين الخوف أو المصاب وطلب النصرة.
٤. «متغوث» من مادة «غوث» بمعنى النصرة حين الشدة، وعليه يطلق المتغوث علىٰ من يطلب نصرة الآخرين عند الشدائد.
٥. «المساءة» مصدر مادة «سوء»، بمعنى فقد ان النعم الماديه أو المعنوية الدنيوية أو الاخروية، البدنية أو غير البدنية.

سفير الحسين عليه السلام مسلم بن عقيل ونكثوا بيعته ولزموا بيوتهم، فبقي مسلم وحده يقاتل الأعداء حتى استشهد. وأخيراً خلص الإمام عليه السلام إلى هذه النتيجة **«فما يدرك بكم ثار، ولا يبلغ بكم مرام»**.

القسم الثاني

«دَعَوْتُكُمْ إِلَى نَصْرِ إِخْوانِكُمْ فَجَرْجَرْتُمْ جَرْجَرَةَ[1] الْجَمَلِ الْأَسَرِّ[2] وَتَثاقَلْتُمْ تَثاقُلَ النِّضْوِ[3] الْأَدْبَرِ[4] ثُمَّ خَرَجَ إِلَيَّ مِنْكُمْ جُنَيْدٌ[5] مُتَذائِبٌ[6] ضَعِيفٌ «كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ».

الشرح والتفسير

الضعف أمام العدو

واصل الإمام﵇ ذمه لأهل الكوفة على ما أبدوه من ضعف وعجز تجاه الهجمات المبرمجة للعدو فقال﵇: «**دعوتكم إلىٰ نصر إخوانكم فجرجرتم جرجرة الجمل الأسر، وتثاقلتم تثاقل النضو الادبر**» أي أنّكم أعريتم عن عجزكم في الكلام كما فعلتم ما يفشلكم في الدنيا والآخرة ويمكن العدو من تكبيدكم الخسائر في أموالكم وأرواحكم. فقد دعوتكم لنصر أخوانكم (مالك بن كعب وصحبه ممن تعرضوا لغارات اهل الشام في منطقة عين التمر) فكانت حركتكم كحركة الجمل وتثاقل النضو الادبر «**دعوتكم إلىٰ نصر إخوانكم فجرجرتم**

---

١. «جرجرة» صوت يردده البعير في حنجرته عند عسفه، وقيل من مادة «الجرر» بمعنى الجر، واطلق الجرر لتكراره.

٢. «أسر» من مادة «سرر» المصاب بداء السرر، وهو مرض في كركرة البعير أي زوره ينشأ من الدبرة والقرحة.

٣. «النضو» المهزول من الابل، والأدبر المدبور، أي المجروح المصاب بالدبرة، وهى العقر والجرح من القتب ونحوه.

٤. «أدبر» من مادة «دبر» بمعنى الجرح الذي يتعرض له الحيوان إثر ضغط السراج.

٥. جنيد مصغر جند.

٦. «متذائب» بمعنى مضطرب، من قولهم تذاءبت الريح أي إضطرب هبوها ومنه سمي الذئب ذئباً لاضطراب مشيته.

جرجرة الجمل الأسر، وتثاقلتم تثاقل النضو الأدبر» ولعل تشبيههم بالحيوانات المريضة إشارة إلىٰ ضعفهم الفكري وعجزهم في إتخاذ القرار، لأنّ الإنسان العاقل لايدع العدو يهجم عليه بهذه الطريقة بحيث يضرب أينما شاء دون وازع أو رادع. ثم أشار عليه السلام إلىٰ تلك الفئة القليلة التي لبت دعوته، بينما كان الخوف والهلع يسيطر عليهم «ثم خرج إلي منكم جنيد متذائب ضعيف كأنّما يساقون إلىٰ الموت وهم ينظرون». وقد أورد السيد الرضي (ره) في آخر الخطبة قائلاً: قوله عليه السلام متذائب؛ أي مضطرب، من قولهم: تذائبت الريح، أي اضطراب هبوبها. ومنه سمي الذئب ذئباً، لاضطراب مشيته. ومن هنا فانّ هذه الفئة القليلة لم تكن مصداقاً لقوله سبحانه «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة» بل كانت فئة ضعيفة قلقلة مضطربة كأنّهم يساقون إلىٰ المذبح وهم ينظرون إلىٰ موتهم، فهي فئة عدمها خير من وجودها والوثوق بها مخجل، فما أعظم محنته الإمام عليه السلام وابتلائه بهؤلاء القوم طبعاً قوله عليه السلام كأنّما يساقون إلىٰ الموت وهم ينظرون. إنّما اقتبسه عليه السلام من الآية السادسة من سورة الانفال التي وردت بشأن بعض المؤمنين الضعفاء على عهد النبي صلى الله عليه وآله الذين كانوا يتشبثون بمختلف الذرائع والحجج للفرار من الجهاد إلىٰ جانب جدالهم للنبي صلى الله عليه وآله حول موقعة بدر، غير أنّ حوادث بدر أثبتت لا حقاً مدىٰ خطأهم وتزايد خوفهم عبثاً حتى إنتهت الموقعة بالنصر المؤزر للمسلمين، والعجيب أنّ هؤلاء كانوا من المعترضين علىٰ كيفية توزيع الغنائم بعد انتهاء المعركة. ولعل المراد بالعبارة أن هذه الفئة القليلة لو كانت تمتلك العزم الراسخ والقوة والصلابة من شأنها الانتصار على العدو، غير أن المؤسف...

عاقبة الضعف أمام العدو

رغم أن التعاليم الإسلامية تستند إلىٰ ارساء قواعد السلام مع كافة الأُمم والشعوب ـ باستثناء تلك الحالات التي يشهر فيها السلاح ضد الإسلام والمسلمين ـ إلّا أنها توصي بالشدة والصلابة في بعض الحالات الطارئة، ونموذج ذلك ما ورد في هذه الخطبة وسائر خطب نهج البلاغة بشأن العتاة المردة من أهل الشام من جيش معاوية. فقد كان معاوية يستغل الفرص من أجل إضعاف أهل العراق وزعزعة روحياتهم، فقد كان يجهز بعض الجماعات

ويعبئها لشن غاراتها علىٰ بعض المناطق الإسلامية فتنشر فيها الذعر والخراب والدمار وتذبح من فيها دون الإكتراث للشيوخ والنساء والصبيان إلىٰ جانب نهب الأموال والثروات وقد تكررت مثل هذه الحادثة لأكثر من مرّة علىٰ عهد الإمامعليه السلام. فكان الإمامعليه السلام يستصرخ أهل الكوفة لمواجهة هذه الأخطار فكانوا يردون عليه بكل ضعف وفتور وكأنّهم لم يعلموا بما يجري حولهم وقد غطوا في نوم عميق: الأمر الذي جعل إعتداءات أهل شام تتصاعد يوماً بعد آخر، حتى أصبح العراق بعيد شهادة الإمامعليه السلام لقمة سائغة لمعاوية ورهطة بحيث لم يتمكن الإمام الحسنعليه السلام من الوقوف بوجه ذلك الظالم، ولا عجب في الأمر فلم تكن لديه القوة الكافية من الأفراد التي يستطيع بواسطتها قتال معاوية. ونلمس اليوم هذه الحقيقة بوضوح في عالمنا المعاصر، وإذا لم نلتفت إلىٰ تحرشات العدو وتقبرها في المهد فانّها ستتسع شيئاً فشيئاً، آنذاك لم يمكن المواجهة والصمود. وعليه فلابد من الانتباه إلىٰ أدنى حركة عسكرية أو إعلامية أو إقتصادية والتعامل معها فوراً بمنتهى الصلابة ليضطر العدو للدفاع بدلاً من الهجوم. فعادة ما تحاول العناصر الضعيفة التي تميل إلىٰ الدعة والراحه لحمل مثل هذه الحركات علىٰ البراءة بعيد عن حملها محمل الجد وإساءة الظن بها، والحال أنّها إنّما تبدر من العدو الذي لاينبغي الغفلة عن إتهامه ربّما تتكشف الحقائق. ونختتم البحث بالعبارات الواردة في خطبة الجهاد حيث قالعليه السلام: **«ألا وإنّي قد دعوتكم إلىٰ قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وأعلاناً وقلت لكم: إغزوهم قبل أن يغزوكم: فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلّا ذلوا»**.[١]

سؤال

لعل هنالك من يتساءل لم كل هذه الشدّة من الإمامعليه السلام مع أصحابه ومخاطبتهم بهذه اللكمات وتحقيرهم إلىٰ هذا الحد، أفليس من الأفضل أن يرفق بهم ويتلطف معهم؟

الجواب: بينا الإجابة علىٰ ذلك كراراً في الخطب السابقة، وقلنا أنّ ذلك يمثل آخر الدواء، وكأنّه عملية لاستئصال مرض عضال.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

الخطبة ٤٠

ومن كلام له عليه السلام

في الخوارج لما سمع قولهم: «لا حكم الا اللّٰه»

نظرة إلىٰ الخطبة

خطبهاعليه السلام بعد موقعة صفين حين إعترض عليه الخوارج بقبول التحكيم وانتخاب ممثلين أحدهما من أصحاب الإمام والآخر من أصحاب معاوية لهذا الأمر ليحكما بشأن عاقبة موقعة صفين وخلافة المسلمين، بينما يصرح القران «**إِنِ الحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**» [1] فاقتبسوا من الآية قولهم «**لاحكم إلّا للّه**» ليحتجوا بها على الإمامعليه السلام، وبالطبع فان هنالك مغالطة كبرى وقعوا فيها ولم يدركوا حقيقة الامر. فلما سمع الإمامعليه السلام هذا الشعار، رد بهذه الخطبة وأشار فيها إلىٰ أربعة أمور:

الأول: كشف النقاب عن مغالطتهم في هذا الشعار، وأنّ القول «**لا حكم إلّا للّه**» كلمة حق يريدون بها باطلاً.

الثاني: حاجة الأُمّة إلىٰ الحاكم، وبعبارة أُخرى ضرورة الحكومة.

الثالث: شرح وظائف الحاكم العادل وايجازها في سبع.

الرابع: نتيجة وجود الحكومة العادلة.

وقد نقل المرحوم السيد الرضي (ره) آخر هذه الخطبة نفس هذا المضمون طبق رواية أخرى بعبارات أقصر.

---

١. سورة الانعام / ٥٧؛ سورة يوسف / ٤٠ و٦٧.

«قالَﷺ: كَلِمَةُ حَقٍّ يُرادُ بِها باطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لا حُكْمَ إِلاَّ لِلَّهِ وَلَكِنَّ هَؤُلاءِ يَقُولُونَ: لا إِمْرَةَ إِلاَّ لِلَّهِ، وَإِنَّهُ لا بُدَّ لِلنّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فاجِرٍ يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِنُ، وَيَسْتَمْتِعُ فِيها الْكافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللّهُ فِيها الْأَجَلَ وَيُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، وَيُقاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ؛ حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ وَيُسْتَراحَ مِنْ فاجِرٍ.

فِي رِوايَةٍ أُخْرَى أَنَّهُﷺ لَمّا سَمِعَ تَحْكِيمَهُمْ قالَ: حُكْمَ اللّهِ أَنْتَظِرُ فِيكُمْ. وَقالَ: أَمّا الْإِمْرَةُ الْبَرَّةُ فَيَعْمَلُ فِيها التَّقِيُّ، وَأَمّا الْإِمْرَةُ الْفاجِرَةُ فَيَتَمَتَّعُ فِيها الشَّقِيُّ، إِلَى أَنْ تَنْقَطِعَ مُدَّتُهُ وَتُدْرِكَهُ مَنِيَّتُهُ».

الشرح والتفسير

أشار الإمامﷺ إلىٰ الشعار الذي رفعه الخوارج «لاحكم إلّا للّٰه» بقوله «**كلمة حق يراد بها باطل**» ثم بينﷺ بطلان ما أراده الخوارج من تحريفهم لهذا الكلام الحق بقوله «**نعم إنّه لاحكم إلّا للّٰه ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلّا للّٰه**» خطأ الخوارج في هذا الشعار الحق الذي إقتبسوه من القرآن أنّهم أرادوا به أن الحكومة بين الناس للّٰه، ومن هنا فقد إعترضوا علىٰ مسألة التحكيم ورأوها نوعاً من الشرك، وذلك لأنّها منحت الحكومة لغير اللّٰه من الأفراد! فمن البديهي أن يكون الحاكم بين الناس هو اللّٰه إذا كان الحكم مقتصراً على اللّٰه، وعليه لابدّ من إزالة أصل الحكومة، لما وعليه من إزالة القضاء والمحاكم بالتبع فهي من قبيل الحكومة التي يمارسها الأفراد. لقد خيل لتلك الفئة أنّها تريد أن تعيش توحيد اللّٰه علىٰ مستوى الحاكمية والتخلص من الشرك في هذا المجال، إلّا أنّهم إثر جهلهم وتعصبهم سقطوا في مستنقع الفوضى والهرج والمرج ورفض الحكومة في أوساط المجتمعات البشرية، واصيبوا بالهلوسة التي

جعلتهم يعتقدون بأنّ رعاية التوحيد تتطلب نفي كافة ألوان الحكومة والامرة، غير أنّهم سرعان ما وقفوا علىٰ بطلان مذهبهم في الحكومة لما شعروا بحاجتهم إلىٰ من يتزعمهم ويحكم بينهم، رغم عنادهم الذي أفرزه جهلهم والذي لم يدعهم يفيقون إلىٰ أنفسهم. مع ذلك فقد قضت كلمات الإمامعليه‌السلام مضاجعهم واستطاعت أن تفعل فعلها في ميدان القتال فجعلت الكثير منهم يعودون إلىٰ رشدهم فيعلنوا توبتهم بعد أن وقفوا علىٰ عمق إنحرافهم، على كل حال فانّ الإمامعليه‌السلام يؤكد في هذه الخطبة أنّ الحاكم وا لمشرع الاصلي هو اللّٰه سبحانه؛ حتى الحكم بين الناس لابدّ أن يستند إلىٰ تخويل منه، إلّا أنّ هذا لايعني أن اللّٰه ينبغي أن يحضر بنفسه في المحاكم ليقضي ويحكم بين الناس، أو أن يأخذ بزمام الأُمور فيمارس وظيفته كرئيس للبلاد أو والياً وعاملاً على منطقة، أو أن يوكل هذه المهمة إلىٰ الملائكة فيبعثهم إلىٰ الأرض. فهذا كلام عبثي ولغو فارغ لا يرتضيه من كان له أدنى فهم وإدراك، إلّا أنّ المؤسف هو أن هذه الفكرة كانت متأصلة في أفكار الخوارج، ومن هنا خالفوا أميرالمؤمنينعليه‌السلام واعترضوا عليه: لم قبلت التحكيم؟! وصرح بعض شرّاح نهج‌البلاغة بأنّ الخوارج يزعمون أن الحكم يتطلب الاذن الإلهي ولابدّ أن يصرح القرآن بهذا الأمر، بينما لم يأذن القرآن لأحد. ولعل هذا هو الذي دفع بعض الاعلام[1] لأن يستدلون علىٰ نفي عقيدة الخوارج بالآية القرآنية الشريفة الواردة بشأن الحكم في الاختلافات العائلية **﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللّٰهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللّٰهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً﴾**[2]. فاذا كانت هذه المسألة الصغيرة تحتاج إلىٰ الحكم فما ظنك بالمسائل المهمة التي يدعو الاختلاف فيها إلىٰ تفشي الهرج والمرج في صفوف المجتمع، أفلا ينبغي فصل هذه الاختلافات وحلها عن طريق الحكم؟! ومن هنا يرىٰ البعض أنّ الإمامعليه‌السلام لم يكن مخالفاً لمسألة التحكيم في بعض الحالات، إلّا أنّه لم يكن يوافق شخص الحكمين وكان يعترض عليهما بشدة.

ثم واصل الإمامعليه‌السلام كلامه في ضرورة تشكيل الحكومة، لأنّ لخوارج. كما أشرنا سابقا ـ لم

---

١. العلّامة الخوئي ٤ / ١٨٣ من شرح نهج‌البلاغة قد أشار إلىٰ هذا المعنى، ويستفاد من التأريخ الكامل لابن أثير أن ابن عباس احتج على الخوارج بهذه الآية (الكامل ٣ / ٣٢٧).

٢. سورة النساء / ٣٥.

يخالفوا مسألة التحكيم في صفين فحسب، بل شككوا في أصل الحكومة وزعموا عدم الحاجة إلىٰ الحاكم، إلّا أنّهم رجعوا عن ذلك لما أمروا عليهم عبدالله بن وهب الراسبي[1]. ثم علل الإمام عليه السلام ضرورة تشكيل الحكومة والحاكم **«وإنّه لابدّ للناس من أمير بر أو فاجر»** ليذكر سبعة فوائد تترتب علىٰ قيام الحكومة بعضها يتصل بالجانب المعنوي والبعض الآخر بالجانب المادي وهي: أولاً: **«يعمل في إمرته[2] المؤمن»**.[3]

ثانياً: **«ويستمتع فيها الكافر»**، ثالثاً: **«ويبلغ الله فيها الاجل»**، رابعاً: **«ويجمع به الفيئ»**، خامساً: **«ويقاتل به العدو»** سادساً: **«وتأمن به السبل»** سابعاً: **«ويؤخذ به للضعيف من القوي»**. ثم تفضي هذه الوظائف السبع إلىٰ هذه النتيجة النهائية المترتبة علىٰ الحكومة **«حتى يستريح بر ويستراح من فاجر»**. ويدل التأريخ السياسي أنّ فئة قليلة جداً في الماضي وحتى في الوقت الراهن هي التي لاترىٰ ضرورة تشكيل الحكومة ـ مستدلة ببعض الأدلة الجوفاء التي سنشير لها في البحث القادم ـ والخوارج مصداق لهذه الفئة. وقد رد التأريخ بصراحة علىٰ هذه الفكرة الساذجة فقد رأينا بأم أعيننا وسمعنا بملئ آذاننا مدىٰ الأخطار الجسام التي يواجهها المجتمع إبان إنهيار الحكومة ولو لساعات من قبيل قتل الأنفس وإراقة الدماء وعمليات السرقة والسلب والنهب التي تتعرض لها المؤسسات بل حتى بيوت الناس وانتهاك الاعراض والنواميس وانعدام الامن والاستقرار وسيادة الفوضى والهرج والمرج الاضطراب وشل حركة كافة النشاطات الاجتماعية؛ كما تصبح البلاد لقمة سائغة للاعداء الذين يعيثون في الأرض فساداً فلا يسلم المؤمن من شرهم ولا الكافر فتهضم جميع الحقوق ويعيش الناس الخوف والذعر فما لاشك فيه أن الف باء الحياة إنّما يكمن في إستتباب الأمن والنظام، ثم وجود العناصر المقتدرة التي تقف كالطود الشامخ بوجه العدو الخارجي وعملائه في الداخل، ولا يتيسر مثل هذا الأمر إلّا في ظل الحكومة. وهنا يبرز هذا السؤال: هل يسع الحاكم الفاجر أن يقوم بالوظائف السبع المارة الذكر التي يقوم بها الحاكم البر والعادل؟ فقد

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٣٠٨.
٢. «إمرة» علىٰ وزن عبرة مصدر أو إسم مصدر من مادة «أمر»، و«الامرة» هنا بمعنى الحكومة.
٣. واضح ان الضمير في إمرته يعود إلىٰ مطلق الامير سواء البر أو الفاجر وكذلك ضمير فيها، وليس صحيح ما اورده بعض شرّاح نهج البلاغة من أنّ الأول يعود إلىٰ البر والثاني إلىٰ الفاجر، أو كلاهما للفاجر.

ذكرها الإمام عليه السلام لكليهما، بحيث يقوم كل منهما بهذه الوظائف. وللإجابة علىٰ هذا السؤال لابدّ من الالتفات إلىٰ هذه النقطة وهي أنّ الحاكم البر إنّما يقوم قطعا بمثل هذه الوظائف، إلّا أنّها ليست كذلك بالنسبة للفاجر بصورة مطلقة نعم يمارسها بصورة نسبية، فهو مضطر لاستمرار حكومته أن يراعي النظام، ويقف بوجه العدو الخارجي ويحول نسبيا دون ظلم الظلمة، وان كان في حد ذاته ظالماً؛ والّا فان الناس ستخرج عليه وتتزلزل دعائم حكومته فيطيح به الأعداء، ومن هنا فانّ أغلب الحكومات مهما كان تتسعى فهي جاهدة للقيام بتلك الوظائف المذكورة. ونخلص ممّا سبق أنّ أية حكومة تتساهل في الوظائف المذكورة إنّما تكون قد مهدت السبيل إلىٰ تصدع كيانها وإنهيارها. السؤال الآخر هو أنّ الإمام عليه السلام قد فرق بين المؤمن والكافر. فقال عليه السلام بشأن المؤمن «**يعمل**» والكافر (يستمتع) فما علة ذلك؟ والجواب هو أنّ المؤمن لايهدف في حياته إلىٰ الاستفادة من الامكانات المتاحة من أجل التمتع العابر، بل هدفه الأصلي الفوز برضى اللّٰه، وما إستفادته من متع الدنيا إلّا بالتبع وكونها مطلوباً ثانوياً، وليس الحال كذلك بالنسبة للكافر، فهو ليس فقط لا ينشد رضى اللّٰه، بل يقصر همه علىٰ هذه الحياة الدنيا ليتمتع فيها وإن كان ذلك من خلال الحرام والطرق اللامشروعة، ومن هنا صرح الإمام عليه السلام بأنّ الحكومة ضرورة للطرفين المؤمن والكافر، يعمل فيها هذا ويتمتع فيها ذاك، ولولا الحكومة لما وسع المؤمن العمل ولا الكافر الاستقرار والتمتع.

❊❊❊

قال السيد الرضي (ره) في ذيل هذه الخطبة، وفي رواية أخرىٰ أنّ الإمام عليه السلام لما سمع تحكيمهم قال: «**حكم اللّٰه أنتظر فيكم**» فالعبارة يمكن أن تكون إقتباساً من كلامهم للرد عليهم فأنتم تقولون الحكم للّٰه، وأنا أنتظر هذا الحكم فيكم، فانّه سيحكم فيكم بالعقاب الشديد لهذه اللجاجة والجهل وتفريق صفوف المؤمنين. أو أني انتظر اتمام الحجة عليكم فمن بقي علىٰ جهله وتعصبه أجريت عليه حكم اللّٰه. ثم أضاف السيد الرضي (ره) ـ علىٰ ضوء هذه الرواية ـ وقال عليه السلام «**أما الامرة البرة فيعمل فيها التقي، وأما الامرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقي، إلىٰ أن تنقطع مدته وتدركه منيته**». ولكن بالاستناد إلىٰ مفهوم هذه العبارة في أن الفجار يحرمون من التمتع المباح في حكومة البر، ولا يستشعر المؤمنون الاستقرار والسكينة في

ظل حكومة الفاجر (وهذا يتناقض وهدف الخطبة في أنّ الحكـومة ضرورة بـرة كـانت أم فاجرة) يبدو أنّ الرواية الاولىٰ أصح وأنسب وأدق.

هذا وقد ورد في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ما يوضح العبارة المذكورة «**حكم الله أنتظر فيكم**»: لما رجع عليﷺ من صفين إلىٰ الكوفة، أقام الخوارج حتى جموا (جمـوا بمـعنى إستراحوا وكثروا) ثم خرجوا إلىٰ صحراء بالكوفة تسمى حروراء، فنادوا: لا حكم إلّا لله ولو كره المشركون: ألا أنّ علياً ومعاوية أشركا في حكم الله. فدخل واحد منهم عـلىٰ عـليﷺ بالمسجد، والناس حوله، فصاح: لاحكم إلّا لله ولو كره المشركون، فتلفت الناس فنادىٰ: لا حكم إلّا لله ولو كره المتلفتون، فرفع عليﷺ رأسه إليـه. فـقال: لا حكـم إلّا للّـه ولو كـره أبوحسن. فقال عليﷺ: إنّ أباالحسن لايكره أن يكون الحكم لله، ثم قال: حكم الله أنـتظر فيكم. فقال له الناس: هلا ملت يا أميرالمؤمنين علىٰ هؤلاء فأفنيتهم! فقال: إنّهم لا يفنون، إنّهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء إلىٰ يوم القيامة.[١]

تأمّلان

١ ـ بلاء التحريف

لم يقتصر تأويل الحقائق وتحريف الآيات القرآنية علىٰ الخوارج بغية الوصول إلىٰ مآربهم وأهدافهم المشبوهة، بل إذا تصفحنا تأريخ البشرية لوجدنا قضية تحريف الحقائق من الحراب والوسائل الفعاله التي إعتمدها الظلمة والطواغيت علىٰ مر العصور. فقد مارس هؤلاء أبشع تحريف لكلام الله وكلام الأنبياء والأولياء وفسروها حسب أهوائهم وهم ينشدون هدفين: الهدف الأول خداع الناس والآخر خداع أنفسهم. وما قضية النمرود مع نبي الله إبراهـيمﷺ وفرعون مع موسىﷺ والتي تطرقت لها أغلب الآيات القرآنية في سورة البقرة وطه وسـائر السور منك ببعيد فقد كانوا يقولون كلمات حق ولا يريدون بها سوى الباطل من أجل خداع من حولهم والتغرير بهم. ونشاهد اليوم أبشع صور هذا التحريف وكلمات الحق التي يراد بها

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٣١٠.

الباطل من قبيل كلماتهم في الحرية والديمقراطية والكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان والثقافة والحضارة والمدنية ومكافحة الارهاب وما إلىٰ ذلك من الشعارات التي تلقلق بها ألسنة الطواغيت والجبابرة، ولا يريدون بها سوىٰ الباطل، بل هنالك منافسة كبرىٰ بين هؤلاء الطغاة في إنتخاب الشعارات البراقة الأكثر تأثيراً وخداعاً من أجل نيل أهدافهم المشؤومة. ومن هنا تشتد وظيفة العلماء الاعلام في ضرورة تنبيه الأُمّة إلىٰ عظم الأخطار المحدقة وضرورة التحلي باليقظة والوعي وعدم الانزلاق وراء هذه الشعارات الزائفة ليرفعوا من مستوىٰ الأُمّة الثقافي فلا تنطلي عليها خدع الاستكبار وألاعيبه.

٢ ـ ضرورة تشكيل الحكومة

إنّ مسألة تشكيل الحكومة تعد من المسائل التي كثر الحديث فيها الأوساط العملية علىٰ المستوىٰ النظري دون أن يتسرب الشك إليها علىٰ المستوىٰ العملي قط. فقد شهدت البشرية طيلة التأريخ قيام الحكومة سواء كانت قبيلة يتزعمها رئيس القبيلة أو هذه الحكومات الطبيعة التي يترأسها الملك والسلطان والحاكم، حتى تجلت اليوم بهذا الشكل الجماهيري فأصبح يقودها رئيس الجمهورية، ولا يحتاج قيامها إلىٰ دليل فالمجتمع مهما كان حجمه إنّما يحتاج إلىٰ الأمن والاستقرار ورعاية الحقوق والحيلولة دون نشوب النزاعات والخلافات، ولا تتيسر مثل هذه الأُمور إلّا في ظل الحكومة ووجود الحاكم. وقد أتضحت هذه المسألة اليوم أكثر في المجتمعات المعاصرة. فهنالك الفعاليات والأنشطة الثقافية والاقتصادية والسياسية التي لا يكتب لها النجاح لولا الاشراف المباشر من قبل الحكومة، بل الحكومة هي تبلور هذه الأنشطة أن تركت ممارستها وتنفيذها لأبناء المجتمع، إلّا أن هنالك بعض الأفراد والنزعات في الماضي والحاضر التي تتبنى شعار غياب الحكومة وعدم الحاجة إليها وأنّ الشعب قادر علىٰ إدارة شؤونه دون قيام الدولة. بل ذهب الماركسيون أبعد من ذلك ليصرحوا بانّ فلسفة قيام الدولة إنّما تنبع من فكرة حفظ المصالح الطبقية! والرأسماليون هم الذين ينهضون بهذه المهمة. فاذا ما أزيلت الفوارق الطبقة فانّ فلسفة تشكيل الحكومة ستنتفي ولا تعد هناك ضرورة لقيامها، إلّا أنّ الماركسية وسائر النزعات عجزت حتى الآن عن طرح

نموذجها العملي في الميدان؛ الأمر الذي يؤكد خواء هذه النزعات وإقتصارها علىٰ الجوانب النظرية. لقد تناسى أصحاب هذه النظريات أنّ وظيفة الدولة والحكومة ـ ولو سلنا لما ذكروه ـ لاتقتصر علىٰ حفظ المصالح الطبقية، بل هنا لك سلسلة من البرامج الاجتماعية والمشاريع والمخططات المرتبطة بكافة الأفراد في جميع المجالات والتي تنهض بعبئها الدولة. فالتربية والتعليم ضرورية لجميع الطبقات، فهل يمكن القيام بهذه الوظيفة دون برمجة وإختيار من ينهض بمسؤولية هذا العمل؟ الأُمور الاقتصادية في المجتمع في القطاع الزراعي والصناعي والتجاري والتي يتطلب كل حقل منها تخطيط شامل وكامل وتحتاج إلىٰ إدارة صحيحة ووزير، قطاع الصحة المرتبط بكافة أبناء الشعب والذي يحتاج بدوره إلىٰ مشاريع وبرامج تخصصية وإشراف تام، فهل يمكن قيام مثل هذه الأُمور في حالة غياب الدولة ناهيك عن النزاعات والخصومات والحاجه إلىٰ البت في الدعاوى من قبيل الجهاز القضائي والمحاكم، وكل هذه الأُمور هي الاخرىٰ لا تحقق إلّا في ظل تشكيل الحكومة، والتي تتقوم برئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية وما شابه ذلك. ومن هنا كانت الأُمم والشعوب رغم اختلاف أفكارها وعقائدها، إلّا أنّها تتبنى نوعاً من أنواع الحكومة. وهذا هو الأمر الذي أشار إليه الإمام عليه السلام في الخطبة كما تطرق إلىٰ ذكر الوظائف الملقاة علىٰ عاتق الحاكم، كما قال في موضع آخر بهذا الشأن «**سلطان ظلوم خير من فتنة تدوم**»[1] حيث أشرنا سابقاً إلىٰ أنّ الحكومات مهما كانت ظالمة متجبرة الا أنّها تسعى لأن تراعي جانب الأمن والعدل وما إلىٰ ذلك، مع العلم أنّها قد تظلم إلّا أنّها على الأقل لا تدع الآخرين يمارسون الظلم، فالحكومة عادلة كانت أم ظالمة لن تدوم في ظل الفوضى والاضطراب، وأنّها تؤول لا محالة إلىٰ السقوط الانهيار، ومن هنا فانّ كافة الحكومات تسعى للحيولة دون الهرج والمرج وتقدم مشاريعها من أجل البناء والعمران، ولعل هذا المعنى يتجسد في ما أشار إليه الحديث المعروف «**الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم**».

---

١. ميزان الحكمة ١ / ٩٨.

خطأ إبن أبي الحديد

قال ابن أبي الحديد في تعليقه علىٰ هذه الخطبة: هذا نص صريح منه عليه السلام بانّ الإمامة واجبة وقد إختلف الناس في هذه المسألة فقال المتكلّمون: كلمة الإمامة واجبة؛ إلّا ما يحكى عن أبي بكر الأصَمّ من قدماء أصحابنا أنّها غيرُ واجبة؛ إذا تناصفت الأمّة؛ ولم تتظالم.

وقال المتأخّرون من أصحابنا: إنّ هذا القول منه غيرُ مخالف لما عليه الأمّة؛ لأنه إذاكان لا يجوز في العادة أن تستقيم أمورُ الناس من دون رئيس يحكم بينهم؛ فقد قال بوجود الرئاسة على كلّ حال؛ اللّهم إلّا أن يقول: إنّه يجوز أن تَستَقيم أمورُ الناس من دون رئيس؛ وهذا بعيد أن يقوله: فأما طريق وجوب الإمامة ما هي؟ فإن مشايخَنا البصريّين رحمهم اللّه يقولون طريق وجوبها الشرع، وليس في العقل ما يدلّ على وجوبها.

وقال البغداديون وأبو عثمان الجاحظ من البصريين، وشيخنا أبو الحسين رحمه اللّه تعالى: إنّ العقلَ يدلّ على وجوب الرياسة؛ وهو قول الإمامية، إلّا أنّ الوجه الذي منه يوجب أصحابنا الرئاسة غير الوجه الذي توجب الإمامية منه الرئاسة، وذاك أنّ أصحابنا يوجبون الرئاسة عَلَى المكلّفين، من حيث كان في الرياسة مصالح دنيوية، ودفع مضارّ دنيوية. والإمامية يُوجبون الرئاسة عَلَى اللّه تعالى، من حيث كان في الرئاسة لُطْف وبعدٌ للمكلّفين عن مواقعة القبائح العقلية.

والظاهر من كلام أميرالمؤمنين عليه‌السلام يطابِق ما يقوله أصحابنا، ألاَ تراه كيف علّل قوله: «**لا بدَّ للناس من أمير**»، فقال في تعليله: يُجَمع به الفيء، ويقاتَل به العدوّ وتؤمَن به السُّبل، ويؤخذ للضعيف من القويّ! وهذه كلّها من مصالح الدنيا.

فإنْ قيل: ذكرتم أنّ الناس كافّة قالوا بوجوب الإمام، فكيفَ بقول أميرالمؤمنين عليه‌السلام عن الخوارج إنّهم يقولون: «**لا إمرة**».

قيل: إنّهم كانوا في بدء أمرهم يقولون ذلك، ويذهبون إلى أنّه لا حاجةَ إلى الإمام، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمّروا عليهم عبدَاللّه‌بن وهب الرّاسبيّ.

ويبدو أن خطأ إبن ابي‌لاحديد نابع من حصره الوظائف السبع التي ذكرها أميرالمؤمنين عليه السلام كهدف للحكومة بالمصالح المادية، والحال أنّ العبارة «**يعمل في إمرته المؤمن**»

إنّما تعالج المسائل المعنوية، لأنّ عمل المؤمن يهدف الآخرة ـ على كل حال وعلى فرض أنّ لكافة هذه الأُمور صبغة مادية، فانّ كلام الإمامعليه السلام يدور حول محور إمارة الناس وحكومتهم التي تشكل أحد الأبعاد الوجودية للإمام المعصوم، لأنّ عقيدة علماء الإمامية ومتكلميهم في الإمام إنّه الحاكم في أُمور الدين والدنيا والهادي إلىٰ الله ومفسّر القرآن ومبين أحكامه وأعماله حجة على الناس، ومن هنا لابدّ أن يكون معصوماً، ومعلوم أن المعصوم لا يعرف سوىٰ الله، ولذلك يعتقدون أن الإمام ينصب من جانب الله وقد أجاب بعض شرّاح نهج البلاغة علىٰ كلام إبن أبي الحديد بأنّ الخطبة تعالج قضية نصب الأمير وليست لها صلة بنصب الإمام من الله ولذلك قالعليه السلام **«لابدّ للناس من أمير بر أو فاجر»** ونعلم أن الامير الفاجر لايمكن أن يكون إماماً. الا ان ما أوردناه هو الجواب في أن الامارة جزء من مسؤوليات الإمام (لابدّ من الدقة في الأمر،) والشاهد علىٰ ذلك أن متكلمينا ذكروا في كتبهم العقائدية المصالح الدنيوية وما ورد في هذه الخطبة حين ذكرهم لأدلة وجوب نصب الإمام. بعبارة أُخرى فان الشيعة لاترىٰ الامرة منفصلة عن الإمامة، أما الاذعان لامرة الفاجر فليست على أساس أنّها هدف نهائي، بل يدفع إليها الاضطرار حين تتعذر حكومة الإمام المعصوم.

الخطبة[1] ٤١

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها ينهى عن الغدر ويحذر منه

نظرة إلىٰ الخطبة

أشار الإمام عليه السلام في هذه الخطبة إلىٰ ثلاثة أمور مهمّة: الأول: أهمية الوفاء وصدق الحديث، وذم ناقضي العهد، الثاني: أنّ الخداع والغدر والخيانة ليست من العقل والذكاء كما يظن ذلك الغدرة الفجرة. والعقل والفطنة في الصدق والوفاء بالعهد.

الثالث: ضرورة إغتنام الفرص من أجل المبادرة إلىٰ الآخرة والوفاء بالعهود والالتزام بالمواثيق.

---

١. رواها ابن طلحة الشافعي في مطالب السئوال، صحيح أنّ ابن طلحة الشافعي عاش بعد السيد الرضي إلّا أنّ رواية أبن طلحة تفيد أنّه عثر عليها في مصدر غير نهج‌البلاغة. ورواها الجاحظ في رسالة المعاش والمعاد وقال في مطلع الخطبة «الصدق والوفاء توأمان» وهذا يدل على أنّه رأها في المصادر التي صنفت قبل الرضي (لأن الجاحظ عاش أوائل القرن الثالث بينما يعتبر السيد الرضي من كبار علماء أواخر القرن الرابع) مصادر نهج‌البلاغة ١ / ٤٤٠.

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ وَلاَ أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ. وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَانٍ قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلَى حُسْنِ الْحِيلَةِ. مَا لَهُمْ قَاتَلَهُمُ اللّٰهُ! قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ وَنَهْيِهِ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لاَ حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ».

الشرح والتفسير

لم يذكر شرّاح نهج البلاغة ـ حسب علمنا ـ سبب إيراد هذه الخطبة، إلّا أنّ الرابطة المعنوية بين هذه الخطبة والخطبة رقم ٣٥ وسائر القرائن تشير إلىٰ انّ هذه الخطبة ناظرة لمعركة صفين وقضية التحكيم، لأنّ مسألة التحكيم المأساوية إتخذت أبعاداً واسعة في البحث والنقاش بين صفوف المسلمين ـ ولعل بعض الجهال نسب مكر عمرو بن العاص وخيانته وغدره إلىٰ الكياسة والفطنة؛ الأمر الذي قد يشجع الآخرين لممارسة مثل هذه الأعمال الشائنة البعيدة عن الإسلام وتعاليمه الحقة، ومن هنا خطب الإمام عليه السلام هذه الخطبة ليقبر هذه الأفكار المنحرفة ويحد من شياعها بين الناس، ثم عرض بالذم إلىٰ المكر والخديعة ونقض الميثاق وأشار إلىٰ العواقب الوخيمة التي تفضي إليها هذه الأعمال ثم أثنى علىٰ الوفاء والصدق فقد إستهل الخطبة بخطاب الجميع **«أيها الناس إن الوفاء توأم[1] الصدق»**. التوأم بمعنى الذي يولد مع الآخر في حمل واحد، ويستعمل بشأن كل شيئين يرتبطان معا برابطة وثيقة، ومن هنا فقد شبه الإمام عليه السلام فضيلتي الوفاء والصدق بالتوأم ولعل التمعن في مفهوم هاتين الصفتين ومصدرهما الفكري

---

١. «توأم» من مادة «وئام» بمعنى الموافقة حسبما صرح بعض أرباب اللغة، بينما ذهب البعض كصاحب المقاييس إلىٰ أنّ التاء أصلية، واتئام (مصدر باب إفعال) بمعنى ولادة أحد مع الآخر من حمل واحد.

الروحي يفيد أنّ الأمر كذلك، فالوفاء يعني الالتزام بالعهد، وهو في الواقع نوع من الصدق، كما أنّ الصدق نوع من الوفاء. والصدق ذو معنى واسع وشامل لايقتصر علىٰ الحديث، بل يشمل العمل أيضا، ومن هنا صرح القرآن قائلا: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللّٰهَ عَلَيْهِ﴾**[1] فمن الواضح أنّ المراد بصدق العهد في الآية هو الصدق في العمل، ولذلك أردفت بالقول **﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾**. ومن هنا تتضح عمق الرابطة بين الوفاء والصدق، فلو أبرم شخص عهداً ونقض عهده فقد كذب، ومن هنا يمكن اعتبار ناقض العهد كاذباً، ولما كان حسن الصدق وقبح الكذب ظاهر لكافة الناس، فانّ الإمامعليه السلام قرن بهما الوفاء بالعهد ونقضه ليتضح حسنها وقبحها. ثم تطرق الإمام إلىٰ الآثار الايجابية للوفاء بالعهد فقال: «**ولا أعلم جنة**[2] **أوقى منه**»، فهذه في الواقع من أهم آثار الوفاء بالعهد وبركاته الدنيوية في أنّه جنّة وثيقة؛ لأنّ أساس الحياة الاجتماعة يتمثل بالتعاون والتكافل والثقة المتبادلة والالتزام بالعهود والمواثيق الفردية والاجتماعية، بعبارة أُخرىٰ فانّ الثقة المتبادلة تذلل كثيراً من المصاعب، بينما يتعذر حل هذه المصاعب إذا ما انعدمت الثقة وسلب الاعتماد بين الناس، ولذلك كانت الدعامة الأصلية للدين تتجسد في الوفاء بالعهود والمواثيق، حتى ورد في الحديث النبوي المعروف «**لادين لمن لاعهد له**»[3] كما ورد أيضاً «**إذا نقضوا العهد سلط الله عليهم عدوهم**»[4] جدير بالذكر أن الجنّة بمعنى الدرع الذي يقي أخطار العدو في ميدان القتال. تشبيه الوفاء بهذا الدرع يفيد كونه يشكل الوسيلة الدفاعية تجاه الأخطار الاجتماعية التي تفرزها حالة الفوضى وعرقلة القوانين والمقررات. ثم أشارعليه السلام إلىٰ أبعاده المعنوية والأُخروية فقال «**وما يغدر من علم كيف المرجع**»؛ الأمر الذي أشار إليه الإمامعليه السلام في نهج البلاغة بقوله «**لولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة، وكل فجرة كفرة ولكل**

---

١. سورة الأحزاب / ٢٣.

٢. «جنة» على وزن «غصة» بمعنى الدرع واشتقت في الأصل من مادة جن على وزن فن بمعنى الستر ومنه المجنون، كما تطلق الجنة على البستان كأنه تغطى بالأشجار، ومنه الجنين المغطى برحم الأم وإطلاق الجن على تلك الجماعة لخفائها.

٣. نوادر الراوندي / ٥.

٤. بحارالأنوار ٩٧ / ٤٦.

غادر لواء يعرف به يوم القيامة»[١]. ولما كان انحراف المجتمع عن المبادئ الأخلاقية يقود إلىٰ تنكر القيم وتبدلها، حتى يعد العهد والمكر والخداع كياسة والالتزام بالعهود سذاجة وبلاهة فقد قال الإمام عليه السلام «**ولقد أصبحنا في زمان قد إتخذ أكثر أهله الغدر كيساً ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحلية**»! نعم فانّ قيم المجتمع إذا تنكرت بفضلها المعيار والمحك للحسن من القبيح فانّ ظهور مثل هذا الخلط لايبدو مستغرباً، فن الطبيعي أن يصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والملك شيطاناً والشيطان ملكاً وقديساً. وممّا يؤسف له أنّ هذه الظاهرة قد تفشت وبشكل واسع في عالمنا المعاصر فقد ينظر إلىٰ الثعالب المكرة في السياسة العالمية علىٰ أنهم الساسة المهرة، بينها يرمون بالسذاجة وانعدام التجربة من يلتزم بالعهود والمواثيق ويراعون القيم الإنسانية والإلهية في سياستهم، وما أصعب العيش في مثل هذا العالم، وبالطبع فانّ نقض العهود واعتماد الكذب والخداع قد يجر علىٰ صاحبه بعض المنافع على المدىٰ القريب ويحظى بمديح هذا وثناء ذاك، إلّا أنّ المفروغ منه أن عرىٰ المجتمع إنّما تؤول إلىٰ التصدع والانهيار على المدىٰ البعيد. ومن هنا فان الأفراد من أهل الإيمان والوفاء إنّما يسعون لتحصين أموالهم وحفظ ثرواتهم من خلال الامانة وإحترام العهد في المعاملة، والدولة هي الأخرىٰ مدعوة لرعاية هذا الأمر من أجل كسب ثقة سائر البلدان واستقطابها لضمان مصالح البلاد الاقتصادية. ومن هنا صرحت الرواية «**الأمانة تجلب الغنى والخيانة تجلب الفقر**»[٢] ولا شك أنّ هناك رابطة حميمة بين الأمانة والوفاء، رغم كونهما مفهومين منفصلين، ولذلك قال أميرالمؤمنين علي عليه السلام: «**الأمانة والوفاء صدق الأفعال**»[٣]. قال أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام ويدعى عبدالرحمن بن سبابه: ساءت حالي بعد وفاة أبي فلما حججت البيت رأيت الإمام الصادق عليه السلام فقال لي: أعظك؟ قلت بلى جعلت فداك، قال: «**عليك بصدق الحديث وأداء الامانة تشرك الناس في أموالهم هكذا ـ وجمع بين أصابعه ـ قال فحفظت ذلك عنه، فزكيت ثلاثمأة ألف درهم**»[٤].

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٠.
٢. بحارالانوار ٧٢ / ١١٤.
٣. غرر الحكم ح ٨٣ـ٢.
٤. فروع الكافي ٥ / ١٢٤.

ثم ردﷺ علىٰ من إتهمه بعدم العلم بالسياسة فقال: «**ما لهم قاتلهم اللّه قد يرى الحول[١] القلب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر اللّه ونهيه، فيدعها رأي العين بعد القدرة عليها**» أمّا ذلك الذي لايتورع عن الذنب والمعصية وعدم الإكتراث للدين فانّه ينتهز الفرصة ليفعل ما يشاء فيراه البلهاء سياسيا ناجحا «**وينتهز[٢] فرصتها من لاحريجة[٣] له في الدين**» فالإمامﷺ يقول إنّ عدم استغلالي للفرص الغدرة من أجل التفوق علىٰ العدو لايعني عدم علمي بالأمور، بل ذلك يعني أني أخاف اللّه، وإنّي لا عتمد الورع والتقوى والعدل حتى مع أعدىٰ أعدائي، ولا أرىٰ الغاية تبرر الوسيلة، بل لا أومن بالنصر كيفما كانت قيمته وثمنه، إلّا أنّ أعدائي لا يراعون أي من هذه المبادئ، فهم يقارفون كل جناية ولا يتورعون عن أية جريمة، فلا يقيمون وزناً لدماء الأبرياء، ولا يتحرجون من الظلم والعدوان، ولا يلتزمون بالعهود والمواثيق، نعم ليس لهم من هم سوىٰ تحقيق أهدافهم اللامشروعة بأية وسيلة. فاذا رأىٰ الناس تصرفاتهم وتحرجي عدوهم ساسة أكفاء، والحال ما هم ساسة وأنّهم لحفنة من الظلمة الذين يفتقرون إلىٰ الورع والتقوى.

السياسة الإلهية والشيطانية

إن الاختلاف في الاساليب السياسية إنّما تفرزه الرؤىٰ بشأن الحكومة. فالسياسة التي ينتهجها أُولئك الذين ينشدون الحكومة من أجل ضمان مصالحهم الشخصية أو الفئوية، تختلف عن السياسة التي يتبعها أُولئك الذين لايرون في الحكومة سوى وسيلة لحفظ القيم والمثل. فالحكومات السابقة كانت تتصف بالدكتاتورية المقيتة التي تتكرس في فرد واحد مستبد غاشم يسعى جاهداً لتحقيق مآربه وإشباع رغباته وضمان مصالح بطانته معتمداً منطق القوة والعنف من أجل ترسيخ دعائم حكومته فلا يرىٰ من حرمة لقيم ومثل سوى تلك التي تخدم مصالحه أمّا اليوم فالحكومات وإن تغيّرت شكلاً، إلّا أنّ جوهرها وماهيتها لم تختلف كثيراً عن

١. ـ الحول القلب بضم الاول وتشديد الثاني هو البصير بتحويل الأُمور وتقليبها .
٢. «ينتهز» من مادة «إنتهاز» بمعنى الإقدام علىٰ عمل، كما يعني الاستفادة التامة من الفرصة.
٣. «حريجة» من مادة «حرج» بمعنى التحرج والتحرز من الآثام، ويأتي الحرج أحياناً بمعنى الذنب.

تلك التي كانت سائدة في الماضي، وان كان المعروف عن هذه الحكومات إقتحامها الميدان كفئات وأحزاب. على سبيل المثال فانّ الأحزاب هي التي تمسك بزمام الأُمور في البلدان الصناعية المعاصرة، بحيث يسعى كل حزب لضمان مصالحِ فئة معينة، ثم يعتمد كافة الوسائل من أجل الحصول علىٰ أكثر عدد من الآراء بغية الوصول إلىٰ الحكومة، فاذا تسلموا الحكومة، أتوا بالأفراد الذين يعملون علىٰ ترسيخ دعائم حكومته وبالطبع فانّ مثل هذه الحكومات قد تتبنى بعض الشعارات من قبيل حقوق الإنسان وحرية المرأة وأحياناً يطرحون بعض المسائل الأخلاقية، إلّا أنّهم يعلمون كما يعلم الاخرون أنّهم ليسوا جادين في ما يقولون، فاصواتهم عادة ما تتعالىٰ بحجة أن البلد الفلاني ـ إذا كان من أعدائهم ـ قد إنتهك حقوق الإنسان، وان كان من أصدقائهم فقد يحظى بتأييدهم ودعمهم وإن انتهك تلك الحقوق الف مرة كل يوم ـ وفي مقابل هذه الحكومات، هنالك حكومة الأنبياء والأولياء التي لا تعرف المصالح الفردية ولا الفئوية، وهي قائمة على أساس القيم والمثل. فالحكومات السابقة تصرح علنا بتعذر الجمع بين السياسة والأخلاق، وعليه فالحاكم الذي يراعي المبادئ الاخلاقية إنّما يفتقر في الواقع حسب ظنهم إلىٰ العقل السياسي؛ وسوف لن يكتب لحكومته الدوام والاستمرار، فالغاية تبرر الوسيلة، وكل ما يقرب من الهدف فهو حسن ومطلوب. بينما ترى الحكومة الأخيرة ان شعارها يتكرس في «**إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1] أو «**لو لا... ما أخذ الله علىٰ العلماء أن لايقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم...**»[2] أو «**وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدي**ﷺ»[3] ومن الطبيعي أن يكون هناك بوناً شاسعاً بين سياسة الحكومات بالمعنى الأول والحكومات الإلهية، بل هناك تعارض وتضارب بينهما فالطائفة الاولىٰ تضحي بكل القيم وتذبحها من أجل الوصول إلىٰ دفة الحكم، بينما تخلت الطائفة الثانية بشهادة التأريخ عن الحكومة من أجل الحفاظ علىٰ القيم والمثل. وهذا ما وضحه الإمام‌ؑ في الخطبة «**والله ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت من**

---

١. كنز العمال ٣/ ١٦ ح ٥٢١٧.
٢. نهج البلاغة، الخطبة ٣.
٣. بحارالانوار ٤٤/ ٣٢٩.

أدهى الناس»[١] وقال عليه السلام: «**أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه؛ والله لا أطور به، ما سمر سمير، وما أم نجم في السماء نجماً**» [٢] والاختلاف بين هاتين الرؤيتين في السياسة الإلهية والسياسة الشيطانية هو الذي يجعل بعض الأفراد يشكلون أحياناً علىٰ الساسة الربانيين ويحملون أعمالهم علىٰ السذاجة وعدم المعرفة بفنون السياسة، بينما يغفلون عن حقيقة كبرى وهي أنّ هؤلاء الأفراد إنّما يحثون السير إلىٰ عالم آخر لا تجيز مبادئه وضوابطه التشبث بأي أسلوب وطريقة. فمثلاً لما غلب معاوية أهل العراق على الماء منعهم منه، فلما حمل أهل العراق إنكشف أهل الشام عن الماء، وملك أهل العراق المشرعة ـ فقال أصحاب علي عليه السلام: أمنعهم الماء يا أميرالمؤمنين كما منعوك ـ فقال: «لا، خلوا بينهم وبينه، لا أفعل ما فعله الجاهلون.[٣] والآ عجب من ذلك عدم إلتفات رسول الله صلى الله عليه وآله إلىٰ أصحابه الذين أشاروا عليه بمنع اليهود الماء حين محاصرة قلاع خيبر فلم يجبهم صلى الله عليه وآله»[٤] ويتعجب أولئك الغافلون حين يسمعون مسلم بن عقيل وقد إمتنع عن قتل إبن زياد غيلة في دار هانئ بن عروة قائلاً: «**الإيمان قيد الفتك**» [٥]. أضف إلىٰ ذلك فانّ علياً عليه السلام إمتنع عن قتل عمرو بن العاص في صفين حين كشف عن عورته. فكل هذه الأُمور لا يرونها تنسجم والسياسة، بل السياسي الفذ في نظرهم من يدافع عن العهدو والمواثيق ويلتزم بالمبادئ إذا كانت تجري لصالحه ،وإلّا فلابدّ أن يضربها جميعا عرض الحائط. فالسياسي الورع والمتقي يرىٰ النصر على الأعداء إنّما يحتل الدرجة الثانية، والدرجة الاولىٰ تتمثل بحفظ المبادئ ورعاية القيم والمثل. والجدير بالذكر ما أورده ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة حين تحدث عن مروءة ووفاء أحد أحفاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام هو إبراهيم بن عبدالله فقال: «وكان لغير إبراهيم عليه السلام من آل أبي طالب من هذا النوع أخبار كثيرة، وكان القوم أصحاب دين ليسوا من الدنيا بسبيل، وإنّما يطلبونها ليقيموا عمود الدين بالامرة فيها، فلم يستقم لهم، والدنيا إلىٰ أهلها أميل».

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٠٠، وروي عنه عليه السلام أنّه قال: «لولا التقى ـ أو لولا الدين والتقى لكنت أدهىٰ العرب». شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١ / ٢٨.
٢. نهج البلاغة ، الخطبة ١٢٦.
٣. تأريخ الطبري ٣ / ٥٦٩.
٤. سيد المرسلين ٢ / ٤٠٨ نقلاً عن السيرة الحلبية ٣ / ٤٠.
٥. بحارالانوار ٤٤ / ٣٤٤.

الخطبة[1] ٤٢

ومن كلام له عليه السلام

وفيه يحذر من اتباع الهوى وطول الأمل في الدنيا.

نظرة إلى الخطبة

أورد الإمام عليه السلام هذه الخطبة على ضوء نقل نصر بن مزاحم في كتاب صفين بعد موقعة الجمل حين ورد عليه السلام الكوفة، وهي تعالج غرور الأفراد وطمعهم بعد تحقيق النصر ولا سيما إن كانت هناك غنائم؛ الأمر الذي يثير حفيظة البعض للتكالب على الدنيا وبالتبع يتطلع إلى المزيد من كان له دور أكبر في المعركة والحصول على الغنائم. فهدف الإمام عليه السلام تحذير الناس وتذكيرهم بالأهداف المعنوية التي قاتلوا من أجلها، كما يحذرهم من رذيلتي إتباع الهوى وطول الأمل الذان يصدان عن الحق وينسيان الآخرة. ثم يؤكد الإمام عليه السلام على قصر عمر الدينا وضرورة إغتنام الفرص فيها من أجل العمل الصالح والتزود للآخرة، حيث يوجز هذا الأمر الحيوي بعبارات قصيرة بليغة المعنى.

---

١. سند الخطبة: وردت هذه الخطبة بعدة أسناد. رواها قبل السيد الرضي(ره) نصر بن مزاحم في كتاب صفين والشيخ المفيد في المجالس والمسعودي في مروج الذهب. وقال نصر بن مزاحم دخل الإمام عليه السلام الكوفة بعد معركة الجمل فأسرع قرّاء الكوفة وأشرافها لإستقباله. فدخل المسجد وصلى ركعتين ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم خطب الخطبة.

القسم الأول

«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ، فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ».

الشرح والتفسير

أوردنا سابقاً أنّ الإمامعليه السلام خطبها بعد الجمل حين ورد الكوفة، بهدف الحد من الغرور الذي تفرزه طبيعة النصر والتنافس على غنائم المعركة، فقالعليه السلام: «**أيّها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: إتباع الهوىٰ وطول الأمل، فأمّا إتباع الهوىٰ فيصد عن الحق، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة**». والعبارة الآخيرة مهمّة ذات أثر بالغ في مصير الأمّة، بحيث ورد التأكيد عليها في أحاديث النبيصلى الله عليه وآله، كما أشار إليه الإمامعليه السلام سابقاً في الخطبة الثامنة والعشرين».[1] ويتضح من معنى مفردة الهوىٰ التي تشير إلىٰ أهواء ورغبات النفس الأمارة باللذات الدنيوية دون الحدود والقيود مدىٰ صدها الإنسان عن الحق ومنعه من بلوغه، لأنّ الهوىٰ حجاب علىٰ العقل يحول دون إدراك الحقائق ومشاهدتها، بينما يزين له هذا الهوىٰ الباطل ليبديه له أنصع من الحق، في حين يشوه له الحق ويظهره له كابشع صورة للباطل، وقد لمست هذه الحقيقة كثيراً خلال تجربتي ومطالعتي لسيرة الماضين في كيفية تبرير أتباع الهوىٰ لبعض صور الحق والباطل وتغيير هويتها. وأما طول الأمل فيستقطب جميع طاقات الإنسان وقواه حتى ينسيه الآخرة، ولما كانت قوى الإنسان محدودة فانّه يستهلكها في الآمال الكاذبة اللامتناهية بحيث لا يبقى لنفسه من قوة يدخرها للآخرة، ولا سيا أنّ الامال لا تعرف للنهاية

---

١. بحارالانوار ٧٤ / ١٨٨ (مع اختلاف طفيف) وبحارالانوار ٧٠ / ٩٠ـ٩١ مع فارق ضئيل جداً.

من معنى، وتقتضي طبيعتها أن يتجه الإنسان إلىٰ الأُخرى فور ظفره بالاولىٰ حتى يجند نفسه علىٰ الدوام بغية الظفر بها جميعا، بل إن تحقيقه لأمل ربما يدفعه لآخر، لأنّ الآمال عادة مترابطة مع بعضها البعض، وعلىٰ هذا الضوء فسوف لن يبقى لديه من وقت كما لا تبقى له من قوة، وبالتالي سوف لن يمتلك الدفاع نحو الآخرة. وبالطبع فانّه لن يفيق من غفلته حتى يصفعه الموت، وقد ولىٰ العمر وتصرمت أيامه وفرصه فلم يظفر بأماله ولم يدرك آخرته. وما أروع ما قال أبو العتاهية حين دعي لإنشاد الشعر بحضرة هارون حين أراد أن يفتتح له قصراً جديداً في مصر:

عش ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة القصور يهدي إليك بما اشتهيت لدىٰ الرواح وفي الكبور حتى إذا تزعزعت النفوس وحرجت فهناك تعلم موقناً ما كنت إلّا في غرور.[1]

فشعر من حول هارون بالامتعاظ من هذه الأبيات على أنها لا تنسجم والمناسبة، إلّا أنّ هارون مدحه وأثنى عليه.

وقد علق بعض شرّاح نهج البلاغة على أنّ طول الأمل ينسي الآخرة وذلك لأنّ هذا الفرد يغتر بمظاهر الدنيا ويرىٰ في الموت الوسيلة التي تقطعه عن هذه الدنيا، فينسى المعاد ويوم القيامة جدير بالذكر أنّ للأمل دور إيجابي في حياة الإنسان والذي عبر عنه القرآن بالرجاء، ولاسيما إذا كان مقرونا بالتوكل علىٰ اللّه.

٭٭٭

1. الأنوار النعمانية ٣ / ١١٤.

القسم الثاني

«أَلاٰ وَإِنَّ الدُّنْيٰا قَدْ وَلَّتْ حَذّٰاءَ؛ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهٰا إِلاَّ صُبٰابَةٌ كَصُبٰابَةِ الْإِنٰاءِ اصْطَبَّهٰا صٰابُّهٰا. أَلاٰ وَإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ أَقْبَلَتْ وَلِكُلٍّ مِنْهُمٰا بَنُونَ. فَكُونُوا مِنْ أَبْنٰاءِ الْآخِرَةِ وَلاٰ تَكُونُوا مِنْ أَبْنٰاءِ الدُّنْيٰا. فَإِنَّ كُلَّ وَلَدٍ سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيٰامَةِ، وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاٰ حِسٰابَ، وَغَداً حِسٰابٌ وَلاٰ عَمَلَ».

الشرح والتفسير

واصل ﷺ خطبته التي ابتدأها بذم إتباع الهوىٰ وطول الأمل الذان يصدان عن الحق وينسيان الآخرة، وبالتالي يحولان دون سعادة الإنسان وفلاحه، ليقدم تحليلاً رائعاً عن أوضاع الدنيا والآخرة فقال «**ألا وإنّ الدنيا قد ولت حذاء**[1]**، فلم يبق منها إلّا صبابة كصبابة**[2] **الاناء إصطبها صابها**».

فقد شبهت الدنيا هنا بالكائن الذي يعود بسرعة إلىٰ مسيرته، الأمر الذي يفيد حقيقة الحركة السريعة لعمر الإنسان، الحركة الخارجة عن إرادة الإنسان وتشمل كافة الكائنات الحية سوىٰ الذات الإلهية المطلقة، ولا يستثنى من تلك الحركة الكواكب والمجرات والسموات والارضين لتنتهي إلىٰ الفناء والزوال الدنيوي ليكون نافذة على عالم الخلود والبقاء. فالطفولة تتحرك نحو الفتوة والشباب، والفتوة تنطلق نحو الكهولة التي تنتهي بالموت، هذا إذا جرت الأُمور وفق القانون الطبيعي والاقد يتساقط بعض الاطفال والشباب من هذه القافلة لتنتهي

---

١. «حذاء» كما ورد في تفسير السيد الرضي (ره) وشرّاح نهج البلاغة بمعنى السريع، من مادة حذ علىٰ وزن حظ بمعنى القطع، أو القطع السريع، ثم اطلقت علىٰ كل حركة سريعة، وحذا مؤنث إحذاً.

٢. «صبابة» بالضم البقية من الماء واللبن في الإناء، والضمير في اصطبها وصابها يعود إلىٰ الصبابة، لأنّ الإناء مذكر والضمير المؤنث لا يعود إليه.

أعمارهم دون بلوغ الكهولة. فالإمام عليه السلام يقول أنّ عمر الإنسان قصير قليل كبقية الماء واللبن في الإناء التي تعلق به عند قلبه. أو بعبارة أُخرى فانّ الإنسان حين يقلب إناءاً مملوءاً بسائل ثم يعيد الإناء إلىٰ وضعه الأصلي إنّما يتبق فيه مقدار من الماء يطلق عليه الصبابة وهذه في الحقيقة هى عمر الإنسان ثم قال عليه السلام **«ألا وإنّ الآخرة قد أقبلت»** فكلما قصر عمر الدنيا اقتربت الآخرة. فالواقع إننا نركب قطار الزمان الذي يسير بسرعة نحو الآخرة، والدقائق والساعات والأيّام والأسابيع والأشهر والسنوات إنّما تكشف عن سرعة مسيرة قطار الإنسانية بأجمعها، ثم أوضح عليه السلام وظيفة الناس **«ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فانّ كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة»** نعم هناك خطان: خط عبدة الدنيا وخط عشاق الآخرة، وإن كانت هنالك بعض الجماعات المتذبذبة بين الخطين. ولا يعرف أبناء الدنيا سوىٰ النوم والأكل والشرب والشهوة والطرب والعيش والملذات، فهم متعلقون بظاهر الدنيا دون أن يكفوا أنفسهم عناء التفكير في الآخرة، بل هم عنها عمون **﴿يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ﴾**[1]. فكأنّهم مخلدون في الدنيا وليس هنا لك من آخرة، فوثقوا بأموالهم وثرواتهم علىٰ أنّها تخلدهم في دنياهم **﴿يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ﴾**. أما أبناء الآخرة فقد نظروا بعين العقل والبصيرة إلىٰ الدنيا وأدركوا أنهم مفارقوها ومرتحلون عنها فلم يطمأنوا إليها. لقد طلقوها كما طلقها الإمام عليه السلام ثلاثة لارجعة فيها. فقد إتعظوا بالقرآن الذي أوقفهم علىٰ طبيعة خسرانها **﴿وَالعَصْرِ * إِنَّ الإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ﴾**. أمّا التعبير عن عبدة الدنيا بأبناء الدنيا وعن المؤمنين الصالحين بأبناء الآخرة، وذلك لأن الابناء إنّما يشبهون إلىٰ حد كبير آبائهم وأُمهاتهم بفعل الصفات الوراثية التي تنتقل إليهم عن طريق الجينات، وهو الشبه الذي يدعو إلىٰ المحبة والإرتباط. نعم عبدة الدنيا أبنائها، ومن هنا أحاط حبّ الدنيا بقلوبهم بحيث أصبحوا لايرون سوى الدنيا ولايجنون سواها، وشعارهم فيها **﴿إِنْ هِيَ إِلّا حَياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا﴾**[2] وإن كانوا ظاهرا يحملون الإسلام. أما أبناء الآخرة فقد سيطر حب الله علىٰ

---

١. سورة الروم / ٧.
٢. سورة الجاثية / ٢٤.

قلوبهم، فهم يتزودون من الدنيا إلىٰ الآخرة دون أن يغرقوا فيها.

وقال بعض شرّاح نهج البلاغة أنّ المراد بالعبارة هو أن المؤمنين سيكونون في الآخرة بمثابة الأبناء الذين يرتمون بأحضان آبائهم، بينما سيكون أبناء الدنيا كاليتامىٰ. إلّا أنّ هذا التفسير لاينسجم والعبارة «**إن كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة**»، بل يفيد هذا التعبير أن الحياة الدنيا المادية ليست سوىٰ الجحيم الذي يرتمي فيه أبناء الدنيا إذا افتقرت إلىٰ الايمان والتقوى، وهذا ما أشار إليه القرآن بقوله ﴿**فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ**﴾.[1]

أمّا إن كانت هذه الحياة مقرونة بالايمان والتقوى والصبغة الآخروية فتتجسم يوم القيامة علىٰ هيئة جنّة سيرتمي في أحضانها المؤمنون. ثم إختتم الإمامعليه السلام خطبته قائلا: «**وإنّ اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل**» فالعبارة تفيد من جهة وجود الفرصة من أجل إستزادة العمل الصالح، وإذا ما شوهد المحسنون والمسيئون، والصالحون والطالحون، واولياء اللّٰه وأعداء اللّٰه، وحزب اللّٰه وحزب الشيطان إلىٰ جانب بعضهم البعض الآخر في هذه الحياة الدنيا فذلك لأنّ الدنيا دار عمل لاحساب فيها ولاجزاء وعقاب. ومن جهة أُخرى تحذير بأنّ نهاية العمر في الدنيا تعني إغلاق صحيفة الأعمال وليس هنالك من سبيل للعودة والعمل وتدارك ما فرط، كما ليس للندم من أثر أو فائدة، فقد قال عليعليه السلام «**لا عن قبيح يستطيعون إنتقالاً ولا في حسن يستطيعون إزدياداً**»[2] كما ليس هناك من جدوى لصراخهم ﴿**رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً**﴾[3] كما لا تفيدهم الآمال والأماني ﴿**فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾.[4]

الموت يعني إغلاق صحيفة الأعمال

ما ورد في الخطبة بهذا الخصوص ممّا أكدته الآيات القرآنية، حتى صرحت بعض الآيات أنّ أبواب التوبة تغلق حين نزول عذاب الاستئصال (من قبيل العذاب الذي إستهدف

---

١. سورة القارعة / ٩.
٢. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٨.
٣. سورة المؤمنون / ٩٩-١٠٠.
٤. سورة الشعراء / ١٠٢.

إجتثاث جذور الأقوام السابقة حين طغت في الأرض) بحيث لم يعد هناك من مجال لتدراك الأعمال، لأنّ الإنسان في ظل هذه الظروف إنّما يودع الدنيا وينتقل إلىٰ الآخرة مروراً بالبرزخ، ومن ذلك قوله سبحانه: **﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّةَ اللّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الكافِرُونَ﴾**.[1] كما نعلم بأنّ فرعون لما أدركه الغرق وشعر بالموت أظهر الإيمان ولكن أغلقت بوجهه كافة أبواب التوبه فاتاه النداء **﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدِينَ﴾**[2]. ونستنتج من هذه الآيات وسائر الايات الواردة بهذا الشأن أنّ هناك سنة إلهية تفيد إغلاق صحيفة الإنسان وانقطاع أعماله حين يكون على أبواب الموت المحتم، فليس هنالك من سبيل للعودة والإصلاح. وهنا يبرز هذا السؤال وهو أنّ أغلب الروايات صرحت بأنّ آثار الأعمال الحسنة والسيئة تصل الإنسان بعد موته بحيث تثقل صحيفة أعماله خيرا أم شرا، فقد ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**سبعة أسباباً يكتب للعبد ثوابها بعد وفاته، رجل غرس نخلاً أو حفر بئرا أو أجرى نهراً أو بني مسجداً أو كتب مصحفاً أو ورث علماً أو خلف ولداً صالحاً يستغفر له بعد وفاته**»[3] ومن الواضح أنّ ما جاء في هذا الحديث نموذج باراز لأعمال الخير، أفلا يتنافى هذا الأمر وما ذكر سابقاً؟ والجواب علىٰ هذا السؤال واضح فليس هنالك من عمل جديد يقوم به الإنسان بعد الموت، لا إنّ آثار الأعمال السابقة لا تصل إليه. نعم صحيفة الأعمال الجديدة مغلقة ولا يضاف إليها شيئا، أما صحيفة أعماله السابقة قبل الموت فهي مفتوحة دائما وإن الإنسان يقطف ثمار عمله الصالح في البرزخ ويوم القيامة، وتصله حتى الأعمال الصالحة فيما إذا خلف ولداً صالحاً يدعو له ويستغفر له.

---

١. سورة المؤمنون / ٨٤ ـ ٨٥.
٢. سورة يونس / ٩١.
٣. «تنبيه الخواطر»، (طبق نقل ميزان الحكمة، ٣ / ٢٣ ـ ٢٤ مادة عمل).

الخطبة[1] ٤٣

من كلام له ﷺ

وقد أشار عليه أصحابه بالاستعداد لحرب أهل الشام بعد إرساله جريربن عبدالله البجلي إلىٰ معاوية ولم ينزل معاوية على بيعته.

نظرة إلىٰ الخطبة

تشتمل الخطبة علىٰ قسمين يختلف كل منهما عن الآخر، ويبدو أنّ كل منهما قد ورد مستقلاً في موضعه، الا أنّ السيد الرضي (ره) جمعهما لمناسبة ـ فالقسم الأول يتعلق بقضية جريربن عبدالله البجلي الذي كان عاملاً لعثمان علىٰ ثغر همدان. فأمّا خبر جرير بن عبدالله البجلي وبعث أميرالمؤمنين ﷺ إيّاه إلىٰ معاوية، فقد ورد في الأخبار: لما قدم ﷺ الكوفة بعد إنقضاء أمر الجمل، كاتب العمال، فكتب إلىٰ جرير بن عبدالله البجلي. فلما قرأ جرير الكتاب، قام فقال: أيها الناس، هذا كتاب أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، وقد بايعه الناس الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان، ولو جعل هذا الأمر شورى بين المسلمين كان أحقه بها. فقال الناس سمعاً وطاعة. فكتب جرير إلىٰ علي ﷺ جواب كتابه بالطاعة وكتب علي ﷺ إلىٰ الاشعث وكان عامل عثمان على أذربيجان يدعوه إلىٰ البيعة والطاعة. وكتب جرير بن عبدالله البجلي إلىٰ الاشعث يحضه على طاعة أميرالمؤمنين علي ﷺ وقبول كتابه. فقبل

---

١. وردت هذه الخطبة في كتابين قبل نهج البلاغة، الأول كتاب صفين لنصربن مزاحم والآخر كتاب الإمامة والسياسة مع فارق طفيف. أما القسم الثاني فقد رواه ابن عبد ربه في العقد الفريد. مصادر نهج البلاغة، ١/ ٤٤٦.

الأشعث البيعة وسمع وأطاع، وأقبل جرير سائراً من ثغر همدان حتى ورد عليﷺ الكوفة فبايعه. ولما أراد عليﷺ أن يبعث إلىٰ معاوية رسولاً، قال له جرير: إبعثني يا أميرالمؤمنين إليه؛ وأدعوا أهل الشام إلىٰ طاعتك وولايتك فجلهم قومي وأهل بلادي وقد رجوت ألا يعصوني. فبعثه عليﷺ. فانطلق جرير حتى أتى الشام ونزل بمعاوية ودفع إليه كتاب عليﷺ. فقال معاوية أنظر وتنظر؛ واستطلع رأي أهل الشام. فكتب له الإمامﷺ: إنّما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة، وأراد أن يريثك ويبطئك، فان بايعك الرجل، والّا فاقبل. قيل ولما أبطأ جرير عند معاوية إتهمه الناس، فلما سمع جرير ذلك فارق علياًﷺ فلحق بقرقيسياء (بلد بالخابور عند مصبه) ولحق به ناس من قسر من قومه، واقام فيها حتى توفى.[1] على كل حال مكث جرير عدّة شهور في الشام، حتى اقترح أصحاب الإمامﷺ عليه قتال أهل الشام، إلّا أنّ الإمامﷺ لم يجبهم إلىٰ ذلك وجرير هناك، وأنّه قد وقت وقتاً لجرير، فلابدّ من إنتهاء، ذلك الوقت ومعرفة النتيجة.

القسم الثاني يتناول إصرار الإمامﷺ علىٰ قتال أهل الشام، حيث اورد نصربن مزاحم في كتاب صفين أنّ الإمامﷺ قال هذا الكلام لما كلمه أحد جنود الشام اثناء معركة صفين بالهدنة وترك القتال على أن يرجع أهل العراق إلىٰ العراق وأهل الشام إلىٰ الشام، فردّ عليه الإمامﷺ رداً قاطعاً بمواصلة القتال ثم تطرق إلىٰ أسباب ذلك.

وأخيرا فالقسمان يوضحان بجلاء أن الإمامﷺ رجل الصلح والسلام في ظروف الأمن والاستقرار، فاذا نشبت الحرب كان بطلها المجرب وليثها الغاضب.

ونتجه بعد هذه المقدمة إلىٰ شرح الخطبة.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/ ٧٠ـ١١٨ بتلخيص.

القسم الأول

«إِنَّ اسْتِعْدٰادِي لِحَرْبِ أَهْلِ الشّٰامِ وَجَرِيرٌ عِنْدَهُمْ، إِغْلٰاقٌ لِلشّٰامِ وَصَرْفٌ لِأَهْلِهِ عَنْ خَيْرٍ إِنْ أَرٰادُوهُ. وَلٰكِنْ قَدْ وَقَّتُّ لِجَرِيرٍ وَقْتاً لٰا يُقِيمُ بَعْدَهُ إِلّٰا مَخْدُوعاً أَوْ عٰاصِياً. وَالرَّأْيُ عِنْدِي مَعَ الْأَنٰاةِ فَأَرْوِدُوا وَلٰا أَكْرَهُ لَكُمُ الْإِعْدٰادَ».

الشرح والتفسير

رجل الحرب والسلام

كما أوردنا سالفاً فانّ الخطبة بشأن قضية جريربن عبدالله حين كان عاملاً لعثمان على همدان، ثم قدم الكوفة فوجهه الإمامعليه السلام إلى الشام لأخذ البيعة من معاوية، إلّا أنّ فجاج مهمّة جرير كان يبدو ضيعفاً، ومن هنا رأى أصحاب الإمامعليه السلام قتالهم. فأجابهم الإمامعليه السلام قائلاً «**إن استعدادي لحرب أهل الشام وجرير عندهم، إغلاق**[1] **للشام وصرف لأهله عن خير إن أرادوه**» فالعبارة تفيد أنّ الإمامعليه السلام بصفته زعيم الدولة الإسلامية لايرى في الحرب والقتال من وسيلة صحيحة لحل الاختلافات، ولابدّ من إبقاء باب السلام مفتوحاً لاتمام الحجة، فان لم تجد نفعاً، آنذاك تكون الحرب هى العلاج. والطريف في الأمر أنّ الإمامعليه السلام لايأبه بمعاوية وإنّما يفكر بأهل الشام، فقال «**إغلاق للشام**»، ثم أضاف قائلا «**وصرف لأهله عن خير إن أرادوه**» في إشارة إلى عبثية جر أهل الشام للقتال وصدهم عن الصلح والسلام وإن كانت لكبيرة على بعض الأفراد المتحمسين، إلّا أنّ الزعيم العالم لاينبغي أن تستميله العواطف والأحاسيس، فلا يتصرف إلّا من خلال ضبط النفس والعقل والمنطق بما يرتضيه الحق

---

1. إغلاق مصدر من باب إفعال يستعمل عادة في الأبواب.

سبحانه وتعالىٰ. ثم أزال الإمام‌ﷺ الإبهام الذي قد يتسرب إلىٰ عقول هؤلاء الأفراد باستمرار هذه الحالة القلقة فقال «**ولكن قد وقت لجرير وقتاً لايقيم بعده إلّا مخدوعاً أو عاصياً**» فالواقع هو أنّ الإمام‌ﷺ عين مدة بغية الحفاظ علىٰ مصالح المسلمين وعدم فوات الآوان ومرور الفرصة، فقد كان يعلم أنّ معاوية قد يماطل في الوقت ويشغل جرير، وأقصى ذلك هو الاهبة والاستعداد للقتال، ثم يرد بالسلب علىٰ دعوة الإمام‌ﷺ بالبيعة في الوقت الذي تسلب الفرصة والمبادرة من الإمام‌ﷺ وصحبه. إما لماذا حصر الإمام‌ﷺ بقاء جرير عند معاوية باحتمالين؛ الخداع أو العصيان، بينما يمكن أن تكون عرضت له بعض الوقائع من قبيل المرض وما شاكل ذلك، وذلك لأنّ سائر الاحتمالات تبدو ضعيفة لا يكترث بها إزاء هذين الاحتمالين، أو علىٰ حد تعبير علماء الاصول أنّ الاصل في مثل هذه الأُمور السلامة، فلا ينبغي ترتيب الأثر علىٰ سائر الاحتمالات. ثم حاول تهدأة خواطر صحبه والتسكين من روعهم فقال «**والرأي عندي مع الأناة**[1] **فأرودوا**[2]». من جانب آخر فانّ الإمام‌ﷺ بغية عدم غفلة أصحابه في ظل تلك الظروف الحساسة المصيرية، وضرورة الابقاء علىٰ عزمهم الشديد والراسخ في مجابهة العدو وعدم إطفاء جذوة الحماس للقتال فقال‌ﷺ: «**ولا أكره لكم الإعداد**»؛ أي أني لا أعلن حالة التأهب فهذا الأمر يتعارض والصلح والسلام. وفي نفس الوقت لا أحول دون وظيفتكم في التعبئة الطواعية، والحق أنّ هذا لأعظم وأنجع اسلوب منطقي وعقلاني في مثل تلك الظروف العصيبة؟ أي لا تغلق أبواب السلام، ولا يعيش الجميع حالة الانفعال والغضب، ولا ينبغي أن تقع بعض الأعمال التي تفرزها طبيعة النفاق، وأخيراً لا ينبغي فوات الفرص دون جدوى!

الهدف من الدعوة إلىٰ الصلح والبيعة

إن الإمام‌ﷺ وخلافاً لما يعتقده البعض لم يقاتل معاوية، إلّا حين أتم الحجة عليه من كافة الجهات، بحيث لم يكن يلجأ إلىٰ القتال إلّا حين يكون السبيل الأخير الذي أُغلقت جميع السبل

---

١. «اناة» بمعنى التثبت والتأني والصبر.

٢. «أرودوا» من مادة «رود» علىٰ وزن فوت بمعنى طلب الشيئ بالرفق والمداراة، ومنه الإرادة.

دونه. تفيد هذه الخطبة أنّ علياًعليه السلام لم يستجب للضغوط التي مارسها أصحابه من أجل شروع القتال، وأنّه بذل قصارى جهده بهدف إرساء الصلح والسلام. والرسالة التي بعثها الإمامعليه السلام إلىٰ معاوية بواسطة جرير لتؤكد هذا المعنى. فقد جاء فيها: «**إنّه بايعني القوم الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان علىٰ ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد وإنّما الشورى للمهاجرين والأنصار، فان إجتمعوا علىٰ رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضى، فان خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلىٰ ما خرج منه، فان أبي قاتلوه علىٰ إتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى. ولعمري يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبر الناس من دم عثمان، ولتعلمن أني كنت في عزلة عنه إلّا أن تتجنى، فتجن ما بدا لك**».[1] والواقع كان معاوية يعتمد ذريعتين لترك البيعة، الاولىٰ أنّه كان غائباً حين تمت البيعة لعليعليه السلام، والثانية أن الإمامعليه السلام مطالب بدم عثمان، فلا يمكن مبايعته، إلّا أنّ الإمامعليه السلام فند هاتين الذريعتين بالدليل والبرهان في الرسالة المذكورة، فلم يستجب معاوية بغية تحقيق أهدافه وأطماعه. على كل حال وكما ذكرنا أنفاً فانّ جرير عامل عثمان علىٰ همدان أعلن بيعته للإمامعليه السلام ومعه الناس إثر وصول كتاب الإمامعليه السلام. ثم ورد الكوفة وطلب من الإمامعليه السلام أن يوجهه إلىٰ الشام لأخذ بيعة معاوية، لأنّ جل أهل الشام كانوا من قومه وأهل بلده ويطمع إلّا يعصون أمره. فاعترض الأشتر وقال للإمامعليه السلام: لا تبعثه ولا تصدقه، فوالله إنّي لأظن هواه هواهم، ونيّته نيّتهم. إلّا أنّ الإمامعليه السلام إختاره لقول رسول اللهصلى الله عليه وآله فيه: «**إنك من خير ذي يمن**» كما لم يبدر منه خلافاً حتى ذلك الحين، ولعله لم يكن هناك من هو أفضل منه. فدفع إليه الإمامعليه السلام كتابه، وقال له: «إئت معاوية بكتابي، فان دخل في ما دخل فيه المسلمون، وإلّا فانبذ إليه واعلمه أنّي لا أرضى به أمراً، وأنّ العامة لا ترضى به خليفة». فانطلق جرير حتى أتى الشام، ونزل بمعاوية وأخبره باجتماع مسلمي أهل الحرمين وأهل المصرين والحجاز واليمن ومصر وأهل العروض علىٰ بيعة الإمامعليه السلام ثم قال: فلم يبق إلّا هذه الحصون التي أنت فيها فبايع لعليعليه السلام. ثم سلمه كتاب الإمامعليه السلام. فلم يستجب معاوية الذي كان شغفاً بالحكومة

---

١. نهج البلاغة، الرسالة ٦.

فقام فخطب الناس مطالباً بدم عثمان وأخذ البيعة من أهل الشام للقيام والمطالبة بدم عثمان. فاستحثه جرير بالبيعة. فقال: يا جرير، إنّها ليست بخلسة، وإنه أمر له ما بعده فابلعني ريقي. فأشار عليه أخوه بعمرو ابن العاص. وقد وعده النصيحة بعد أن اشترط عليه ولاية مصر. ثم دخل شرحبيل ـ رئيس اليمنية وشيخها والمقدم عليها ـ فتحدث إلىٰ جرير، فأقنعه جرير باتباع عليّ‌عليه‌السلام. إلّا أنّ معاوية كتب له كتاباً ودس إليه الرجال يغرونه بعلي‌عليه‌السلام ويشهدون عنده أنّه قتل عثمان، حتى ملئوا صدره وقلبه حقداً وترة وإحنة على علي‌عليه‌السلام وأصحابه، ثم دعاه في الكتاب لمطالبة بدم عثمان. فتاهب شرحبيل للطلب بدم عثمان، ثم وجهه معاوية إلىٰ الشام لدعوة الناس للمطالبة بدم عثمان وجعل لا يأتي علىٰ قوم إلّا قبلوا ما أتاهم به وهنا شعر جرير باليأس من معاوية، ثم إلتفت معاوية إلىٰ جرير فقال له: إنّي قد رأيت رأياً، قال: هاته، قال: أُكتب إلىٰ صاحبك يجعل لي الشام ومصر جباية. فاذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده في عنقي بيعة، وأسلم له هذا الأمر، وأُكتب إليه بالخلافة. فقال جرير: اكتب ما أردت أُكتب معك. فكتب الإمام‌عليه‌السلام إلىٰ جرير: إذا أتاك كتابي هذا فاحمل معاوية علىٰ الفصل، ثم خيره وخذه بالجواب بين حرب مخزية أو سلم محظية «**ولم يكن الله ليراني اتخذ المضلين عضداً**» فتأخر جرير مدّة ولعله كان يطمع في عودة معاوية إلىٰ رشده، فكثر فيه الكلام.[1]

ﮧ

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي‌الحديد ٣ / ٧٠ ـ ٩١ بتصرف وتلخيص.

القسم الثاني

«وَلَقَدْ ضَرَبْتُ أَنْفَ هٰذا الْأَمْرِ وَعَيْنَهُ، وَقَلَّبْتُ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ، فَلَمْ أَرَ لِي فِيهِ إِلاَّ الْقِتالَ أَوِ الْكُفْرَ بِما جاءَ مُحَمَّدٌ ﷺ. إِنَّهُ قَدْ كانَ عَلَى الْأُمَّةِ والٍ أَحْدَثَ أَحْداثاً، وَأَوْجَدَ النّاسَ مَقالاً، فَقالُوا ثُمَّ نَقَمُوا فَغَيَّرُوا».

الشرح والتفسير

يقابل هذا القسم من الخطبة القسم المذكور تماما، أو بعبارة أُخرى يمثل المرحلة الثانية من مراحل المجابهة. فقد كان الإمام عليه السلام يؤكد في القسم المذكور على ضرورة ضبط النفس واجتناب القتال، واللجوء إلى منطق السلام والصبر والتحمل. بينما يتحدث هذا القسم بصورة قاطعة حادة عن القتال واللجوء إلى القوة؛ ولا غرو فقد أغلقت جميع السبل والأساليب، وثبت بالضرس القاطع أنّ معاوية لا يستسيغ أي منطق واستدلال، ولا يفهم سوى تحقيق مطامعه في الحكومة التي يضحي من أجلها بالغالي والنفيس. ومن الطبيعي ألا يكون هنالك من سبيل لمواجهة هذا الشخص سوى الاستسلام وتفويض المقدّرات الإسلامية إليه، أو شهر السلاح بوجهه وقتاله. ومن هنا قال الإمام عليه السلام: **«ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه، فلم أر لي إلّا القتال أو الكفر بما جاء محمد ﷺ»**. العبارة **«ضربت أنف هذا الأمر وعينه»** مثل تقوله العرب في الاستقصاء في البحث والتأمل والفكر. والعبارة **«وقلبت ظهره وبطنه»** هي الأُخرى كناية عن دراسة كافة جوانب الموضوع: لأنّ الإنسان إذا أراد أن يشتري بضاعة قلب ظهرها وبطنها ليتعرف على كافة مميزاتها. أما قوله عليه السلام **«فلم أر لي إلّا القتال أو الكفر بماء جاء محمد ﷺ»** فذلك لأنّ الإمام عليه السلام إذا سكت وترك الأُمّة لحالها لقاد ذلك إلى انحراف الناس عن الإسلام واستتباب الحكومة الجاهلية الأموية والسفيانية وإحياء

مبادئ الشرك والوثنية، وهذا يعني تجاهل كافة القيم والمثل التي جهد رسول اللّهﷺ مدة ثلاث وعشرين سنة في إرسائها وتحمل صنوف العذاب من أجل ترسيخها، وأصبح عليﷺ خمسة وعشرين عاماً جليس البيت من أجل الحفاظ عليها، وعليه فلم يبق من سبيل أمام الإمامﷺ سوىٰ القتال بصفته الأمين علىٰ الإسلام وقيمه، وهذا هو الرد الصريح علىٰ كافة من يشكك في قتالهﷺ لمعاوية. ثم أشارﷺ إلىٰ مسئلة قتل عثمان واستغلالها من قبل معاوية وزبانيته بغية الوصول إلىٰ أغراضه ومآربه، فقال «**إنّه قد كان على الأمّة وال أحدث أحداثاً، وأوجد الناس مقالا، فقالوا ثم نقموا فغيروا**» فراد الإمامﷺ أن العامل الرئيسي لقتل عثمان هو نفس عثمان، الذي أتى بالأعمال المخالفة للعدل والسنة النبوية، والتي أججت غضب الناس فحاصروه ثم قتلوه، ولذلك لم يتحرك أي من صحابة رسول اللّهﷺ للدفاع عنه، حتى قتل وبقي ثلاثاً علىٰ الأرض لم يدفنه أحد من المسلمين[1] وهذا بدوره يكشف عن مدىٰ غضب الأمّة ونقمتها عليه. وعليه فقتل عثمان لم يكن ذريعة تدعو للخروج علىٰ أمير المؤمنينﷺ. وبالطبع فان أصحاب تلك الذريعة كانوا يعلمون هذا الأمر أكثر من غيرهم، إلّا أنّهم لم يروا أفضل من هذه الذريعة لتعبئة أهل الشام ضد أمير المؤمنينﷺ.

أعمال عثمان وأسباب قتله.

ذهب أغلب شراح نهج البلاغة إلىٰ أن عثمان أحدث أحداثا مشهورة نقمها الناس عليه وأهم هذه الأحداث:

١ـ تأمير بني أمية ولا سيما الفساق منهم وأرباب السفه وقلة الدين ومنهم الوليد الفاسق وشارب الخمر الذي ولاه الكوفة.[2] وقرب الحكم بن أبي العاص عمه الذي طرده رسول اللهﷺ فألبسه جبة من الخز وأعطاه زكاة قبيلة قضاعة التي بلغت ثلاثمئة درهم ـ وذكر إبن قتيبة وابن عبد ربه والذهبي ـ من مشاهير علماء العامة ـ أن من الأحداث التي نقمها الناس

---

١. الكامل لابن أثير ٣ / ١٨٠.

٢. يتفق الفريقان على نزول الآية «وإن جائكم فاسق بنبأ فتبينوا» «الاية ٦ من سورة الحجرات» كان في الوليد. بل نقل العلامة المجلسي في الغدير ٢٧٦/٨ الإجماع علىٰ ذلك.

على عثمان تقريبه للحكم بن أبي العاص الذي لم يقربه أبوبكر ولا عمر في خلافتهما.[١] كما عين ابن عمه مروان بن الحكم مستشارا له وأعطاه غنائم أفريقيا التي بلغت خمسمئة ألف درهم.

٢ـ أذاه لكبار صحابة النبي ﷺ كأبي ذر الذي نفاه للربذة حين كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعترض على أعماله.[٢] وضربه الشديد للصحابي الجليل عمار بن ياسر ولم يكن ذنبه سوى مواجهة عثمان باعتراضات الناس.[٣] وما فعله بالصحابي عبدالله بن مسعود بسبب إعتراضه على التطاول على بيت المال فجعل يضربه حتى كسر رباعيته.[٤]

سئل الصحابي زيد بن أرقم كيف حكمت بكفر عثمان؟ قال: لثلاث: تقسيمه لأموال بيت المال بين الأغنياء ومحاربته لصحابة النبي ﷺ وعمله بغير كتاب الله.[٥]

٣ـ توزيعه لأموال بيت المال على بطانته وقرابته دون حساب وحرمان المؤمنين منها. وللمؤرخين والمحدثين شروحا وافية بالنسبة لهذه الأمور لايسعها المقام. كل ذلك أدى إلى نقمة الأنصار والمهاجرين ولا سيما صحابة النبي ﷺ على عثمان فلم يروه خليفة لرسول الله ﷺ كما قدم الناقمون من مصر والكوفة والبصرة، وحيث لم يكترث لهم، بينما لم ينصره أهل المدينة وهذا يدل على نقمتهم عليه أيضا. أما معاوية الذي كان واقفا على كل هذه الأمور فقد إستغلها ليحرض أهل الشام ضد أمير المؤمنين علي ؑ بحجة المطالبة بدم عثمان.

---

١. الغدير ٢٤١/٨.
٢. الغدير ٢٤١/٨.
٣. نقل هذه القصة أغلب المؤرخين ومنهم البلاذري في أنساب الأشراف ٢٩/٥.
٤. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤٣/٣ وتأريخ اليعقوبي ١٧٠/٢.
٥. شرح نهج البلاغة طبق نهج الحق ٢٩٧/.

الخطبة[١] ٤٤

ومن كلام له عليه السلام

لما هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني إلىٰ معاوية، وكان قد إبتاع سبي بني ناجية من عامل أمير المؤمنين عليه السلام وأعتقهم، فلما طالبه بالمال خاس به وهرب إلىٰ الشام.

سبب الخطبة

قصة الخريت بن راشد الناجيّ وخروجه على عليّ عليه السلام

كما ورد سابقا فالكلام يرتبط بقصة قبيلة بني ناجية: كان الخِرِّيت بن راشد النّاجِيّ، أحد بني ناجِيَة، قد شهد مع علي عليه السلام صِفّين، فجاء إلى عليّ عليه السلام بعد انقضاء صِفّين، وبعد تحكِيم الحكَمَين في ثلاثين في أصحابه، يمشي بينهم حتى قام بين يديه، فقال: لا والله لا أطِيعُ أمرَك، ولا أصلّي خَلْفَك، وإني غداً لمفارق لك؛ فقال له: ثَكِلَتْك أمّك! إذاً تنقض عهدَك، وتَعْصِي رَبّك، ولا تضرّ إلّا نفسَك، أخبِرْنِي لم تفعلُ ذلك! قال: لأنّك حكّمت في الكتاب، وضعُفْت عن الحق إذ جَدّ الجدّ، وركنت إلى القوم الّذين ظلموا أنفسَهم، فأنا عليك رادّ، وعليهم ناقم، ولكم جميعا مباين.

فقال له عليّ عليه السلام: وَيْحَك! هلّم إلىّ أدارِسْك وأناظِرْك في السُّنن، وأفاتحْك أموراً من

---

١. سند الخطبة: أوردها عدد من المؤرخين ممن عاشوا قبل السيد الرضي في كتبهم ورووا قصة بني ناجية، ومنهم الطبري في تأريخه المعروف في وقائع عام ٣٨ هـ وابراهيم بن هلال الثقفي في كتاب الغارات والبلاذري في أنساب الاشراف والمسعودي في كتاب مروج الذهب. مصادر نهج البلاغة، ١ / ٤٥١.

الحق أنا أعلم بها منك؛ فلعلك تعرف ما أنت الآن له منكر، وتُبصر ما أنت الآن عنه عَمٍ وبه جاهل. فقال الخريت: فإنّي غادٍ عليك غداً. فقال عليّ عليه السلام: اغْدُ ولا يستهوينّك الشيطان، ولا يتقحمَنَّ بك رأيُ السوء، ولا يستخفنّك الجهلاء الذين لا يعلمون؛ فوالله إن استرشدتَني واستنصحتني وقبلت مِنّي لأهديّنك سبيل الرشاد.

فخرج الخرِّيت من عنده مُنْصرفاً إلى أهله.

قال عبدالله بن قُعَين: فعجلت في أثره مُسْرِعاً، وكان لي من بني عَمّه صديق، فأردت أن ألْقَ ابنَ عمه في ذلك، فأعلمه بما كان من قوله لأميرالمؤمنين، وآمر ابنَ عمه أن يشتدّ بلسانه عليه، وأنْ يأمرَه بطاعة أميرالمؤمنين ومُناصحته، ويخبره أنّ ذلك خير له في عاجل الدنيا وآجل الآخرة. ثم بعث عليه السلام بمعقل بن قيس فقاتل الخريت حتى قتل وأسر أصحابه، فأطلق من كان منهم مسلما وبقى غير المسلمين، وحين ورد الأسرى الكوفة إشترى مصقلة الأسرى بخمسمئة درهم من معقل وأعتقهم. فدفع مئتي درهم وعجز عن دفع الباقي فخاف وهرب. فخطب الإمام عليه السلام بهذه الخطبة.[1]

٨٠٠٣

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٨/٣ بتصرف.

«قَبَّحَ اللّٰهُ مَصْقَلَةَ! فَعَلَ فِعْلَ السّادَةِ، وَفَرَّ فِرارَ الْعَبِيدِ! فَما أَنْطَقَ مادِحَهُ حَتَّى أَسْكَتَهُ، وَلا صَدَّقَ واصِفَهُ حَتَّى بَكَّتَهُ، وَلَوْ أَقامَ لَأَخَذْنا مَيْسُورَهُ وَانْتَظَرْنا بِمالِهِ وُفُورَهُ».

الشرح والتفسير

فرار العبيد

قال الإمامعليه السلام بعد أن سمع خبر فرار مصقلة ـ عامل الإمام على منطقة أردشير حرّة من مناطق فارس ـ «**قبح اللّٰه مصقلة فعل فعل السادة، وفر فرار العبيد**». لقد قام مصقلة بعمل إنساني كبير وذلك حين إشترى أسرى بني ناجية وأعتقهم فلما طولب بالمال وإعادته إلىٰ بيت مال المسلمين وبدلاً من سؤال المهلة للتسديد هرب بالمال إلىٰ الشام حيث معاوية الذي عرف بخداعه للناس واستعبادهم وظاهر القضية أن مصقلة وخشية دينه لبيت المال هرب إلىٰ الشام، بينما يبدو أنّه كان مستعد مسبقاً لهذه الخيانة العظمى، فلعله كان يخشى الفضيحة من بعض الأعمال الأُخرى التي قارفها، ولعل شدة عليعليه السلام في العدل والاصرار علىٰ إسترداد حقوق بيت المال قد شقت عليه كما شقت علىٰ الآخرين. ويؤيد ذلك ما قاله صاحب مصقلة ذهل بن حارث أنّ مصقلة قال لم أكن لأغتم لو كنت مديناً لعثمان أو معاوية، فهما يتسامحان في بيت المال، وقد فعلا ذلك بحق الالاف المؤلفة، الا أن علياًعليه السلام شديد التعامل مع بيت المال. مع ذلك فليس هنالك من مبرر لفعل مصقلة، ولا سيا إثر ذلك التناقض الواضح، فقد تكرم من جانب ليقوم بذلك العمل الإنساني، ومن جانب آخر قام بتلك الخيانة وهربا لذلك قالعليه السلام:

«فما أنطلق مادحه حتى أسكته، ولا صدق واصفه حتى بكته»[1] فقد فعل ما يدعو إلىٰ مدحه من قبل كل من يسمعه، إلّا أنّ خبر عتقه لسبايا بني ناجية لم يكد ينتشر بين الناس حتى إنتشر قبله نبأ فراراه إلىٰ الشام، فاصاب الجميع بالدهشة والذهول، فكيف يلجأ إلىٰ معاوية من يقوم بهذا العمل النجيب، فيؤثر مجاورة معاوية والوقوف إلىٰ جانبه على عليعليه‌السلام؟ نعم لايسع الجميع تحمل العدل! ثم إختتم كلامه بالقول **«ولو أقام لأخذنا ميسوره، وانتظرنا بماله وفوره»** أجل هذا منطق القرآن الكريم **﴿وَإِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلىٰ مَيْسَرَةٍ﴾**[2]. ليس هنالك من يعتقد بأنّ علياًعليه‌السلام سيعامله علىٰ خلاف القرآن وأحكامه، وعليه فلا يقبل عذره في خشيته من الإمامعليه‌السلام في تسديد ما بذمته لبيت‌المال. وهنا يبرز هذا السؤال لم لم يهبه الإمامعليه‌السلام ذلك المال تقديراً لعمله الإنساني، فصقلة لم يكن ليتحمل بذلك الدين لمصالحه الشخصية بل كان نتيجة طبيعة لذلك العمل الجبار الذي قام به؟ ونقول في الجواب علىٰ هذا السؤال أنّ الإمامعليه‌السلام لو فعل ذلك لأصبحت سنة في المستقبل، بحيث يقوم كل عامل وآمر بالطلاق سراح الأسرىٰ؛ الأمر الذي يفرز بعض المخاطر التي تهدد كيان المجتمع الإسلامي بينما يحظي الأمر بمدح الناس وثنائهم. أضف إلىٰ ذلك فانّ مثل هذا البذل يزعزع أسس ودعائم بيت المال ويعيد إلىٰ الاذهان سياسة البذخ والاسراف التي إتبعها عثمان تجاهه، بينما كان الإمامعليه‌السلام قد وعد الأُمّة بأنّه سيسترجع كل ما أخذ من بيت المال بغير حق وإن تزوج به النساء.

تأمّلان

١ـ من بين الأسئلة التي تطرح بشأن هذه الخطبة

أو ليس بني ناجية مسلمين، فكيف يسبون ويفادون؟ ويبدو أنّ الجواب قد ورد في قصة سبيهم، حيث خرج الخريت بن راشد الناجي ضد أميرالمؤمنينعليه‌السلام واجتمع مع عدد من

---

١. «بكته» من مادة «بكت» علىٰ وزن بخت بمعنى الضرب بالعصا، كما تعني التوبيخ والغلبة على الآخرين عن طريق الاستدلال.

٢. سورة البقرة / ٢٨٠.

الأفراد، فلما بلغ الخبر الإمامعليه السلام. فوجه الإمامعليه السلام أحد أصحابه «معقل بن قيس» لقتال الخريت بن راشد فقتله وقتل جمعاً من أصحابه وأسر آخرين من مسلمين وغير مسلمين من النصارى ومانعي الصدقة، فجعل مسلميهم يمنة والنصارى ومانعي الصدقة يسرة، ثم خلى سبيل من كان مسلماً وأخذ بيعته، ومن كان إرتدد عرض عليه الرجوع إلىٰ الإسلام أو القتل. فلما أتي بالأُسرىٰ إلىٰ الإمامعليه السلام في منطقة أردشير حرّة التي كان مصقلة عاملها، فبكى إليه النساء والصبيان وتصايح الرجال. فقال مصقلة: أقسم بالله لأتصدقن عليهم، فاشتراهم بخمسمائة ألف درهم فاعتقهم. فبعث مصقلة بمقدار من المال وبقي آخر. وانتظر عليعليه السلام مصقلة أن يبعث المال فابطأ به فبعث إليه الإمام، فقدم الكوفة، فسأله الإمامعليه السلام المال، فأدى إليه مائتي ألف درهم وعجز عن الباقي، علىٰ أن يهبه الإمامعليه السلام ذلك، فلم يقبل الإمامعليه السلام، ولو وافقه الإمامعليه السلام لكان ذلك الأمر بدعة بحيث يشتري الآخرون الأسرىٰ ثم يعتقونهم ولا يؤدون المال إلىٰ بيت مال المسلمين، إلىٰ جانب كون تلك الموافقة تثير تداعيات سياسة عثمان إزاء بيت المال بحيث يساء الظن بحزم الإمامعليه السلام بالنسبة لبيت مال المسلمين. والعجيب أنّ أحد أصحابه قال له: لو شئت لم يمض عليك جمعة حتى تجمع هذا المال، فقال: ما كنت لأحملها قومي، ولا أطلب فيها إلىٰ أحد. ثم قال: والله لو أنّ ابن هند مطالبي بها، أو ابن عفان، لتركها لي. فهذه الأُمور تشير إلىٰ أنّه قد يكون منذ البداية قد عزم علىٰ عدم أدائها، كما تفيد الرسالة الثالثة والأربعون من نهج البلاغة أنّه كان عثمانياً، ولذلك كان قد بذل بعض أموال بيت المال لبطانته وقومه، وخلاصة القول فان بنيته الفكرية والعملية كانت قائمة علىٰ نهج معاوية لا أميرالمؤمنينعليه السلام. ولعله كان رجلاً صالحاً قبل وصوله إلىٰ الحكومة إلّا أنّ حب الدنيا والاغترار بالجاه قد غلب عليه. ومن هنا شقت عليه عدالة الإمامعليه السلام حتى إلتحق في خاتمة المطاف بمعاوية. فخطب الإمامعليه السلام هذه الخطبة واختتمها بقوله «**ولو أقام لأخذنا ميسوره، وانتظرنا بماله وفوره**».[1]

ويتضح ممّا ذكرنا أنّ الاسرىٰ المذكورين لم يكونوا من المسلمين.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/ ١٢٨ـ ١٥٠ بتصرف.

٢ ـ فلسفة الحزم

السؤال الآخر الذي يمكن طرحه هنا: ما علة كل هذا الحزم من الإمام عليه السلام في هذه الحالات؟

ونقول في الجواب أنّ الإمام عليه السلام لم يتشدد في هذا الأمر، بل كان قد أمهله لتسديد الدين عند المقدرة أولاً، وثانياً لم يكن ذلك حقاً للإمام عليه السلام بحيث يهبه أموال بيت المال، بل هو حق المسلمين الذي لايفرط فيه أمير المؤمنين عليه السلام قط. ورغم حزمه في هذا الأمر إلّا أنّه أبقى باب الرفق مفتوحاً، ومن ذلك إقترح البعض علىٰ الإمام عليه السلام بعد فرار مصقلة إعادة السبايا والأسرىٰ، فلم يوافق الإمام عليه السلام على أنّ مصقلة قد إبتاعهم واعتقهم، فالمدين مصقلة لا هؤلاء.[1]

٨٠٠٣

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٢٨/٣ ـ ١٥٠ بتصرف.

الخطبة[1] ٤٥

ومن خطبة له عليه السلام

وهو بعض خطبة طويلة خطبها يوم الفطر، وفيها يحمدالله ويذم الدنيا

نظرة إلىٰ الخطبة

تشتمل الخطبة علىٰ فصلين من كلام أميرالمؤمنين علي عليه السلام: أحدهما حمدالله والثناء عليه، والآخر ذم الدنيا وحث الناس علىٰ التزود للآخرة. ويبدو أنّ الرضي (ره) لم يذكر الخطبة كلها فهي طويلة جداً، ومن هنا لا يرىٰ هناك من إرتباط بين هذين الفصلين، إلّا أنّها رغم قصرهما يشيران إلىٰ معان ضخمة مهمّة.

---

١. سند الخطبة: قال أغلب شرّاح نهج‌البلاغة أنّ هذه الخطبة والخطبة رقم ٢٨ كلاهما فصل من خطبة طويلة روىٰ السيد الرضي قسما منها هنا وآخر في الخطبة المذكورة (كما ترك القسم الثالث) ويفيد هذا الأمر مرة أخرى أنّ السيد الرضي (ره) لم يرد نقل كافة خطب الإمام عليه السلام في نهج‌البلاغة، بل كان يلتقط كلامه عليه السلام إلتقاط لأنّ غرضه ذكر فصاحته عليه السلام لا غير. علىٰ كل حال نقل هذه الخطبة قبل السيد الرضي (ره) المرحوم الصدوق في كتاب من لايحضره الفقيه، والمرحوم الشيخ الطوسي (بعد الرضي) في مصباح المتهجد. (مصادر نهج البلاغة، ١٠/٢ ـ ١١).

القسم الأول

«الْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَقْنُوطٍ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَلاٰ مَخْلُوٍّ مِنْ نِعْمَتِهِ وَلاٰ مَأْيُوسٍ مِنْ مَغْفِرَتِهِ وَلاٰ مُسْتَنْكَفٍ عَنْ عِبٰادَتِهِ، الَّذِي لاٰ تَبْرَحُ مِنْهُ رَحْمَةٌ وَلاٰ تُفْقَدُ لَهُ نِعْمَةٌ».

الشرح والتفسير

الرحمة اللامتناهية

تناول هذا الفصل حمدالله والثناء عليه، ثم أشار إلىٰ ست من النعم الإلهية التي تستحق الحمد والشكر، فقال‌ﷺ **«الحمد لله غير مقنوط[1] من رحمته»**. كيف اليأس من رحمة اللّه الواسعة وهو القائل سبحانه **﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ﴾**[2] كما قال علىٰ لسان نبيه يعقوب‌ﷺ **﴿لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلّا القَوْمُ الكافِرُونَ﴾**[3] وعلىٰ لسان خليله إبراهيم‌ﷺ **﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلّا الضّالُّونَ﴾**[4] وعليه فلابد للإنسان من الانابة إلىٰ اللّه مهما كانت ذنوبه ومعاصيه، ولا ينبغي له اليأس من رحمة اللّه، بل إنّ هذا اليأس كفر وضلالة وهو من أعظم الذنوب ثم قال‌ﷺ **«ولا مخلو من نعمته»**. كما ورد في القرآن الكريم **﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّمٰواتِ وَما فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً﴾**[5] وأضاف‌ﷺ **«ولا مأيوس من مغفرته»** كيف لا وهو القائل **﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلىٰ**

---

١. «مقنوط» من مادة «قنوط» علىٰ وزن قنوت بمعنى اليأس من الخير والرحمة، والقنوط علىٰ وزن بلوط صيغة مبالغة.

٢. سورة الاعراف / ١٥٦.

٣. سورة يوسف / ٨٧.

٤. سورة الحجر / ٥٦.

٥. سورة لقمان / ٢٠.

أَنْفُسِهِمْ لاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١]. بل ورد في الحديث النبوي الشريف أنّ هذه الرحمة لمن السعة بحيث يتطاول عليها ويطمع بها حتى إبليس «**ليغفر الله يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد حتى إبليس يتطاول اليها**»[٢] كما جاء في الرواية: «أنّ لله مئة رحمة وقد أنزل واحدة منها إلىٰ الأرض وقسمها بين مخلوقاته، وإستأثر بتسع وتسعين إدخرها لعباده يوم القيامة»[٣]. ولما كانت هذه الأمور تسوق الناس إلىٰ العبادة، قالﷺ: «**ولا مستنكف**[٤] **عن عبادته**» وذلك لأنّ الاستنكاف عن العبادة لا يؤدي سوى إلىٰ العذاب، فقد قال القرآن بهذا الخصوص **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾**[٥]. ثم عد نعمتين أخريينﷺ فقال «**الذين لا تبرج منه رحمة، ولا تفقد له نعمة**» فقد تكررت الرحمة والنعمة وكأن السابقة أشارت إلىٰ أصل الرحمة والنعمة الإلهية. بينما تحدثت العبارة اللاحقة عن دوام هذه النعمة وعدم إنقطاعها، وهذا ما ورد تأكيده في القران **﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لاتُحْصُوها﴾**[٦]. والطريف في الأمر أنّ هذين الوصفين في الواقع ذكرا كدليل على عدم استنكاف الناس عن عبادة الله؛ الأمر الذي تناوله علم الكلام تحت عنوان «**شكر المنعم من دوافع معرفة الله**». أمّا المفردات الرحمة والمغفرة والنعمة فهي وإن كانت مرتبطة مع بعضها إلّا أنّ مفاهيمها مستقلة. فللرحمة معنى واسع يشمل كل فضل ولطف من الله للعباد سواء عن طريق إفاضة النعم أو مغفرة الذنوب، وبعبارة أُخرىٰ فانّ نسبة الرحمة إلىٰ النعمة والمغفرة هي نسبة العموم والخصوص المطلق، بينما لكل من النعمة والمغفرة مفهوم منفصل عن الآخر، فالنعمة تختص بالإمكانات الوجودية التي تأخذ بيد الإنسان إلىٰ السمو والكمال، أمّا المغفرة فهي إزالة آثار الذنب وتعبيد الطريق بعد إزالة العراقيل.

---

١. سورة الزمر / ٥٣.
٢. في ظلال نهج البلاغة ١ / ٢٢٦.
٣. مجمع البيان ذيل تفسر بسم الله الرحمن الرحيم من سورة الفاتحة.
٤. «إستنكاف» من مادة «نكف» علىٰ وزن نظم بمعنى الابعاد، والانتكاف بمعنى الخروج من أرض إلىٰ أخرى، والاستنكاف بمعنى الآباء والاعراض عن الشيء.
٥. سورة النساء / ١٧٣.
٦. سورة النحل / ١٨.

القسم الثاني

«وَالدُّنْيا دارٌ مُنِيَ لَها الْفَناءُ وَلِأَهْلِها مِنْها الْجَلاءُ وَهِيَ حُلْوَةٌ خَضْراءُ، وَقَدْ عَجِلَتْ لِلطَّالِبِ وَالْتَبَسَتْ بِقَلْبِ النَّاظِرِ، فَارْتَحِلُوا مِنْها بِأَحْسَنِ ما بِحَضْرَتِكُمْ مِنَ الزَّادِ، وَلا تَسْأَلُوا فِيها فَوْقَ الْكَفافِ، وَلا تَطْلُبُوا مِنْها أَكْثَرَ مِنَ الْبَلاغِ».

الشرح والتفسير

الدنيا دار المنى

لقد عرض الإمام عليه السلام هنا بذم الدنيا علىٰ أنّ حبّها والتعلق بها يعد من أعظم آفات سبيل سعادة الإنسانية. كما أنّ الاغترار بزخارفها وزينتها أساس الذنوب والمعاصي، فقال عليه السلام **«والدنيا دار مني لها الفناء»**[1]. نعم فدعائم الكون تحكي آثار الزوال والفناء، فالأشجار التي تتفتح في الربيع وتحمل الثمار إنّما تذبل في فصل الخريف لتجف ثم تتساقط أوراقها علىٰ الأرض فتعبث بها الرياح هنا وهناك، وكأنّ حياة هذه الاشجار لم تشهد الربيع ولم تحمل الثمار. وهكذا حال الإنسان فالفتى القوي بالأمس، هو العجوز الهرم اليوم، والكهل العجوز اليوم سيكون عظاما نخرة غداً! ثم قال عليه السلام **«ولأهلها منها الجلاء»**[2] فكافة الأفراد دون إستثناء سيودعون عاجلا أم آجلا هذه الدنيا الفانية ليتجهوا نحو تلك الحياة الخالدة في عالم الآخرة. فهذا قانون إلهي مطلق لا يسع أحد إنكاره والخروج عليه. ومن هنا عبرت بعض الآيات القرآنية عن

---

١. مني لها الفناء، أي قدر لها لها الفناء. وتطلق على الآمال التي يخطط لها الإنسان فالمراد أن الفناء مقدر في طبيعة الدنيا.

٢. «الجلاء» بمعنى الظهور، ومنه الجلاء عن الوطن بمعنى الخروج منه، وكأنّ الإنسان كان مستخفياً وقد ظهر بعد أن خرج من وطنه.

الموت باليقين، وذلك لأنّه يوقن به حتى من أنكر المعاد والحساب. ثم قالﷺ «**وهـي حـلوة خضرة**» وتختص الحلاوة بالذائقة بينما ترتبط الخضرة بـالباصرة، فـخضرة الدنـيا وجمـالها تخطف بصر الفرد الغافل وتشـده إليهـا، بـينما تسـوق حـلاوتها ذلك الإنسـان إلىٰ المـعصية والخطيئة، ومن المعلوم أنّ خداع الدنيا لا يقتصر علىٰ هذين الأمرين، بل لكل حـاسة مـن حواس الإنسان ما يجذبها ويربطها بالدنيا. وأضافﷺ «**وقد عجلت للـطالب والتـبست**[1] **بقلب الناظر**» فطبيعة الدنيا خيرها العاجل ومنافعها المبكرة، وإذا أتت الإنسان فإنّها تـنفذ إلىٰ قلبه حتى تكون جزءاً منه لأنّها جميلة للناظر، كما أنّها حلوة للمذاق، ولذلك كان التحرر منها صعباً. وما ان فرغ الإمامﷺ من بيان صفات الدنيا لتتطلع القلوب إلىٰ أوامر السماء حتى قال «**فارتحلوا منها بأحسن ما بحضرتكم من الزاد ولا تسألوا فـيها فـوق الكـفاف، ولا تطلبوا منها أكثر من البلاغ**»[2]. لا ينبغي أن ينسى الإنسان أنّه مسافر قد أقام هنا بـصورة مؤقتة، والمسافر الفطن إنّما ينهمك باعداد الزاد والمتاع في مثل هذا المنزل، فهو يتزود بأحسن الأمتعة والأشياء ولا يثقل كاهله بالرديً منها أبدا ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ وَاتَّقُونِ يا أُولِي الأَلْبابِ**﴾[3]. فالتقوىٰ أفضل زاد الدنيا إلىٰ جانب الحذر من نوم الغفلة.

الكفاف والعفاف

لقد تضمنت الخطبة إشارات إلىٰ مختلف أبعاد الحياة الدنيا رغم قلة عباراتها وألفاظها. فقد أشارات إلىٰ طبيعة الحياة الدنيا والتي تكمن في الفناء والزوال ورحيل أهلها عنها شـاءوا أم أبوا. كما تطرقت إلىٰ ظاهرها الأنيق الذي يشد الأنظار إليه، ومن هنا يتجه نحوها من يخدع بالمظاهر، بينما يحذرها من يتمعن في العواقب. وتناولت حب الدنيا الذي يقود بـالتدريج إلىٰ تربعها في قلب الإنسان حتى تصبح جزءاً من كيانه؛ الأمر الذي يجعل من المتعذر عليه نـزع

---

١. ـ مادة «الالتباس» إن تعدت بحرف الباء عنت الاختلاط والامتزاج، وإن تعدت بحرف على عنت الاشتباه، ومن هنا يتضح أنّ المراد بالعبارة هنا الاشتباه.

٢. «البلاغ» بمعنى الوصول إلى الشئ، ومنه البلوغ الذي يصل فيه الإنسان مرحلة خاصة. والمـراد بـها هـنا مـا يتبلغ به، أي يقتات به مدة الحياة.

٣. سورة البقرة / ١٩٧.

حبّها من قلبه ثم أرشدت إلىٰ النجاة من أخطارها وآفاتها بالقناعة بالكفاف والعفاف، والمراد بالكفاف[1] والعفاف (أو العفاف والكفاف» أن يقنع الإنسان في الدنيا بقدر حاجته إليها ويدع الرغبة بالمزيد جانباً ويغض طرفه عن جمع الأموال؛ الأمر الذي يجعله يعيش الاستقرار والسكينة في حياته الدنيا ويحد من حمله في حياته الأخروية، وذلك لأنّ طامة الإنسان في الحرص والطمع وعدم القناعة. طبعاً إذا كان تطلعه للمزيد من أجل إغاثة الضعفاء والمحرومين فانّ ذلك ليس فقط لا يتنافى والعفاف والكفاف فحسب، بل من شأنه أن يقود الآخرين إلىٰ الكفاف. فقد ورد في القرآن الكريم: **﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللّهَ لايُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾**[2]، كما ورد هذا المعنى في الروايات الإسلامية، فقد ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنّ النبيصلى الله عليه وآله كان يدعو بهذا الدعاء: «**اللّهم أُرزق محمداً وآل محمد ومن أحبّ محمداً وآل محمد العفاف والكفاف**»[3]. وعن أميرالمؤمنين عليعليه السلام أنّه قال: «**قليل يكفى خير من كثير يردي**» [4] فالفرد إذا قنع باللازم من حياته كان ذلك زينة له من الذنب وتحلى بالكفاف والعفاف: «**من اقتنع بالكفاف أداه إلىٰ العفاف**» [5] أضف إلىٰ ذلك وبغض النظر عن الجوانب المعنوية والأخلاقية للقناعة بالضروري في الحياة فانّما مدعاة للسكينة والاستقرار الروحي والنفسي في الحياة الدنيا، فقد ورد عن الإمام عليعليه السلام أنّه قال: «**ومن إقتصر علىٰ بلغة الكفاف فقد إنتظم الراحة وتبوأ خفض الدعة**»[6]. وقد أثنى رسول اللهصلى الله عليه وآله علىٰ شخص فدعا له قائلاً: «**اللّهم أُرزقه الكفاف**» كما قال رسول اللّه: «**إنّ ما قلّ وكفى خير ممّا أكثر وألهى؛ اللّهم أُرزق محمّداً وآل محمد الكفاف**».

ﮂﮃ

١. الكفاف من مادة كف بمعنى كف اليد، ولما كان الإنسان يبعد الشيء عنه بكفه فقد وردت هذه المفردة بمعنى المنع والسلب، ومنه المكفوف لمن سلب بصره، ويقال للجماعة كافة لأنها تمنع العدو.
٢. سورة المائدة / ٨٧.
٣. اصول الكافي ٢ / ١٤٠.
٤. غرر الحكم، ح ٢٣٤.
٥. غرر الحكم، ح ٢٨٦.
٦. نهج البلاغة / ٣٧١.

الخطبة[1] ٤٦

ومن كلام له ﷺ

عند عزمه على المسير إلىٰ الشام وهو دعاء دعا به ربّه عند وضع رجله في الركاب.

نظرة إلىٰ الخطبة

تتضمن هذه الخطبة أو هذا الدعاء عدّة أمور عميقة ومهمّة، فقد بين الإمام ﷺ جميع المشاكل المتوقعة في السفر في ثلاث، ثم إستعاذ منها باللّٰه. ثم وصف الحق سبحانه بأنّه الصاحب في السفر والخليفة في الأهل توكيداً لحضوره الذاتي المطلق لدىٰ جميع الكائنات.

ﮪﮫ

١. سند الخطبة رواه بعض المحدثين الذين عاشوا قبل السيد الرضي (ره) ومنهم نصربن مزاحم في كتاب صفين، وذكر بعض المؤرخين أنّ الإمام ﷺ دعا بهذا الدعاء عندما وضع رجله في الركاب وعزم على المسير إلىٰ الشام لقتال معاوية. وقال السيد الرضي وابتداء هذا الكلام مروي عن رسول اللّه ﷺ وقد قفاه أمير المؤمنين علي ﷺ. ورواه أعثم الكوفي في كتاب الفتوح، ما اورده مع بعض الاضافات القاضي نعمان المصري في كتاب دعائم الإسلام، وقال: إنّ الإمام ﷺ كان يدعوا بهذا الدعاء عند كل سفر، مصادر نهج البلاغة، ١٢/٢.

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمالِ وَالْوَلَدِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ وَلا يَجْمَعُهُما غَيْرُكَ، لِأَنَّ الْمُسْتَخْلَفَ لا يَكُونُ مُسْتَصْحَباً، وَالْمُسْتَصْحَبُ لا يَكُونُ مُسْتَخْلَفاً».

الشرح والتفسير

الاستعاذة بالله من وعثاء السفر

لا شك أنّ أولياء الله يعيشون التضرع إلى الله في جميع الأحوال إلّا أنّهم يكونون أكثر تضرعاً حين إشتداد المحن والخطوب، فيستأنفون أعمالهم بدعاء الله والتوسل إليه ليفرج عنهم ويلهمهم القوة والصلابة والثقة بالنفس. الإمام عليه السلام من جانبه لما عزم على المسير لصفين تضرع بهذا الدعاء «**اللّهم إنّي أعوذ بك من وعثاء[1] السفر وكآبة[2] المنقلب[3] وسوء المنظر في الأهل والمال والولد**» فالواقع أنّ ما يشغل ذهن المسافر من جراء السفر أوجزه الإمام عليه السلام في ثلاث؛ الأول (وعثاء السفر) والثاني كيفية العودة (وكآبة المنقلب» والثالث القلق على الأهل (سوء المنظر في الأهل والولد). ويستعيذ الإمام عليه السلام بالله من هذه الأمور المقلقة ويسأله تذليلها، ثم قال عليه السلام: «**اللّهم أنت الصاحب في السفر وأنت الخليفة في الاهل، ولا يجمعها غيرك**» نعم الذات الإلهية فقط المنزهة عن الزمان والمكان، فهي محيطة بجميع الأمكنة والأزمنة، فليس هنالك من مكان أقرب إليها من آخر، ومن هنا فان الله معنا في السفر ومع

---

١. «وعثاء» من مادة «وعث» على وزن درس تعني المشقة، وأصله المكان المتعب لكثرة رمله وغوص الأرجل فيه ومن هنا يطلق الوعثة على المرأة المترهلة لأنها لا تستطيع الحركة بسهولة.

٢. «كآبة» بمعنى الإنزعاج وسوء الحال وتصدع البال ومن هنا يقال الكئيب للفرد غير مرتاح البال.

٣. «منقلب» من مادة «قلب» مصدر بمعنى الرجوع، كما يمكن أن تكون إسم مصدر، واسم مكان وزمان، وهي هنا إسم مصدر أنسب منها مصدر.

أهلنا وولدنا في الحضر، وما أروع أن نودع زمام أمور حياتنا إلىٰ من يحيط بكل شيءٍ ولا يحيط به شيءٍ. ثم يقدم الدليل علىٰ ما قال: «**لأنّ المستخلف لايكون مستصحباً، والمستصحب لا يكون مستخلفاً**» فالمكان يسود ويحكم جميع الكائنات المادية، ومن هنا فان وجودها في مكان يعني خلو الاخر منها، وما ذلك إلّا لوجودها المحدود، وليس هنالك من وجود لا محدود سوىٰ اللّه سبحانه الذي لا يعرف المكان ولا الزمان ولا البعد ولا القرب، وهو كما قال: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنْتُمْ**﴾[١] وقال: ﴿**فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ**﴾[٢].

قال السيد الرضي (ره) آخر الكلام: وابتداء هذا الكلام مروي عن رسول اللّه ﷺ، وقد قفاه أمير المؤمنين علي عليه السلام بأبلغ كلام وتممه بأحسن تمام من قوله «**لا يجمعهما غيرك**» إلىٰ آخر الفصل.

فلسفة الدعاء

من يتصفح المصادر الإسلامية يدرك أنّ للدعاء مكانة خاصة في التعاليم الإسلامية، حتى عد الدعاء مخ العبادة. فقد جاء في الحديث النبوي الشريف «**أفزعوا إلىٰ اللّه عزّوجلّ في حوائجكم، والجاؤوا إليه في ملماتكم، وتضرعاً إليه، فانّ الدعاء مخ العبادة**»[٣]. بينما وصفه حديث آخر بسلاح المؤمن، فقال رسول اللّه ﷺ: «**الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السموات والأرض**»[٤]، وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**الدعاء مفاتيح النجاح، ومقاليد الفلاح**»[٥] والدعاء علىٰ درجة من الأهمية بحيث قال القرآن الكريم: ﴿**قُلْ ما يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ**﴾[٦]. مع ذلك هنا لك من إستشكل علىٰ الدعاء ولا سيما أُولئك الذين غفلوا عن فلسفته:

١ ـ فهم يقولون أحياناً: لا ينسجم الدعاء وروح الرضا والتسليم لإرادة اللّه، فالذي يجب

---

١. سورة الحديد / ٤.
٢. سورة البقرة / ١١٥.
٣. بحارالانوار ٩٠ / ٣٠٢.
٤. اصول الكافي ٢ / ٤٦٨ ح ١.
٥. بحارالانوار ٩٠ / ٣٤١؛ أصول الكافي ٢ / ٤٨٦.
٦. سورة الفرقان / ٧٧.

علينا هو التسليم لإرادة الله والرضى بما يرتضي!

٢ ـ إن الدعاء يعدّ إحد العوامل المخدرة للإنسان فيصده عن السعي والعمل والنشاط، حيث ينصرف الإنسان عن هذه الأُمور ويلوذ بالدعاء لتأمين حاجياته.

٣ ـ ناهيك عن كل ما تقدم، كيف يسعنا تغيير المقدرات الإلهية بواسطة الدعاء، فلو قدر الله أمراً، فانّ ذلك الأمر سوف لن يغيره دعاؤنا، وبعبارة أُخرى فانّ الدعاء نوع من أنواع الفضول والتطفل علىٰ أفعال الله، فالله لا يفعل إلّا ما فيه المصلحة ولا داعي للدعاء.

ولكن لا ترى هذا الكلام سليم إذا ما وقفنا علىٰ فلسفة الدعاء ومفهومه الواقعي. فالمفهوم الواقعي للدعاء هو أننا نعمل ما في وسعنا ونجهد أنفسنا وما فاق ذلك نوكله إلىٰ الله ولطفه، ونتضرع إليه بالدعاء لحل المشاكل، وعلىٰ ضوء ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[1] نطرق بابه ونسأله بعد أن سعينا سعيناً ولم يبق إلّا توفيقه. ومن هنا صرحت بعض الروايات الإسلامية بعدم إستجابة دعاء من قصر في العلم وخلد إلىٰ الكسل والراحة. فالله لا يستجيب دعاء من سأله الرزق وهو جالس في بيته دون أن يسعى ويعمل، كما لا يستجاب دعاء من أقرض مالاً ولم يكتبه ثم أنكر عليه المدين ولم يعطه ماله! والخلاصة فانّ الكسل والتقاعس لا ينسجم واستجابة الدعاء. وعلىٰ ضوء ما تقدم فانّ الدعاء لا يعتبر عاملاً مخدراً، بقد رما بعد عاملاً محركاً. أمّا ما يقال من أن الدعاء لا يغير التقدير، فجواب ذلك واضح، وهو أنّ الدعاء سبب زيادة استحقاق الإنسان لأنّه يتجه إلىٰ الله وينور قلبه بمعرفة الله يتوب إليه من ذنوبه؛ لأنّ التوبة من شروط قبول الدعاء، وبذلك يتأهب أكثر لتلقي الفيض الإلهي والعناية الربانية، لأنّ الله قدر المزيد من لطفه وفضله لمن كان أكثر إستعداداً وجدارة، بعبارة أخرىٰ فانّ لله نعم وخيرات وبركات للعباد مشروطة ببعض الشرائط، في مقدمتها التوجه إليه ودعاؤه والتقرب إليه. وبناءاً علىٰ هذا فانّ رحمةالله ولطفه متوقفة على الدعاء. ومن هنا يتضح الجواب علىٰ الإشكال الذي يفيد عدم انسجام الدعاء وروح الرضا والتسليم؛ لأنّ الدعاء تأكيد للتسليم والرضا، فالحق سبحانه أراد لعباده أن يعيشوا القرب منه بالدعاء، فاذا عاشوا القرب شملهم الله برحمته وفضله، الأمر الذي أكد الدعاء في أغلب الآيات والروايات. وزبدة الكلام فانّ للدعاء أثاره التربوبة الجمة علىٰ حياة الإنسان، أدناها أنّه يطهر قلبه

---

١. سورة النمل / ٦٢.

وروحه من الأدران ويزيل عنه صدأ الماديات ويوصله بمصدر الخير والاحسان والعطاء، كما يشكل السبيل للاستزادة من فضل الله ولطفه. ومن هنا فانّ أولياءالله لا يستغنون في قضاء حوائجهم عن الدعاء، وبالدعاء يشعر العبد بالقوة، كما يشعر بالسكينة إثر التوكل على اللّـه فيهب لمواجهة المشاكل وقلبه مفعم بالأمل في التغلب عليها، ولا غرو فهو يعلم بأنّها مـذللة لإرادة الله تابعة لمشيئة وقدرته. كما تتأتى الحاجة إلىٰ للدعاء في الأسـفار المخـيفة المحـفوفة بالمخاطر، أمّا دعاء الإمام عليه السلام حين عزمه علىٰ السير إلىٰ صفين فقد إقتدى به بالنبي صلى الله عليه وآله ومـن سبقه من الأنبياء العظام. فقد كلف نوح عليه السلام بالتضرع إلىٰ اللّـه حـين ركب السـفينة في ذلك الطوفان الهائل لينجيه الله من تلك المخاطر **﴿فَإِذا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلىٰ الفُـلْكِ فَـقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي نَجّانا مِنَ القَوْمِ الظّالِمِـينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُـنْزَلاً مُبارَكاً وَأَنْتَ خَـيْرُ المُنْزِلِـينَ﴾** [1] كما دعا موسى عليه السلام لما فرّ من أزلام فرعون حين خرج من مـصر مـتوجهاً إلىٰ مدين **﴿وَلَمّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَـنِي سَواءَ السَّبِـيلِ﴾** [2]. وقال حين لقي لبنات شعيب **﴿رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾** [3]. النبي الأكرم صلى الله عليه وآله حين هاجر من مكة إلىٰ المدينة في ظل تلك الأخطار، كان يشعر بالتذمر لمفارقة مكة وبيت اللّـه، وكـان يـتمنى الرجوع إليها فاتته البشارة **﴿إِنَّ الَّذِي فَـرَضَ عَلَيْكَ القُرْآنَ لَرادُّكَ إِلىٰ مَعادٍ﴾** [4] وكأنّ النبي صلى الله عليه وآله دعا الله أو كان يعيش حالة الدعاء فاستجيب له. ومن هنا حثت الروايات علىٰ الدعـاء في السفر. [5] وتختتم البحث بما ورد عن علي عليه السلام حين إنطلق من الكوفة إلىٰ الشام، حـيث وضـع رجله علىٰ الركاب فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، فلما استوىٰ على دابته قال: **﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هـذا وَما كُنّا لَهُ مُقْرِنِـينَ * وَإِنّا إِلىٰ رَبِّنا لَمُنْقَلِـبُونَ﴾** [6] ثم دعا بهذا الدعاء الذي فرغنا من شرحه.

١. سورة المؤمنون / ٢٨ ـ ٢٩.
٢. سورة القصص / ٢٢.
٣. سورة القصص / ٢٤.
٤. سورة القصص / ٨٥.
٥. الوسائل الشيعة ٨ / ٢٧٥ ـ ٢٨١.
٦. سورة الزخرف / ١٣ ـ ١٤.

الخطبة[1] ٤٧

من كلام له عليه السلام

في ذكر الكوفة

نظرة إلى الخطبة

كلام الإمام عليه السلام يمثل نبوئتين بشأن الكوفة، أو الكوفة والبصرة: الاولى الحوادث المريرة التي تعصف بالكوفة وأهلها من قبل الطواغيت الظلمة، والثانية العاقبة السيئة لأُولئك الظلمة وعقابهم بما إقترفته أيديهم.

---

١. سند الخطبة: من جملة من رواها قبل السيد الرضي (ره) إبن الفقيه في كتاب البلدان، إلّا أنّه صرح أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خاطب بهذا الكلام أهل البصرة والكوفة ولا يغير ذلك شيئاً. ونقلها بعد السيد الرضي (ره) الزمخشري في ربيع الأبرار في باب البلاد والديار. مصادر نهج البلاغة، ٢/ ١٥.

«كَأَنِّي بِكِ يَا كُوفَةُ تُمَدِّينَ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَاظِيِّ تُعْرَكِينَ بِالنَّوَازِلِ وَتُرْكَبِينَ بِالزَّلَازِلِ وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أَرَادَ بِكِ جَبَّارٌ سُوءاً إِلَّا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِشَاغِلٍ وَرَمَاهُ بِقَاتِلٍ».

الشرح والتفسير

نبوءة عن مستقبل الكوفة

ذكرنا أنّ الإمام عليه السلام خاطب بهذا الكلام الكوفة (وقيل البصرة والكوفة) فقال «**كأني بك يا كوفة تمدين مد الأديم**[1] **العكاظي**» «عكاظ»[2] اسم سوق قرب مكة (وقال البعض بين مكة والطائف) تجتمع فيه العرب كل عام من مختلف المناطق لمدّة عشرين يوماً كما صرح بذلك البعض، فكانوا يعرضون متاعهم، كما كانوا ينشدون الشعر وتتفاخر كل قبيلة على الأُخرى، وبالطبع كان هناك كثيراً من المفاسد؛ الأمر الذي جعل الإسلام يردم ذلك السوق.

أما هل المراد بهذه العبارة الحوادث الأليمة التي ستقع في الكوفة، أم كبر الكوفة وإتساعها. فقد صرح أغلب شرّاح نهج البلاغة بالتفسير الأول، بينما قال القليل منهم بالتفسير الثاني، ويبدو أنّ التفسير الثاني هو الأنسب، لأنّ دبغ الجلد العكاظي لا يبدو منسجماً وكون العبارة كناية عن الحوادث الأليمة والمأساوية، بينما يمكنه أن يكون كناية عن إزدياد رقعة الكوفة وإتساع مساحتها. جدير بالذكر أنّ الجلد العكاظي واسع وجميل ومن أرغب الجلود لدى العرب، ولعل في هذا إشارة إلى جمال الكوفة وعمرانها في الأزمنة القادمة مقارنة بما عليها في

1. «أديم» بمعنى ظاهر الشيئ وغالباً ما يطلق على الجلد، كما يسمى وجه الأرض بـ(أدمة الأرض)، وقيل هذا هو السبب في تسمية آدم لأنه خلق من أديم الأرض.
2. «عكاظ» كما ذكرنا سابقا سوق كانت تقيمها العرب في العصر الجاهلي قرب مكة في صحراء بين نخلة والطائف يجتمعون إليه ليتعاكظوا؛ أي يتفاخروا، وكان تفاخرهم قبلي عادة ما يقود إلى الحروب الدامية.

زمان الإمامﷺ. وذكر البعض أنّ العبارة إشارة إلىٰ مستقبل الكوفة وتقسيمها إلىٰ أجزاء متعددة، علىٰ غرار تقسيم الجلد العكاظي ودبغه وتوسيعه. ثم قالﷺ «**تعركين[١] بالنوازل[٢] وتركبين بالزلازل**» وقد ورد مثل هذا المعنى في الخطبة ١٠٨ بقوله: «**تعرككم عرك الأديم**» أي يسلط عليكم بني أمية فيسومونكم سوء العذاب. ونبوءته الثانية التي تمثلت بقولهﷺ: «**إنّي لأعلم أنّه ما أراد بك جبار سوءاً إلّا إبتلاه اللّه بشاغل ورماه بقاتل**». ويمكن أن تكون العبارة «**ابتلاه اللّه بشاغل**» إشارة إلىٰ الأمراض العضال والالام التي تشغل الظلمة وتصرفهم عن الناس، كما أنّ «**ورماه بقاتل**» الحوادث التي تهجم علىٰ الإنسان من الخارج فتقتله وتقضي عليه.

والحق أنّ ما تكهن به الإمامﷺ بشأن الكوفة قد حدث، حيث إتسعت إتساعاً كبيراً بعد الإمامﷺ وكانت على الدوام مركزا للفتن والحوادث المريرة، وقد هب أغلب الجبابرة للسيطرة عليها، إلّا أنّ اللّه كان يبتليهم بأنواع البلاء ويدفع شرهم عنها، ولعل ذلك يعزى لكون الكوفة تشكل مركز استقطاب خلص المؤمنين من الشيعة الأوفياء لعليبن أبي طالبﷺ وإن كان بينهم بعض المنافقين. ومن هنا صرحت بعض الروايات بفضل الكوفة. أمّا من بين الأفراد الذين هموا بالكوفة بعد أميرَالمؤمنينﷺ زياد بن أبيه. فقد ورد في بعض الروايات أنّ زيادا لما حصبه أهل الكوفة، وهو يخطب علىٰ المنبر، فقطع أيدي ثمانين منهم، وهم أن يخرب دورهم، ويجمر نخلهم، فجمعهم حتى ملأ بهم المسجد والرحبة، يعرضهم على البراءة من عليﷺ؛ وعلم أنّهم سيمتنعون فيحتج بذلك على استئصالهم وإخراب بلدهم. فخرج خارج من القصر فقال: إنصرفوا، فانّ الأمير يقول لكم: إنّي عنكم اليوم مشغول؛ وإذا بالطاعون قد ضربه، فكان يقول: إنّي لأجد في النصف من جسدي حر النار حتى مات.[٣]

رأيان في الكوفة

وردت عدة عبارات في نهج البلاغة بشأن الكوفة وأهلها، ومن ذلك الخطبة المذكورة التي

١. «تعركين» من مادة «عرك» علىٰ وزن درك، من عركت القوم الحرب إذا مارستهم حتى أتعبتهم.
٢. «نوازل» جمع نازلة بمعنى الحوادث الشديدة.
٣. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/ ١٩٨.

أشارت إلىٰ المكانة المقدسة للكوفة وأنّها ستشهد حوادثاً مريرة وأليمة، وأنّ اللّه حافظها من كل جبار عنيد. بينما وردت بعض الخطب التي تذم الكوفة، ومن ذلك الخطبة ٢٥ حيث خاطب الإمامعليه السلام الكوفة قائلاً «**إنّ لم تكوني إلّا أنت تهب أعاصيرك فقبحك اللّه**». الروايات هي الأُخرىٰ صرحت بمدح الكوفة، فقد جاء في الحديث عن أميرالمؤمنينعليه السلام أنّه قال بشان الكوفة «**هذه مدينتنا ومحلتنا ومقر شيعتنا**»[1]. كما جاء في رواية أنّ الإمام الصادقعليه السلام دعا للكوفة قائلاً: «**اللّهم ارم من رماها وعاد من عاداها**» وللجمع بين الروايات نقول إنّ الكوفة ذاتا مقدسة وأهلها من خلص شيعة أهل البيتعليهم السلام ممن يتحلون بالورع والتقوى، إلّا أنّ أجواء الكوفة تلوثت بفعل سيطرة بني أمية ودس العيون والجواسيس فيها وأعان الظلمة وتسليط الفساق عليها وايداع بيت المال إلىٰ عبدة الأهواء. فاذا مدحت الكوفة فالمراد أُولئك النجباء من الشيعة، وان ذمت فلذلك الفساد الذي طاها من قبل بني أمية. ونكتفي بهذا القدر على أن نخوض في جوانب هذا الموضوع في الابحاث القادمة ذات الصلة.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٩٨/٣.

الخطبة[1] ٤٨

ومن خطبة له ﷺ

عند المسير إلىٰ الشام، قيل: إنّه خطب بها وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة إلىٰ صفين.

نظرة إلىٰ الخطبة

تشتمل هذه الخطبة على قسمين: الأول وجريا علىٰ عادته في خطبه ﷺ في الحمد والثناء والشكر للنعم الإلهية على العباد، والثاني يطلع الجيش علىٰ خطته فيمن بعثهم من المقدمة ويصف لهم المسير ليلتحقوا بهم، وتعبئة عدداً من القبائل التي كانت تسكن أطراف دجله وتسييرهم لمقاتلة العدو، ويبدو أنّ الإمام ﷺ أراد أن يذكر اتباعه في النخيلة الذين لم يكونوا كثيراً بانهم ليسوا وحدهم في صفين وأنّه سيعجئ من كان في مسيرهم للقتال ليزدادوا عدداً وعدّةً.

---

١. سند الخطبة: كما ذكر سابقاً فانّ الإمام خطبها بالنخيلة حين تجهز لصفين خارجاً من الكوفة. وقد جاء في كتاب مصادر نهج البلاغة أنّه خطبها في الخامس والعشرين من شوال سنة ٣٧ هـ وهو بالنخيلة خارجاً من الكوفة، وأضاف طبقاً لنقل ابن أبي الحديد أنّه ذكرها جماعة من أصحاب السير وزاد وفيها، ومنهم نصر بن مزاحم في كتاب صفين (مصادر نهج البلاغة ٢ / ١٦).

القسم الأول

«الْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا وَقَبَ لَيْلٌ وَغَسَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كُلَّمَا لاَحَ نَجْمٌ وَخَفَقَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ غَيْرَ مَفْقُودِ الإِنْعَامِ، وَلاَ مُكَافَإِ الإِفْضَالِ».

الشرح والتفسير

استحقاق الله للحمد والثناء

يعرض الإمام‌ﷺ لله بالحمد والثناء في القسم الأول هذه الخطبة بعبارات جديدة عظيمة المعاني وقد أشار إلى قضايا جديدة فقال «**الحمدلله كلما وقب[1] ليل وغسق[2]، والحمدلله كلما لاح[3] نجم وخفق**»[4] فالعبارة تشير إلىٰ نقطتين: الاولىٰ أنّ حمدنا وثنائنا دائمي باقي مادام الليل والنهار متعاقبين دائمين، وهكذا هو مستمر إستمراز طلوع الكواكب وغروبها. النقطة الأُخرى هى أنّ ظلمة الليل وطلوع الكواكب وغروبها من النعم الإلهية الكبرىٰ. فظلمة الليل تهب الإنسان الهدوء والسكينة بعد تعب النهار وعناء العمل فيه. فطبيعة الليل والظلمة تختزن الراحة والخلود إلىٰ النوم ومن هنا كانت الليالي الظلماء الخالية من المصابيح تعد أفضل الأوقات للنوم؛ الأمر الذي أشارت إليه الآية ٧٢ من سورة القصص **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ**

---

١. «وقب» من مادة «وقب» الحفرة في الأرض أو الجبل، ويقال للشيء وقب إذا دخل الحفرة أو الظلام، ومن هنا كان المعنى دخل الليل.

٢. «غسق» يعني شدة الظلمة، ولما كانت الليل يشتد ظلمة كلما اقترب من منتصفه فانّ الغسق كناية عن منتصف الليل أيضاً ومن هنا قال المفسرون: «أقم الصلوة لدلوك الشمس إلىٰ غسق الليل» إشارة إلىٰ الصلوات الأربع الظهر والعصر والمغرب والعشاء وقرآن الفجر صلاة الصبح (سورة الاسراء / ٧٨).

٣. «لاح» من مادة «لوح» بمعنى الظهور والبزوغ. وتستخدم في كل وجود مضيىء ويطلق اللوح على الصفيحة البيضاء التي تصنع من الخشب أو الفلز.

٤. «خفق» من مادة «خفق» و«خفوق» بمعنى الغياب والتزلزل والحركة، ومن هنا تستعمل حين يغرب القمر أو الشمس أو كوكب.

عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلىٰ يَوْمِ القِيامَةِ مَنْ إِلـهٌ غَيْرُ اللّٰهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ وقال **﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[1] وقد ورد هذا المعنى في عدة آيات قرآنية، كما دلت الأبحاث العلمية علىٰ أنّ اليقظة في الليل والنوم في النهار يشكل خطراً جدياً علىٰ صحة الإنسان، أمّا فائدة طلوع الكواكب وغروبها فليست بخافية على أحد وذلك لمعرفة الأوقات والاهتداء في البحار والصحارىٰ بواسطة هذه النجوم والكواكب **﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالبَحْرِ﴾**[2] وجاء في القرآن أيضاً **﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾**[3]. أمّا الروايات التي شبهت أهل البيتعليهم السلام بالنجوم فواضح من أنّهم وسيلة الهداية في الظلمات والمتاهات وعدم الانحراف عن الصراط المستقيم، ولعل إشارة الإمام عليعليه السلام إلىٰ ظلمة الليل وطلوع النجوم وغروبها من دون سائر النعم تهدف إلىٰ بيان حقيقة وهي أنّ خروج أهل الشام علىٰ الإمامعليه السلام يمثل حلول عصر الظلمة التي لا يمكن النجاة منها إلّا ببزوغ كوكب الولاية ثم خاض الإمامعليه السلام في نوع آخر من النعم التي تستلزم الحمد، فقال «**والحمدللّٰه غير مفقود الانعام، ولا مكافإ الإفضال**»[4] فالعبارة الاولىٰ تعني أنّ النعم الإلهية غير قابلة للاحصاء، أمّا الثانية **فهي** تشير إلىٰ عجز العباد عن مكافئة هذه النعم وذلك لأنّه أولاً غني عمن يكافئ نعمه، وثانياً: أنّ القدرة علىٰ شكره وحمده بحد ذاتها نعمة اُخرى، لأنّ الشكر نعمة توجب المزيد، فقد ورد في مناجاة الشاكرين للإمام علي بن الحسينعليه السلام: «**فكيف لي بتحصيل الشكر؟ وشكري إيّاك يفتقر إلىٰ شكر! فكلما قلت لك الحمد، وجب علي لذلك أن أقول لك الحمد**»[5]. ومن هنا فان أعظم شكرنا هو إذعاننا بالعجز عن الشكر. فقد ورد في حديث عن الصادقعليه السلام أنّ اللّٰه أوحىٰ إلىٰ موسىعليه السلام ان اشكرني! فقالعليه السلام كيف أشكرك وشكري نعمة تحتاج إلىٰ شكر. فجاءه الخطاب الآن أديت شكري.[6]

---

١. سورة القصص / ٧٣.
٢. سورة الانعام / ٩٧.
٣. سورة النحل / ١٦.
٤. «افضال» من مادة «فضل» بمعنى الإحسان.
٥. المناجاة الخمسة عشر، مناجاة الشاكرين، بحارالانوار ٩١ / ١٤٦.
٦. بحارالانوار ١٣ / ٣٥١ ح ٤١.

القسم الثاني

«أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَعَثْتُ مُقَدِّمَتِي وَأَمَرْتُهُمْ بِلُزُومِ هَذا الْمِلْطاطِ حَتّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرِي وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ النُّطْفَةَ إِلَى شِرْذِمَةٍ مِنْكُمْ مُوَطِّنِينَ أَكْنافَ دِجْلَةَ، فَأُنْهِضَهُمْ مَعَكُمْ إِلَى عَدُوِّكُمْ وَأَجْعَلَهُمْ مِنْ أَمْدادِ الْقُوَّةِ لَكُمْ».

الشرح والتفسير

تعبئة القوى لمواجهة العدو

أشار الإمام عليه السلام إلىٰ برنامج وخطة حربية فقال «**أما بعد فقد بعثت مقدمتي**[1] **وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط**[2] **حتى يأتيهم أمري**» فنهر الفرات يقع غرب دجلة، فيكون دجلة شرقه، وعليه فان مقدمة جيش الكوفة تتحرك من جانب الفرات إلىٰ الشمال باتجاه الجانب الغربي للفرات، وقد أمر الإمام عليه السلام بمواصلة هذا السير من قبل الجيش، بينما إتجه عليه السلام من الفرات إلىٰ الشرق نحو المدائن لتعبئة أكبر عدد ممكن من الناس، ثم قال عليه السلام «**وقد رأيت أن أقطع هذه النطفة**[3] **إلىٰ شرذمة**[4] **منكم موطنين أكناف**[5] **دجلة، فأنهضهم معكم إلىٰ عدوكم وأجعلهم**

---

١. «مقدمة» بكسر الدال بمعنى المتقدم وبفتح الدال المبعوث مسبقا وتطلق المفردتان علىٰ طليعة الجيش يعني الطائفة التي تتحرك أمام العسكر لتطلعه على ما يواجهه من أحداث.

٢. كما ذكرنا سابقا فإن ملطاط» اقتبست من مادة «لط» «لطط» وميمها زائدة، وتعني هذه المادة الإقتراب والمرافقة، ومن هنا يقال «لط» للقلادة لأنها ترافق العنق دائما، كما يقال الملطاط لشاطىء النهر والبحر، بينما إعتبرها البعض الآخر من أرباب اللغة من مادة «ملط» على وزن «شرط» وليس هناك من فارق مع سابقتها من حيث المعنى وإن تفاوت اللفظ.

٣. «نطفة» الماء الصافي القليل أم الكثير، ويطلق أحيانا بمعنى كل ماء جار ومائع سيال.

٤. «شرذمة» تعني في الأصل الجماعة القليلة وما يتبقى من الشيء، ويقال الشرذمة لما يفصل عن الثمرة.

٥. «أكناف» جمع «كنف» على وزن «هدف» بمعنى أطراف الشيء، وحيث تكون أطراف الأشياء سببا لستر

من أمداد القوة لكم». وهكذا ورد الإمامعليه السلام شرق العراق والمدائن، وبينما كانت مقدمة جيش الإمامعليه السلام تواصل زحفها في غرب الفرات، ولما بلغهم قدوم معاوية نحوهم بجيش عظيم، عبروا الفرات واتجهوا إلىٰ الشرق صوب الإمامعليه السلام حذراً من محاصرتهم من قبل العدو ولم يستعدوا بعد لخوض القتال، فاستحسن ذلك منهم الإمامعليه السلام فلما اكتمل الجيش سار به الإمامعليه السلام لمواجهة العدو. جدير بالذكر أنّ مفردة «ملطاط» من مادة ملط أو لط هنا بمعنى شاطئ الفرات ـ نعم فقد دلهم الإمامعليه السلام المسير ليتقدموا من جانب شاطئ الفرات لأنّ الشام كانت في جهة الشمال، والفرات ينحدر من الشمال إلىٰ الجنوب، وهكذا لا يكون الجيش في مشقة من حيث الماء والهواء وظلال الأشجار، ولا يضلون الطريق، إلىٰ جانب سهولة الالتحاق بهم، وعليه فهذا المسير ينطوي علىٰ عدّة فوائد والتعبير بالنطفة عن ماء الفرات حسب ما قال السيد الرضي (ره) هو من غريب العبارات وعجيبها، فالمفردة علىٰ ضوء ما صرح به جمع من أرباب اللغة تعني الماء الخالص، وقيل الماء الجاري، وكيفما كان فهي إشارة إلىٰ عذوبة ماء الفرات وخلوه من الاملاح، وإن كان ظاهره قليل الكدورة.

قال السيد الرضي (ره): يعنيعليه السلام بالملطاط هاهنا السمت الذي أمرهم بلزومه، وهو شاطئ الفرات، ويقال ذلك أيضا لشاطئ البحر، وأصله ما استوىٰ من الأرض، ويعني بالنطفة ماء الفرات، وهو من غريب العبارات وعجيبها.

أخبار عليعليه السلام في جيشه وهو في طريقه إلىٰ صفين

ذكر بعض شراح نهج البلاغة في ذيل هذه الخطبة بعض القضايا التأريخية التي نشير إليها هنا:

١ـ في قصر كسرى

سار عليه‌السلام حتى انتهى إلى المدائن وقصر كسرى وإذ رجل من أصحابه أنشد:

جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد!

☜ الأقسام الباطنية فانه يقال «الكنيف» للجدران الأربعة التي يستتر فيها الإنسان، وكذلك يطلق على الواقي والدرع الذي يحفظ الإنسان من ضربات الأعداء.

فقال له عليه‌السلام: ألا قلت:

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ * كَذٰلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ * فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ﴾[1]

٢ـ في الأنبار

مرّ ﷺ بالأنبار (أحد المدن الغربية في العراق) فتقدم دهاقنتها إليه فلما استقبلوه، نزلوا عن خيولهم، ثم جاءوا يشتدّون معه، وبين يديه ومعهم براذِين قد أوقفوها في طريقه، فقال: ما هذه الدّوابّ التي معكم؟ وما أردتم بهذا الذي صنعتم؟ قالوا: أمّا هذا الذي صنعنا فهو خُلُق مِنّا نعظّم به الأمراء؛ وأمّا هذه البراذين فهديّة لك، وقد صنعنا للمسلمين طعاماً، وهيّأنا لدوابّكم عَلفاً كثيراً.

فقال عليه‌السلام: أمّا هذا الذي زعمتم أنّه فيكم خُلُق تعظّمون به الأمراء فو اللّٰه ما ينفع ذلك الأمراء؛ وإنّكم لتشقّون به على أنفسكم وأبدانكم، فلا تعودوا له. وأمّا دوابّكم هذه؛ فإنْ أحببتم أن آخذَها منكم، وأحسبها لكم من خَراجِكم أخذناها منكم. وأمّا طعامكم الذي صنعتم لنا؛ فإنا نكرهُ أن نأكلَ من أموالكم إلّا بثمن.

٣ـ قرب الدير

عليّ عليه‌السلام في مسيره إلى الشام؛ حتى إذا كُنا بظهر الكوفة من جانب هذا السّواد، عطش الناس احتاجوا إلى الماء، فانطلق بنا عليّ عليه‌السلام حتى أتى [بنا] إلى صخرة ضِرْس في الأرض؛ كأنّها رُبْضَةُ عنز؛ فأمرنا فاقتلعناها، فخرج لنا من تحتها ماء، فشرِب الناس منه، وارتوَوْا. ثم أمرنا فأكفأناها عليه. وسار الناس حتى إذا مضىَ قليلاً، قال عليه‌السلام: أمِنْكم أحدٌ يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه؟ قالوا: نعم يا أميرالمؤمنين، قال: فانطلقوا إليه، فانطلق مِنّا رجالٌ ركباناً ومشاة، فاقتصصنا الطريق إليه؛ حتى انتهينا إلى المكان الذي نرى أنّه فيه، فطلبناه، فلم نقدر على شيء، حتى إذا عِيلَ علينا انطلقنا إلى ديْرٍ قريب مِنّا، فسألناهم: أين هذا الماء الذي عندكم؟ قالوا: ليس قُرْبَنا ماء، فقلنا: بلى إنّا شربنا منه، قالوا: أنتم شَرِبتم

---

١. سورة الدخان / ٢٥ـ ٢٩.

منه! قلنا: نعم، فقال صاحب الدَّيْر: واللّٰه ما بُنِي هذا الدير إلّا بذلك الماء، وما استخرجه إلّا نبيّ أو وصيّ نَبيّ.

قال العلامة المجلسي فما كان من الراهب إلا أن أتى الإمام﵇ وأعلن إسلامه ولازم الإمام﵇ حتى إستشهد ليلة الهرير فصلى الإمام﵇ عليه وأنزله القبر وقال: والله إني لأرى موضعه في الجنة.

٤ـ في الرقة

ثم سار حتى أتى الرَّقّة ـ وجلّ أهلها عثمانية، فَرّوا من الكوفة إلى معاوية ـ فأغلقوا أبوابَها دونه، وتحصنّوا، وكان أميرهم سماك بن مخرقة الأسديّ في طاعة معاوية، وقد كان فارق علياً عليه السلام في نحو من مائة رجل من بني أسد، ثم كاتب معاوية، وأقام بالرَّقّة حتى لَحِق بـه سبعمائة رجل.

قال نصر: فروى حَبّة أن عليّاً عليه‌السلام لما نزل على الرّقة، نزل بموضع يقال له البَلِيخ على جانب الفرات، فنزل راهب هناك من صَوْمعته، فقال لعليّ عليه‌السلام: إنّ عندنا كِـتاباً توارثناه عن آبائنا، كتبه أصحابُ عيسى بن مريم، أعِرضه عليك؟ قال: نـعم، فـقرأ الراهب الكتاب:

بسم اللّٰه الرحمن الرحيم. الذين قضى فيما قضى، وسَطّر فيما كتب: أنـه بـاعثٌ في الأمـيّين رسولاً منهم؛ يعلّمهم الكتابَ والحكمة، ويدلّهم على سبيل اللّٰه، لا فظٌّ ولا غليظ؛ ولا صَخّابٌ في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، بل يعفُوا ويصفح، أمّته الحمّادون الذين يحْمدون اللّٰه على كل نَشر، وفي كل صَعود وهَبوط، تذِلّ ألسنتهم بالتكبير والتهليل، والتسبيح؛ ويـنصرهُ اللّٰه على من ناوأه؛ فإذا توفّاه اللّٰه، اختلف أُمتهُ من بعده؛ ثم اجتمعت، فلبث ما شاءاللّٰـه، ثم اختلفت، فيمرّ رجل من أمته بشاطىء هذا الفُرات، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقضِي بالحقّ ولا يركُس الحكم، الدنيا أهون عليه من الرّماد في يوم عصفت به الريح، والموت أهون عليه من شُرب الماء على الضمآن. يخاف اللّٰه في السرّ، وينصح له في العلانية، لا يخاف في اللّٰه لومةَ لائم؛ فمن أدرك ذلك النبيّ مِنْ أهل هذه البلاد فآمن به كان ثوابه رضواني والجنّة، ومَنْ أدرك ذلك العبد الصالح فلينصرْه، فإنّ القتل معه شهادة.

ثم قال له: أنا مصاحبُك، فلا أفارقُك حتى يصيبَني ما أصابك. فبكى عليه السلام، ثم قال: الحمدللّه الذي لم أكُنْ عنده منسيًّا، الحمدللّه الذي ذكرني عنده في كُتُب الأبرار.

فمضى الراهب معه، فكان فيما ذكروا يتغدّى مع أميرالمؤمنين ويتعشّى، حتى أصيب يوم صفين؛ فلما خرج الناس يدفنون قتلاهم قال عليه‌السلام: اطلبوه، فلما وجده صلّى عليه ودفنه. وقال: هذا مِنّا أهلَ البيت، واستغفر له مراراً.[١]

***

نزول عليّ بكربلاء

فلما نزل بكَرْبَلاء صلّى بنا، فلما سلّم رفع إليه من تُربتها فشمّها، ثم قال: واها لك يا تُرْبة! لُيحشَرَنّ منك قومٌ يدخلون الجنّة بغير حساب. ثم قال «**هيهنا موضع رحالهم ومناخ ركابهم ثم أومأ بيده إلى مكان آخر وقال: هيهنا مراق دمائهم**».

***

١. وردت هذه القضايا التأريخية في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢٨٨/٣.

الخطبة[1] ٤٩

ومن كلام له ﷺ

وفيه جملة من صفات الربوبية والعلم الإلهي

نظرة إلىٰ الخطبة

تدور الخطبة حول صفات الربوبية والعلم الإلهي ـ كما ورد سابقاً ـ وتتضمن إشارات عميقة المعاني إلىٰ جوانب من صفات الجلال والجمال وتنزيه الذات الإلهية المقدسة من مزاعم الملحدين والمشبهة التي تشبه الله بالمخلوقات

٨٠٠٣

---

١. سند الخطبة: رواها جمع ممن عاش بعد السيد الرضي (ره) ومنهم العلامة المجلسي في روضة البحار وعلي بن محمد بن شاكر الواسطي في كتاب عيون الحكم والمواعظ (مصادر نهج البلاغة، ١٨/٢).

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الْأَمُوُرِ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلاَمُ الظُّهُورِ، وَامْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ فَلاَ عَيْنُ مَنْ لَمْ يَرَهُ تُنْكِرُهُ، وَلاَ قَلْبُ مَنْ أَثْبَتَهُ يُبْصِرُهُ، سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلاَ شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ وَقَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلاَ شَيْءَ أَقْرَبُ مِنْهُ فَلاَ اسْتِعْلاَؤُهُ بَاعَدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلاَ قُرْبُهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ. لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ، وَلَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ، فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلاَمُ الْوُجُودِ عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُحُودِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشَبِّهُونَ بِهِ وَالْجَاحِدُونَ لَهُ عُلُوّاً كَبِيراً!»

الشرح والتفسير

المنزه عن الظن والخيال

ذكرنا سابقاً أن الخطبة واردة في صفات الجلال والجمال، حيث أشارت إلىٰ عدد من أسماء الله الحسنى بعبارات قصيرة بعيدة المعنى، فقد استهل الخطبة بذكر خمس صفات من صفاته التي توضح كل واحدة منها الأُخرىٰ فقال «**الحمدلله الذي بطن**[1] **خفيات الأُمور ودلت عليه أعلام الظهور**» وليس للعين من سبيل إلىٰ رؤيته «**وامتنع علىٰ عين البصير**» ومن هنا «**فلا عين من لم يره تنكره ولا قلب من أثبته يبصره**». وقد أورد شرّاح نهج البلاغة عدّة تفسيرات لقوله ﷺ «**الذي بطن خفيات الأُمور**» فقال البعض: بطن هنا بمعنى علم، وقيل بطن هنا بمعنى الخفاء؛ أي الله الذي خفيت به الأسرار، إلّا أنّ التفسير الذي ذكرناه أنسب وهو أن

---

١. «بطن» من مادة «بطن» على وزن متن تستعمل للأشياء الخفية، ويقال بطنت الأمر بمعنى علمت بواطنة وأسراره. ولما كان داخل البطن خفي فقد استعملت هذه المفردة بشأن كل شيء خفي، وباطن الأشياء بمعنى داخلها، وله معنى الفعل اللازم والمتعدي.

بطن بمعنى الخفاء ومفهوم العبارة أنّ اللّه مخفي في الأسرار، وبعبارة أخرىٰ فانّ ذاته أعظم خفاءاً من الخفاء، وزبدة الكلام فان مفهوم العبارة ما أنشده الفيلسوف في شعره:

وجوده من أظهر الاشياء وكنهه في غاية الخفاء

أمّا العبارة «**دلت عليه أعلام الظهور**» فتعني أنّ آياته ظاهرة جلية في كل مكان، في السموات والنجوم والمجرات والمنظومات وفي الأرض في الصحارى والبحارى والجبال والأنهار وعلىٰ جبين كافة الكائنات الحية في أوراق الأشجار والبراعم والثمار وفي باطن الذرات والجزئيات. وبالطبع كلما تقدم العلم وكشفت الأسرار ازدادت الأدلة والآيات علىٰ قدرة الذات الإلهية وعلمها المطلق. والعبارة الثالثة «**وامتنع علىٰ عين البصير**» تفيد تعذر رؤية جماله سبحانه علىٰ أحدّ العيون، وذلك لأنّ المشاهدة الحسية إنّما تختص بالجسم والجسمانيات ذات الجهة والمكان، بينما ذاته المطلقة ليست بجسم ولا جسمانية وليس لها من جهة أو مكان، بل هى مطلقة منزهة عن كل هذه العوارض والنقائص ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾[1]. ولما سأل موسىٰ ﷺ من جانب بني إسرائيل ربّه ﴿**رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ**﴾ الشهود الحسي، خوطب ﴿**لَنْ تَرانِي**﴾[2] ثم شاهد موسىٰ ﷺ قبسات من تجليات اللّه التي دكت الجبل فصعق موسى ومن معه فلما أفاق قال ﴿**سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ والعبارة «**فلا عين من لم يره...**» نتيجة طبيعة تشير إلىٰ أنّ العاقل لا يسعه إنكار الذات الإلهية المقدسّة بفعل وجود هذه الأدلة والآيات، رغم تعذر المشاهدة الحسية، أما المؤمنون باللّه فلا ينبغي لهم أن يعتقدوا بمشاهدته حتى قلبياً، وبالطبع يمكن رؤيته قلباً كما ورد عنه ﷺ «**لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان**»[3]. غير أنّ هذه المشاهدة تتعلق بالأسماء والصفات لا مشاهدة كنه الذات، وهنا يصدح حتى أولياءاللّه فضلاً عن عامة المخلوقات «**ما عرفناك حق معرفتك**» ثم قال ﷺ: «**سبق في العلو فلا شيء أعلى منه وقرب في الدنو فلا شيء أقرب منه**» ثم يخلص علي ﷺ

١. سورة الانعام / ١٠٣.
٢. سورة الاعراف / ١٤٣.
٣. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.

إلىٰ هذه النتيجة «**فلا استعلاؤه[1] باعده عن شيىء من خلقه ولا قربه ساواهم في المكان به**» لعله يتصور بأنّ هذه الصفات تناقض مع بعضها فكيف يكون الشيّ بعيداً عالياً وفي نفس الوقت قريباً ملازماً؟ كيف يكون بعيداً في القرب وقريباً في البعد؟ نعم إذا كان المقياس هو المخلوقات التي من حولنا فهناك تناقض، غير أنّ الالتفات إلىٰ هذه النقطة يزيل مثل هذا التناقض ويرشد إلىٰ معرفة صفات اللّٰه، وهى أنّ وجوده سبحانه لامتناهي وغني ومطلق من جميع الجهات، وهو الوجود الذي لايشوبه أية محدودية من حيث الزمان والمكان والعلم والقدرة، بل هو فوق الزمان والمكان فهو في كل مكان وكل زمان وفي نفس الوقت ليس له مكان ولا زمان. ومثل هذا الوجود قريب من جميع الأشياء وهو بعيد عنها جميعاً لأنّه لا يشبهها، هو أظهر من كل شيّ، لأنّ كل شيّ متقوم بوجوده، وهو ابطن من كل شيّ لأنّه لا يشبه المخلوقات والكائنات التي نعرفها ونألفها. وبناءا على هذا فالمراد بالعلو في العبارة المذكورة فوقيته للوجود وعلوه عليه لا علوه في المكان، والمراد بالقرب قربه في الاحاطة الوجودية لا القرب في المكان. وهنا لابدّ من الاذعان إلىٰ أن فهم وإدراك هذه الصفات ليس سهلاً علينا بفعل تعاملنا مع صفات الممكنات؛ إلّا أنّه يمكن تقريبها إلىٰ الأذهان من خلال التأمل والاستعانة ببعض الأمثلة وإن كانت ناقصة قاصرة. علىٰ سبيل المثال للرد علىٰ السؤال الذي يقول كيف يكون له وجود في كل مكان وزمان ولا يحويه مكان وزمان، يمكننا أن نستعين ببعض الأمثلة الناقصة من قبيل بعض المعادلات والقوانين الرياضية. فكلنا نعلم بأنّ (٢ + ٢ = ٤) فهي صادقة في كل زمان ومكان في السماء والأرض، وفي نفس الوقت ليس لها من زمان أو مكان. فقولهﷺ: «**فلا استعلاؤه باعده عن شيّ من خلقه ولا قربه ساواهم في المكان به**» نتيجة واضحة لتلك الحقيقة المذكورة، فقد قال بعض شرّاح نهج البلاغة بعد أن إستعانوا بمثال ناقص إلّا أنّه مناسب، في أنّ أمواج الضوء تنعكس علىٰ الزجاج وتنفذ إلىٰ داخله فتضيئها، وهي في نفس الوقت أقرب إليها من كل شيّ، وهي ليست مثلها، بل هي وجود لطيف وأعلى وأرفع، ولعل هذا المعنى هو المراد بالآية ﴿**اللّٰهُ نُورُ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ...**﴾[2] ثم

---

١. الاستعلاء قد يكون بمعنى الافضلية واريد بها هنا هذا المعنى.

٢. سورة النور / ٣٥.

أشار ﷺ إلىٰ صفة أُخرىٰ: «**لم يطلع العقول علىٰ تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته**» فكنه ذاته ليس واضح لأحد ولا حقيقة صفاته، لأنّ ذاته وصفاته لا متناهية، فأنى لعقل الإنسان المتناهي والمحدود أن يحيط باللامتناهي واللامحدود مع ذلك فانّ أثاره الوجودية التي تجلت في كافة الوجودات جعلت الإنسان يلم علىٰ سبيل الإجمال بذاته وصفاته وإليك هذا المثال الناقص: كلنا نعلم بوجود الروح، وانّ الزمان حقيقة واقعة، إلّا أنّ إدارك حقيقة الروح وا لزمان ليس بالامر إلهين. وكلنا نعرف الفارق بين الكائن الحي والميت، ولكن ما كنه حقيقة الحياة؟ يبدو فهم ذلك صعباً، بعبارة أخرىٰ لنا علم إجمالي بهذه الأُمور لاتفصيلي[1] ثم قال ﷺ «**فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود**[2]» الواقع أن جاحدي الله إنّما يجحدوه لساناً بينما يقرون به قلباً ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ فَأَنّىٰ يُؤْفَكُونَ** *... **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللّٰهُ قُلِ الحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾[3]. كيف يمكن إنكار وجود اللّٰه وكل شئ يهتف باسمه ويتقوم بوجوده. ثم إختتم ﷺ كلامه بالقول «**تعالى الله عما يقول المشبهون به والجاحدون له علواً كبيراً**» والمشبهة على نوعين: من يشبه اللّٰه بعباده فيرى له جسماً ويداً ورجلا، والآخر من يشبه الآخرين به فيرى له شريكاً وشبيهاً فيعبده ويسجد له بدلاً من اللّٰه. وقد ذهب بعض الشرّاح إلىٰ المعنى الأول هو المراد من العبارة، في حين ذهب البعض الآخر إلىٰ المعنى الثاني، ويبدو المعنى الثاني أصح إستناداً لقوله «**المشبهون به**» وان كانت الطائفتان علىٰ خطأ، لأنّه لايشتمل علىٰ صفات المخلوقين بحيث تتخلل الحوادث ذاته المقدسة، ولا يمكن لمخلوق أن يشمل مكانه لأنّه لا يتحلى بأي من صفاته.

وجوده ظاهر وكنه ذاته خفي

لقد تضمنت الخطبة بعض الاشارات إلىٰ عدّة جوانب في مجال أسماء اللّٰه وصفاته: الاولىٰ

---

١. للوقوف علىٰ المزيد بهذا لاشأن راجع المجلد الأول من الشرح، الخطبة الاولى.
٢. «جحود» و «جحد» بمعنى الإنكار الممزوج بالعلم ـ وقال الراغب في المفردات تعني نفي ما ثبت في القلب، أو إثبات ما نفاه القلب ـ وعليه ففي مفهوم الجحود نوع من التعصب والعداء الخفي ضد الحق.
٣. سورة العنكبوت / ٦١ ـ ٦٣.

خفاء وكنه ذات الله في نفس ظهور وجوده في جميع عالم الوجود بحيث لا يستطيع أحد أن ينكر وجوده، بينا لا يستطيع أيضاً الاحاطة بكنه ذاته المطهرة. وهذا في الواقع أحد الآثار اللامتناهية لوجوده المطلق، حيث كلما خطونا خطوة نحو معرفة ذاته تقهقرنا خطوات عن درك كنه هذه الذات، وكلما حلقنا في سماء معرفة صفاته إحترقت أجنحتنا وسقطنا في عالم الجهل وعلىٰ قول ابن أبي الحديد في شعره:

فيك يا اعجوبة الكون غدا الفكر كليلا
أنت حيرت ذوي اللب وبلبلت العقولا
كلما قدم فكري فيك شبراً فر ميلا
ناكصاً يخبط في عمياء لا يهدى سبيلا[1]

وبالمقابل فانّ آثاره قد تجلت في كافة دقائق عالم الوجود، بحيث لا يسع من يلمس هذه الآثار أينما حلّ إلّا أنّ يزمزم مع نفسه بدعاء الإمام الحسين عليه السلام في عرفة «**متى غبت حتى تحتاج إلىٰ دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هى التي توصل إليك، أو يكون لغيرك من الوجود ما ليس لك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل لها من حبك نصيباً**».

والثانية الحديث عن قرب الله وبعده إلىٰ جانب قربه وبعده منا، وأنّه أبعد ما يكون عنا في غاية قربه، وأقرب ما يكون في غاية بعده، وهذا الأمر هو الآخر من آثار ذاته المطلقه اللامتناهية، وذلك لأن مثل هذه الذات في كل مكان ولا يخلو منها مكان، وإلّا كانت محدودة. والثالثة نفي صفات المخلوقات والشبه عن ذاته المقدسة، وهذا أيضاً من آثار الذات اللامتناهية. لأنّ جميع المخلوقات محدودة ناقصة، وجودها متناهي وصفاتها مشوبة بالنقص والعدم، فاذا شبهناه بأحد مخلوقاته وقلنا بالشريك والشبيه وتصورنا له صفات المخلوقين نكون قد أخرجناه من حالة اللاتناهي وكونه واجب الوجود وجعلناه في عداد الممكنات المحدودة وسنتعرض إلىٰ هذه الأُمور في الخطب القادمة إن شاء الله.

---

١. وردت هذه الأشعار في حواشي «شرح الباب الحادي عشر» في الصفحة الأولى من قول إبن أبي الحديد.

الخطبة[1] ٥٠

ومن كلام له ﷺ

وفيه بيان لما يخرب العالم به من الفتن وبيان هذه الفتن

نظرة إلىٰ الخطبة

أشار الإمامﷺ في هذه الخطبة إلىٰ أهم عوامل فساد المجتمعات البشرية ولاسيما الانحراف الذي عصف بالمجتمع الإسلامي بعد رسول اللهﷺ، ثم بينﷺ كيف تخلط الشياطين الحق بالباطل وتزينه للإنسان. فلو طرح الحق كما هو لاغلقت طرق نفوذ الشياطين، كما لو عرض الباطل على هيئته لما قبله أحد، ومن هنا فان الشياطين تخلط الحق بالباطل لاغواء الناس وإضلالهم. نعم فهؤلاء يدسّون السم المهلك في كل طعام لذيذ ليحثوا المغفّلين على تناوله. فهم يخفون الباطل في الحق دائمًا ليضلوا الناس عن طريق ذلك.

٨٠٠٣

١. سند الخطبة: نقل هذه الخطبة عدد ممن عاش قبل السيد الرضي (ره)، كالمرحوم الكليني في الكافي في باب البدع والرأي والمقاييس (١ / ٥٤) وأحمدبن محمدبن خالد البرقي في كتاب المحاسن (١ / ٢٠٨) واليعقوبي في تأريخه (٢ / ١٣٦) وابوجبان التوحيدي في البصائر والذخائر / ٣٢، وأخرون ممن عاشوا بعد الرضي ولا حاجة لذكرهم. مصادر نهج البلاغة ٢ / ١٩.

«إِنَّمٰا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوٰاءٌ تُتَّبَعُ وَأَحْكٰامٌ تُبْتَدَعُ، يُخٰالَفُ فِيهٰا كِتٰابُ اللّٰهِ، وَيَتَوَلّٰى عَلَيْهٰا رِجٰالٌ رِجٰالاً عَلَى غَيْرِ دِينِ اللّٰهِ، فَلَوْ أَنَّ الْبٰاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزٰاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتٰادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبٰاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعٰانِدِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذٰا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذٰا ضِغْثٌ فَيُمْزَجٰانِ فَهُنٰالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطٰانُ عَلَى أَوْلِيٰائِهِ، وَيَنْجُو «الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ الْحُسْنىٰ»».

الشرح والتفسير

هناك كلام بين المفسرين والشرّاح بشأن زمان الخطبة والظروف التي رافقتها، فيرىٰ البعض أنّه خطبها بعد ستة أيّام من خلافته، بينما يرىٰ البعض الآخر أنّه خطبها بعد التحكيم، وبالطبع فانّ الخطبة تنسجم والاحتمالين؛ أي أن تكون الخطبة في بداية الخلافة أو بعد التحكيم. فقد إستهل الإمام‌ؑ الخطبة بالإشارة إلىٰ سبب ظهور الفتن في المجتمعات الإسلامية التي تشمل ما بعد وفاة رسول الله‌ﷺ وبعض الحوادث كالجمل وصفين والنهروان فقال: «**إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع وأحكام تبتدع**[1] **يخالف فيها كتاب اللّه**». نعم أساس الفتن أمرين: اتباع أهواء النفس والاحكام الموضوعة المخالفة لكتاب اللّه والسنة، فما لا شك فيه أنّ الفتن ستقبر لو كانت التعاليم الإسلامية والاحكام القرآنية هى السائدة وحفظت هذه القوانين والأحكام ومنعت البدع وابتعد عن الأهواء في إجراء الأحكام الشرعية؛ وذلك لأنّ هذه القوانين تهدف بسط العدل والقسط وتضمن حقوق الناس وتعين وظائفهم. فالفتنة تفرزها

---

١. «تبتدع» من مادة «بدعة» بمعنى حديثة الظهور، وتستعمل بشأن الاحكام المخالفة لكتاب اللّه والسنة النبوية.

الأهواء وتحريف القوانين لصالح الأطماح الشخصية وغياب العدل وتضييع الوظائف والاقبال على البدع. فاصحاب الفتن يلجأون تارة إلىٰ التحريف والتفسير الخاطئ لاشباع أهوائهم ورغباتهم، وإذا تطلب الأمر وضع بعض الاحكام الجديدة، أقبلوا علىٰ البدع، صحيح أنّ تلك البدع تفرزها الأهواء، إلّا أنّ الأهواء والرغبات الشيطانية قد تتبلور أحياناً كتفسير وإجراء للأحكام الشريعة وأُخرى كبدع واحكام موضوعة، ومن هنا فصلاً عن بعضها في كلام الإمامعليه‌السلام. علىٰ سبيل المثال يمكن الاشارة هنا إلىٰ فتنة بني أمية التي تعد من أكبر الفتن التي شهدها الإسلام فقد إستولى معاوية بواسطة المكر والخداع علىٰ الحكومة ثم ابتدع توريثها في ولده، وادعىٰ أنّ زياد ابن أبي سفيان وأخذ البيعة ليزيد في حياته، وسن سب أميرَ المؤمنين عليعليه‌السلام من على المنابر ثم اتهمه بقتل عثمان وطالب بدمه.[1] ثم قالعليه‌السلام «**ويتولى**[2] **عليها رجال رجالاً على غير دين الله**» ثم أشار في العبارة اللاحقة إلىٰ وسائل هذا العمل، التي استغلت من قبل الجناة والطواغيت طيلة التأريخ حتى أصبحت سنة، وهى أنّهم يمزجون الحق بالباطل من أجل تحقيق أطماعهم وأغراضهم «**فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف علىٰ المرتادين**[3]**، ولو أنّ الحق خلص من لبس الباطل إنقطعت عنه السن المعاندين**» فما أروع هذه العبارة، لو خلص الباطل من مزاج الحق لما كان هناك من يتبعه، ولو خلص الحق من لبس الباطل لخرست ألسن المتخرصين، ولذلك فمن البديهي ألا يحل الحق الخالص مشاكل عبدة الأهواء، لأنّ منافعهم كامنة في الباطل، ولا الباطل الخالص يحقق لهم أغراضهم، لأنّ الناس لا يقفوف إلىٰ جانبهم، وهنا يتجهون صوب خلط الحق بالباطل؛ الأمر الذي يجسد كافة السياسات المخربة في العالم. ثم قال الإمامعليه‌السلام بهذا الشأن «**ولكن يؤخذ من هذا ضغث**[4] **ومن هذا ضغث فيمزجان فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو «الَّذِينَ سَبَقَتْ**

---

١. راجع كتاب الغدير / ١٠.

٢. «يتولى» من مادة «تولى» بمعنى الاتباع. وتأتي أحيانا بمعنى الإقتراب والسيطرة على المقام والمنصب إلا أن المراد هنا المعنى الأول.

٣. «مرتادين» من مادة «ارتياد»، الطالبين للحقيقة.

٤. «ضغث» على وزن حرص قبضة من حشيش مختلط فيها الرطب باليابس، كما يطلق الضغث علىٰ الاحلام المزعجة، وقد وردت في العبارة بمعنى بعض من الشيء.

لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾. فالعبارة تفيد أنّ خلط الحق والباطل لا يمنع من معرفة الباطل وان تطلب ذلك قدرا من البحث والتحري والرجوع إلىٰ الآخرين، ومن هنا قال الإمامعليه السلام بأنّ خلط الحق بالباطل لايؤثر في أولياءالله، بينما يؤثر علىٰ أولياء الشيطان فيقودهم إلىٰ الغواية والظلال. فالواقع هو أنّ مزج الحق بالباطل بمثابة الضوء الأخضر لعبدة الأهواء وذريعة لاتباع الشيطان لخداع أنفسهم فيستدلوا على الآخرين بأنا سلكنا هذا لطريق لأنا إعتمدنا الدليل الفلاني (الذي يمثل الحق الممزوج بالباطل). نعم يمكن أن يقع بعض المستضعفين الفكريين والسذج جهلاً في حبائل الشيطان، والحال لو كان لهم زعيم ومرشد لما شهدوا مثل هذا المصير وعليه فالامة إزاء مزج الحق بالبطل علىٰ ثلاثة طوائف:

الطائفة الاولىٰ **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾**[1] وبعبارة أُخرى المخلصون من اتباع الحق ينجون بلطف الله من هذه الفتنة. الطائفة الثانية عبدة الأهواء أتباع الحجج والذرائع الذين يقتحمون الباطل بذريعة الحق فيتجهون عن شبه علم إلىٰ حبائل الشيطان. الطائفة الثالثة السذج من الأفراد الذين يتعذر عليهم تمييز الحق من الباطل في ظل هذا المزج الخطير فيسقطون جهلاً في مصائد الشيطان، إلّا أن يركنوا إلىٰ زعيم عالم. وقد ورد مثل هذا المعني في الخطبة ٣٨ حين عرض الإمامعليه السلام للشبهة وسبيل النجاة منها فقالعليه السلام «**وإنّما سميت الشبهة شبهة لأنّها تشبه الحق، فأما أولياء الله فضياؤهم فيها اليقين، ودليلهم سمت الهدىٰ، وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال...**».

تأمّلات

١ـ أساس الفتن

إنّ التأريخ الإسلامي ولا سيما إبان القرن الأول والثاني ملئ بالفتن الغريبة والأليمة التي كادت تقضي علىٰ جهود النبيصلى الله عليه وآله وصحبه الميامين، ولو لا تلك الفتن التي عصفت بالإسلام لما

---

١. العبارة إقتباس من الآية ١٠١ من سورة الأنبياء ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ التي وردت بعد الحديث عن جهنم، في اشارة إلىٰ أنّ هذه الطائفة ناجية من النار، ولما كانت فتن الدنيا هي جهنمها، فقد استثنىعليه السلام هذه الطائفة من هذه الفتن.

كنا نعيش مثل هذا العالم، والأنكى من ذلك الفتن التي وقعت بعد خمس وعشرين سنة من رحيل النبي ﷺ حين وصلت الخلافة عام ٣٥ هـ فاستهدفت تلك الفتن إعادة الإسلام إلىٰ الجاهلية؛ أمّا السنوات الأخيرة لخلافة عثمان فقد شهدت غياب جميع القيم والمثل الإسلامية، في حين تجددت سنن الجاهلية وأعرافها المقيتة وانبرت طلائع الشرك والنفاق للتسلم مواقعاً حساسة في الحكومة؛ الأمر الذي كان يعقد وظيفة الإمام عليه السلام. صحيح أنّ الإمام عليه السلام تمكن بجهاده المرير أن يحيى القيم والمثل الإسلامية، ولكن المؤسف أنّ الفتن لم تسكن حتى أدت في خاتمة المطاف إلىٰ قتل الإمام عليه السلام في محرابه من قبل تلك الطغمة الضالة. ثم إتسع حجم هذه الفتن على عهد معاوية ويزيد وسائر الشجرة الأموية الخبيثة، فقد سفكت الدماء، واستفلحت البدع، وسادت الأهواء، لتبلغ ذروتها على عهد بني العباس حتى مثل الإسلام وجفت عروقه. فلو نظرنا إلىٰ هذه الفتن لوقفنا علىٰ عمق خطبة الإمام عليه السلام التي حصرت أساس الفتن في أمرين إتباع الهوىٰ والبدع في دين الله؛ الأمران الذان يشاهدان في كل مكان، فقد تمسكت طائفة من أصحاب الفتن بالأمر الأول بينما لاذت طائفة أُخرى بالأمر الثاني. ولا نرىٰ البحث يسع الخوض في هذه التفاصيل ونوكلها إلىٰ مكان آخر.

٢ـ السياسات الشيطانية

من عجائب الدهر أنّ مبادئ السياسة الاستبدادية تقريباً متكافئة طيلة التأريخ. فقد إعتمد فرعون قبل ألف سنة ـ علىٰ ضوء المنطق القرآني ـ سياسة فرق تسد ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً**﴾[1] وما زال هذا المبدأ باق على قوته في كافة نقاط العالم الاستكباري، فالحكومات تلجأ إلىٰ أقذر الوسائل من أجل تفرقة الصفوف. ولما كانت السياسة الشيطانية آخذة في التعقيد في عصرنا الراهن أكثر من سائر العصور، فقد تعقد تبعاً لذلك مزج الحق بالباطل، حيث يمزج بعض الساسة الحق بالباطل بالشكل الذي يصعب تمييزه على الناس، وأدنى ذلك خداع الرأي العام ببعض العناوين كحقوق الإنسان والرفق

١. سورة القصص / ٣.

بالحيوان ويوم العامل وأطباء بلا حدود ومنظمة العفو الدولية وتأسيس المراكز الخيرية وإعانة المحرومين ومنح حق اللجوء السياسي لعدد من النازحين، فهم يتحدثون عنها بالشكل الذي قد يسيل له لعاب حتى بعض اليقظين والواعين. وناهيك عن كل ما سبق فالحكومات الاستكبارية تتشدق بالديمقراطية وضرورة الرجوع إلىٰ آراء الشعب فاذا تمّ ذلك وجرت الأُمور خلافاً لمصالحها اللامشروعة عمدت إلىٰ الانقلاب أو أثارة الفتن؛ الأمر الذي لمسناه بوضوح في التجربة الجزائرية، فابقوا علىٰ تلك الحكومة التي فشلت في تلك التجربة لأنّها تضمن مصالحها. بينما تغض النظر عن الحكومات التي تعيش عقلية القرون الوسطى وتمد لها يد العون والمساعدة لأنها تحفظ مصالحها.

نعم هذه هي حقيقة عالم السياسة والتي يتضح منها عمق كلام الإمام عليه السلام في هذه الخطبة في أنّ أصحاب الفتن إنّما يمزجون الحق بالباطل لخداع عوام الناس.

๏

الخطبة[1] ٥١

ومن خطبة له عليه السلام

لما غلب أصحاب معاوية أصحابه عليه السلام على شريعة الفرات بصفين ومنعوهم الماء.

نظرة إلى الخطبة

روى إبن أبي الحديد في إطار شرحه لهذه الخطبة أنّ نصر بن مزاحم قال: كان أبو الأعور السلمي على مقدمة جيش معاوية، وكان قد ناوش مقدمة جيش علي عليه السلام وعليها الأشتر النخعي مناوشة ليست بالعظيمة، فانصرف أبو الأعور عن الحرب راجعاً، فسبق إلى الماء فغلب عليه في الموضع المعروف بقناصرين ـ موضع في الشام ـ إلى جانب صفين، فحال جيشه بين ماء الفرات وأهل العراق. فلما بلغ أمير المؤمنين علي عليه السلام الخبر دعا صعصعة بن صوحان فقال: إئت معاوية وقل له: إنا سرنا إليك مسيرنا هذا وأنا كره لقتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنّك قدمت خيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا بالحرب ونحن ممن رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك؛ فحل بين الماء والناس حتى ننظر فيما بيننا وبينكم؛ وفيما قدمنا له وقدمتم له؛ وإن كان أحب إليك أن ندع ما جئنا له، وندع الناس يقتتلون حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا. فمضى صعصعة بالرسالة إلى معاوية، فقال معاوية لأصحابه: ما ترون؟ فأشار عليه بعض أصحابه بمنعهم الماء، غير أنّ عمرو بن العاص أشار عليه قائلاً: خل بين القوم وبين

---

١. لقد نقل هذه الخطبة «نصر بن مزاحم» في كتاب صفين عن جابر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام (مع بعض الفوارق الطفيفة) (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٢٠).

الماء فإنّهم لن يعطشوا وأنت ريان. بينما كان معاوية يرجح الرأي القائل بمنع جيش الإمام علي ﷺ من الماء. فمكث أصحاب الإمام ﷺ بغير ماء فاغتم ﷺ فألقى هذه الخطبة التي تفيض عذوبة وفصاحة وبلاغة، شاحذاً هم أصحابه فكشفوا أصحاب معاوية عن الماء.

جدير بالذكر أنّ القسم الأول من هذه الخطبة يشير إلى هذه الحقيقة وهى أنّ الإنسان إذا لم يقدم بكل شجاعة لأخذ حقه لم يكن أمامه سوى الذل والاستسلام للظلم والجور. أمّا القسم الثاني من الخطبة فيصور خداع معاوية ومكره في تأليب الجهال وزجهم في المعركة بما يجعلهم يستميتون من أجل الباطل!!

«قَدِ اسْتَطْعَمُوكُمُ الْقِتالَ فَأَقِرُّوا عَلى مَذَلَّةٍ وَتَأْخِيرِ مَحَلَّةٍ أَوْ رَوُّوا السُّيُوفَ مِنَ الدِّماءِ تَرْوَوْا مِنَ الْماءِ فَالْمَوْتُ فِي حَياتِكُمْ مَقْهُورِينَ وَالْحَياةُ فِي مَوْتِكُمْ قاهِرِينَ. أَلا وَإِنَّ مُعاوِيَةَ قادَ لُمَةً مِنَ الْغُواةِ وَعَمَّسَ عَلَيْهِمُ الْخَبَرَ، حَتَّى جَعَلُوا نُحُورَهُمْ أَغْراضَ الْمَنِيَّةِ».

الشرح والتفسير

أقبروا هذه الفتنة الخبيثة

أشرنا سابقاً إلى أنّ الإمام علي﵇ ألقى هذه الخطبة في ظل تلك الظروف العصيبة التي ألمت بصحبه. وقد إختار الإمام ـ الذي يمثل مصدر البلاغة والفصاحة ـ هذه العبارات الحماسية من أجل تحقيق الهدف المنشود والذي جعل أصحابه يهبون مسرعين لطرد عتاة الشام ومردتها عن شريعة الفرات.

نعم ما زالت هذه العبارات ـ ورغم تقادم الزمان عليها ـ تقرع أسماع الجميع وتلهمهم الصمود والتصدي للأعداء إذا ما شكلوا خطراً على عزتهم وشرفهم. فقد استهل الإمام﵇ خطبته بالقول: «**قد استطعموكم القتال**». وهي كلمة مجازية تعني: طلبوا القتال منكم، وهي تستعمل حيث يطلب أحدهم الطعام من آخر، وكأنّ الحرب والقتال طعام يطلبونه من أصحاب الإمام﵇. وما أشبه هذا الكلام بما تتناقله ألسنة عوام الناس في حياتهم اليومية من قبيل تعبيرهم «هذا الفرد يحكه جلده» في إشارة واضحة إلى أنّه يأتي بالأفعال التي ستؤدي إلى ضربه. والحق أنّ هذا أبلغ تعبير أورده الإمام﵇ بشأن منع أهل الشام للماء عن أصحابه﵇. ثم يواصل الإمام﵇ خطبته بأن ليس أمامكم سوى سبيلين لا ثالث لهما تجاه

خسة هذا العمل الذي ارتكبه أهل الشام؛ فإمّا السلة وإمّا الذلة «**فأقروا على مذلة وتأخير محلة**[١] **أو رووا**[٢] **السيوف من الدماء ترووا من الماء**».

أجل لم يكن لهم من سبيل ثالث، فلو وهنوا أمام العدو وغلب عليهم العطش بحيث أمات رهطاً من جندهم لكان ذلك وصمة عار في جبينهم ولفقدوا مكانتهم ومنزلتهم لدى العدو والصديق، إلّا أنّهم حين نهضوا بالأمر وحملوا على العدو قد حظوا بمكانتهم ومنزلتهم لدى العدو والصديق، كما كشفوا عن مروءتهم وعظمة خلقهم حين لبوا طلب مولاهم بالابقاء على شريعة الماء مفتوحة بوجه جيش الشام؛ الأمر الذي جعل جيش معاوية يشعر بخسة عمله، وهذا ما أدى بدوره إلى ارتفاع معنويات أصحاب الإمام عليّ﵇ وضعف روحية جيش الشام في معركة صفين ولا سيما في أوائل تلك المعركة حين شهدت هذه الواقعة.

ثم يشير الإمام﵇ إلى مفهوم كلي ودائمي على أنّه السر في انتصار وعزة ورفعة كل أُمّة، فيخاطب جنده قائلاً: «**فالموت في حياتكم مقهورين والحياة في موتكم قاهرين**».

نعم ليس هناك من قيمة لهذه الحياة المادية في قاموس الأفراد الصالحين،كما لا يعتبر الموت مناهضاً لهذه القيمة، بل القيمة في نظر الأحرار إنّما تكمن في الحياة التي تسودها العزة والكرامة، ولذلك تراهم يؤثرون الموت مع العزة على الحياة مع الذلة، وهذا هو السر في انتصار الفئة الإسلامية القليلة في عصر النبيﷺ ـ وما تلاه من عصور ـ على الفئة الضالة الكثيرة العدد والعدة. أجل فالعزة في المجتمع الإسلامي مقدمة على كل ما سواها؛ ولا يتوانى مثل هذا المجتمع في التضحية بالغالي والنفيس من أجل تحققها. وهذا المعنى قد تجلى بأروع صورة في كلمات شبل علي﵇ الإمام الحسين﵇ في حادثة كربلاء الدموية. فقد كان﵇ لا ينفك ينادي: «**لا والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أُقر لكم إقرار العبيد**»[٣]. ثم رد على الحر بن يزيد الرياحي ـ بعد أن جعجع بالحسين﵇ في طريقه إلى كربلاء وسقاهم الحسين﵇ بعظمته المعروفة الماء

---

١. «محلة» تستعمل بمعنى المكانة والمنزلة الاجتماعية.

٢. «رووا» من مادة «التروية» بمعنى الارتواء من الماء، ولهذا يصطلح على اليوم الثامن من شهر ذي الحجة بـ «يوم التروية» حيث كان الحجيج في السابق يتزودون بالماء حين الذهاب إلى عرفة ومنى والمشعر الحرام، كما قد تستعمل هذه المفردة ويراد بها المعنى الكنائي كإرواء السيوف الذي ورد في هذه الخطبة.

٣. بحار الأنوار ٤٥ / ٧.

ورشف خيولهم ـ حين نصحه بعدم مقاتلة يزيد حفظاً لنفسه قائلاً: أفبالموت تخوفني. ثم تمثل بالشعر الذي أنشده شاعر الأوس حين حذره ابن عمه من نصرة النبي فقال:

سأمضي فما بالموت عار على الفتى ... اذا مانوى حقاً وجاهد مسلماً
وواسى الرجال الصالحين بنفسه ... وفارق مثبوراً وباعد مجرماً
فان عشت لم أندم وان مت لم أُلم ... كفى بك ذلاً أن تعيش وترغما[1]

ولا غرو فهذا هو المعنى الذي أكده القرآن الكريم **﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾**[2].

ثم يشير أمير المؤمنين في خطبته إلى مكر معاوية وسذاجة أهل الشام. الذين انطلقت عليه ألاعيب معاوية وحيله فقال: «**ألا وإن معاوية قاد لمة من الغواة وعمس عليهم الخبر، حتى جعلوا نحورهم أغراض المنية**»[3].

فالإمام يصور في هذه العبارات حكومة معاوية التي تستند إلى الحيلة والمكر والخداع واستغفال السذج من الناس، إلى جانب تصويره إلى أهل الشام الذين بلغوا حداً من الضلال والغواية ما جعلهم يضحون بأنفسهم باطلاً من أجل تحقيق مآرب معاوية وأهدافه المشؤومة.

ولعل العبارة الوارة في الخطبة تمثل إجابة على السؤال الذي قد يتبادر إلى أذهان أصحاب الإمام عن علة دفاع أهل الشام عن مطامع معاوية إلى حد الاستماتة. فالإمام يكشف النقاب عن هذه الحقيقة وهي أن مكر معاوية في تزوير الواقع من جانب وجهل أهل الشام وغفلتهم من جانب آخر قد جعلتهم يظنون بأنّهم يقاتلون في سبيل الله ونيل الشهادة. نعم لقد كان للدعاية الواسعة والأساليب النفسية التي إعتمدها معاوية وعمرو بن العاص بالغ الأثر في صفوف أهل الشام إلى درجة أنّ البعض منهم أيقن بأنّ عثمان قد قتل مظلوماً وإن قاتله هو الإمام علي.

---

١. ارشاد المفيد ٢ / ٨١. طبعة آل البيت.

٢. سورة التوبة / ٥٢.

٣. «لمه» من مادة «لمى يلمو لموا» بمعنى أخذ الشيء بأكمله و(لمه) بضم اللام وفتح الميم بدون التشديد» بمعنى الجماعة القليلة، (غواة) جمع غاوي بمعنى الضال، والعمس بمعنى محو الأثر وعدم العلم بالشيء، ومن هنا أطلق العميس على الظلام الدامس، فيقال ليل عماس؛ أي مظلم.

وقد نهض معاوية للطلب بدمه إلى جانب الدفاع عن القرآن والإسلام وخلافة رسول الله ﷺ، وعليه فليس القتل في هذا السبيل سوى الجنّة والشهادة التي يتعطش إليها كل مسلم غيورا

طبعاً حبل الكذب والخداع مهما طال قصير ولا يمكن للشمس أن تحجبها الغربان وسرعان ما تتضح الحقائق، غير أنّ ذلك لا يكون إلّا بعد انجلاء الغبرة وإزهاق الأرواح ولات حين مناص.

تأمّلات

١ ـ ضرورة العيش في ظل العزة والكرامة

تتميز المدرسة الإسلامية عن سائر المدارس والمذاهب بمبادئها وركائزها الحيوية الأصيلة، ومنها المبدأ الذي ورد في الخطبة المذكورة والذي يكمن في ترجيح الموت الشريف على الحياة الوضيعة، وبعبارة أُخرى ففي الوقت الذي تحذر فيه المدرسة الإسلامية عن ممارسة الظلم والجور فانها تؤكد على عدم الركون إلى الظلمة والاستسلام للطواغيت، وقد تجسد هذا المعنى في رجالات الإسلام الذين استحقوا بحق لقب «أُباة الضيم»[١]. والواقع أن القرآن هو الذي أكد هذا المبدأ ﴿وَلِلّٰهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

وكذلك تظافرت روايات أهل البيت عليهم السلام بهذا الأمر، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: **«إنّ الله تبارك وتعالى فوض إلى المؤمن كل شيء إلا إذلال نفسه»**[٣]. وقال الإمام الحسين عليه السلام: **«موت في عزّ خير من حياة في ذلّ»**[٤]، كما قال عليه السلام: **«ألا وإن الدعي ابن الدعي قد تركني بين السلة والذلة وهيهات له ذلك، هيهات منّي الذلة أبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون وجدود طهرت وحجور طابت أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»**[٥].

---

١. «أباة» جمع أبي بمعنى الرفض والامتناع والضيم بمعنى الظلم، وهو ما يطلق على أولئك الذين لا يستسلمون للظلم والجور.
٢. سورة المنافقون / ٨.
٣. الكافي ٥ / ٦٣.
٤. بحار الأنوار ٤٤ / ١٩٢.
٥. بحار الأنوار ٤٥ / ٨٣.

وأورد ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة: «**سيد أهل الآباء الذي علّم الناس الحمية والموت تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنية أبو عبدالله الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عرض عليه الأمان وأصحابه فأنف من الذل**».

ثم تطرق إلى كلماته الحماسية في يوم عاشوراء «**ألا وان الدعي ابن الدعي...**» وأنّها على غرار ما أورده أمير المؤمنين علي عليه السلام في خطبته المعروفة ـ ٣٤ ـ «**إنّ امرء يمكن عدوه من نفسه، يعرق لحمه، ويفري جلده، ويهشتم عظمه، لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه صدره، فأما أنا فدون أن أعطي ذلك ضرب بالمشرفية...**» قيل لرجل شهد يوم الطف مع عمر بن سعد: ويحك! أقتلتم ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله؟! فقال: عضضت بالجندل؛ إنّك لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا، ثارت علينا عصابة أيديها في مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، وتلقي أنفسها على الموت؛ لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين الورود على حياض المنية، أو الاستيلاء على الملك؛ فلو كففنا عنها رويداً لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها؛ فما كنّا فاعلين لا أم لك[1]!

٢ ـ غسل أدمغة المغفلين

النقطة المهمّة الأُخرى التي تضمنتها خطبة أمير المؤمنين عليه السلام، أنّ أئمة الباطل قد ينمقون كلامهم بالمكر والخداع بما يجعلهم ينفذون إلى أعماق أفكار السذج من الناس، وكأنّهم يسوقونهم إلى الشهادة، حيث يقبلون على القتال بكل شدة وصرامة، في حين لا يزيدهم ذلك القتال سوى الطر من الرحمة والتغلغل في الدرك الأسفل من النار، وهذه طامة كبرى. ولم يكن معاوية يدعا من أُولئك الطواغيت الذين ساروا على هذا النهج في غسل أدمغة أتباعهم وسوقهم للدفاع عن أهدافهم ومآربهم المشؤومة، فقد سبقه وتلاه الكثير من الظلمة الذين اعتمدوا هذا الاسلوب. فعمر بن سعد قائد عسكر يزيد في كربلاء حين دفع بأهل الكوفة للهجوم على الإمام الحسين عليه السلام نادى بأعلى صوته: «**يا خيل الله اركبي، وبالجنّة ابشري!**»[2].

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/ ٢٦٣.
٢. بحار الأنوار ٤٤ / ٣٩١.

كما كانت أجهزة الدعاية الفرعونية تصور موسى وهارون عليهما السلام ممن يسعى للسيطرة على مصر وإشاعة الفساد فيها، في حين تصف فرعون بالمدافع عن هذه الأرض وعزة واستقلال أهلها، فيخاطب الأمّة قائلاً: ﴿إِنْ هٰذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما﴾[1]. ومازال هذا هو المنطق الغاشم الذي يمارسه الظلمة على مر العصور والدهور.

٣ ـ المروءة والشهامة

قال نصر ـ في كتاب صفين ـ إنّ عمرو بن العاص قال لمعاوية لما ملك أهل العراق: ما ظنك يا معاوية بالقوم إن منعوك اليوم الماء كما منعتهم أمس؟ أتراك تضاربهم عليه كما ضاربوك عليه؟ ما أغنى عنك أن تكشف لهم السوءة. ويبدو أن عمرو كان بصدد تقريع معاوية ولومه على عدم قبول إقتراح ابن العاص بعدم منع أهل العراق من الماء. فقال معاوية: دع عنك ما مضى، فما ظنك بعلي؟ قال: ظني أنه لا يستحل منك ما استحللت منه، وأن الذي جاء له غير الماء. فهو يعلم بخلق علي عليه السلام وليس لاغلاق شريعة الفرات من انسجام وذلك الخلق.[2]

وهذا هو الخلق الذي ورثه ابنه الحسين عليه السلام الذي سق الحر بن يزيد الرياحي وجنده الماء في تلك الصحراء القافرة بينما كان خلق أعدائه أن ذبحوه عطشاناً إلى جانب شط الفرات، وليتهم اكتفوا بذلك فقد منعوا الماء حتى عن رضيعه.

ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح

---

١. سورة طه / ٦٣.
٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣ / ٣٣٠.

الخطبة[1] ٥٢

ومن خطبة له ﷺ

وهى في التزهيد في الدنيا وثواب اللّٰه للزاهد، ونعم اللّٰه على الخلق

نظرة إلىٰ الخطبة

تشتمل الخطبة في الواقع علىٰ ثلاثة أقسام: القسم الأول في الزهد وعدم التعلق بالدينا وأنّ نعم الدنيا إلىٰ زوال، وعلى المؤمنين أنّ يستعدوا لسفر الآخرة من خلال العمل الصالح، القسم الثاني ثواب الزهاد والأعمال الصالحة، والقسم الثالث الاقرار بعجز العباد عن إداء حق شكر المنعم، ولا سيما أعظم هذه النعم الإيمان.

---

١. سند الخطبة: روي أنّ الإمام ﷺ خطبها في عيد الأضحى وبدايتها «اللّٰه أكبر اللّٰه أكبر لا اله إلّا اللّٰه واللّٰه أكبر وللّٰه الحمد الحمدللّٰه على ما هدانا...» ورواها المرحوم الصدوق (ره) في كتابه من لا يحضره الفقية ١ / ٢٢٩ والشيخ الطوسي (ره) في كتاب المصباح / ٢٦١ وقال: نقل أبومخنف عن عبدالرحمن‌بن جندب عن أبيه أنّ علياً ﷺ خطب الناس في الأضحى وقد أورد السيد الرضي (ره) بعضها في نهج‌البلاغة، كما روى الشيخ المفيد قسما منها في المجلس العشرين من الامالي. مصادر نهج‌البلاغة ٢ / ٢٢ وقد مضى شبيه هذا المضمون في الخطبة ٢٨.

القسم الأول

«أَلاٰ وَإِنَّ الدُّنْيٰا قَدْ تَصَرَّمَتْ، وَآذَنَتْ بِانْقِضٰاءٍ، وَتَنَكَّرَ مَعْرُوفُهٰا وَأَدْبَرَتْ حَذّٰاءَ، فَهِيَ تَحْفِزُ بِالْفَنٰاءِ سُكّٰانَهٰا وَتَحْدُو بِالْمَوْتِ جِيرٰانَهٰا وَقَدْ أَمَرَّ فِيهٰا مٰا كٰانَ حُلْواً، وَكَدِرَ مِنْهٰا مٰا كٰانَ صَفْواً، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهٰا إِلاّٰ سَمَلَةٌ كَسَمَلَةِ الْإِدٰاوَةِ أَوْ جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ الْمَقْلَةِ، لَوْ تَمَزَّزَهٰا الصَّدْيٰانُ لَمْ يَنْقَعْ، فَأَزْمِعُوا عِبٰادَ اللّٰهِ الرَّحِيلَ عَنْ هٰذِهِ الدّٰارِ الْمَقْدُورِ عَلَى أَهْلِهٰا الزَّوٰالُ، وَلاٰ يَغْلِبَنَّكُمْ فِيهٰا الْأَمَلُ، وَلاٰ يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ فِيهٰا الْأَمَدُ».

الشرح والتفسير

لقد تواترت خطبه عليه السلام في نهج البلاغة التي توصي بالزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها والتزود منها إلىٰ الدار الآخرة، إلىٰ جانب التحذير من مخاطرها وأنّها متقلبة سريعة الزوال، رغم أن الإنسان يطمح بالحياة مادامه في الدنيا ولابد أن يعيش بعزة ورفعة ويصرّف شؤون حياته المادية دون التبعية للآخرين وأنّ الإنسان لابدّ أن يتأهب فيها إلىٰ السفر الشاق الذي ينتظره، ومن هنا ورد التأكيد في هذا الخطبة علىٰ الزهد في عشر عبارات رائعة في الدقة والمعنى، فقال في العبارة الاولىٰ: «**ألا وإن الدنيا قد تصرمت،**[1] **وآذنت**[2] **بانقضاء**» فالعبارة قد تكون إشارة إلىٰ عمر الدنيا الايل للانقطاع والانتهاء، ومن هنا يسمى زماننا آخرالزمان، أو إشارة إلىٰ الحياة الدنيا لكل فرد من الأفراد في كل عصر وزمان في أنّه قصير سريع الزوال، والمعنى الاخير أنسب. فمفهوم العبارة هو أنّ عمر الإنسان من القصر في هذه الحياة الدنيا وكأنّه يخاطب بالاستعداد للرحيل منذ ولادته. فقوله عليه السلام: «**ألا وإن الدنيا قد تصرمت**» يتناول باطن الدنيا، بينما تناول قوله عليه السلام: «**وآذنت بانقضاء**» ظاهرها، وبعبارة أخرىٰ فانّ الدنيا فانية ذاتا،

---

١. «تصرمت» من مادة «صرم» بمعنى انقطعت وفنيت، ومن هنا يطلق الصارم علىٰ السيف القاطع، وتصرم الدنيا يعني انقطاع أجلها.

٢. «آذنت» من مادة إيذان أعلمت وأخبرت.

كما أنّ مختلف ملامحها في الحياة الإنسانية هي الأُخرىٰ قد أخبرت عن هذا الفناء، وبالتالي فلا ينبغي للإنسان أن يغتر بها ويعيش الخسران.

وهي كما صورها الشاعر:

هـــي الدنـــيا تـقول بمـلءُ فـيها حذار حذار من بطشي وفـتكي

فـلا يـغرنكم حســن إبـتسامي فـقولي مـضحك والفـعل مـبك

ثم قال ﷺ: «**وتنكر معروفها وأدبرت حذاء**»[١] كيف لا وغضاضة الشباب وطراوة الفتوة ونظارة الوجه آيلة إلىٰ الكهولة والعجز والشحوب، ثم وصف الدنيا ﷺ بقوله: «**فهي تـحفز**[٢] **بالفناء سكانها وتحدوا بالموت جيرانها**» فالعبارة تفيد حركة الإنسان نحو أجله ومصيره المحتوم شاء ذلك أم أبي. والحدي الصوت الذي يردد لتعجيل حركة النـاقة. فما أروع هـذا التعبير الذي يفيد توفر جميع العوامل التي تدعو الإنسان لحث الخطى والسرعة في الحركة إلىٰ الزوال والفناء. أمّا التعبير بالجيران بعد السكان فكأنّه يفيد أنّ محل سكن الإنسـان ليس في هذا العالم، فهو جاره وليس بصاحبه، أي أنّه مفارقه لامحالة! ثم قال ﷺ: «**وقد أمر**[٣] **منها ما كان حلوا وكدر منها ما كان صفوا**». فما أسرع نهاية مرحلة الطفولة والشباب الحلوة العذبة لتستبدل بمرارة الشيخوخة والكهولة فيعد الاستقرار إضطراباً والحصة سقماً والراحـة تـعباً. وقيل في تفسير هذه العبارة إنّهـا إشارة إلىٰ اختلاف ظاهر الدنيا وبـاطنها. فـظاهرها حـلو وباطنها مرّ. ظاهرها عذب وباطنها علقم. غير أن التمعن في العبارات السابقة يفيد أنّ التفسير الأول أنسب. ثم يختتم ﷺ حديثه عن الدنيا بالقول «**فلم يبق منها الاسملة كسملة**[٤] **الاداوة**[٥] **أو جرعة كجرعة المقلة لو تمززها**[٦] **الصديان لم ينقع**» فالعبارة إشارة إلىٰ حياة كل فرد من

---

١. «حذاء» من مادة «حذ» علىٰ وزن حظ بمعنى السريعة الذهاب ،ومن هنا يطلق الحذاء علىٰ الدابة السريعة، والمراد هنا سرعة أجل الدنيا.

٢. «تحفز» من مادة «حفز» علىٰ وزن حبس بمعنى تعجلهم وتسوقهم، وقد ورد فـي الحـديث الشـريف أن حفز الموت من علامات القيامة. قيل وما حفز الموت. قال ﷺ: موت الفجأة (لسان العرب).

٣. «مر» علىٰ وزن «شر» بمعنى المضي والعبور ومر علىٰ وزن حر ضد الحلو، وأمر» مـن مـادة «مُـر» بـمعنى مضي الزمان يجعل حلاوة الدنيا مرارة.

٤. «سملة» من مادة «سمل» علىٰ وزن حمل بمعنى البقية من الماء تبقى في الإناء، ومن هنا كان الاسمال بمعنى الإصلاح لأنّه يزيل ما بقى من الأحقاد والأضغان.

٥. «إدواة» علىٰ وزن إدارة القربة الصغيرة من الجلد.

٦. «تمزز» من مادة «مز» علىٰ وزن حز بمعنى التـذوق والامـتصاص والأكـل وقـال صـاحب مـقاييس اللـغة امتصاص الماء تدريجياً وببطئ.

الأفراد وانها تقترب بمرور الزمان من نهايتها، وقد كان تعبيره بمنتهى الروعة لتصوير قصر عمر الدنيا وسرعة زوالها، فالسملة تعنى الشيئ الزهيد الذي لاقيمة له، وتطلق على ما يتبق من الماء في الاناء، و«**جرعة المقلة**» تطلق علىٰ المسافر الذي يشكو من قلّة الماء فيسعى للحصول علىٰ الماء لادخاره، أجل فعمر الدنيا قصير إلىٰ درجة أنّه لا يروي ظمأ من تعلق به، فما أحرىٰ العاقل أن يفيق إلىٰ نفسه وينأىٰ بها بعيداً عن الاغترار به، فينهمك بالآخرة ويسرع في السير إليها. ثم يخلص الإمام عليه السلام إلىٰ النتيجة الواضحة «**فازمعوا**[1] **عبادالله الرحيل عن هذه لدار المقدور علىٰ أهلها الزوال ولا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولن عليكم فيها الأمد**»[2].

إنّ الإنسان راحل عن هذه الدنيا شاء أم أبي، ومراد الإمام عليه السلام إرحلوا بعلم وعبرة واغتنموا الفرصة وسيروا علىٰ النهج بالعمل الصالح والخلق الرفيع والمعرفة بالله لتنالوا سعادة الآخرة والخلود في نعيمها. فقد نبه عليه السلام إلىٰ الخطرين الكامنين في الطريق فقال: «**ولا يغلبنكم فيها الأمل ولا يطولن عليكم فيها الأمد**»؛ الأمر الذي أرشد القرآن الكريم إليه بقوله: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾[3] ونؤكد مرة أُخرىٰ أنّ العبارات لاتفيد ترك الدنيا والرهبانية فيها وعدم الإكتراث إلىٰ الحياة، بل تفيد عدم التعلق بزخارف الدنيا والاغترار بها، وبعبارة أُخرى فالمراد التعامل مع الدنيا كما هى، لا على أساس الوهم والخيال وما تمليه علينا أهوائنا وشهواتنا.

الدنيا الغرور

لا أحد يعتقد بالخلود في هذه الدنيا، فهى آيلة إلىٰ الزوال والفناء وأنّ الإنسان سيودعها يوماً ليودع خده التراب في تلك الحفرة، إلّا أنّ زينة الدنيا وزبرجها قد تلق بحجابها علىٰ هذا الواقع بحيث قد ينسى الإنسان الموت بالمرة، أو يتناسى تلك الحقيقة المرة، فينطلق في نشاطاته

---

١. «أزمعوا» من مادة «زمع» بمعنى العزم على الشيىء، ولذلك قيل ان هذه المفردة قلبت من عزم أي نقلت فيها حرفي الزاء والميم من مكان إلىٰ آخر، وقيل كانت في الأصل جمع ثم بدلت إلىٰ زاء، والمفردات الثلاث (عزم وزمع وجمع) بمعنى واحد وهو التصميم والعزم علىٰ الشيئ.

٢. «أمد» على وزن صمد أجل الشيئ وتأتي بمعنى الغضب، لأنّ صبر الإنسان ينفد حين الغضب.

٣. سورة الحديد / ١٦.

وفعالياته وكأنّه مخلد في الحياة الدنيا. وقد يطرح هذا الحجاب مؤقتا إذا ما مات أحدهم واشتركنا في مراسم تشييعه ودفنه لتتضح أمامنا الدنيا علىٰ حقيقتها، فاذا عدنا إلىٰ حياتنا نسينا كل شيءٍ وعاد ذلك الحجاب، وكأنّ الموت لم يكتب علينا، وبالطبع فانّ هذا الكلام لا يصدق على أولياء اللّه، فهم أرفع من أن تبعدهم هذه الحجب عن حقيقة الحياة والموت، فهم لا يرون الدنيا سوىٰ قنطرة إلىٰ الآخرة. والحق أنّ تحذير الإمامعليه السلام في هذه الخطبة من الدنيا لا يعني أبداً أنّه يحث الناس علىٰ مقاطعة الدنيا وتركها، كيف وهو يراها مقدمة للآخرة «**الدنيا مزرعة الآخرة**». والطريف أنّ بعض الشعراء من أولياء اللّه قد صوروا هذه الحقيقة في أشعارهم، ولا بأس هنا بالتعرض لهذه القضية.

فقد ورد في الحديث المعروف: سعي إلىٰ المتوكل بعلي الهاديعليه السلام أنّ في منزله كتباً وسلاحاً من شيعته من أهل قم، وأنّه عازم على الوثوب بالدولة، فبعث إليه جماعة من الأتراك، فهجموا على داره ليلاً فلم يجدوا فيها شيئاً ووجده في بيت مغلق عليه، وعليه مدرعة من صوف ،وهو جالس على الرمل والحصى هو متوجه إلىٰ اللّه تعالى يتلو آيات من القرآن، فحمل على حاله تلك إلىٰ المتوكل وقالوا له: لم نجد في بيته شيئاً ووجدناه يقرأ القرآن مستقبل القبلة، وكان المتوكل جالساً في مجلس الشرب، فدخل عليه والكأس في يد المتوكل، فلما رآه هابه وعظمه وأجلسه إلىٰ جانبه، وناوله الكأس التي كانت في يده فقال: واللّه ما يخامر لحمي ودمي قط، فاعفني فاعفاه. فقال: أنشدني شعراً، فقالعليه السلام: إني قليل الرواية للشعر، فقال: لابدّ، فأنشدهعليه السلام:

باتوا على قلل الاجبال تحرسهم ... غلب الرجال فلم تنفعهم القلل
واستنزلوا بعد عزمن معاقلهم ... واسكنوا حفرا يابئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد دفنهم ... أين الاساور والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة ... من دونها تضرب الاستار والكلل
فافصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وقد شربوا ... وأصبحوا اليوم بعد الأكل قد أُكلوا[1]

٭٭٭

١. بحارالانوار، ٥٠ / ٢١١.

القسم الثاني

«فَوَاللّٰهِ لَوْ حَنَنْتُمْ حَنِينَ الْوُلَّهِ الْعِجَالِ وَدَعَوْتُمْ بِهَدِيلِ الْحَمَامِ وَجَأَرْتُمْ جُؤَارَ مُتَبَتِّلِي الرُّهْبَانِ وَخَرَجْتُمْ إِلَى اللّٰهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ الْتِمَاسَ الْقُرْبَةِ إِلَيْهِ فِي ارْتِفَاعِ دَرَجَةٍ عِنْدَهُ أَوْ غُفْرَانِ سَيِّئَةٍ أَحْصَتْهَا كُتُبُهُ وَحَفِظَتْهَا رُسُلُهُ لَكَانَ قَلِيلاً فِيمَا أَرْجُو لَكُمْ مِنْ ثَوَابِهِ وَأَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ عِقَابِهِ».

৩০৫

الشرح والتفسير

السعي القليل وإن كثر

ما أن فرغ الإمام‎ؑ من تصوير حقيقة الدنيا وسرعة زوالها حتى تطرق إلىٰ الثواب والعقاب في الآخرة ومصير الإنسان هناك علىٰ أنّها تمثل الهدف لهذه الدنيا. وبعبارة أُخرىٰ كان القسم الأول من كلامه مقدمة لهذا القسم الذي يشير فيه إلىٰ الهدف الغائي وهو القرب من اللّٰه ونيل ثوابه واجتناب عقابه فقال‎ؑ: «**فو اللّٰه لو حننتم[1] حنين الوله[2] العجال[3] ودعوتم**

---

١. «حنين» بمعنى الشفقة والرأفة والرحمة وتقال عادة مقترنة بالأنين والألم، و«أستن حنانة» تطلق على العمود الخشبي الذي ورد في الرواية أن رسول الله ﷺ كان يستند إليه ويخطب الناس، ثم استبدل بالمنبر فكان ذلك العمود يتأوه لفراق النبي ﷺ.

٢. «وله» جمع «واله» و«والهة» من مادة «وله» علىٰ وزن ولع بمعنى شدة الهم الذي يذهب بالعقل ويفقد التمييز.

٣. «عجال» جمع «عجول» من مادة «عجلة» بمعنى السرعة في العمل، كما تطلق علىٰ المرأة التي تثكل بولدها.

بهديل[١] الحمام وجأرتم جؤار[٢] متبتلي[٣] الرهبان[٤] وخرجتم إلىٰ الله من الأموال والاولاد إلتماس القربة إليه في إرتفاع درجة عنده أو غفران سيئة أحصتها كتبه وحفظتها رسله لكان قليلا فيما أرجو لكم من ثوابه وأخاف عليكم من عقابه» فقد إستعار الإمامعليه السلام ثلاثة تشبيهات للتضرع إلىٰ الله واستفراغ الجهد في الانقطاع إليه، التشبيه الأول: الصوت الذي تخرجه النوق الوالهة الفاقدة لأولادها، وهو الصوت الحزين الذي يرق له القلب حين سماعه، التشبيه الثاني: هديل الحمام حين إجتماعها، والهديل يطلق علىٰ فرخ الحمام كما يطلق علىٰ صوتها، وتعتقد العرب أنّ الهديل حمامة على عهد نوحعليه السلام بقيت وحدها وماتت عطشاً، ومنذ ذلك اليوم والحمام ينوح عليها، التشبيه الثالث: بكاء الرهبان المنقطعين عن الدينا القابعين في صومعاتهم، والذين ينوحون عند الطقوس الدينية وقد إشتد نياحهم بفعل إنقطاعهم عن الدنيا. ولم يكتف الإمامعليه السلام بهذا التضرع والنوح والبكاء فقال: «**وخرجتم إلىٰ الله من الأموال والاولاد**» أي ولو تركتم أموالكم وأولادكم من أجل القرب إلىٰ الله كان قليلاً. والدليل واضح علىٰ ذلك فالدنيا وما فيها لاتعدل جناح بعوضة من الآخرة، وهي ليست سوىٰ قطرة إلىٰ بحر، ومن الطبيعي أنّ الإنسان لايخرج من ماله وولده ما لم يقف علىٰ هذا المعنى. وقد وردت هذه المقارنة بين الدنيا والآخرة في خطبة المتقين بقولهعليه السلام: «**صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة**»[٥].

---

١. «هديل» يطلق علىٰ الحمام كما يطلق أحياناً على نوحه وهو من الهدل علىٰ وزن العدل بمعنى الصوت العذب.

٢. جؤار له معنى مصدري وهو الصوت المرتفع المشوب بالتضرع والنجدة.

٣. متبتل من مادة تبتل بمعنى الإنفصال والإعتزال وتطلق على الرهبان الذين يعتزلون المجتمع وينهمكون بالعبادة. ومن ألقاب الزهراءعليها السلام البتول لإنقطاعها إلى الله وأفضليتها على سائر النساء في الفضل والعلم والمعرفة. وورد في بعض الروايات أن التبتل هو رفع اليد بالدعا.

٤. «رهبان» جمع «راهب» من مادة «رهب» علىٰ وزن رحم بمعنى الخوف، الخوف مع ضبط النفس والرهبانية تعني شدة العبودية وترك الدنيا، وهي بدعة ابتدعها طائفة من النصارىٰ، حيث يقاطع الفتى أوالفتاة الزواج ويقبع في زاوية من الدير وينهمك بالعبادة، وقد ورد النهي عنها في الاسلام، فقد قالصلى الله عليه وآله: «لا رهبانية في الاسلام».

٥. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٣.

القسم الثالث

«وَتاللّٰهِ لَوِ انْماثَتْ قُلُوبُكُمُ انْمِياثاً، وَسالَتْ عُيُونُكُمْ مِنْ رَغْبَةٍ إِلَيْهِ أَوْ رَهْبَةٍ مِنْهُ دماً، ثُمَّ عُمِّرْتُمْ فِي الدُّنْيا مَا الدُّنْيا باقِيَةٌ، ما جَزَتْ أَعْمالُكُمْ عَنْكُمْ - وَلَوْ لَمْ تُبْقُوا شَيْئاً مِنْ جُهْدِكُمْ - أَنْعُمَهُ عَلَيْكُمُ الْعِظامَ، وَهُداهُ إِيّاكُمْ لِلْإِيمانِ».

الشرح والتفسير

عظمة وسعة النعم الإلهية

يختتم الإمام عليه السلام خطبته بالحديث عن عظمة النعم الإلهية التي أفاضها اللّٰه على البشرية لإثارة حس الشكر لديه والتوجه إلى ربّه بما يقوده إلى السمو والرفعة والكمال والقرب من اللّٰه. فقال عليه السلام: « **وتاللّٰه لو إنّماثت قلوبكم انمياثاً**[1] **، وسالت عيونكم من رغبة إليه ورهبة منه دماً، ثم عمرتم في الدنيا، ما الدنيا باقية، ما جزت أعمالكم عنكم - ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم - أنعمه عليكم العظام، وهداه إياكم للايمان**» فقد شرح الإمام عليه السلام بهذه العبارات البليغة أقصى جهود الإنسان كما وكيفا في طاعة اللّٰه، فمن ناحية الكيفية أنّه لو ذاب في طاعة اللّٰه واصطرخت كافة ذرات جسمه وحلقت روحه في سماء العبودية، ومن الناحية الكمية لو دام هذا العمل طيلة حياة ابن آدم، فمع ذلك لايسعه أن يؤدي حق شكر النعم الإلهية، بل شكر نعمة واحدة، حيث صرحت بعض الرواياتِ بان ذات الشكر نعمة ينبغي للإنسان الشكر عليها. وما أروع ما قال الشاعر:

---

١. «انمياث» من مادة «موث» على وزن موت بمعنى الذوبان، وانمياث من باب الانفعال، ويعني في العِبارة بذل قصارى الجهد في سبيل اللّٰه.

شكر الاله نعمته موجبة لشكره وكيف شكري بره وشكره من بره[1]

فالواقع أنّ الإمام‏ﷺ أشار بتلك العبارة إلىٰ عدم محدودية النعم الإلهية. وهو كالتعبير القرآني في الآية ٢٧ من سورة لقمان بشأن علم اللّه: **﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللّٰهِ﴾**. نعم ليس للعبد سوى الاعراب عن ضعفه وعجزه أمام النعم الإلهية. الجدير بالذكر أنّ الإمام‏ﷺ يؤكد علىٰ نعمة الإيمان **«وهداه إيّاكم للإيمان»** من قبيل ذكر الخاص بعد العام. فقد أشار في العبارة السابقة إلىٰ الأنعم الإلهية ثم خص هنا منها نعمة الإيمان على غرار ما جاء في القرآن الكريم: **﴿بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ﴾**[2]. ولا تتأتى أهمية الإيمان من كونها مفتاح سعادة البشر وجواز سفره إلىٰ الجنّة فحسب، بل لأنّها الدافع لكافة الفضائل والأعمال الصحالة والرادع من الرذائل والأعمال السيئة. فالواقع هي أساس الدين والملفت للنظر في العبارة أنّه‏ﷺ نسب الهداية للّه، وان حصل عليها الإنسان باختياره وإرادته؛ وذلك لتعذرها علىٰ الإنسان بمفرده ما لم تشمله العناية الإلهية ويرشده الأنبياء والأولياء والكتب الإلهية إليها. ومن هنا نسأل اللّه في صلواتنا اليومية ليل نهار الهداية.

ويبدو من الأهمية في نهاية الخطبة الإلتفات إلى هذه النقطة وهي أن القسم الأول لها بعد المقدمة حيث يعد القلوب من خلال تنبيهها إلى تقلب أحوال الدنيا وزوالها، بينما يوجهها في القسم الثاني والثالث إلى طاعة الله وكسب الفضائل ودفع الرذائل. مع هذا الفارق في تأكيد القسم الثاني على أهمية القرب من الله ومطلوبية كل سعي وجهد للوصول إلى هذا الهدف، أما القسم الثالث فيرد ساحة القدس الربوبي صاحب الفضل عن طريق مسألة شكر المنعم، فالوجدان هو الذي يشهد بضرورة هذا الشكر.

---

١. بيت الشعر إقتباس من حديث عن الإمام السجاد والصادق‏ﷺ، بحارالانوار، ١٣ / ٣٥١ المناجاة الخمسة عشر مناجاة الشاكرين.

٢. سورة الحجرات / ١٧.

الخطبة[1] ٥٣

ومن خطبة له عليه السلام

«في ذكرى يوم النحر وصفة الأُضحية»

«وَمِنْ تَمٰامِ الْأُضْحِيَّةِ اسْتِشْرٰافُ أُذُنِهٰا، وَسَلاٰمَةُ عَيْنِهٰا، فَإِذٰا سَلِمَتِ الْأُذُنُ وَالْعَيْنُ سَلِمَتِ الْأُضْحِيَّةُ وَتَمَّتْ، وَلَوْ كٰانَتْ عَضْبٰاءَ الْقَرْنِ تَجُرُّ رِجْلَهٰا إِلَى الْمَنْسَكِ».

الشرح والتفسير

تمام الأضحية

أشار الإمام عليه السلام في هذا الفصل من الخطبة إلىٰ تفاصيل وجزئيات الأُضحية، وقال: «ومن **تمام الأُضحية[2] استشراف[3] أذنها وسلامة عينها، فاذا سلمت الاذان والعين سلمت**

---

١. سند الخطبة: ورد في كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ هذه ليست خطبة مستقلة (بل هي جزء من الخطبة السابقة التي خطبها في الأضحى) ومن هنا عدتها نسخة إبن أبي الحديد التي تعتبر أصح النسخ جزءاً من الخطبة السابقة، اما أنّها وردت مستقلة في سائر النسخ فهذا من خطأ الرواة، والشاهد علىٰ ذلك أنّها وردت جزءا من الخطبة في كتاب من لا يحضره الفقيه (١ / ٤٦١) ومصباح المتهجد / ٤٢٩. جدير ذكره أن العبارة التي وردت في كتاب من لايحضره الفقيه بعد «تجر رجلها إلىٰ المنسك» «فلا تجزي» الذي يغير العبارة تماماً. ولايبدو ذلك مستبعداً، وان درجنا علىٰ السير في نهج البلاغة حسب تصنيف صبحي الصالح. مصادر نهج البلاغة، ٢ / ٢٣.

٢. «الأُضحية»: الشاة التي طلب الشارع ذبحها بعد شروق الشمس من عيد الأضحى.

٣. «إستشراف» من مادة «شرف» بمعنى علو المقام، والمراد باستشراف الاذان تفقدها حتى لاتكون مجدوعة أو مشقوقة غير سالمة.

الأضحية وتمت» ثم أضاف ﷺ: **«ولو كانت عضباء[1] القرن تجر رجلها إلىٰ المنسك»** ولا يتنافى هذا الكلام مع ما تعارف بين الفقهاء وما ورد في سائر روايات المعصومين عليهم السلام من أنّ الأضحية يجب أن تكون سالمة الرأس، لأنّ عضب قرنها الداخلي يضر بسلامتها لا قرنها الخارجي، كما لا يضر العرج البسيط الذي لا يعيقها عن الحركة. وجاء في بعض النسخ قوله: **«فلا تجزي»** بعد العبارة **«تجر رجلها إلىٰ المنسك»** وعليه يصبح مفهوم العبارة عدم إجزاء الأضحية إن كسر قرنها وكانت تجر رجلها علىٰ الأرض[2]. قال السيد الرضي (ره) في ذيل الخطبة: **«والمنسك هاهنا المذبح»**.

عِلّيّة سلامة الأضحية من النقص والعيب

رغم أنّ الهدف من الضحية هو إستفادة بعض المحتاجين منها كما صرح بذلك القرآن الكريم: **﴿فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَأَطْعِمُوا القانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذٰلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**[3] ومن المسلم به عدم وجود أي تأثير علىٰ هذا المعنى سواء كان قرنها سالماً أم لا، ولكن الأضحية شعيرة إسلامية وعبادة، ولا يليق بالساحة القدسية للربّ سبحانه إختيار الشاة المعيبة والمريضة، ولابدّ من تقديم الخالصة فانّ ذلك نوع من الادب والاحترام؛ الأمر الذي نلمسه بوضوح في صلاة المرأة بكامل الحجاب، وارتداء الثياب النظيفة حين الصلاة، والتعطر عند العبادة وغسل الميت وتكفينه وتحنيطه وما إلىٰ ذلك من الأمور.

---

١. «عضباء» من مادة «عضب» علىٰ وزن عزم بمعنى القطع أو الكسر، وعضباء القرن بمعنى مكسورة القرن، كما يطلق علىٰ الناقة إذا شقوا اذنها ناقة عضباء.

٢. وردت العبارة «فلا تجزي» في كتاب من لا يحضره الفقيه ١ / ١٦٨ باب صلاة العيدين، ح ١٤٨٧.

٣. سورة الحج / ٣٦.

الخطبة[1] ٥٤

ومن خطبة له عليه السلام

وفيها يصف أصحابه بصفين حين طال منعهم له من قتال أهل الشام.

نظرة إلى الخطبة

هناك خلاف بين الشرّاح بشأن زمان الخطبة، فقد ذكر صاحب مصارد نهج البلاغة أنّ جماعة سألوا الإمام عليه السلام عن رأيه بمن سبقوه بالخلافة لما غلب عمرو بن العاص على مصر وقتل عامل الإمام عليه السلام عليها محمد بن أبي بكر. فأجابهم عليه السلام وهل خمدت فتنة ابن العاص لتسألوا هذا السؤال وقد غلبكم على مصر وقتلوا صحبي، ثم قال: سأكتب كتاباً وأُجيب على أسئلتكم. بينما ذهب البعض إلى أن بداية الخطبة مرتبط بزمان البيعة وذيلها بواقعة صفين. كما احتمل أن تكون في البيعة وموقعة الجمل إلّا أنّ كل هذه الاحتمالات بعيدة، والظاهر أنّ الخطبة واردة بشأن صفين حين هم صحبه بالقتال، ويؤيد ذلك ما أورده المرحوم البحراني والشارح الخوئي من أنّها ناظرة إلى حال أصحاب الإمام عليه السلام في صفين حين منعهم من قتال أهل الشام.[2] وزبدة الكلام فانّ الإمام عليه السلام قال لما استبطأ اصحابه القتال: «**وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى**

---

١. سند الخطبة: يرى صاحب مصادر نهج البلاغة أنّ هذا الكلام جزء من الخطبة ٢٦ و ٣٠ و ٥٤ و ٧٨، خطبها عليه السلام في بيته بحضور الناس ليدونوها وينقلوها إلى الآخرين. وقال في ذيل الخطبة ٢٦ رواها قبل السيد الرضي (ره) الثقفي في الغارات والطبري في المسترشد والمرحوم الكليني في الرسائل نقلاً عن كشف المحجة للسيد ابن طاووس وابن قتيبة في الإمامة والسياسة (مصادر نهج البلاغة ١ / ٣٩٠).

٢. منهاج البراعة ٤ / ٣٢٦؛ شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني ٢ / ١٤٤.

منعني النوم، فما وجدتني يسعني إلّا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمدﷺ، فكانت معالجة القتال أهون عليَّ من معالجة العقاب، وموتات الدنيا أهون علي من موتات الآخرة».

«فَتَدَاكُّوا عَلَيَّ تَدَاكَّ الْإِبِلِ الْهِيمِ يَوْمَ وِرْدِهَا وَقَدْ أَرْسَلَهَا رَاعِيهَا، وَخُلِعَتْ مَثَانِيهَا؛ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَاتِلِيَّ أَوْ بَعْضُهُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ لَدَيَّ، وَقَدْ قَلَّبْتُ هَذَا الْأَمْرَ بَطْنَهُ وَظَهْرَهُ حَتَّى مَنَعَنِي النَّوْمَ، فَمَا وَجَدْتُنِي يَسَعُنِي إِلاَّ قِتَالُهُمْ أَوِ الْجُحُودُ بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ فَكَانَتْ مُعَالَجَةُ الْقِتَالِ أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مُعَالَجَةِ الْعِقَابِ وَمَوْتَاتُ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ مَوْتَاتِ الْآخِرَةِ».

الشرح والتفسير

ليس هنالك سوى القتال

بغض النظر عن كون الخطبة بشأن بيعة الناس للإمام عليه السلام أو المسائل المرتبطة بصفين، فانّه استهلها عليه السلام بعدم انطلاقه نحو الناس بل الناس هم الذين إندفعوا إليّ: **«فتداكوا[1] عليّ تداك الابل إلهيم[2] يوم وردها[3] وقد أرسلها راعيها، وخلعت مثانيها»[4].**

ثم أضاف عليه السلام: **«حتى ظننت أنهم قاتليّ أو بعضهم قاتل بعض لدي»** تتضمن هذه العبارة عدّة أُمور:

---

١. «تداكوا» من مادة «دك» علىٰ وزن فك، قال الراغب في المفردات أنّها تعني الأرض المستوية الرخوة، بينما صرحت سائر كتب اللغة بعكس ذلك وان الدك يعني الضرب. ومعنى العبارة في الخطبة أنّهم تزاحموا عليه ليبايعوه رغبة فيه.

٢. «هيم» جمع «أهيم» و«هيماء» صفة مشبهة بمعنى شدة العطش التي تجعل الحيوان أو الإنسان يروح ويجيئ، ويقال الهيمان للعاشق. والهيم العطاش من الابل.

٣. «ورد» اسم مصدر بمعنى الورود، وقيل مصدكتأكيد لمعنى الفاعلية، وتعني الجمع أيضاً. يوم وردها يوم سشربها للماء.

٤. «مثاني» جمع مثناة بالفتح ومثناة بالكسر وهو حبل من صوف أو شعر يعقل به البعير. وهى في الأصل من مادة ثنى بمعنى التكرار واعادة جزء من الشيئ إلىٰ الآخر.

١ ـ كيفية هجوم الناس عليه من أجل البيعة أو حين الاصرار علىٰ شروع موقعة صفين إنّما تفيد تغير الناس آنذاك، وهنا لابدّ من الالتفات إلىٰ أن معنى المفردة تداكوا هو الضرب وقد أشارت في العبارة إلىٰ شدة عطش الابل التي تضرب بعضها بعضا لتبلغ أسرع من غيرها الماء، والهيم شدة العطش التي تجعل الإنسان أو الحيوان مضطرباً. فلو تركت هذه الابل العطاش لحالها دون الراعي فما عساها تفعل. أجل هكذا كانت حال الناس في تلك اللحظات الحساسة حتى كان يخشى عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً. نعم هذا هو حال الناس حين يعشقون شيئاً ويعبرون عنه بعواطفهم، إلّا أنّه من المؤسف أنّ هؤلاء الناس سرعان ما يتخلون عن موقفهم إذا واجهتهم بعض المصاعب.

٢ ـ يمكن أن تكون حالة إندفاعهم نابعة من عدم عمق مشاعرهم وقلّة علمهم ومعرفتهم.

٣ ـ تشتمل هذه العبارات علىٰ بعض الكنايات التي تفيد صعوبة السيطرة عليهم حين تأخذهم الحرارة والحماس، كما يصعب إثارتهم حين تلفهم البرودة والانتكاس.

ثم قال ﷺ: «**وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منعني النوم فما وجدتني يسعني إلّا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمّد ﷺ فكانت معالجة القتال أهون علي من معالجة العقاب وموتات الدنيا أهون علي من موتات الآخرة**».

فتفيد هذه العبارات:

أولاً: أنّ الإمام ﷺ لا يرضخ لضغوط الناس، فلا يتخذ القرار حتى يدرس جميع جوانب الموضوع، وهذا ما ينبغي أن تكون عليه سياسة الزعماء الربانيين بعيدة عن العواطف والأحاسيس مستندة إلىٰ مصالح لأُمّة الواقعية.

ثانياً: عادة ما يصل الإنسان في حياته الفردية أو القادة في حياتهم الاجتماعية إلىٰ مفترق طرق، فلابدّ هنا من الشجاعة والاقدام علىٰ إنتخاب الاصلح، فان كان القتال هو الأصلح لا ينبغي للدعة والراحة أن تحول دون خوضه بحجة حفظ دماء المسلمين دون الإكتراث إلىٰ المصالح العليا.

ثالثاً: المهم بالنسبة للإمام ﷺ رضى اللّه وإداء التكليف ومن هنا آثر رضى اللّه سواءاً تضمن رضى الناس أم لا.

رابعاً: واضح أنّ قتال الإمام عليه السلام كان قتال الإيمان للكفر والإسلام للجاهلية. بناءاً على ما تقدم فقد كان عليه السلام يرىٰ رضى الله قبل الاستجابة لرغبات الناس، وبالطبع قد يمكن الجمع بين الاثنين إذا كانت رغبات الأُمّة وتطلعاتها مشروعة تهدف نشر القيم والمبادئ السماوية.

تأمّلان

١ ـ البيعة الفريدة للإمام عليه السلام

تفيد خطب نهج البلاغة الواردة بهذا الشأن، أنّ البيعة كانت من الحوادث العجيبة التي شهدتها خلافة الإمام عليه السلام بحيث خرجت عن المتعارف في البيعات العادية، وقد بلغ الزحام درجة كان يخشى معها وقوع البعض وانحساره بين تلك الجماعات العظيمة. وهنا يطرح هذا السؤال: ما سبب ذلك الهجوم العظيم علىٰ الإمام عليه السلام من أجل البيعة؟ يبدو أنّ غضب الناس بلغ ذروته إبان من سبق الإمام عليه السلام من الخلفاء ولا سيما على عهد الخليفة الثالث الذي شهد غياب العدل وضياع القيم والمثل والتطاول علىٰ بيت المال والاساءة إلىٰ الشخصيات الإسلامية وتسليط عصابة من البطانة علىٰ رقاب الناس، بحيث لم يكن أمام الناس سوى اللجوء إلىٰ ذلك الفرد العادل الذي من شأنه اعادة الإسلام إلىٰ مسيرته الأصلية. نعم كانوا متعطشين للعدالة، للإسلام الأصيل والمعارف القرآنية الحقة الخالية من الخرافات والأساطير؛ الأُمور التي جمعت في أميرَالمؤمنين علي عليه السلام، فما حيلة العطشان إذا رأىٰ الماء الزلال سوى الهجوم عليه والتزود منه. فالهجوم المذكور يفيد عظمة مقام الإمام عليه السلام من جانب ومدىٰ إستياء الناس من الاوضاع السابقة من جانب آخر، والأمران يحتاجان إلىٰ ابحاث تأريخية مسهبة.[1]

٢ ـ الحرب والسلام، والكفر والإيمان

رأينا في آخر الخطبة أنّ الإمام عليه السلام وقف أمام سبيلين لا ثالث لهما؛ إما الحرب أو الكفر بما جاء به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وما ذاك إلّا أنّ الحرب ورغم ما يكتنفها من خراب ودمار وويلات،

---

١. من أراد المزيد يمكنه مراجعة الخطبة الشقشقية.

غير أنّها قد تكون السبيل الوحيد لمجابهة الظلم والاضطهاد وعدم العدل كما تشكل الوسيلة الناجعة لاستئصال جذور الفساد والانحراف ومن هنا كانت إحدىٰ غايات القتال، كما صرح بذلك القرآن القضاء علىٰ الفتنة واخماد نيرانها واعادة الأمور إلىٰ مجاريها الطبيعية **﴿وَقاتِلُوهُمْ حَتّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾**[1] وقال **﴿فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتّىٰ تَفِيءَ إِلىٰ أَمْرِ اللّٰهِ﴾**[2] وهنا يغلق أولياء اللّه أبواب الراحة والدعة ويهبوا لخوض القتال وتحمل عنائه وشدائده، ولا عجب فالتضحية بحطام الدنيا لا يؤثر على سعادة الاخرىٰ.

---

١. سورة الانفال / ٣٩.

٢. سورة الحجرات / ٩.

الخطبة[1] ٥٥

ومن كلام له عليه السلام

وقد استبطأ اصحابه إذنه لهم في القتال بصفين

نظرة إلى الخطبة

يبدو من تناسب مضمون هذه الخطبة مع الخطبة السابقة أنّها خطبة واحدة، أو خطبتان وردتا في زمان متقارب قال ابن أبي‌الحديد في ذيل هذه الخطبة: لما ملك أميرالمؤمنين عليّ عليه‌السلام الماء بصفين ثم سَمَح لأهلِ الشام بالمشاركة فيه والمساهمة، رجاء أن يطفوا إليه، واستمالةً لقلوبهم وإظهارا للعدالة وحسن السيرة فيهم، مكث أياماً لا يُرسِل إلى معاوية، ولا يأتيه مِنْ عند معاويةَ أحدً، واستبطأ أهل العراق إذنه لهم في القتال، وقالوا: يا أميرَالمؤمنين، خَلَّفْنا ذراريّنا ونساءنا بالكوفة، وجئنا إلى أُطراف الشام لنتّخذها وطناً، ائذن لنا في القتال، فإنّ الناس قد قالوا. قال لهم عليه‌السلام: ما قالوا؟ فقال منهم قائل: إنّ الناس يظنون أنّك تكرهُ الحرب كراهيةً للموت، وإنّ من الناس من يظن أنّك في شكٍّ مِنْ قتال أهلِ الشام. فقال عليه‌السلام: ومَتَى كنتُ كارها للحرب قطّ! إنّ من العجب حُبّي لها غلاماً ويَفَعاً، وكراهيتي لها شيخاً بعد نفادِ العمر وقرب الوقت! وأمّا شكّي في القوم فلو شككت فيهم لشككتُ في أهل

١. سند الخطبة: لم يشر صاحب مصادر نهج‌البلاغة إلى سند خاص لهذه الخطبة، إلّا أنّ لابن أبي الحديد فصل ذيل هذه الخطبة تحت عنوان من أخبار يوم صفين يفيد أنّ ما أورده هنا السيد الرضي (ره) بمعنى آخر ينسجم وما جاء في التواريخ.
شرح نهج‌البلاغة لابن أبي الحديد ٤/ ١٣.

البصرة، والله لقد ضربتُ هذا الأمر ظهراً وبطناً، فما وجدت يسعُني إلّا القتال أو أن أعصيَ الله ورسوله، ولكني أستأني بالقوم، عسى أن يهتدوا أو تهتدي منهم طائفة، فإنّ رسول‌الله صلى الله عليه وآله قال لي يوم خيبر: «**لأنَّ يهديَ الله بك رجلاً واحداً خير لك ممّا طلعت عليه الشمس**».

ﮪ

«أَمّا قَوْلُكُمْ: أَكُلَّ ذَلِكَ كَراهِيَةَ الْمَوْتِ؟ فَوَاللّٰهِ ما أُبالِي، دَخَلْتُ إِلَى الْمَوْتِ أَوْ خَرَجَ الْمَوْتُ إِلَيَّ. وَأَمّا قَوْلُكُمْ شَكّاً فِي أَهْلِ الشّامِ! فَوَاللّٰهِ ما دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلاّ وَأَنا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي، وَذَلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَها عَلَى ضَلالِها وَإِنْ كانَتْ تَبُوءُ بِآثامِها».

الشرح والتفسير

تماسك الإمام عليه السلام حيال القتال

كما ذكرنا فانّ الخطبة جواباً لأصحابه عليه السلام الذين استبطأوا إذنه لهم بالقتال في صفين، فقد قال عليه السلام «**أمّا قولكم: أكل[1] ذلك كراهية الموت؟ فو اللّه ما أبالي، دخلت إلى الموت أو خرج الموت إليّ**». نعم إذا كان هنالك هدفا مقدساً كرضى اللّه فانّ الفرد المؤمن لابدّ أن يسارع إلى الشهادة ولا ينتظرها، فما أسمى أن يهب الإنسان نفسه ويضحي بها من أجل معشوقه ومعبوده. أضف إلى ذلك فسابقة الإمام عليه السلام في الغزوات الإسلامية لأشهر من نار على علم وليست بخافية على أحد ولا سيما صولاته في بدر وأحد والأحزاب وخيبر وحنين وذوده عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله واستماتته من أجل نيل الشهادة، فكيف وهذا الحال يمكن توجيه هذه التهمة الباطلة لهذا الإنسان بتأخير القتال خوف الشهادة. وقد تحدث الإمام عليه السلام عن مثل هذا المعنى في الخطبة الخامسة والخطبة مئة وثلاث وعشرين حيث قال: «**واللّه لابن أبي طالب آنس**

1. هنالك احتمال بشأن إعراب هذه الجملة: أحدهما أن كل منصوب به على أنّها مفعول لفعل تقديره «أتفعل كل ذلك»، والآخر انها مرفوعة كمبتدأ وتقدير الجملة «أكل ذلك ناشئ من كراهية الموت». على كل حال فانّ الجملة «كراهية المت» مفعول لأجله.

بالموت من الطفل بثدي أمه» وقال: «**والذي نفس ابن أبي طالب بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من ميتة على الفراش في غير طاعة الله**».

وتشهد سيرة الإمام عليه السلام أنّه مارس هذا المعنى عملياً في حياته وما أجهل تلك الجماعة من جيش أهل العراق التي وجهت مثل تلك التهمة للإمام عليه السلام وخشيته من الشهادة في سبيل الله. قد يقال أنّ أُولئك لم يكونوا أدركوا اولى الغزوات الإسلامية. فنقول فهل يسعهم نسيان موقعة الجمل؟ الموقعة التي كان ينقض فيها الإمام عليه السلام كالليث الضاري على جنود الأعداء فيمزق جموعهم وينزل حمم غضبه على رؤوسهم. بل كيف يمكن إتهامه وهو الذي يمثل الإيمان كله في مقابل الشرك كله، أوليس هو القائل: «**لقد كنت وما اهدد بالحرب ولا أرهب بالضرب وإني لعلى يقين من ربّي وغير شبهة من ديني**». وقوله عليه السلام: «**فو الله ما أُبالي**» إشارة إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الأفراد العاديين ممن لا هدف لهم، هم الذين يخشون الاتجاه نحو الموت، بل ينتظرون قدوم الموت إليهم آخر عمرهم؛ بينما ليس هنالك من فارق بين الخروج إلى الموت أو قدوم الموت حسب الأجل المقدر بالنسبة لأهل الإيمان والورع والتقوى ولعل الموت يمكن تشبيهه هنا بالاسد المفترس، فالفرد العادي لا يتجه إليه أبداً، أما الشجاع فيقدم على مواجهته دون أن يشعر بخوف أو هلع، فالمؤمن الشجاع حين يرى في الموت الشهادة في سبيل الله ونيل رضوانه يستقبله بكل رحابة صدر، فلو قدر لهذا الموت أن يسلبهم ما تبقى من عمرهم، فانّهم سيستبدلون بذلك الخلود والبقاء. ثم تناول الإمام عليه السلام الاحتمال الثاني الذي أوردته تلك الجماعة بشأن تأخير القتال فقال: «**وأمّا قولكم شكاً في أهل الشام فو الله ما دفعت الحرب يوما إلّا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشوا[1] إلى ضوئي**» ثم برر ذلك بقوله عليه السلام «**وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء[2] بآثامها**». فالإمام عليه السلام يؤكد هنا على أن القتال لا يمثل هدفاً ولا السبيل الأول لحل الخصومات من وجهة نظر أولياء الله، بل هو العلاج الأخير إذا ما عجزت كل السبل والاساليب، فهم يسعون جاهدين للتريث

١. «تعشو» في الأصل من مادة «عشو» على وزن ضرب بمعنى الظلمة وعدم وضوح الشيء ومنه صلاة العشاء لأنها أول الظلمة وعشى بمعنى آخر اليوم الذي يظلم فيه الجو تدريجيا ويقال الأعشى لضعيف البصر.

٢. «تبوء» من مادة «بوء» على وزن نوع بمعنى الرجوع والعودة وقيل أصلها يعني الصافي والمسطح واريد بها هنا الرجوع.

والاناة أملاً في رجوع ولو فرد واحد إلىٰ الحق فيزداد أهل الحق ويقل أهل الباطل، بينما ينظر السذج من الناس إلىٰ هذا الأمر بنوع من الشك والريبة، فانّ أولياء اللّه يفتحون ذراعهم باستقبال النادمين والتائبين وقد أثبت التأريخ ـ ولا سيما موقعة صفين ـ صحة حسن ظن الإمام عليه السلام، وذلك لأنّ فئة كبيرة قد فاءت إلىٰ الحق بينما انسحبت طائفة من المعركة وذلك بفضل تريث الإمام عليه السلام واناته في القتال.

﴿﴾

الخطبة[1] ٥٦

ومن كلام له عليه السلام

يصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وذلك يوم صفين حين أمر الناس بالصلح

نظرة إلى الخطبة

هناك رأيان بشأن زمان الخطبة: فالبعض يعتقد أنّه ورد بشأن فتنة ابن الحضرمي بعد أن استشهد محمد بن أبي‌بكر على يد عمرو بن العاص فقد البصرة من قبل معاوية ليخرجها من حكومة الإمام علي عليه السلام حيث استولى عليها بمعونة جماعة من المنافقين. فلما بلغ الإمام عليه السلام ذلك من قبل ابن عباس يعزيه بمحمد بن أبي‌بكر خطب الخطبة، ثم بعث بجارية ابن قلامة السعدي المعروف بشجاعته فحاصر ابن الحضرمي مع سبعين من صحبه وقضى عليهم جمعياً. والرأي الآخر أنّ الإمام عليه السلام خطبها في صفين، حين اقترح على الإمام عليه السلام الصلح وقد ضغطوا على الإمام عليه السلام لقبوله. على كل حال فان الإمام عليه السلام خطب الناس لا مستثال أوامره، ثم تطرق لا خلاص المسلمين في صدر الإسلام وأنّ سبب النصر يكمن في الانضباط والتسليم لأوامر النبي صلى الله عليه وآله، في إشارة إلى النصر سيكون حليفهم لو إستنّوا بهذه السنة وطاعوا الأوامر، والاّ ليس إمامهم سوى الفشل والهزيمة إذا عاشوا الفرقة والتشتت وعدم طاعة الاوامر.

---

١. سند الخطبة: نقل ابن أبي الحديد هذا الكلام عن الواقدي ابن هلال قبل المرحوم السيد الرضي (ره) ورواها الزمخشري في ربيع الأبرار في الجزء الرابع من باب القتل والشهادة. وأضاف صاحب مصادر نهج‌البلاغة بعد ما اورد هذا الكلام انه من كلامه المعروف في مصادر العلماء السابقين وبعد السيد الرضي (مصادر نهج‌البلاغة ٢ / ٢٩).

«وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ نَقْتُلُ آبٰاءَنٰا وَأَبْنٰاءَنٰا وَإِخْوٰانَنٰا وَأَعْمٰامَنٰا، مٰا يَزِيدُنٰا ذٰلِكَ إِلاَّ إِيمٰاناً وَتَسْلِيماً وَمُضِيّاً عَلَى اللَّقَمِ وَصَبْراً عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ وَجِدّاً فِي جِهٰادِ الْعَدُوِّ؛ وَلَقَدْ كٰانَ الرَّجُلُ مِنّٰا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنٰا يَتَصٰاوَلاٰنِ تَصٰاوُلَ الْفَحْلَيْنِ، يَتَخٰالَسٰانِ أَنْفُسَهُمٰا أَيُّهُمٰا يَسْقِي صٰاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا وَمَرَّةً لِعَدُوِّنٰا مِنّٰا، فَلَمّٰا رَأَى اللّٰهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتّٰى اسْتَقَرَّ الْإِسْلاٰمُ مُلْقِياً جِرٰانَهُ وَمُتَبَوِّئاً أَوْطٰانَهُ. وَلَعَمْرِي لَوْ كُنّٰا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ، مَا قٰامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ وَلاٰ اخْضَرَّ لِلْإِيمٰانِ عُودٌ. وَايْمُ اللّٰهِ لَتَحْتَلِبُنَّهٰا دَماً، وَلَتُتْبِعُنَّهٰا نَدَماً!»

الشرح والتفسير

الوقوف المشرف إلى جانب رسول الله ﷺ

أشار إبن ميثم البحراني في شرحه إلى بعض الخطبة الذي لم يرد في كلام السيد الرضي (ره) والذي له تأثير على فهم مضمون هذه الخطبة، فقال: روى البعض أنّ الإمام ﷺ خطب هذه الخطبة حين أراد الناس الصلح مع جيش معاوية (بينما كان الإمام ﷺ مخالف ذلك ولو لا اصرار البعض منهم لما وافق) فقد إستهل الإمام ﷺ كلامه قائلاً: «**إن هؤلاء القوم لم يكونوا ليفيئوا إلى الحق ولا ليجيبوا إلى كلمة سواء حتى يرموا بالمناشر تتبعها العساكر، وحتى يرجموا بالكتاب تقفوها الجلائب، وحتى يجر ببلاده الخميس يتلوه الخميس، وحتى تدعق الخيول في نواحي أراضيهم، وبأعناء مشاربهم ومسارحهم، حتى تشن عليهم الغارات من كل فج عميق، وحتى يلقاهم قوم صدق صبر، ولا يزيدهم هلاك من هلك من**

قتلاهم وموتاهم في سبيل الله إلا جدا في طاعة الله وحرصاً على لقاء الله. ولقد كنا مع رسول الله ﷺ الفصل»[١] وعليه فانّ مصالحة هؤلاء القوم الجفاة لا تنطوي سوىٰ علىٰ الاحباط والفشل، وذلك لأنّهم لا يفهون منطق الصلح ولا يمكنهم التعايش مع الآخرين بسلام ولا يدركون سوىٰ منطق القوة، وهذا ما كشفت عنه أحداث صفين. على كل حال واصل الإمام عليه السلام خطبته ليتحدث عن مقومات النصر وعوامل الفشل والهزيمة فقال عليه السلام: «**ولقد كنّا مع رسول الله ﷺ نقتل آباءنا وابناءنا واخوننا واعمامنا**» في إشارة إلىٰ ضرورة عدم الالتفات إلىٰ قرابة كائن من كان إذا وقف كعقبة أمام المسيرة، الأمر الذي أشار إليه القرآن الكريم: ﴿**قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأَبْناؤُكُمْ وَإِخْوانُكُمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَتِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتّىٰ يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ**﴾[٢] ثم قال عليه السلام: «**ما يزيدنا ذلك إلا إيمانا وتسليما ومضيا على اللقم**»[٣] **وصبرا علىٰ مضض**[٤] **الالم وجدا علىٰ جهاد العدو**» فما أشار إليه الإمام عليه السلام بهذه العبارة إنّما يمثل واقعة تأريخية، فقد مثل أمام المسلمين في أغلب المعارك ولا سيما معركة بدر قرابتهم وعشيرتهم، فما كان من المسلمين إلّا أن قاتلوهم بكل بسالة دون أن يكترثوا لتلك القرابة رغم احترام العرب المنقطع النظير للروابط القبلية. ثم قال عليه السلام: «**ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان**[٥] **تصاول الفحلين يتخالسان**[٦] **أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون، فمرة لنا من عدونا ومرة لعدونا منا**» في إشارة إلىٰ أنّه ليس من الضروري أن ينتصر الحق على الباطل في كافة المعارك وطيلة المجابهة، فقد يتغلب الباطل على الحق أحياناً إلّا أنّ الحق وعلى ضوء الوعد الإلهي منتصر في خاتمة المطاف ـ وعليه فلا تتوقعوا عدم بروز المشاكل خلال مجابهة أهل الشام، كما أنّ هذه المشاكل لا ينبغي أن تقود إلىٰ

---

١. شرح نهج البلاغة لابن ميثم ٢ / ١٤٦.

٢. سورة التوبة / ٢٤.

٣. «اللقم»: قال بعض أرباب اللغة وشرّاح نهج البلاغة تعني معظم الطريق أو جادته، واصلها من اللقم علىٰ وزن العفو بمعنى السرعة في الأكل.

٤. «مضض» علىٰ وزن «مرض» بمعنى تجذر الهم في القلب مع الحرقة.

٥. التصاول من صول على وزن قول أن يحمل كل واحد من الندين علىٰ الآخر.

٦. «تخالس» من مادة «خلس» على وزن درس كل واحد منها يطلب اختلاس روح الآخر.

التمرد علىٰ أوامر الإمام، ما سيرة النبي وصحبه إلّا دليل واضح علىٰ هذا الأمر، ومن هنا قال: «**فلما رأىٰ الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت**[١] **وأنزل علينا النصر، حتى إستقر الإسلام ملقيا جرانه**[٢] **ومتوئاً أوطانه**» فالإمام أشار هنا إلىٰ العامل الرئيسي لانتصار المسلمين الأوائل ويلوح إلىٰ عناصر فشل أهل الكوفة، فقد نسب العامل الرئيسي للانتصار إلىٰ صدق النية التي تمثل الدافع الأصلي للصمود والمقاومة أمام العدو والطاعة التامة للزعامة الربانية. ولو تلوثت هذ النية وسيطرت الأنانية علىٰ الإنسان، آنذاك ستكون إرادته وقراره مستنداً لاهوائه وطيشه وغروره؛ الأمر الذي يقود إلىٰ الهزيمة والفشل. ومن الطبيعي ألا تشمل عنايات الله وألطافه ونصره مثل هؤلاء الأفراد، ثم خلص الإمام لهذه النتيجة: «**ولعمري لو كنا نأتي ما أتيتم، ما قام للدين عمود ولا إخضر للايمان عود**» فهل تعلمون من قوم في أي عصر ومصر إنتصروا بفرقتهم واختلافاتهم، فاذا رجعتم قليلا إلىٰ الوراء لرأيتم أنّ النصر الخاطف الذي حققه رسول الله خلال تلك المدة القصيرة حتى ترسخت دعائم الدين واتسع نطاق الإسلام ليشع بنوره علىٰ ظلمات الشرق والغرب فانّ ذلك كان بفضل الايمان والطاعة والجهاد، بينما تمارسون الآن عكس ذلك وتحلمون بالنصر. وأخيراً يحذرهم بالقول: «**وأيم الله لتحتلبنها دماً، ولتتبعنها ندماً**».

فقد تضمنت العبارات الاخيرة للإمام ثلاثة تشبيهات: الأول: تشبيه الإسلام بالخيمة واعمدته الجهاد. حيث نعلم بأنّ الخيمة موضع الأمن والراحة من الحرارة المحرقة والبرودة القارسة، الإسلام هو الآخر موضع أمن البشرية ووسيلة نجاتها من العواصف القاتلة. الثاني: تشبيه الايمان بالشجرة التي إخضرت غصونها بدماء المؤمنين في صدر الإسلام. والثالث: تشبيه الحكومة بالناقة التي تحتلب الدم بدلاً من اللبن بسبب تعفن ضرعها أو العبث والإفراط في إحتلابها، أي أنّها، أعطت نتيجة معكوسة، فاللبن من أفضل طعام الإنسان ومواده الغذائية، أمّا الدم فهو ليس بغذاء، بل مادة سامة مفسدة. وأخيراً فقد تحققت نبوءات الإمام بشأن تلك الطائفة الطاغية، حيث تسلط عليهم الظلمة الذين ساموهم سوء العذاب.

---

١. «كبت» على وزن ثبت بمعنى الاذلال.
٢. جران البعير مقدم عنقه من مذبحه إلىٰ منحره، القاء الجران كناية عن التمكن، فالعبارة كناية عن إتساع رقعة الإسلام ونصر المسلمين واستقرار الإسلام في مختلف بقاع العالم.

تأمّلان

١ـ ثاني فتن البصرة

كانت البصرة أحد المراكز الإسلامية المهمة والبوابة إلى العالم الخارجي ومن هنا كانت السيطرة عليها قضية مهمة. ولذلك كان يسعى معاوية للسيطرة عليها كما ورد في ورود الخطبة. ويرى البعض أن الإمام عليه السلام خطبها لإخماد فتنة أخرى في البصرة. فقد طمع معاوية بالبصرة بعد قتل عامل علي عليه السلام فيها محمد بن أبي بكر، فكتب كتابا إلى أنصاره في البصرة وذكرهم الوقعة التي أهلكتهم وقد إنتخب «ابن الحضرمي» واليا على البصرة فحث الناس للقيام على خليفة عامل الإمام عليه السلام عليها «زياد بن عبيد» فاستجاب له البعض ومنهم الخوارج فسيطروا على أجزاء من البصرة وقتلوا سفير الإمام عليه السلام «أعين بن صبيعه» فلما بلغ ذلك الإمام عليه السلام بعث بجارية بن قدامه إلى البصرة ليقرأ عليهم كتاب الإمام عليه السلام.

سلام عليكم: أمّا بعد فإنّ اللّه حَليم ذو أَناةٍ، لا يَعْجَلُ بالعقوبة قَبْل البيّنة، ولا يأخذ المذنب عند أول وَهْلة، ولكنه يقبل التوبة، ويستديم الأناة، ويرضى بالإنابة؛ ليكون أعظَمَ للحجّة، وأبلغ في المعذرة، وقد كان من شقاق جُلّكم أيّها الناس ما استحققتم أنْ تعاقَبوا عليه، فعفوت عن مجرمكم، ورفعت السَّيْف عن مُدْبركم، وقبلت من مُقْبلكم، وأخذت بيعتَكم، فإن تَفُوا ببْيعتي، وتقبلُوا نصيحتي، وتستقيموا على طاعتي، أعملْ فيكم بالكتاب والسنة وقَصْد الحق، وأُقِمْ فيكم سبيل الهدى، فواللّه ما أعلم أنّ والياً بعد محمد صلى اللّه عليه وآله أعلَمُ بذلك منِّي، ولا أعمل بقولي. أقول قولي هذا صادقاً، غيرَ ذامٍّ لمن مَضى، ولا منتقصاً لأعمالهم، وإن خَبَطَتْ بكم الأهواء المُرْدِية، وسَفَهُ الرأي الجائر إلى منابذتي، تريدون خِلافي! فها أنا ذا قَرَّبْتُ جيادي، وَرَحَلْت ركابي، وايمُ اللّه لئن ألجأتموني إلى المسير إليكم لأُوقِعنّ بكم وَقْعَةً، لا يكون الجمل عندها إلّا كلَعْقَة لاعق، وإني لظانّ ألّا تجعلوا ـ إن شاء اللّه ـ على أنفسكم سبيلاً. وقد قدمّت هذا الكتاب إليكم حجة عليكم، ولنْ أكتبَ إليكم من بعده كتاباً، إن أنتم استغششتم نصيحتي، ونابذتُم رسولي، حتى أكونَ أنا الشَّاخص نحوكم، إن شاء اللّه تعالى. والسلام.

فلما قرأها عليهم تأثروا تأثرا شديدا، بينما واصل البعض منهم عناده، فواجهوا ابن

الحضرمي وهزموه، فلاذ مع سبعين من صحبه بدار ولم يكن أمام جارية من سبيل سوى إحراق الدار فقتلوا فيها جميعا.[١]

قال: وروى كعب بن قعين أنّ عليّاً عليه السلام كتب مع جارية كتاباً، وقال: اقرأه على أصحابك، قال: فمضينا معه، فلما دخلنا البصرة، بدأ بزياد، فرحّب به وأجلسه إلى جانبه، وناجاه ساعة وساءلَهُ، ثم خرج فكان أفضل ما أوصاه به أنْ قال: احذَرْ على نفسك، واتَّقِ أن تَلْقَ ما لِقيَ صاحبُك القادمُ قَبْلك.

وخرج جارية من عنده، فقام في الأزد، فقال: جزاكم الله من حَيّ خيراً! ما أعظَم غَناءكم، وأحسنَ بلاءكم، أطوَعكم لأميركم! لقد عرفتم الحقَّ إذ ضَيّعه مَنْ أنكره، ودَعَوْتم إلى الهدى إذ تركه مَنْ لم يعرفه. ثم قرأ عليهم على مَنْ كان معه من شيعة عليّ عليه السلام وغيرهم ـ كتابَ عليّ عليه السلام، فإذا فيه:

من عبدالله عليّ أميرالمؤمنين إلى مَنْ قرئ عليه كتابي هذا من ساكِني البصرة من المؤمنين والمسلمين:

قال: فلما قرئَ الكتاب على الناس قام صَبْرة بن شَيْمان، فقال: سمعنا وأطعنا ونحن لمنْ حارب أميرالمؤمنين حَرْب، ولمن سالم سِلْم؛ إن كَفَيْتَ يا جارية قومَك بقومك فذاك، وإن أحببت أنْ ننصرك نصرناك.

وقام وجوه الناس فتكلموا بمثل ذلك ونحوه، فلم يأذن لأحدٍ منهم أن يسير معه، ومضى نحو بني تميم.

فقام زياد في الأزد، فقال:

يا معشر الأَزْد، إنّ هؤلاء كانوا أمس سِلماً، فأصبحوا اليوم حرباً، إنكم كنتم حَرْباً فأصبحتم سلماً، وإني والله ما اخترتكم إلّا على التجربة، ولا أقمت فيكم إلّا على الأمل، فما رضيتم أن أجرتموني، حتى نصبتم لي منبراً وسريراً، وجعلتم لى شُرَطاً وأعواناً، مناذياً وجمعة،

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٤/٤ باختصار شديد.

فما فقدت بحضرتكم شيئاً إلّا هذا الدرهم، لا أجْبيه اليوم، فإن لم أجْبه اليوم أجْبِه غداً إن شاءالله. واعلموا أنّ حربكم اليومَ معاوية أيسر عليكم في الدنيا والدين من حربكم أمس عليّاً، وقد قدم عليكم جارية بن قدامة، وإنّما أرسله عليّ ليصدَع أمرَ قومه، والله ما هو بالأمير المطاع، ولو أدرك أمله في قومه لرجع إلى أميرالمؤمنين أو لكان لي تبعاً، وأنتم الهامةُ العظمى، والجزمرة الحامية، فقدِّموه إلى قومه، فإ اضطر إلى نصركم فسيروا إليه، إن رأيتم ذلك.

فقام أبو صبرة شَيْمان فقال: يا زياد، إني والله لو شهدتُ قومي يومَ الجمل، رجوتُ ألّا يقاتلوا علياً، وقد مضى الأمرُ با فيه. وهو يوم بيوم، أمْر بأمر، واللهُ إلى الجزاء بالإحسان أسرعُ منه إلى الجزاء بالسيّيء، والتوبة مع الحقّ، والعفْو مع الندم، ولو كانت هذه فتنة لدعونا القوم إلى إبطال الدماء، واستئناف الأُمور، ولكنها جماعة دماؤها حرام، وجرُوحها قصاص، ونحن معك نحبّ ما أحببتَ.

فعجب زياد من كلامه، وقال: ما أظنُّ في الناس مثل هذا.

ثم قام صبرة ابنه، فقال: إنا والله ما أصِبْنا بمصيبة في دين ولا دنيا كما أصِبْنا أمس يوم الجمل، وانا لنرجوا اليوم أن نُمَحّص ذلك بطاعة الله وطاعة أميرالمؤمنين. وأمّا أنْتَ يا زياد، فوالله ما أدركت أَمَلك فينا، ولا أدركْنَا أَملنا فيكَ دُون رَدّك إلى دارك، ونحن رادّوك إليها غداً إن شاءالله تعالى، فإذا فعلنا فلايكن أحدٌ أَوْلَى بك مِنّا، فإنك إلا تفعل لم تأت ما يشبهك، وإنا والله نخاف من حرب عليّ في الآخرة، مالا نخاف من حرب معاوية في الدنيا، فقدّم هواك وأخّر هوانا، فنحن معك وطوعك.

ثم قام خنقُر الحمانيّ، فقال: أيُّها الأمير، إنّك لو رضيت مِنّا بما ترضى به من غيرنا، لم نرض ذلك لأنفسنا، سِرْ بنا إلى القوم إن شئت، وايمُ اللّه مالقينا قوماً قطّ إلا اكتفينا بعفونا دون جَهْدنا؛ إلّا ما كان أمس.

قال إبراهيم: فأمّا جارية، فإنّه كلم قومه فلم يجيبوه، وخرج إليه منهم أوباشٌ فناوشوه بعد أنْ شتمه أسمعوه، فأرسل إلى زياد والأزْد، يستصرِخهم ويأمرهم أن يسيروا إليه، فسارت الأزْد بزياد، وخرج إليهم ابنُ الحضرميّ، على خيله عبدالله بن خازم السُّلميّ، فاقتتلوا ساعة، أقبل شريك بن الأعور الحارثيّ ـ وكان من شيعة عليّ عليه‌السلام، وصديقا لجارية بن

قدامة ـ فقال: ألا أقاتل معك عدوّك؟ فقال: بلى؛ فما لبثت بنو تميم أنْ هزموهم واضطروهم إلى دار سنبيل السعدي؛ فحصروا ابنَ الحضرميّ وحدُّوه، فأتى رجل من بنى تميم، ومعه عبدالله بن خازم السلميّ، فجاءت أمى وهى سوداء جشية اسمها عجلي، فنادته، فأشرف عليها، فقالت: يا بُنّي، انزل إليّ، فأبى فكشفت رأسها وأبدت قِناعها، وسألته النزول فأبى، فقالت: والله لتنزلنّ أو لأتعرّينّ، وأهوت بيدها إلى ثيابها، فلما رأى ذلك نَزَل، فذهبت به، وأحاط جارية وزياد بالدّار، وقال جارية: عليَّ بالنار، فقالت الأزد: لسنا من الحريق بالنار في شيء؛ وهم قومُك وأنت أعلم، فحرّق جارية الدَّار عليهم، فهلك ابنُ الحضرميّ في سبعين رجلاً؛ أحدهم عبدالرحمن بن عميربن عثمان القرشي التّيميّ؛ وسُمِّيَ جارية منذ ذلك اليم محرِّقاً؛ وسارت الأزْد بزياد حتى أوطنوه قصر الإمارة؛ ومعه بيتالمال، وقالت له: هل بقي علينا مِنْ جوارك شيء؟ قال: لا، قالوا: فبرّئنا منه؟ فقال: نعم؛ فانصرفوا عنه. وكتب زياد إلى أميرالمؤمنين عليهالسلام:

أما بعد، فإن جارية بن قدامة العبد الصالح قَدِم من عندك، فناهَضَ جَمْع ابن الحضرميّ بمن نصره وأعانه من الأزد، ففضّه واضطره إلى دارٍ مِنْ دور البصرة في عدد كثير من أصحابه، فلم يخرج حتى حكم الله تعالى بينهما، فقتِل ابنُ الحضرمى وأصحابه، منهم من أحرق بالنار؛ ومنهم من أُلقى عليه جدار؛ ومنهم من هُدِم عليه البيت من أعلاه؛ ومنهم من قُتِل بالسيف، وسلم منهم نفر أنابوا وتابوا، فصفح عنهم، وبعداً لمن عصى وغوى! والسلام على أميرالمؤمنين ورحمة الله وبركاته.

٢ ـ خصائص المسلمين الاوائل

أشار الإمامعليه السلام في هذه الخطبة إلىٰ خصائص مسلمي صدر الإسلام في أنّهم كانوا مطيعين لرسول اللهصلى الله عليه وآله ولم يأبهوا بابائهم واخوانهم وابناءهم في ميادين القتال، فكانوا يصاولونهم ليجرعوهم القتل من أجل تحقيق الاهداف الإسلامية المقدسة. كانوا يتحلون بالاخلاص وصدق النية؛ الأمر الذي جعل الله يؤيدهم بنصره ويفيض عليهم من لطفه وفضله حتى إنتشر الدين واضاء نور الحق واليقين في أنحاء العالم. والحق لو أنّ المسلمين الأوائل كانوا على

غرار أهل الكوفة لما تنفس الإسلام وتنهنه حتى في مكة والمدينة، ولو كانت إرادتهم الفردية هى الحاكمة وتمردوا على أوامر قيادتهم الربانية لما اخضر عود شجرة الإسلام ولانهارت أعمدة خيمة الايمان. وبالطبع فانّ كثيراً من أُولئك كانوا ممن أدرك عصر النبيﷺ أو رأىٰ أصحابه، إلّا أنّ إرادتهم ضعفت ووهنت إثر تلك الأحداث التي أعقبت رحيل رسول اللّهﷺ، ولا سيما على عهد الخليفة الثالث واقبال الناس على الدنيا والاغترار بزخارفها والخلود إلىٰ الراحة والدعة بعد تنامي الأموال والثروات بفعل الفتوحات الإسلامية، إلىٰ جانب الدعاية الواسعة التي كان يمارسها المنافقون وأعداء الدين.

ﮩ

الخطبة[1] ٥٧

ومن كلام له عليه السلام

في صفة رجل مذموم، ثم في فضله هو عليه السلام

نظرة إلى الخطبة

هناك أبحاث بين شرّاح نهج البلاغة بشأن المقصود بكلام الإمام عليه السلام إلّا أن المشهور أنّ المراد به معاوية. فقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه: وكثير من الناس يذهب إلى أنّه عليه السلام عنى زياداً، وكثيراً منهم يقول إنّه عنى الحجاج أو المغيرة، والأشبه عندي أنه عنى معاوية، لأنّه كان موصوفا بالنهم وكثرة الأكل، وكان بطيناً، يقعد بطنه إذا جلس على فخذيه.[2]

وروى أبو عثمان الجاحظ في كتاب السفيانية أنّ أباذر قال لمعاوية: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**إذا ولي الأمّة الاعين الواسع البلعوم الذي يأكل ولا يشبع فلتأخذ الأمّة حذرها منه**»، كما أورد عدة روايات من المصادر المعروفة من قبيل تأريخ الطبري وتأريخ الخطيب وكتاب صفين عن أبي سعيد الخدري وعبدالله بن مسعود أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه، أو فاضربوا عنقه**»[3] فالعبارات الواردة في الرواية والتي تشبه

---

١. سند الخطبة: قال صاحب مصادر نهج البلاغة لقد روي هذا الكلام عن أمير المؤمنين عليه السلام كراراً من المحدثين قبل السيد الرضي (ره). وروى إبراهيم الثقفي في كتاب الغارات عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ الإمام عليه السلام صعد منبر الكوفة فقال: «سيعرض عليكم سبّي...» كما روى هذا الكلام الكليني في الكافي والبلاذري في أنساب الاشراف والحاكم في المستدرك وشيخ الطائفة الطوسي في الامالي (مصادر نهج البلاغة ٢ / ٣٣).

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤ / ٥٤.

٣. مصادر نهج البلاغة، ذيل الخطبة.

عبارات الخطبة تفيد أنّها بشأن معاوية. والشاهد الآخر موضوع السب الذي ورد أخر الخطبة، حيث نعلم جميعاً بان معاوية كان يحرض الناس علىٰ سب أميرالمؤمنين عليه السلام من على المنابر، فهل من داع للتحري عن فرد آخر وردت بشأنه الخطبة سوىٰ التعصب والعناد؟! على كل حال فانّ الإمام عليه السلام تحدث في هذه الخطبة عن حاكم نهم أكول مندحق البطن يأمر الناس بسبه والبراءة منه. ثم أشار الإمام عليه السلام إلىٰ وظيفة الأُمّة حيال ذلك. وقد أثبت التأريخ صحة نبوءة الإمام عليه السلام التي تحققت في عهد معاوية.

وأخيرا أشار الإمام عليه السلام إلىٰ بعض فضائله في آخر الخطبة.

«أَمَّا إِنَّهُ سَيَظْهَرُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي رَجُلٌ رَحْبُ الْبُلْعُومِ، مُنْدَحِقُ الْبَطْنِ، يَأْكُلُ مَا يَجِدُ وَيَطْلُبُ مَا لاٰ يَجِدُ، فَاقْتُلُوهُ، وَلَنْ تَقْتُلُوهُ أَلاٰ وَإِنَّهُ سَيَأْمُرُكُمْ بِسَبِّي وَالْبَرٰاءَةِ مِنِّي، فَأَمَّا السَّبُّ فَسُبُّونِي، فَإِنَّهُ لِي زَكَاةٌ، وَلَكُمْ نَجَاةٌ وَأَمَّا الْبَرٰاءَةُ فَلاٰ تَتَبَرَّءُوا مِنِّي، فَإِنِّي وُلِدْتُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَسَبَقْتُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ».

الشرح والتفسير

إحذروا العدو

كما أوردنا سابقا علىٰ ضوء الأحاديث والروايات أن الإمامعليه السلام تنبىء بحكومة معاوية وما تفضي إليه هذه الحكومة من مفاسد فقال: «**أما إنّه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب، البلعوم**[1]**، مندحق**[2] **البطن، ياكل ما يجد ويطلب ما لايجد**». يمكن أن تكون العبارة إشارة إلىٰ وضعه الظاهري، حيث تفيد بعض الروايات أنّه كان بهذه الصفات، ومن هنا كان أكول، ويمكن أن تكون كناية عن حالته الروحية والنفسية في ظل الحكومة، في أنّه حريص وتوسعي ولا يشعبه شيئا من الحكومة، ولا يبعد أن يكون المراد كلا المعنيين الروحي والجسمي أو الحقيق والكنائي، وذلك لانه جمع النوعين من هذه الصفات.

ثم قالعليه السلام: «**فاقتلوه ولن تقتلوه**» قطعاً أنّ مخاطب الإمامعليه السلام بهذه العبارة هم أهل العراق، وكان يعلم الإمامعليه السلام بعدم قدرتهم علىٰ ذلك بسبب ضعفهم ووهن ارادتهم في إتخاذ القرار، أو أنّهم قد يستطيعون قتله إلّا أنّهم لايمتلكون الشجاعة والإرادة التي ترفعهم إلىٰ ذلك. أمّا لماذا

---

١. «بلعوم» على وزن «حلقوم» موضع مرور الطعام، ورحب البلعوم واسعه، أو كناية لكثرة أكله.
٢. «مندحق» من مادة «دحق» على وزن قطع بمعنى الدفع والابعاد وطرح الشئ بعيداً، ولما كان كبر البطن يؤدي إلىٰ بروزها وكأنّها تطرح بعضها خارجا إطلق علىٰ الشخص البطين مندحق البطن.

حكم الإمامعليه السلام بقتله. فأوضح بسبب هو ذلك الفساد الذي أشاعه بين المسلمين ليكون مصداقا بارزاً للمفسد في الأرض إلىٰ جانب سلبه لأمن البلاد الإسلامية وأخيراً إثارته المعارك التي سفكت فيها دماء المسلمين. وناهيك عما سبق فقد ابتدع تلك البدع العظيمة التي غيرت معالم الدين إضافة إلىٰ أمره بسبب أميرالمؤمنين عليعليه السلام الذي قال بحقه رسول اللّهصلى الله عليه وآله «من سب عليا فقد سبني»[1]. ثم تنبئ الإمامعليه السلام بهذه المسألة فقال: «**إلّا وإنّه سيأمركم بسبي والبراءة مني**» وهذا بدوره يكشف عن مدىٰ الحقد والضغينة التي كان يكنها معاوية لعليعليه السلام رغم علمه بفضائله التي صرح بها رسول اللّهصلى الله عليه وآله وسمعها القاصي والداني والتي تثبت بطلان حكومته، ومن هنا سعى جاهداً ليحول دون اطلاع أهل الشام على هذه الاحاديث تمهيدا إلىٰ منعها بالمرة وتحريفها. ثم أصدر أوامره بسب عليعليه السلام من علىٰ المنابر وفي خطب صلاة الجمعة، حتى كان ينبرى أحدهم ليقول خير ما نختتم به خطبتنا سب أبي تراب، وبالطبع فانّ إشاعة السب تعني عدم إمكانية التحدث بالفضائل، وهذه أسوأ بدعة ابتدعها معاوية يتعذر تبريرها علىٰ أي متعصب حقود، وما أروع ما قال الشاعر بهذا الشأن:

أعلى المنابر تعلنون بسبه | وبسيفه نصبت لكم أعوادها[2]

الجدير بالذكر أنّ بعض بطانة معاوية أذعن إلىٰ أنّ السب بدعة ظالمة لترسيخ دعائم حكومة معاوية، ومنهم مروان بن الحكم، إلّا أنّه لما سئل عن علة السب، أجاب: «إنّه لا يستقيم لنا الأمر ألا بذلك»[3]. ثم أوصىٰ الإمامعليه السلام بكيفية التعامل مع هذه البدعة فقال «**فامّا السب فسبوني، فانه لي زكاة ولكم نجاة وأما البراءة فلا تتبرأ وامني، فاني ولدت علىٰ الفطرة وسبقت إلىٰ الإيمان والهجرة**». ويبدو من هذه العبارة أنّ السب أمر واجب الزامي لا إباحي لأنّه يتضمن حفظ دماء الشيعة وايصال مبادئ مدرسة أهل البيتعليهم السلام. إلّا ان هذا الأمر قد يكتسب صفة الاباحة كما عبر عن ذلك علماء الاصول حيث أمر الوجوب يقتصر علىٰ احتمال المنع لتوهم الخطر، ومن هنا فان بعض تلامذه الإمامعليه السلام كرشيد الهجري وميثم

---

١. رواه الحاكم في كتاب مستدرك الصحيحين ١ / ١٢١ طبعة حيدر آباد.
٢. بحارالانوار ٤٥ / ١٣٧.
٣. الغدير ١٠ / ٢٦٤.

التمار وقنبر وسعيد بن الجبير الذين صمدوا وأبوا سبوا علي حتى قتلوا فأنّهم لم يرتكبو أي خلاف، بل أتوا بعمل عظيم أهلهم للشهادة. ويتضح ممّا سبق بأنّ المؤمن إذا عرض للاساءة من قبل العدو أو دفع الناس لانتهاك حرمته فانّ ذلك ليس فقط لا يحط من قدره فحسب، بل يزيده عزة وكرامة. وهنا يبرز هذا السؤال: ما الفرق بين السب والبراءة بحيث أذن الإمام عليه السلام بالسبب ولم يأذن بالبراءة لثلاث: أولاً: أنّه ولد علىٰ فطرة الإسلام والايمان، ثانيا: أنّه كان من السابقين للإسلام والتصديق بالنبي صلى الله عليه وآله، والثالث: سبقه إلىٰ الهجرة من مكة إلىٰ المدينة؟ فقد كثر الكلام بين المفسرين بشأن الفارق بين السب والبراءة، لا يخلو بعضه من التكلف وعدم الاقناع، ويبدو أنّ الاقرب في الفارق بينهما أحد أمرين: الأول أنّ سب الإنسان قد يكون إشارة إلىٰ سوءه ولا يعطي مفهوم الكفر والشرك، أمّا البراءة فتعني التبري من دينه ومعتقداته كما ورد ذلك في الآية الاولىٰ من سورة التوبة: **﴿بَرَآءَةٌ مِنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إلىٰ الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** وعليه فمفهوم البراءة من الإمام عليه السلام هو البراءة من الدين والإسلام، ومن هنا منع الإمام عليه السلام حتى من البراءة منه باللسان، فالواقع أنّ الإمام عليه السلام أذن بالإساءة إلىٰ شخصه لكنه لم يأذن بالاساءة إلىٰ دينه ولو لفظياً ـ والآخر أنّ أغلب الناس يتصورون أنّهم إذا إجبروا علىٰ كلام لا يمكنهم الاقتناع بالألفاظ ولابدّ من أن ترافقه النيّة، ومن هنا فمن أُجبر على إجراء صيغة الطلاق فانه لابدّ أن يقصد اللفظ والمعنى حين الصيغة، ان كان طلاق المكره باطلاً إلّا أنّه يتضمن قصد الانشاء ولذلك لايستدل الفقهاء علىٰ بطلان هذا الطلاق بعدم قصد المعنى، بل يستندون في بطلانه على الاكراه، ويصدق هذا الأمر علىٰ السب، فقصد السب سيئ، الا أنّ قصد البراءة أسوأ، لأنّ الأول يهدف نفي حرمة الإنسان، أمّا الثاني فيهدف البراءة من دينه ومعتقده؛ أي إسلامه وليس هنالك من مسلم مستعد لهذا العمل. والدليل علىٰ ذلك الأمور الثلاث التي ذكرها الإمام عليه السلام في نهيه عن البراءة:

الأمر الأول: «**فانّي ولدت علىٰ الفطرة**». أما كيف علّل نهيه لهم على البراءة منه عليه السلام، بقوله: «**فإنّي ولدت على الفطرة**»؛ فإن هذا التعليل لايختص به عليه السلام، لأن كلّ أحدٍ يولَد على الفطرة؛ فقد قال النبي صلى اللّه عليه وآله: «**كلّ مولدٍ يولد على الفطرة؛ وإنّما أبواه يهودّانه وينصرانه**».

والجواب، أنّه عليه‌السلام عَلّل نهيه لهم عن البراءة منه بمجموع أُمور وعلل؛ وهي كونه ولد على الفطرة، وكونه سبق إلى الإيمان والهجرة؛ ولم يعلل بآحاد هذا المجموع، ومراده ها هنا بالولادة على الفطرة أنّه لم يولَدْ في الجاهلية؛ لأنّه ولد عليه‌السلام لثلاثين عاماً مضت من عام الفيل؛ والنبي صلى الله عليه وآله أرسِل لأربعين سنة مضت من عام الفيل؛ وقد جاء في الأخبار الصحيحة أنّه صلى الله عليه وآله مكَث قبل الرسالة سنين عشراً يسمع الصوت ويرى الضوء، ولا يخاطبه أحد؛ وكان ذلك إرهاصاً لرسالته عليه‌السلام فحُكْم تلك السنين العَشْر حكم أيّام رسالته صلى الله عليه وآله؛ فالمولود فيها إذا كان في حجره وهو المتولّي لتربيته مولود في أيام كأيام النبوّة، وليس بمولود في جاهلية محضة. ففارقت حالُه حال مَنْ يدعى له من الصحابة مماثلته في الفضل. وقد روى أنّ السَّنَة التى ولد فيها عليٌّ عليه‌السلام هى السنة التي بدئ فيها برسالة رسول‌الله صلى الله عليه وآله، فأُسمِع الهُتاف من الأحجار والأشجار، وكشف عن بصره، فشاهد أنواراً وأشخاصاً؛ ولم يخاطَب فيها بشيء. وهذه السَّنَة هى السنة التي ابتدأ فيها بالتبتّل والانقطاع والعزلة في جبل حراء، فلم يزل به حتى كُوشِف بالرسالة، وأنزل عليه الوحي، وكان رسول‌الله صلى الله عليه وآله يتيّمن بتلك السنة وبولادة عَليّ عليه‌السلام فيها، ويسِّميها سنَة الخَير وسنة البركة؛ وقال لأهله ليلة ولادته، وفيها شاهد ما شاهد من الكرامات والقدرة الإلهية، ولم يكن مِنْ قبلها شاهد من ذلك شيئاً: «**لقد وُلد لنا الليلة مولود يَفْتَحُ اللّٰه علينا به أبواباً كثيرة من النعمة والرحمة**»، وكان كما قال صلوات اللّٰه عليه، فإنّه عليه‌السلام كان ناصره والمحاميَ عنه وكاشف الغمّاء عن وجهه؛ وبسيفه ثبتَ دينُ الإسلام، ورست دعائمه، وتمهّدت قواعده عليه‌السلام.

الأمر الثاني «**وسبقت إلىٰ الإيمان**» فقد أجمعت الأُمّة الإسلامية علىٰ أنّ أول من أسلم بعد خديجة الكبرىٰ علي بن أبي طالبعليه‌السلام. وتسالم الفريقان على أنّ عليعليه‌السلام أول من أسلم. وقال ابن أبي الحديد لم يتردد في ذلك أحد من علماء الإسلام.[1]

الأمر الثالث: «والهجرة» كيف قال: «**إنّه سبق إلى الهجرة**» ومعلوم أنّ جماعة من

١. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي الحديد ٤ / ١١٥.

المسلمين هاجرو اقبله، منهم عثمان بن مظعون وغيره؛ وقد هاجر أبوبكر قبله، لأنّه هارج في صحبة النبي صلى الله عليه وآله؛ وتخلف عليّ عليه‌السلام عنهما، فبات على فراش رسول‌الله صلى الله عليه وآله؛ ومكث أيّاماً يردّ الودئع التى كانت عنده، ثم هاجر بعد ذلك؟

والجواب، أنّه عليه‌السلام لم يقل: «**وسبقت كلّ الناس إلى الهجرة**»؛ وإنّما قال: «**وسبقت**» فقط؛ ولا يدلّ ذلك على سَبْقه للناس كافة؛ ولا شبهة أنّه سبق معظم المهاجرين إلى الهجرة، ولم يهاجر قبلَه أحد إلاّ نفر يسير جداً.

وأيضا فقد قلنا إنّه علّل أفضليّته وتحريم البراءة منه مع الإكراه بمجموع أمور: منها ولادته على الفِطْرة، ومنها سبقه إلى الايمان، ومنها سَبْقة إلى الهجرة؛ وهذه الأُمور الثّلاثة لم تجتمع لأحد غيره؛ فكان بمجموعها متميزّاً عن كلّ أحد من الناس.

تأمّلات

١ـ علة عدم ذكر الإمام عليه‌السلام للشخص المقصود بالخطبة

أوردنا سابقاً أنّ كافة القرائن تدل علىٰ أنّ المراد بالشخص الذي بين الإمام عليه‌السلام صفاته هو معاوية، وذلك لانطباق كافة الاوصاف عليه إلىٰ جانب كونه هو الذي سن سبّ الإمام عليه‌السلام ولم يبتدع هذاالأمر أحد غيره، ولعل عدم التصريح به يستند إلىٰ رعاية متانة البيان، أو إثارة حس الاطلاع لدىٰ الأُمّة لتقف بصورة أعمق علىٰ هذا المطلب ولا سيما بالاستناد إلىٰ هذه الصفات، أضف إلىٰ ذلك فانّ الخطبة حيث تضمنت بعض النبوءات الصريحة فانّ الإمام عليه‌السلام لم يشئ الافصاح أكثر عن هذه الموضوع.

٢ ـ لماذا حكم الإمام عليه‌السلام بهدر دم معاوية؟

لقد صرّح الإمام عليه‌السلام في هذه الخطبة بقتل من إشتمل علىٰ هذه الصفات، كما قال ولن تقتلوه. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لم هدر الإمام عليه‌السلام دمه؟ والجواب واضح لدىٰ العلماء والفقهاء، لأنّ من يخرج علىٰ الإمام المعصوم فهو ناصبي خارج من ربقة الإسلام، وقد خرج على إمام ثبتت إمامته بنص رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله وعن طريق بيعة الأُمّة. أضف إلىٰ ذلك فقد رسخ

معاوية أساس الفساد في الأرض وبابشع وأوسع صوره، وقد جيش الجيوش ضد الإمامعليه السلام حتى سالت أنهاراً من الدماء في تلك المعارك. إلىٰ جانب بعثه ببعض أشقيائه لشن الغارات تلو الغارات علىٰ مناطق العراق المعروفة وأخيراً قتله لمحمد بن أبي بكر ومالك الأشتر وسائر كبار صحابة الإمامعليه السلام لتجعله في مصاف المفسدين في الأرض والذي حكم القرآن بهدر دمهم. فاذا كان هناك بعض الأفراد المتعصبين الذين لايكترثون لكل هذه الأعمال ويبررونها باسم الاجتهاد فلنا كلام آخر. فقد ورد في الحديث الشريف أنّ النبيصلى الله عليه وآله قال: «**يا علي حربك حربي وسلمك سلمي**»[١] وكلنا نعلم بأنّ حرب رسول اللّهصلى الله عليه وآله تجب الكفر حيث يصطلح علىٰ من يحاربه بالكافر الحربي الذي يباح دمه. وورد في حديث آخر أنّ ابن عباس كان قد كف بصره فمر بجماعة يتحدثون فسأل دليله ماذا يقولون: أجاب: يسبون علياًعليه السلام. قال فاحملني إليهم ثم سألهم: لم تسبون اللّه؟ قالوا سبحان اللّه من سبّ اللّه فقد كفر، قال: فمن منكم سبّ رسول اللّهصلى الله عليه وآله؟ قالوا سبحان اللّه من سب رسول اللّهصلى الله عليه وآله فهو كافر. قال فمن سبّ علياًعليه السلام؟ قالوا: نعم نحن سببناه. قال ابن عباس فانّي أشهد اللّه أني سمعت رسول اللّهصلى الله عليه وآله قال «**من سب علياً فقد سبني ومن سبني فقد سب اللّه عزوجل ومن سب اللّه أكبه اللّه على منخريه في النار. ثم التفت ابن عباس إلىٰ دليله وقال له: كيف رأيتهم. فانشد يقول:**

نظروا إليك باعين محمرة نظر التيوس إلىٰ شفار الجارز

قال ابن عباس: فداك أبوك زدني. فقال:

خزر العيون نواكس أبصارهم نظر الذليل إلىٰ العزيز القاهر
أحيائهم عار على أمواتهم والميتون فضيحة للغابر[٢]

ومن الطبيعي أنّ الحكم المذكور إذاكان السب يستند إلىٰ الإرادة والاختيار ويستثنى منه الاكراه والتهديد والاجبار.

جدير بالذكر أنّ ابن أبي‌الحديد قال، لو إفترضا أنّ النبيصلى الله عليه وآله لم ينص علىٰ خلافة عليعليه السلام

١. إحقاق الحق ٦ / ٤٤٠ ـ ٤٤١.

٢. روى هذا لاحديث المرحوم العلّامة الأميني في كتاب الغدير عن علماء السنة مثل محب‌الدين الطبري في الرياض والشافعي في الكفاية والحموي في الفرائد وابن صباغ المالكي في الفصول المهمة (الغدير ٢ / ٣٠٠) وللوقوف أكثر راجع مصادر هذا الحديث في المجلد السابع من احقاق الحق ٧ / ٢؛ ١٦ / ٤٢٣.

أفلم يسمع معاوية قولهﷺ لعليﷺ: «**أنا حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت**» وقوله: «**حربك حربي وسلمك سلمي**»[1] ومن الطبيعي أنّ من يحارب رسول اللّهﷺ يهدر دمه، وعليه فالذي يحارب الإمامﷺ يهدر دمه.

٣ ـ تأريخ سب الإمام عليﷺ

قوله عليه‌السلام: «**يأمركم بسبّي والبراءة مني**»، فنقول: إنّ معاوية أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسبّ عليّ عليه‌السلام والبراءة منه.

وخطب بذلك على منابر الإسلام، وصار ذلك سنة في أيّام بني‌أمية إلى أنْ قام عمر بن عبدالعزيز رضى اللّه تعالى عنه فأزاله. وذكر شيخُنا أبوعثمان الجاحظ أنّ معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة: اللّهم إنّ أباتراب أَلْحَد في دينك، وصدّ عن سبيلك فالعنه لعناً وبيلاً، وعذبه عذاباً أليماً. وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يُشار بها على المنابر؛ إلى خلافة عمربن عبدالعزيز.

وذكر أبو عثمان أيضاً أنّ هشام‌بن عبدالملك لما حجّ خطب بالموسم، فقام إليه إنسان، فقال: يا أميرالمؤمنين، إن هذا يومٌ كانت الخلفاء تستحبّ فيه لعنَ أبي‌تراب، فقال: اكفف، فما لهذا جئنا.

وذكر المبرّد في "الكامل" أنّ خالد بن عبداللّه القسري لمّاكان أمير العراق في خلافة هشام، كان يلعن عليّاً عليه‌السلام على المِنْبر، فيقول: اللهمّ الْعن عليّ بن أبي‌طالب بن عبدالمطلب بن هاشم، صهر رسول‌اللّه صلي اللّه عليه وآله على ابنته، وأباالحسن والحسين! ثم يقبل على الناس، فيقول هل كَنَّيت!

وروى أبو عثمان أيضاً أنّ قوماً من بنى‌أميّة قالوا لمعاوية: يا أميرالمؤمنين، إنّك قد بلغتَ ما أمّلت، فلو كففت عن لَعْن هذا الرجل! فقال: لا واللّه حتى يربوَ عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكرٌ فضلاً!

---

١. نهج‌البلاغة لابن أبي الحديد ١٨ / ٢٤.

قال محمد بن الحنفية في عليﷺ: كان يدَ اللّٰه على أعداءاللّٰه، وصاعقةً من أمره أرسله على الكافرين والجاحدين لحقّه، فقتلهم بكفرهم فشنئوه وأبغضوه، وأضمروا له الشّنف والحسد، وابن عمه صلى اللّٰه عليه وسلّم حيّ بعدُ لم يمت؛ فلما نقله اللّٰه إلى جواره، وأحبّ له ما عنده، أظهرتْ له رجال أحقادها، وشفَتْ أضغانها، فمنهم مَن ابتزّ حقه، ومنهم من ائتمر به ليقتله، ومنهم مَنْ شتمه وقذفه بالأباطيل؛ فإن يكن لذرّيته وناصري دعوته دولة تنشر عظامهم، وتحفِر على أجسادهم؛ والأبدانُ منهم يومئذ بالية، بعد أن تقتل الأحياء منهم، وتذلّ رقَابهم، فيكون اللّٰه عزّ اسْمه قد عذّبَهُم بأيدينا وأخزاهم؛ ونصرنا عليهم، وشَفَا صدورَنا منهم؛ إنّه واللّٰه ما يشتم علياً إلّا كافر يُسِرّ شتم رسول‌اللّٰه صلى اللّٰه عليه وآله ويخاف أن يبوحَ به، فيكنى بشتم عليّ عليه‌السلام عنه. ما إنّه قد تخطّت المنيةُ منكم مَن امتدّ عمره، وسمع قولَ رسول‌اللّٰه صلى اللّٰه عليه وآله فيه: «**لا يحبّك إلا مؤمن ولا يُبغضك إلّا منافق، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**».

٤ ـ التقية وسيلة دفاعية

تطرق بعض شرّاح نهج‌البلاغة هنا إلىٰ موضوع التقية وشرعيتها، ولا بأس أن نتعرض إليها هنا بصورة مختصرة ونوكل الخوض في التفاصيل إلىٰ محلها. فالتقية بالمعني اللغوي إجتناب الشيء بينما ذكروا لها عدة تعاريف إصطلاحية، أهمها إخفاء العقيدة أو الدين خوف الضرر أو لمصلحة من المصالح ومنها حفظ الوحدة واجتناب الاختلاف أمام الأعداء. ويستند هذا المعنى إلىٰ القرآن الذي تحدث عن أصحاب رسول‌اللّٰهﷺ حين كانوا قلة: ﴿**لا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الكافِرينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِي شَيءٍ**﴾ ثم قال: ﴿**إِلّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً**﴾ [1]، فقد تحدثت الآية صراحة عن التقية بما لايبقي من مجال للشك فيها. أما قصة تقية عمار ونطقه ببعض الكلمات ضد الإسلام والنبيﷺ أمام المشركين

١. سورة الاعمران / ٢٨.

فهي مشهورة معروفة، فقد إضطر لتلك الكلمات، ثم أتى رسول الله ﷺ باكياً خشية فساد دينه وإيمانه، فهدأه رسول الله ﷺ في أنّ الاكراه هو الذي دفعه إلىٰ ذلك فلا ضرر على دينه وأنّ الله أنزل بحقه قرآناً: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ﴾[1] ﴿وَلٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾[2] النموذج الآخر للتقية ما ورد في سورة غافر بشأن مؤمن آل فرعون: ﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[3] فالقرآن يثني علىٰ هذا المؤمن ويستحسن كلامه ويصرح برضى الله بتقيته. كما تظافرت الروايات الإسلامية التي أكدت علىٰ أهمية التقية لتصفها بانّها تقي المؤمن مخاطر الأعداء وتحفظ دمه وأن التقى من الدين، ومن لا تقية له لا دين له، والايمان بلا تقية كالجسد بلا رأس، وأنّها من أفضل الأعمال، ولا نرىٰ البحث يتسع للخوض في التفاصيل، ومن أراد المزيد فليرجع إلىٰ القاعدة السابعة من المجلد الأول لكتاب القواعد الفقهية. أضف إلىٰ ذلك فانّ فلسفة التقية واضحة، وهي أنّ اظهار العقيدة الباطنية أحياناً قد يسبب بعض الأخطار علىٰ النفس والعرض والمال دون أن تترتب عليه أية فائدة، فالعقل يحكم بضرورة عدم إهدار القوىٰ والطاقات عبثاً، ولابدّ من حفظها بواسطة التقية واستثمارها في المواقع المطلوبة. ولعل هذا هو المعنى المراد بوصفها بترس المؤمن أو جنة المؤمن. فالواقع هو أنّ التقية لا تعني الفرار من المسؤولية، بل هي أشبه بالتكتيك الحربي عن طريق الاستتار وإعادة تنظيم القوة واللجوء إليها في الوقت المناسب.

80C3

---

١. ـ أجمع مفسرون الفريقين أنّ هذه الآية نزلت في عمار، وصحيح أن عمار اجبر علىٰ الكفر إلّا أنّه تظاهر بأنّه تكلم من خلال الاعتقاد بذلك وأنّه رجع عن دين محمد ليتركوه ويحفظ دمه.

٢. سورة النحل / ١٠٦.

٣. سورة غافر / ٢٨.

الخطبة [1] ٥٨

ومن كلام له عليه السلام

كلم به الخوارج حين اعتزلوا الحكومة وتنادوا:
لا حكم إلّا اللّٰه

نظرة إلىٰ الخطبة

تفيد عبارات هذه الخطبة أنّ الخوارج ذهبوا إلىٰ أنّ الحكم للّٰه بعد أن فرضوا التحكيم على الإمام عليه السلام ورجعوا عنه، وأن من ينكر ذلك الشعار قد خرج من الدين، ثم إندفعوا أبعد من ذلك ليتهموا علي عليه السلام بالخروج من الإسلام لقبوله التحكيم وعليه أن يتوب. والحال أنّ التحكيم فرض على الإمام عليه السلام، ولو فرضنا ان الإمام عليه السلام إقترح ذلك فاصل التحكيم لايخالف الإسلام، وانحرف في صفين واستغل من قبل معاوية. على كل حال فان الإمام عليه السلام يدعو عليهم ويذكرهم بسوء مقالتهم، ثم يخبر عن المستقبل المظلم للخوارج والذل الهوان الذي ينتظرهم.

---

١. سند الخطبة: اورد بعض هذه الخطبة قبل السيد الرضي (ره) إبن قتيبة في كتاب الإمامة والسياسة وابن الجوزي في تذكرة الخواص والطبري في المسترشد، كما نقل ابن أثير في كتاب النهاية عدة إحتمالات وردت بشأن بعض مفردات الخطبة وهذا يشير أنّه حصل عليها من عدة نسخ (مصادر نهج البلاغة، ٢ / ٣٦).

«أَصٰابَكُمْ حٰاصِبٌ، وَلاٰ بَقِيَ مِنْكُمْ آثِرٌ، أَبَعْدَ إِيمٰانِي بِـاللّٰهِ وَجِـهٰادِي مَـعَ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ أَشْهَدُ عَـلَى نَـفْسِي بِـالْكُفْرِ! لَـقَدْ «ضَـلَلْتُ إِذاً وَمٰـا أَنٰـا مِـنَ الْمُهْتَدِينَ» فَأُوبُوا شَرَّ مَآبٍ وَارْجِعُوا عَلَى أَثَرِ الْأَعْقَابِ، أَمٰا إِنَّكُـمْ سَـتَلْقَوْنَ بَعْدِي ذُلًّا شٰامِلاً وَسَيْفاً قٰاطِعاً وَأَثَرَةً يَتَّخِذُهٰا الظّٰالِمُونَ فِيكُمْ سُنَّةً».

الشرح والتفسير

فضاعة مظلومية الإمام؏

كما ذكرنا أنّ الإمام؏ خطب هذه الخطبة حين رأىٰ الخوارج التحكيم في صفين ثم رجعوا عنه ورفعوا شعار «**لا حكم إلّا لله**» وطالبوا الإمام؏ بالتوبة لقبوله التـحكيم ليـلتحقوا بـه فيقاتلوا أهل الشام، فقال؏: «**أصابكم حاصب، ولابقي منكم آثر، أبـعد إيـماني بـالله وجهادي مع رسول الله ﷺ أشهد على نفسي بالكفر، لقد «ظللت إذا وما أنا من المهتدين»**».

يالها من مصيبة أن يبتلى بهؤلاء الحمق فرد مثل علي؏ أول من آمن بالله ورسوله ﷺ ووقف إلىٰ جانبه في جميع الغزوات ـ ألا في البعض التي استخلفه فيها رسول الله ﷺ ـ وثبت في المواقع التي تنكص فيها الابطال ليسقي شجرة الإسلام والتوحيد بـلسانه وسـيفه، فـيطالبه أُولئك الحمق بالاعتراف بالكفر والتوبة. ولعل تأريخ الإسلام لم يـشهد مـثل هـذه الحـادثة المروعة، ومن هنا نقول بأنّ مظلومية الإمام؏ كانت وما زالت تفوق من سواه. وكما صرح؏ في الخطبة السابقة: «**فانّي ولدت على الفطرة وسبقت إلىٰ الإيمان والهجرة**»؛ الأمـر الذي أكده علماء الفريقين وأنه لم يشرك بـالله طـرفة عـين أبـداً أنّـه خـاض غـمار الجـهاد مـع رسول الله ﷺ في كافة الغزوات سوىٰ تبوك حـين كـلفه النـبي ﷺ بحـفظ المـدينة، العـبارة «**أصابكم حاصب**» وبالالتفات إلىٰ أنّ المراد بالحاصب الريح الشديدة التي تثير الحصباء بحيث قد تدفن أحياناً قافلة، تفيد الدعاء عليهم في أن يرسل الله عليهم العذاب السماوي، كما يمكن

أن تكون كناية عن المشاكل الاجتماعية التي تعصف بحياتهم والعبارة «**ولا بقى منكم آثر**» واستناد إلىٰ أنّ المقصود بالأثر الشخص الذي يأثر الحديث، أي يرويه، فكأنّه قالعليه السلام لا بقي منكم مخبر وهلكتم بأجمعكم (طبعاً نقلت هذه المفردة بعدة صور ذات معان مختلفة سنعرض لها في شرح كلام السيد الرضي آخر الخطبة». ثم تساءل الإمامعليه السلام باستغراب عن ذلك الطلب المشين وهو من روّي شجرة الإسلام بجهاده العظيم ومواقفه المشهودة وشده أزر رسول اللهصلى الله عليه وآله، فهو أول من آمن وأسلم وهاجر، فهل لمثل هذا الفرد أن يضل وينحرف عن السبيل. ثم أشارعليه السلام إلىٰ موضوعين، الأول دعاؤه عليهم «**فأبوا**[1] **شرمآب وارجعوا على أثر الاعقاب**»[2] فقد دعا عليهم في العبارة الاولىٰ سائلاً اللّٰه لهم الذلة والهوان في الدنيا والآخرة، وفي العبارة الثانية سأل اللّٰه أن يبتلهيم بما ابتلى به مشركي الجاهلية الذي كانوا على غرار الخوارج يرون آيات اللّٰه ثم يجحدونها. وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلىٰ أنّ قوله: «**ارجعوا...**» أراد به توبوا، بينما تفيد قرينة هذا القول انه استمرار للدعاء السابق. والثاني نبوءته بمستقبلهم «**أما ارنكم ستلقون بعدي ذلا شاملا وسيفاً قاطعاً وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة**» جدير بالذكر أنّ نبوء الإمامعليه السلام بحق الخوارج قد تحققت حيث ابيدوا في مختلف الحروب وتجرعوا الذل والهوان. وقد أفرد ابن أبي الحيدد فصلا أسماه أخبار الخوارج وذكر رجالهم وحروبهم ليخوض في تفاصيل أحداث زعمائهم وسنتطرق إلىٰ ذلك في الأبحاث القادمة.

قال السيد الرضي (ره) شارحاً بعض مفردات الخطبة: قولهعليه السلام «**ولا بقى منكم آبر**» يروى على ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون كما ذكرناه: آبر بالراء، من قولهم للذي يأبر النخل ـ أي يصلحه ـ ويروى «آثر» وهو الذي يأثر الحديث ويرويه أي يحكيه، وهو أصح الوجوه عندي، كأنّه قال: لا بقي منكم مخبراً، ويروى آبز ـ بالزاي المعجمة ـ وهو الواثب، والهالك أيضاً يقال له «آبز».

۞

اثرة اسم مصدر من مادة استئثار بمعنى الاستبداد.

---

١. «أوبوا» من مادة «أوب» على وزن قوم بمعنى الرجوع، كما تطلق هذه المفردة على السحاب والرياح بسبب الرجوع فيها.

٢. أعقاب جمع عقب بمعنى كعب الرجل، كما تطلق على الأثر الذي يتركه على الأرض، وهي هنا كناية عن الأجيال السابقة.

الخطبة[1] ٥٩

وقال عليه السلام

لما عزم على حرب الخوارج، وقيل له: إنّ القوم عبروا جسر النهروان.

«مَصارِعُهُمْ دُونَ النُّطْفَةِ وَاللّهِ لا يُفْلِتُ مِنْهُمْ عَشَرَةٌ وَلا يَهْلِكُ مِنْكُمْ عَشَرَةٌ».

الشرح والتفسير

هل من سبيل لعلم الغيب

لاشك ولا ريب أنّ الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وائمة العصمه عليهم السلام قد أخبروا كراراً عن الأمور الغيبية، وبعبارة أُخرى لهم علم بالغيب، القرآن تحدث عن المسيح عليه السلام في أنّ العلم بالغيب كان يمثل إحدىٰ معجزاته فقال **﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾**[2] كما يختتم هذه الآية بان ذلك من آيات اللّه وصدق دعوىٰ نبوته.

وقد حفل نهج البلاغة ومنه هذا الكلام بالأخبار عن المغيبات. أمّا أنى للإمام عليه السلام بعلم الغيب؟ ما حدود علم المعصوم بالغيب؟ وما تفسير الآيات التي حصرت علىٰ الغيب باللّه؟ وكيف تفسر الروايات الواردة بشأن إثبات هذا العلم للمعصومين؟ وما إلىٰ ذلك من أسئلة واستفسارات فقد أوكلنا الإجابة عليها في شرح الخطبة ١٢٨.

---

١. سيأتى سند هذا الكلام ذيل الخطبة رقم ٦٠ فهى تشير إلىٰ نفس الموضوع.

٢. سورة آل‌عمران / ٤٩.

الخطبة[1] ٦٠

و قال ﷺ

لما قتل الخوارج فقيل له: يا أميرالمؤمنين هلك القوم بأجمعهم

«كَلاَّ وَاللَّهِ، إِنَّهُمْ نُطَفٌ فِي أَصْلاَبِ الرِّجَالِ، وَقَرَارَاتِ النِّسَاءِ، كُلَّمَا نَجَمَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قُطِعَ حَتَّى يَكُونَ آخِرُهُمْ لُصُوصاً سَلاَّبِينَ.»

الشرح والتفسير

مصير الخوارج

هذا الكلام إستمرار لما ورد في الأبحاث السابقة بشأن الخوراج. وهنا أشار الإمام ﷺ إلىٰ بعض النبوءات بشأن الخوارج؛ الأمر الذي يمكن اعتباره من معاجزه ﷺ فقد إستهل كلامه بالرد علىٰ بعض أصحابه ممن قال له: يا أميرالمؤمنين هلك القوم بأجمعهم فقال: «**كلا واللّه، إنهم نطف في أصلاب الرجال وقرارت[2] النساء**» فحتى لو قتل هؤلاء، فهناك النطف التي

١. سند الخطبة: قال صاحب كتاب مصادر نهج‌البلاغة بعد أن جمع الخطبة ٥٩ و ٦٠ بشأن هذا الكلام رواه المبرد في الكامل (والمبرد من علماء القرن الثالث الهجري) ونقل بعضه البيهقي في المحاسن والمساوئ والمسعودي في مروج الذهب ثم مدح ابن أبي‌الحديد في انه قال: هذا من الأخبار المشهورة القريبة من التواتر ومن معجزاته الغيبة ﷺ. مصادر نهج‌البلاغة، ٢ / ٣٧.

٢. «قرارات» من مادة «قرار»، وقرارت النساء أرحامهن حيث تنعقد النطفة لمدة في الرحم فتقر هناك، وقال القرآن ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾، سورة المؤمنون / ١٣.

ستلد في المستقبل وتقتفي آثار الخوارج، وهذا ما حصل بالفعل حيث ظهر مثل هؤلاء الأفراد بعد سنوات، بل قرون لينتهجوا ذات السبيل الذي سلكه أوائلهم. أضف إلىٰ ذلك وكما أشير سابقا فقد نجى تسعة أفراد من أصحاب النهروان وفروا إلىٰ مختلف المناطق ليرمموا هذه المدرسة الفاسدة ويعيدوا بنائها ممن جانب آخر فاننا نعلم بأنّ من حضر النهروان لم يكونوا جميع الخوارج، بل الخوارج. ثم اماط اللثام عن تبوءة أُخرى فقال‌عليه‌السلام: «**كلما نجم**[١] **منهم قرن قطع**» فالعبارة إشارة إلىٰ وحشية الخوارج من جهة وأنّهم كالحيوان الذي له قرن لاذىٰ الآخرين، ومن جهة أُخرىٰ يشير إلىٰ الانتكاسات المتتالية والهزائم المتتابعة التي يمنى بها الخوارج طيلة حياتهم المقيتة؛ الأمر الذي تحقق تأريخياً وسنتعرض له في البحث القادم. ثم يختتم الإمام‌عليه‌السلام كلامه قائلاً: «**حتى يكون آخرهم لصوصا سلابين**» وهذا هو الأمر الآخر الذي ثبت تحققه تأريخياً، حيث تعرض أرباب التأريخ إلىٰ عدد من مشهوري الخوارج ممن تحولوا إلىٰ لصوص خطرين، وسنعرض لهذا الأمر بالتفصيل لاحقاً.

تأمّلات

١ـ الخوارج ظاهرة لافرقة

يستفاد من كلام الإمام‌عليه‌السلام أنّ الخوارج لم يكونوا فرقة معينة، بقدر ماكان يراهم الإمام‌عليه‌السلام ظاهرة حية طيلة التأريخ الإسلامي، حتى أنّ القرائن تفيد أن هذه الظاهرة كانت على عهد رسول‌الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله، فقد أورد المفسر الجليل المرحوم الطبرسي عن أبي سعيد الخدري في ذيل الآية ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ...**﴾[٢] أنّ رسول‌الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله حين قسم غنائم قبيلة هوازن علىٰ المسلمين يوم حنين قام إليه حرقوص‌بن زهير وقال: اعدل يا محمد! فقال رسول‌الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله: فمن ذا يعدل إذا لم أعدل؟ فقال عمر: دعني أضرب عنقه يا رسول‌الله. فقال‌صلى‌الله‌عليه‌وآله: «**دعه فان له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**» وأضاف المرحوم الطبرسي وجاء في حديث آخر أنّ النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله قال:

١. «نجم» من مادة «نجم» علىٰ وزن حجم بمعنى الطلوع، كما يطلق على كل ظهور وطلوع مفاجيء.
٢. سورة التوبة / ٥٨.

«فاذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم» فنزلت الآية المذكورة: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾**. فالواقع أنّ هذه الكلمات تفيد إمتداد الجذور الفكرية للخوارج إلىٰ عصر النبيﷺ وأنّهم لم يكونوا يتورعون حتى عن مجابهة النبيﷺ إذا تعرضت مصالحهم للخطر. ونقل ابن أبي الحديد عن مسند أحمد بن حنبل أنّ عائشة سألت مسروق: هل عندك علم من المخدج (أحد زعماء الخوارج)؟ فقلت: نعم، قتله علي بن أبي طالب علىٰ نهر قالت عائشة: إبغني علىٰ ذلك بينة. فأقمت رجالاً شهدوا عندها بذلك. قال فقلت لها: سألتك بصاحب القبر، ما الذي سمعت من رسول اللّهﷺ فيهم؟ فقالت: نعم سمعته يقول: **«إنّهم شر الخلق والخليقة يقتلهم خير الخلق والخليقة وأقربهم عنداللّه وسيلة»**[1]. هذا ويمكن ايجاز مميزات الخوارج فيمايلي: إنّهم طائفة تعني كثيراً بظواهر العبادات وحتى المستحبات والمكروهات البسيطة وهذا ما جعلهم يعيشون الغرور ويشعرون بالعجب، وبالمقابل كانوا أفراد جاهلين متعصبين خارجين عن حدود الادب والخلق، ولا يتورعون عن أقذر الأساليب من أجل تحقيق مآربهم، وأفضل نموذج علىٰ ذلك سوء خلق **«ذو الخويصرة»** (حرقوص) وفضاضته تجاه النبيﷺ. صحيح أنّ الخوارج ظهروا في صفين بعد التحكيم إلّا أنّ هذا لايعني عدم وجود إمتداداتهم الفكرية لما قبل عصر الإمامؑ ومازلنا إلىٰ اليوم نلمس ثقافتهم وأفكارهم المنحطة لدىٰ بعض طبقات وفئات مختلف المجتمعات البشرية، ولعل أغلب الوهابيين ينتمون إلىٰ هذه الزمرة، لأنّهم يتصفون بصفاتهم. كما نرىٰ في أوساطنا بعض الأفراد الشديدي الالتزام بقشور الدين بينما يرون إنحراف كبار علماء الدين عن الصراط المستقيم ويسعون جاهدين لاثارة البلابل والفتن. ولايبدو القتال علاجاً لمرض هذه الفئة الضلالة، بل علاجها يكمن في رفع المستوىٰ الثقافي للأمّة وانفتاحها علىٰ المسائل الدينية والعقائدية؛ الأمر الذي صرح به الإمامؑ في الخطبة القادمة. وقد أشار الإمامؑ في الخطبة السادسة والثلاثين إلىٰ مدىٰ جهل هؤلاء الأفراد فقال **«وأنتم معاشر أخفاء الهام، سفهاء الاحلام ولم آت ـ لا أبالكم ـ بجرا ولا أردت**

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ / ٢٦٧.

لكم ضراً». وكفى هذه الفرقة ضلالة وانحرافاً وفضاضة ما فعلته بصحابي النبي ﷺ عبدالله بن الخباب المعروف بورعه وتقواه وزوجته الحاملة حيث قتلتها بتلك الطريقة البشعة وبقرت بطن زوجته لأنّهما لم يتنكرا لعلي عليه السلام بينما كانت تستشكل قتل اليهودي، بل كانت لاترى جواز قتل الخنزير. بل كانوا يشكلون على أحدهم إذا تناول تمرة مهملة تحت شجرة دون إذن صاحبها، بينما لايتورعون عن سفك دماء كبار صحابة رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام. كان هنالك تناقضاً واضحاً بين ظاهرهم وباطنهم وأقوالهم وأفعالهم، حتى إمتد ذلك التناقض إلى عقائدهم الفقهية والكلامية، فكانوا يرون وجوب قتل مرتكب الكبيرة، بينما يعتقدون بعدم الحاجة إلى الحاكم رغم الفوضى والهرج والمرج الذي يسود المجتمع. وتفيد القرائن أنّهم كانوا مفرطين في المسائل الجنسية وغارقين في الشهوات، ولعل هذا ما جعلهم يجوزون العقد على تسع نساء، ولا يرون الرجم عقوبة لمن زنا وهو محصن. ومن الطبيعي أن تتفرع هذه الفرقة عدة فروع بفعل ذلك الجهل والتعصب والحمق، ومن هنا لم تمض عليها مدة حتى انقسمت فرقاً لكل منها زعيم من قبيل الازارقة والنجدات والصفرية والعجاردة والثعالبة وما تشابه ذلك. لعلنا نلمس هذه الفرقة اليوم في الوهابية التي تعيش التمسك بظاهر العبادات وتتحرج في المكروهات والمباحات وتؤدي المستحبات، بينما تكفر أغلب المسلمين من السنة والشيعة وتبيح دمائهم، ورغم ضحالتهم الفكرية وجمودهم إلّا أنّهم يرون أنفسهم أفضل من غيرهم، فهم كالخوارج يرون أنفسهم الحق المطلق وما سواهم باطلاً.

٢ ـ الخوارج لصوصا سلابين

يشهد التأريخ بتحقق ما أخبر به الإمام عليه السلام عن الخوارج من أنّ آخرهم لصوصاً سلابين. فمن بين الأفراد الذين ذكرهم ابن أبي الحديد الذي آل أمرهم إلى السرقة والسلب: الوليد بن طريق الشيباني على عهد هارون الرشيد. فبعث له هارون بيزيد بن مزيد هو من بني شيبان فقتله وأتاه برأسه وابن عمرو الخثعمي على عهد المتوكل العباسي الذي عرف بقطعه للطرق، فبعث له بأبي سعيد محمد بن يوسف الطائي، إلّا أنّه هرب بينما قتل جمع كثير من صحبه وأسر آخرون. ثم ظهرت جماعة منهم في منطقة كرمان وعمان فكانوا مفسدين في الأرض ومحاربين،

أما أسماؤهم فقد أحصاها أبو اسحاق الصابي في كتاب التاجي.[1]

تم المجلد الثاني لشرح نهج البلاغة

لقد إنتهى المجلد الثاني من الشرح باختتام الخطبة الستين، ولا يسعني هنا إلّا أن ابتهل إلىٰ اللّٰه بفائق الشكر لما وفقني من القيام بهذا العمل المتواضع سائلاً إياه الاخذ بيدي إلىٰ إتمام هذا العلم، كما أسأله أن يوفقنا لأن نعيش هذه الكلمات علىٰ مستوىٰ القلب والعمل فتقودنا إلىٰ سعادة الدنيا والآخرة. وما توفيقي إلّا باللّٰه عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعوانا أن الحمدللّٰه رب العالمين.

السابع من صفر عام ١٤١٩

الولادة الميمونة للإمام الكاظم عليه السلام

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٥ / ٧٣ـ ٧٦.

الفهرس

الخطبة الحادية والعشرون

شرح الخطبة ٥

تخففوا تلحقوا!.. ٥

عاقبة المثقلين! ٨

الخطبة الثانية والعشرون

القسم الأول: أضواء على الخطبة ١٢

وقعة الجمل.. ١٢

حزب الله وحزب الشيطان ١٤

القسم الثاني.. ١٧

المعذّرون المفتضحون!.. ١٧

القسم الثالث: تهديد علي عليه السلام.. ٢١

الرجال الأشداء ٢٣

الخطبة الثالثة والعشرون

القسم الأول.. ٢٥

نظرة إلى الخطبة ٢٦

الرضا والتسليم أمام إرادة الله ٢٦

الرضى والتسليم إلى جانب السعي والعمل.. ٣٠

القسم الثاني: سبيل بلوغ مقامات الصالحين ٣٣

فصل في أنّ الاخلاص أساس العمل ٣٥

القسم الثالث: السند الشعبي ٣٧

فصل في حسن الثناء (لسان الصدق).. ٣٩

القسم الرابع: الإعتضاد بالعشيرة ٤١
فصل في بركات التماضد بالقرابة ٤٢

الخطبة الرابعة والعشرون

نظرة إلى الخطبة ٤٥
المساومة والمصناعة ٤٦
فصل في الضعف والمساومة ٤٩

الخطبة الخامسة والعشرون

القسم الأول ٥١
نظرة إلى الخطبة ٥١
النفاق والعصيان ودور الإمام ٥٢
تأمّلان ٥٣
١ ـ الكوفة على وجهين ٥٣
٢ ـ أهل الكوفة والإمام عليه السلام ٥٥
القسم الثاني: سرّ الانهيار ٥٧
تأمّلان ٥٩
١ ـ بسر بن أرطاة ٥٩
٢ ـ مقوّمات النصر وهزيمة الأمم ٦٣
القسم الثالث: السئم والملل ٦٥
بنو فراس بن غنم ٦٧

الخطبة السادسة والعشرون

نظرة إلى الخطبة ٦٩
القسم الأول: العرب في الجاهلية ٧١
تأمّلان ٧٤
١ـ آفاق العصر الجاهلي ٧٤
٢ـ شر دار أم خيرها ٧٦
القسم الثاني: الصبر المرير ٧٧
تأمّلان ٧٨

١ـ الأحداث المريرة بعد رسول الله ﷺ ٧٨
٢ـ هل بايع الإمام ؈ الخليفة الأول؟ ٨٠
القسم الثالث: المساومة السياسية المفضوحة ٨١
تأمّلات ٨٤
١ـ السياسات الدنيوية لا تعترف بالأصول الأخلاقية ٨٤
٢ـ باعة الدين بالدنيا! ٨٤
٣ـ علاقة النصر بالثبات ٨٥

الخطبة السابعة والعشرون

سند الخطبة وزمانها ومكانها ٨٧
نظرة إلى الخطبة ٩٠
القسم الأول: الجهاد باب من أبواب الجنّة ٩١
تأمّلان ٩٥
١ـ الجهاد سر رفعة الشعوب وعزتها ٩٥
٢ـ هل الجهاد الإسلامي دفاعي فقط؟! ٩٧
القسم الثاني: الموت كمداً ٩٩
تأمّلات ١٠٢
١ـ معادلات الهزيمة والانتصار ١٠٢
٢ـ حماية الأقليات الدينية ١٠٣
٣ـ الغيرة الدينية ١٠٣
القسم الثالث: الاجتماع على الباطل والفرقة عن الحق ١٠٥
تأمّل: علة هذا الذم ١٠٨
القسم الرابع: إدماء القلب ١٠٩
تأمّلات ١١١
١ـ الاتباع الطلحاء والقادة الأكفاء ١١١
٢ـ الإجابة على سؤال ١١٣
٣ـ سؤال آخر ١١٣
٤ـ الخاتمة المريرة للواقعة ١١٤

الخطبة الثامنة والعشرون

نظرة إلى الخطبة ١١٧
القسم الأول: الدنيا والآخرة عند الإمام علي عليه السلام ١١٩
تأمّلان ١٢٢
١ ـ الدنيا والآخرة في الأحاديث ١٢٢
٢ ـ الخسارة العظمى ١٢٤
القسم الثاني: الرحيل الوشيك ١٢٥
تأمّلان ١٢٩
١ ـ خير الزاد ١٢٩
٢ ـ اتباع الهوى وطول الأمل من أعدى أعداء الإنسان ١٣١
تكملة ١٣٣
الخطبة التاسعة والعشرون ١٣٥
نظرة إلى الخطبة ١٣٥
القسم الأول: عوامل ضعف أهل الكوفة ١٤٠
القسم الثاني: ١٤١
تأمّلان ١٤٢
١ ـ الحق يؤخذ ولا يُعطىٰ ١٤٢
٢ ـ الدفاع عن الوطن ١٤٤
القسم الثالث: اليأس من القوم ١٤٧
أسباب الهزيمة والفشل ١٤٨

الخطبة الثلاثون

نظرة إلىٰ الخطبة ١٥١
عوامل قتل عثمان ١٥٣

الخطبة الحادية والثلاثون

السعي لانقاذ الخاطئين ١٥٧
تأمّلات ١٦٠
١ـ رد فعل الزبير تجاه رسالة الإمام عليه السلام ١٦٠

٢ـ قطوف من سيرة طلحة والزبير ١٦٠
٣ـ شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٦٣
الخطبة الثانية والثلاثون ١٦٥
نظرة إلى الخطبة ١٦٥
القسم الأول: الدهر وضياع القيم ١٦٧
تأمّلان ١٦٩
١ـ ما مفهوم فساد الزمان؟ ١٦٩
٢ـ التنكر للقيم ١٧٠
القسم الثاني: الناس أربعة أصناف ١٧٣
الأصناف الأربعة في كل مجتمع ١٧٨
القسم الثالث: الصنف الخامس: أولياء الله ١٧٩
القسم الرابع: الاتعاظ بالماضين ١٨٣
الخطبة الثالثة والثلاثون
نظرة إلى الخطبة. ١٨٧
القسم الأول: دحر الباطل ١٨٩
تأمّلات ١٩٢
١ ـ من أخبار يوم ذي قار ١٩٢
٢ـ جاهلية العرب ١٩٣
٣ـ حديث خاصف النعل ١٩٤
القسم الثاني: مالي ولقريش؟ ١٩٧
الحسد مصدر الاضطراب الاجتماعي ٢٠٠
الخطبة الرابعة والثلاثون
مناسبة الخطبة ٢٠٣
نظرة إلى الخطبة ٢٠٤
القسم الأول: لم الخشية من الشهادة؟ ٢٠٥
جدوى الذم واللوم ٢٠٧
القسم الثاني: يقظة العدو وسبات النصير ٢٠٩

عوامل أُخرى للضعف والهزيمة ٢١١
القسم الثالث: الانفراد في مجابهة العدو ٢١٣
العزم النهائى للزعيم الشجاع ٢١٦
القسم الرابع: حقي عليكم وحقكم علي ٢١٩
تأمّلان........ ٢٢٣
١ـ الحقوق المتبادلة للإمام والأُمّة........ ٢٢٣
٢ـ تعارض الحق والمصلحة!........ ٢٢٤

الخطبة الخامسة و الثلاثون

نظرة إلى الخطبة: نتيجة العصيان ٢٢٨
تأمّلان........ ٢٣٢
١ـ قصة التحكيم........ ٢٣٢
٢ـ الاستفادة من آراء الآخرين ٢٣٣

الخطبة السادسة و الثلاثون

نظرة إلىٰ الخطبة ٢٣٥
إتمام الحجة علىٰ الخوارج........ ٢٣٦
قصة التحكيم ثم ظهور أمر الخوارج ٢٣٨

الخطبة السابعة و الثلاثون

نظرة إلىٰ الخطبة ٢٤١
القسم الأول: الصمود أمام العواصف ٢٤٣
القسم الثاني: القوي عندي ضعيف........ ٢٤٧
نصرة المظلوم ومجابهة الظالم ٢٤٨
القسم الثالث: أول من أسلم ٢٥١
عهد رسول الله ﷺ لعلي ؑ ٢٥٣

الخطبة الثامنة والثالثون

نظرة إلىٰ الخطبة........ ٢٥٥
النجاة من الشبهة ٢٥٧
تأثير الشبهة في تحريف الحقائق........ ٢٥٩

عبثية الخوف من الموت ٢٦٠

الخطبة التاسعة والثلاثون

نظرة إلى الخطبة ٢٦٣
أمر النعمان بن بشير مع عليّ ومالك بن كعب الأرحبيّ ٢٦٣
القسم الأول: سكوت الإمام عليه السلام ٢٦٥
القسم الثاني: الضعف أمام العدو ٢٦٩
عاقبة الضعف أمام العدو ٢٧٠
سؤال ٢٧١

الخطبة الاربعون

نظرة إلى الخطبة ٢٧٣
تأمّلان ٢٧٩
١ ـ بلاء التحريف ٢٧٩
٢ ـ ضرورة تشكيل الحكومة ٢٨٠
خطأ إبن أبي الحديد ٢٨٢

الخطبة الحادية والاربعون

نظرة إلى الخطبة ٢٨٥
السياسة الإلهية والشيطانية ٢٩٠

الخطبة الثانية والاربعون

نظرة إلى الخطبة ٢٩٣
القسم الأول ٢٩٥
القسم الثاني ٢٩٧
الموت يعني إغلاق صحيفة الأعمال ٢٩٩

الخطبة الثالثة الاربعون

نظرة إلى الخطبة ٣٠١
القسم الأول: رجل الحرب والسلام ٣٠٣
الهدف من الدعوة إلى الصلح والبيعة ٣٠٤
القسم الثاني ٣٠٧

أعمال عثمان وأسباب قتله........ ٣٠٨

الخطبة الرابعة والاربعون

قصة الخريّت بن راشد الناجيّ وخروجه على عليّ عليه السلام........ ٣١١
فرار العبيد........ ٣١٣
تأمّلان........ ٣١٤
١ ـ من بين الأسئلة التي تطرح بشأن هذه الخطبة........ ٣١٤
٢ ـ فلسفة الحزم........ ٣١٦

الخطبة الخامسة والأربعون

نظرة إلى الخطبة........ ٣١٧
القسم الأول: الرحمة اللامتناهية........ ٣١٩
القسم الثاني: الدنيا دار المنى........ ٣٢١
الكفاف والعفاف........ ٣٢٢

الخطبة السادسة والاربعون

نظرة إلى الخطبة........ ٣٢٥
الاستعاذة بالله من وعثاء السفر........ ٣٢٧
فلسفة الدعاء........ ٣٢٨

الخطبة السابعة والاربعون

نظرة إلى الخطبة........ ٣٣١
نبوءة عن مستقبل الكوفة........ ٣٣٣
رأيان في الكوفة........ ٣٣٤

الخطبة الثامنة والاربعون

نظرة إلى الخطبة........ ٣٣٧
القسم الأول:استحقاق الله للحمد والثناء........ ٣٣٩
القسم الثاني: تعبئة القوى لمواجهة العدو........ ٣٤١

أخبار عليّ عليه السلام في جيشه وهو في طريقه إلى صفين ٣٤٢
نزول عليّ بكربلاء ٣٤٥

الخطبة التاسعة والاربعون

نظرة إلى الخطبة ٣٤٧
المنزه عن الظن والخيال ٣٤٩
وجوده ظاهر وكنه ذاته خفي ٣٥٢

الخطبة الخمسون

نظرة إلى الخطبة ٣٥٥
تأمّلان ٣٥٩
١ ـ أساس الفتن ٣٥٩
٢ ـ السياسات الشيطانية ٣٦٠

الخطبة الحادية والخمسون

نظرة إلى الخطبة ٣٦٣
أقبروا هذه الفتنة الخبيثة ٣٦٥
تأمّلات ٣٦٨
١ ـ ضرورة العيش في ظل العزة والكرامة ٣٦٨
٢ ـ غسل أدمغة المغفلين ٣٦٩
٣ ـ المروءة والشهامة ٣٧٠

الخطبة الثانية والخمسون

نظرة إلى الخطبة ٣٧١
القسم الأول: الدنيا الغرور ٣٧٥
القسم الثاني: السعي القليل وإن كثر ٣٧٧
القسم الثالث: عظمة وسعة النعم الإلهية ٣٧٩

الخطبة الثالثة والخمسون

تمام الأُضحية ٣٨١
عِليّة سلامة الأُضحية من النقص والعيب ٣٨٢

الخطبة الرابعة والخمسون

نظرة إلىٰ الخطبة ٣٨٣
ليس هنالك سوىٰ القتال ٣٨٥
تأمّلان ٣٨٧
١ ـ البيعة الفريدة للإمام عليه السلام ٣٨٧
٢ ـ الحرب والسلام، والكفر والإيمان ٣٨٧

الخطبة الخامسة والخمسون

نظرة إلىٰ الخطبة ٣٨٩
تماسك الإمام عليه السلام حيال القتال ٣٩١

الخطبة السادسة والخمسون

نظرة إلىٰ الخطبة ٣٩٥
الوقوف المشرف إلىٰ جانب رسول الله صلى الله عليه وآله ٣٩٧
تأمّلان ٤٠٠
١ ـ ثاني فتن البصرة ٤٠٠
٢ ـ خصائص المسلمين الاوائل ٤٠٣

الخطبة السابعة والخمسون

نظرة إلىٰ الخطبة ٤٠٥
إحذروا العدو ٤٠٧
تأمّلات ٤١١
١ ـ علة عدم ذكر الإمام عليه السلام للشخص المقصود بالخطبة ٤١١
٢ ـ لماذا حكم الإمام عليه السلام بهدر دم معاوية؟ ٤١١

٣ـ تأريخ سب الإمام علي عليه السلام ٤١٣
٤ ـ التقية وسيلة دفاعية ٤١٤

الخطبة الثامنة والخمسون

نظرة إلى الخطبة ٤١٧
فضاعة مظلومية الإمام عليه السلام ٤١٩

الخطبة التاسعة والخمسون

هل من سبيل لعلم الغيب ٤٢١

الخطبة الستون

مصير الخوارج ٤٢٣
تأمّلان ٤٢٤
١ ـ الخوارج ظاهرة لافرقة ٤٢٤
٢ ـ الخوارج لصوصا سلابين ٤٢٦

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ١٠٠٥٣
التاريخ ٢٠٠٥/١٠/١

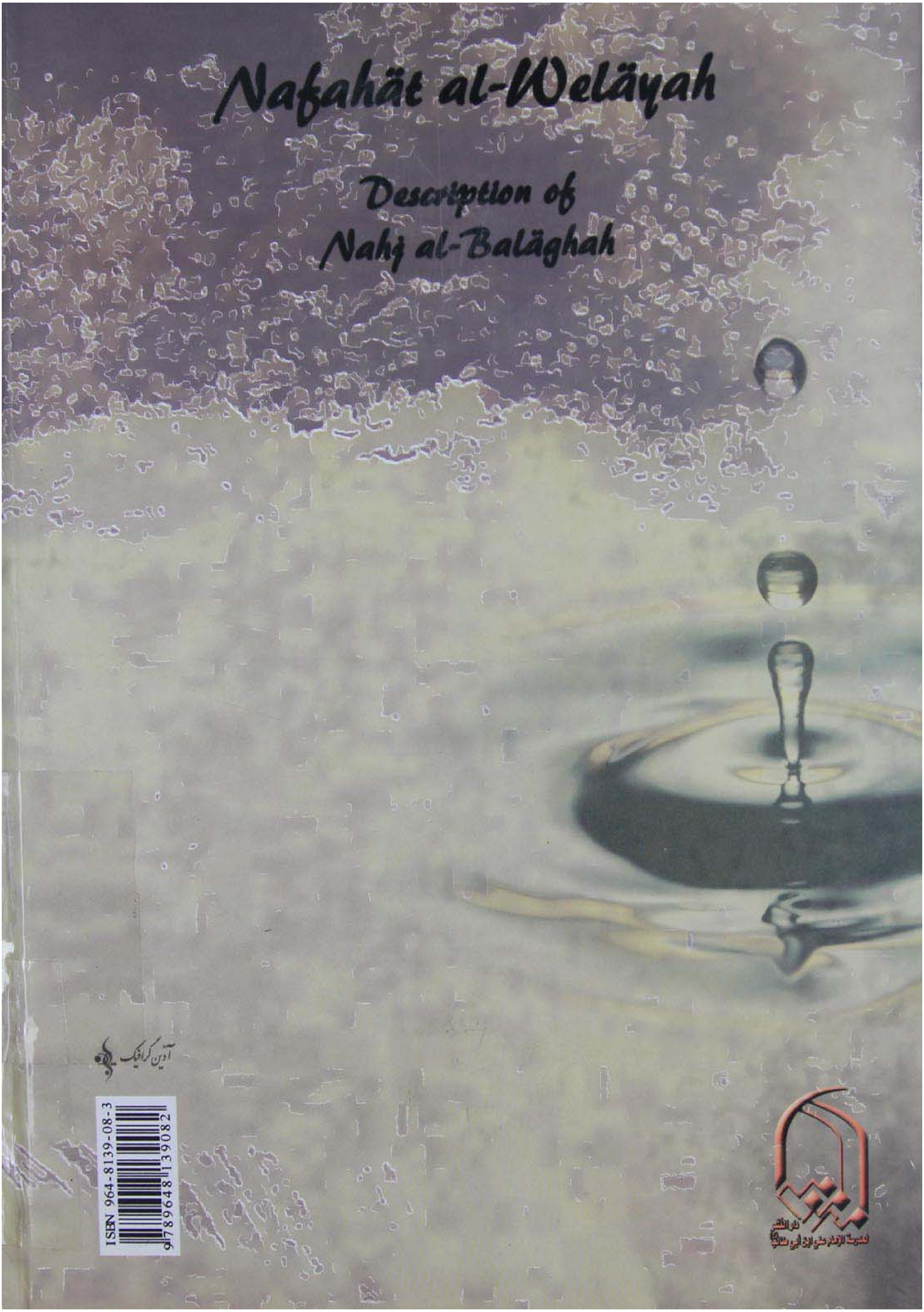

Nafahät al-Weläyah

Description of Nahj al-Baläghah

آدین گرافیک

ISBN 964-8139-08-3
9789648139082